الصوفية

في إلهامهم

تأليف الأستاذ

حسن كامل الملطاوي

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى من علينا بالايمان ، وكره الينا الكفر والفسوق والعصيان ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد امام الأولين والآخرين ، علمه ربه فأتقن تعليمه ، وأدبه فأحسن تأديبه ، وطهر بنفحاته القدسية قلبه ، وزكى بأنواره الربانية روحه ، وأنزل عليه القرآن الكريم ، وأمره أن يبلغه للناس ، ويبين معانيه ، فصدع بالأمر غير عابىء بما لقى من الحروب والكروب والشدائد ، مجاهدا فى الله حق جهاده ، حتى علت فى الارض كلمة الله ، ثابتة الدعائم ، قوية الأركان .

ثم قيض له سبحانه من يحفظها من بعده ، فرزقه من عطائه أكرم ذرية ، وطهرهم من الرجس تطهيرا ، كما رزقه خير أصحاب ، صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وجعل من هؤلاء وأولئك أعظم أئمة ، فى هذه الأمة ، ليقتدى بهم من أراد أن يتخذ الى ربه سبيلا ، وجعل تعالى من هؤلاء المقتدين أئمة من كل جيل ، روادا للحق ، ورائدين للسالكين ، حتى يبقى نور الايمان وضاء فى القلوب ، ليتم ما أراده الله من أن تكون هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس ، كما نطقت آيات الله البينات .

وأئمة الهدى هؤلاء ، أهل سعادة فى سوابق الأزل ، أحبهم الله فأحبوه ، آثارهم وآثروه ، ونصروه فنصرهم ، فهموا عنه ، وجاهدوا فيه وأقبلوا اليه بكلياتهم وجزئياتهم ، فى سرهم وجهرهم ، فأنسوا به ، واستوحشوا مما سواه ، وافتقروا لاحسانه اختيارا ، فملأهم أسرارا .
وقد اصطلح فى القرن الثانى الهجرى على أن يلقب هؤلاء الخواص بلقب ((الصوفية)) وهم كما وصفهم الله فى قوله الكريم (واصبر نفسك

مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا) .

ويتكلم عنهم فى التفصيل امام منهم ، من ائمة القرن الرابع الهجرى ، هو الامام أبو بكر الكلاباذى فيقول :

((سبقت لهم من الله الحسنى ، والزمهم كلمة التقوى ، وعزف بنفوسهم عن الدنيا ، صدقت مجاهداتهم فنالوا علوم الدراسة ، وخلصت عليها معاملاتهم فمنحوا علوم الوراثة ، وصفت سرائرهم فأكرموا بصدق الفراسة ، ثبتت أقدامهم وزكت أفهامهم وأنارت اعلامهم .

فهموا عن الله وساروا الى الله ، وأعرضوا عما سوى الله ، خرقت الحجب أنوارهم ، وجالت حول العرش أسرارهم ، وعميت عما دون العرش أبصارهم ، فهم أجسام روحانيون ، وفى الأرض سماويون ، سكوت نظار ، غيب حضار ، ملوك تحت أطمار أنزاع قبائل وأصحاب فضائل ، وأنوار دلائل ، آذانهم واعية ، ونعوتهم خافية ، ونفوسهم صافية ، صفوية صوفية ، نورية صفية ، ودائع الله بين خليقته وصفوته فى بريته ووصاياه لنبيه ، وخفاياه عند صفيه ، هم فى حياته صلى الله عليه وسلم أهل صفته ، وبعد وفاته ، خيار أمته ، لم يزل يدعوا الأول الثانى والسابق التالى بلسان فعله أغناه ذلك عن قوله)) .

وعن هؤلاء الصوفية ، تتكلم المقالات التى يحويها هذا الكتاب وقد تفضل المجلس الأعلى للشئون الأسلامية ، فنشرها مسلسة فى مجلة ((منبر الاسلام)) الغراء ، ثم تفضل فطبعها فى هذا الكتاب مجموعة بين دفتيه ، لتيسير الاطلاع عليها جملة ، فأضاف فضلا لاحقا الى فضل سابق ، وللمجلس الموقر فى ذلك فضل البداية ، وعلى دوام الشكر والثناء .

حسن كامل الملطاوى

تفويض الأمور لله تعالى والرضا بقضائه

- ١ -

شاء الله سبحانه ، وهو الفعال لما يشاء أن أعرف فى نشأتى ، مصادفة رجلين من أعلام التصوف فى عصرنا ، فنهلت من مردهما الصافى المروق أصفى المشارب وأحلاها ، وقد فقدتهما واحدا بعد واحد ، وسبحان الحى الذى لا يموت ، فأصبحت أطوى ضلوعى على ذكرياتهما الحلوة ، فآنس بهما ، وأحمد الله على صحبتهما لأنى أعتبر تلك الصحبة أعظم حدث سعدت به فى حياتى ، كيف وقد دلانى على الله ، وربيانى فى طاعته تعالى ، وهى السعادة الحقة .

واحتفظ للعارف الأكبر منهما برسائل قليلة ، لكنها تضمنت نصائح روحية من الهام نفس زكية بارة تقية .

واحتفظ للثانى بحكم صوفية شعرية ، كان ينطق بها الهاما لوقته ، وكنا نكتب منها ما تيسرت لنا كتابته حتى تكاملت لدينا مجموعة مباركة من الحكم ، يفاخر بها صوفية زماننا عصور الصوفية الزاهرة .

أما أول الرجلين فهو العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى وهو أستاذى الذى بايعته على تربيتى فى السلوك الى الله ، وقد انتقل الى دار الرضوان فى ١٠ اكتوبر سنة ١٩٤٤ .

وأما ثانى الرجلين فتلميذه الاول العارف بالله سيدى الشيخ على عقل ، الذى عاون فى ثقافتى الدينية وتربيتى الصوفية بأمر أستاذه وقد انتقل الى الرضوان فى ٢٤ مارس سنة ١٩٤٨ .

وهما من صالحى خلفاء العارف بالله ، قطب زمانه ، ومجدد قرنه ، سيدى الشيخ محمد أبو خليل ، الحسينى نسبا ، الشافعى مذهبا ، ساكن ضريحه الأنوار بالزقازيق ، وصاحب الطريقة الخليلية التى انتشرت فى البلاد شرقا وغربا ، وقد انتقل الى رضوان الله فى يونية سنة ١٩٢٠ .

وسأعطى أخى القارىء الكريم فى هذه العجالة نماذج من تلك الحكم والنصائح النثرية والشعرية وهى تفصح بأسلوبها عما كان يتحلى به الأمامان من معرفة وصفاء ، وعلم وحكمة ، وأدب كامل فى الدين .

فمما نصحنى به أستاذى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى ، طيب الله ثراه ، فى أحدى رسائله (وكان حينئذ بالأسكندرية وكنت يالقاهرة) قوله :

((أما عن الدنيا وما فيها ومن فيها ، فدعها بما فيها لمن يدبرها فيوفيها وفيها ما فيها ، لأنك ان دبرت وصح التدبير ، وهو مطلوب شرعا ، فلا تدرى كيف قضى فيه ، فان صح القضاء بالرضا فهو القضاء ، وان حصل الجفاء سألناه اللطف فى القضاء ، مع الرضا على أنه الرضا)) .

وها أنت تراها نصيحة غالية ، تعلم المؤمن الرضا بمواقع المقدور ، وهو عند الصوفية أساس من أسس تعاليمهم ، التى يبنون عليها تربية القلوب فى جنب علام الغيوب ، حتى انهم قالوا : الرضا بمواقع القدر نعم الوسيلة الى درجات المعرفة .

وقد آثر عن القطب الكبير سيدى القادر الجيلانى (من أغلام القرن السادس الهجرى) أنه كان يقول فى هذا المقام :

لا الأمر أمرى ولا التدبير تدبيرى
ولا الأمور التى تجرى بتقديرى
لى خالق رازق ما يشاء يفعل بى
أحاط بى علمه من فبل تصويرى

واذا نظرت فى أقوال أئمتنا المجتهدين ، الذين عقدت الأمة لهم ألوية الأمامة فى الدين ، أخذت عنهم هذا المشرب كذلك ، لأن السادة الصوفية لم يبتدعوا شيئا فى الدين ، بل هم أخذوا منه بالعزائم دون الرخص والتأويلات ، وأقبلوا على الله بكلياتهم وجزئياتهم ، فسمت مذاقاتهم ، حتى ظن العوام أنهم غالوا فى الدين ، ونأوا عن الصراط المستقيم ، وحاشاهم أن يفعلوا ذلك وهم يتمسكون بالكتاب والسنة ، ويتأسون بمولانا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى الاقوال والأفعال

والأحوال وانما الجديد هو أنهم وضعوا آداب القلوب فى سلوكها الى الله فى قالب علم ، عرف بعلم ((التصوف)) ولقب أهلوه بلقب ((الصوفية)) وقيل للمتشبهين بهم ((المتصوفة)) ، وذلك شبيه بما وقع فى شأن العلوم الأخرى التى نشأت فى صدر الاسلام ، فقد وضعت مثلا قواعد اللغة العربية فى قالب علم عرف بعلم النحو ، ووضعت أحكام الشريعة فى قالب علم عرف بعلم الفقه ، ولا يقال ان النحويين أتوا بلغة جديدة ، أو ان الفقهاء أتوا بشرع جديد .

هذا ومن تسليم الامام مالك ورضاه بقدر الله أنه – رضى الله عنه – كتم أمر مرضه بسلس البول عن تلاميذه ومحبيه أعواما طوالا ، فلم يعرفوا أن تلك العلة كانت السبب فى تخلفه عن الذهاب للحرم النبوى كعادته ، وجلس للتدريس فى منزله ، ولما علموها آخر حياته سألوه ولماذا لم تخبرنا بذلك يا امامنا فقال : أأشكوا خالقى لعباده ؟ .

كما أن الامام الشافعى – رضى الله عنه – يقول فى توحيد خالص لله تعالى ، وفى رد الأمور لمشيئته سبحانه :

وما شئت كان وان لم أشأ
وما شئت ان لم يشأ لم يكن
خلقت العباد على ما علمت
ففى العلم يجرى الفتى والمسن
على ذا مننت وهذا خذلت
وهذا أعنت وذا لم تعن
فمنهم شقى ومنهم سعيد
ومنهم قبيح ومنهم حسن

فاذا نحن قارنا أحوالنا بأحوال هؤلاء الصالحين ، وجدنا الفرق واضحا وكبيرا ، فنحن نضجر بمواقع القدر وهم يسلمون ، ونحن نشكو وهم يشكرون ، ذلك بأننا نجهل الحقيقة وهم يعلمون ، ونضعف فى ايماننا وهم يوقنون .

أما عن الحكم الشعرية ، فانى ناقل لاخوانى مثلا رائعا منها لاستاذى العارف بالله الشيخ على عقل ، فقد كان . رضى الله عنه . ينشد

شعره على مجلس الذكر الهاما وارتجالا لوقته دون روية أو اعمال فكر ، وكان ينشده ليشد عزائم الذاكرين ، فكان فيما قال وكتبناه عنه :

حوالى فضل الله من كل جانب

عزيز غزير جاره اليوم واصل

فأردت أن أبين للسامعين الذين لم يقفوا من قبل على حاله النورانى أن هذا من الهامه الفورى وليس شعرا مؤلفا على روية وتفكير ، أو محفوظا من قديم ،

فقلت لسيدى الاستاذ . . حوالى مرة أخرى ياسيدى الشيخ ، وكنت أثيرا عنده ، فقال عفا الله عنه :

حوالى نور العلم يسكن جبهتى

أسالم أيامى وما أنا جاهل

فقلت : حوالى مرة أخرى من فضل الشيخ ، فقال :

حوالى نور المصطفى وأنا به

أموت وأحيا انه لى مناهل

فقلت : حوالى ايضا لو سمحت ياسيدى (وكنت قد رأيت انتباها شديدا من السامعين) فقال :

حوالى ايناس من الله وحده

وما لعبت يوما بعقلى الشواغل

فقلت أريدها والله مرة أخرى اكراما لذكرى مولانا الامام الحسين – رضى الله عنه – (وكانت الحفلة مقامة فى مناسة ذكرى مولده المبارك) فقال قدس الله سره :

حوالى اشراق من الشرع ثابت

وشمس التجلى ما عليها حوائل

وعندئذ هب الجمع على كثرتهم وقوفا ، وصفقوا طويلا ، وصاحوا صيحة الاعجاب ، ولا أقول بعد الذى جاء فى الشطر الاخير من البيت الأخير ، الا ما قاله الله تعالى (الا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم) .

تربية النفس في جنب الله تعالى

- ٢ -

قدمت لاخوانى القراء الأعزاء فى صفحاتى السابقة نماذج مما أحتفظ به من حكم ملهمة - نثرية وشعرية للامامين الصوفين المعاصرين ، العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى وسيدى الشيخ على عقل ، قدس الله سرهما - وهما اللذان توليا تربيتى الدينية في الطريقة الخليلية لصاحبهما الامام العظيم والقطب الكبير سيدى الشيخ محمد أبو خليل رضى الله عنه - ساكن ضريحه المشرق بالزقازيق ، وذلك على مشرب السادة الصوفية - وهو أصفى مشرب للواردين الظامئين فى هجرتهم الى الله رب العالمين ، ذلك المشرب الذي يصفه الامام الغزالى رضى الله عنه بقوله :

((علمت يقينا أن الصوفية هم السابقون لطريق الله خاصة ، وان سيرتهم أحسن السير ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق ، بل لو جمع عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئا من سيرهم واخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا اليه سبيلا ، فان جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به ٠وبالجملة فماذا يقول القائلون فى طريقة أولها استغراق القلب بالكلية بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية فى الله ، وما قبل ذلك كالدهليز للسالك)) ٠

وأقدم اليوم جديدا من تلك الحكم الصادرة من قلوب زكية ، امتلأت بحب الله واستضاءت بنور رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

كتب لى استاذى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه فى رسالة بعث بها من الاسكندرية :

((ان استعراض النفوس يحير الألباب ، ويفتح بابا وراءه ألف حجاب لا يعلم ما وراءها الا واهب الألباب طريق الصواب ، فان كشف الحجاب لبعض الأحباب ، رأى تدبير القادر الحكيم وقال ((يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم)) ٠

والمتأمل فى حكمة استاذى هذه يدرك أهمية النفس فى صلة العبد بربه ، فهى رأس مال الانسان فان نسى ربه أنساه الله نفسه ، فغفل عن النظر اليها ، ففقد رأس ماله ، وكان عاقبة أمره خسرا ، وان خاف مقام ربه فنهى النفس عن هواها ، وعنى بها فزكاها ، انكشف له حجاب الغفلة وأشرقت عليه شمس الحقيقة ، فرأى بنور اليقين الذى يهبه الله لأحبابه الذين قال فيهم (يحبهم ويحبونه) – ان القلب السليم هو خير ما يلقى به العبد ربه يوم القيامة ، ولا يكون القلب سليما الا اذا سلم من آفة الشرك المميته ، ومن ظلمات الغفلة المعوقة ٠

وقد بين القرآن الكريم أنواع النفوس التى تصاحب الناس ، فهناك نفس أمارة ، ونفس لوامة ، ونفس ملهمة ، ونفس مطمئنة ، فقال فى الأولى (ان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربى) وقال فى الثانية (لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة) وقال فى الثالثة (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها) وفى الرابعة (يأيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية) ونالت النفس المطمئنة بذلك الشرف كل الشرف اذ خاطبها رب العزة ثم أرجعها الى حظيرة قدسية راضية ثم كان جزاؤها (فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى) ٠

والايمان علم وعمل يزيد وينقص ، وحجب الغفلة كثيرة وكثيفة عبر عنها سيدى الشيخ بأنها ((ألف حجاب)) فان جاهد المؤمن نفسه وهواه بالطاعة والذكر والأخذ عن العرفين والتقلب فى الصالحين ، تبددت حجب الغفلة ، وظلمات الهوى ، فانفتحت عين البصيرة فقرأ المؤمن بها فى صفحات الخلود قوله تعالى (يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم) فاهتدى الى طريق الصواب فآثر الله تعالى على هواه وعلى كل ما سواه ، وهذا هو الملك الحقيقى وليس ملك العروش الزائلة ، وفى

ذلــك يقــول اســتاذى العــارف بــالله ســيدى الشــيخ علــى عقــل فــى اشــراقاته الملهمة :

عرش كسرى تغنى عنه كسره
ما وقى الملك من الموت أجل
ليس من ورث عرشا ملكا
أو على الملك تفانى واتكل
انما الملك الذى حد الهوى
وعن اللهو تناءى وعدل
وحياة قد خلا سلطانها
من تقى الله قصارها الفشل
ليس عندى أى مال انما
كل مالى فيه علم وعمل
ان عيدى يوم القاه فما
لى عيد غير وجه الله جل
شهدت روحى حمياه وقد
لاح لى نور المحيا واتصل
ايه يادنيا افعلى ما شئته
ان شمس الحشر أدنى من زحل
عن مغانيك بشير اكتفى
وعن البحر اجتزاء بالوشل

ولا يســتطيع المــؤمن أن يزيــد ايمانــه الا بمعاشــرة أهــل اليقــين ، ولــذلك جــاء فــى الحــديث الشــريف ((أى جالســوا أهــل اليقــين وقــد نصحنى استاذى فقال لى فى رسالة أخرى .

وكـن مـع أهـل الحقيقـة وابحـث عـنهم بحـث الباحـث عـن حـق يرجـع اليـه لنفسه فقط .

ولا عجب فان أهل الحقيقة جاهدوا فى الله حق جهاده حتى فنوا عن أنفسهم بربهم فحيوا وأحيوا غيرهم اذ استخلفهم الله فى الأرض فصاروا أطباء النفوس بما آتاهم من فضله ورحمته فداو نفسك يا أخى بدوائهم وغذها بغذائهم تصح كما صحوا (اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون) ويرحم الله أمير الشعراء شوقى اذ يقول :

أساة جسمك شتى حين تطلبهم
فمن لروحك بالنطس المداوينا

ولله در الأمام البوصيرى حين يوجهنا الى ضرورة العناية بالنفس فى قوله :

والنفس كالطفل ان تهمله شب على
حب الرضاع وان تفطمه ينفطم
فراعها وهى فى الأعمال سائمة
وان هى استحلت المرعى فلا تسم
كم حسنت لذة للمرء قاتلة
من حيث لم يدر أن السم فى الدسم

ويبدى استاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل انه انما عاين آيات اليقين بعد أن قتل هوى نفسه فيقول فى الهامه الممتع :

قتلت هوى نفسى فعشت بلا نفس
وجافيت انسى فانحدرت الى الأنس
ولم أبد أمرى للعباد فطالما
كتمت الذى القى عن الجن والانس
وأدركت بالوجدان سر أحبتى
وعاينت آيات اليقين بلا لبس
وعشت زمانى لست أحفل بالورى
وكيف وقلبى هام فى مشهد القدس

تعشقت نـور الله وهـو بصـيرتى

وقـد وضـح البرهان من آية الكرسى

ومـا اتخـذت روحـى سوى الله غـاية

فتـم الهـدى للروح والقلب والحس

وان شـرب الـناس الطـلا وتصببوا

فسـنة خـير الخـلق فى شربها كأسى

وعلـمت غيرى ما أفدت من الهدى

فـلم يبـق ذو فهم لدى على طمس

ولـم أعشـق الدنـيا فتلك مجازة

تهـيئ للأخـرى وفـى فوتها عرسى

وأتـرك لأخـى القـارئ الكـريم ، أن يـذوق حـلاوة هـذا الالهـام المتـدفق ، مـذاق المـؤمن الـذى يحـذر الآخـرة ويرجـو رحمـة ربـه ، (قـل هـل يسـتوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر أولو الألباب) .

ويتعـرض السـادة الصـوفية فـى جهـاد أنفسـهم لسـخرية النـاس الـذين لا يعقلـون ، ولكـنهم لا يعبـأون بسـخرية النـاس أو ملامـتهم ، وقـد تعـرض لهـا الأنبيـاء والمرسـلون مـن قـبلهم فلـم يحفلـوا بهـا ، ذلـك بـان محـب لله لا ينثنـى عـن حبـه ، مهمـا لاقـى فـى سـبيل الحـب ، وأى حـب هـو ، انـه حـب الله ، الـذى لـيس كمثلـه شـئ ، ولاشـئ قبلـه ، ولا شـئ بعـده ، ومبـدؤنا منـه ومنتهانـا اليه سبحانه .

ولهـذا يقـول أسـتاذى العـارف بـالله سـيدى الشـيخ علـى عقـل فـى الهاماته :

انـا محـبوه آثـرنا الحـياة لـه

فـلا نـلام علـى احياء تقـواه

ان كـان حبـى جنـونا بئسمـا

يـارب زدنـى جنـونا أنت منـحاه

قالوا اتخذ لك جاها تستعين به
قلت اتخذت فكفوا حسبى الله

ويقول أيضا رضى الله عنه :

لا تحارب بالعذل قلب محب
عالج الشوق عمره ولهانا
وتلطف به فقد حكم الشوق
عليه فلن يفيق جنانا
اعذرونى أو اعذلونى فانى
لست أخشى الملام من حيث كانا
انما اللوم فى المحبة عندى
لا يزيد المحب الا افتتانا
جرب الحب مثلما جرب العاشق
تلق الملام يذكى هوانا
قد راضينا بالله لا بسواه
ما لقينا لما رضيناه هوانا
قد تناءيت عن سواه بكلى
و تلقيت سره احسانا

و قريب من كلام أستاذى قول الشهيد الحلاج رضى الله عنه :

يالائمى فى هواه كم تلوم فلو
عانيت منه الذى عانيت لم تلم

ويبدو لى – فى غير تعصب – ان كلام أ ستاذى فى دفع الملامة أقوى من كلام الشهيد الحلاج رضى الله ، وان كان الشهيد الحلاج رضى الله عنه يقول بعد ذلك فى روعة صوفية ظاهرة :

للناس حج ولى حج الى سكنى
تهدى الأضاحى وأهدى مهجتى و دمى
يطوف بالبيت قوم لا بجارحة
بالله طافوا فأغناهم عن الحرم

واذا كان أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل لا يحفل باللائمين وانما يدعوهم للتجربة ليشهدوا بأنفسهم أن الملامة تذكى الهوى وتلهبه فليس عجيبا أن يصف حاله فى حب الله بقوله

وقفت على نجوى الاله جوانحى
لذلك قلبى منزل كله ذكر
وأخليت قلبى من مناجاة غيره
فأصبح طودا لا يزلزله الغير
أسارع مشتاقا وأسكت هائما
وأنطق اجلالا وما عاقنى سير
ففى صحوتى شوق وفى غفوتى هوى
وفى مشيتى علم وفى وقفتى سر

ألا رحم الله الصالحين من السلف والخلف ، ورزقنا تقواه وهداه ، وجمل قلوبنا بالحكمة لنكون ممن قال تعالى فيهم :
(يؤتى الحمكة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الالباب) .

الذكر . الشكر . الرضا . العلم بالله

. ٣ .

((و تقلب فى الذاكرين ، وكن معهم ذاكرا شاكرا ، ولا يهمك أمر الدنيا ، فان السعة هى الرضا ، وقل رب زدنى علما)) .

وهذه حكمة أخرى من الحكم التى كتب بها الى من الهامه أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى طيب الله ثراه وهى تتناول فى التربية الصوفية أربعة أسس : الذكر ، و الشكر ، و الرضا ، و العلم .

أما عن ذكر الله ، فانه اذا أطلق على عمومه ، شمل كل قول أو فعل أريد به وجه الله تعالى فيدخل فى ذكر الله أداء العبادات المفروضة على وجهها الصحيح ، و تلاوة القرآن الكريم ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، و تحصيل العلوم اللازمة لذلك ، و الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، وافتاء الناس فى الحلال والمواريث ، والجهاد بالنفس والمال فى سبيل الله ، والتسبيح ، والتهليل ، والتكبير ، والتلبية . . الخ .

أما ذكر الله على التخصيص ، فيقصد به ذكره تعالى باسمائه الحسنى جماعة أو فرادى ، بالسان والقلب ، وهو من فضائل الأعمال ، وثمراته دانية ، دلت عليها التجربة العلمية ، ورواد التجربة صوفية كل عنصر ، والتقلب فيهم يكسب المؤمن محبة الله تعالى محبة خاصة ، يؤثر بها ربه عما سواه ، كما آثر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد سجل الله تعالى لهم ايثارهم فى أروع صورة فى مثل قوله الكريم (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر ، يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو أخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا ان حزب الله هم المفلحون) وقوله تعالى : (فى بيوت أذن الله ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو

والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة) .

وبين أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه آثار ذكر الله فى تربية الروح فى أقوال كثيرة ، فمن الهامه فى هذا المجال قوله :

رضينا بما يرضيك أنت منانا
وان نطلب اللقيا فأنت علانا
وكل فؤاد غافل عنك صخرة
ولكنه ان ذاق ذكرك لانا
ونفس هوت فى الغى من بدء أمرها
اذا ذكرت يوما تنال أمانا
وبالذكر كانت أرض تبر لأهلها
وبالذكر تكسى عزة وحنانا
ومن يذكر الرحمن بالقلب صادقا
علا فوق أعناق الملوك مكانا
ورب فتى فى الناس رثت ثيابه
ولكنه ساد الضحى لمعانا
اذا كنت تهوى الله نلت مكانة
وان كنت تهوى الناس نلت هوانا
وروحى تستغنى عن الناس باسمه
وقلبى تدانى بالهوى وتفانى
ونحن قلوب طهر الله أصلها
ورب السما بالمكرمات كسانا
ولم نتكلم انما فاض حبنا
شهودا فأرسلنا العلوم بيتانا
الا أيها اللاحى تجرع كؤوسنا
لتصبح منا ان سقيت سقانا

وتعرف عنا ودنا وغرامنا
وتدرك منا علمنا وهوانا
تجلت لنا الأنوار من عالم البقا
فهامت بها أرواحنا ونهانا
فنينا بها حبا فطابت حياتنا
رأينا بها عند الفناء بقانا

وهكذا كشف لنا سيدى الأستاذ عن منازلات الذاكرين وأحوالهم ومقاماتهم ، ويتوجها جميعا مقام الفناء فى الله ، وهو عين البقاء والخلود ، ويعبر عنه الشهيد الحلاج رضى الله عنه بأنه الحياة فى قوله :

اقتلونى يا ثقاتى
ان فى قتلى حياتى
وحياتى فى مماتى
ومماتى فى حياتى
أنا عندى محو ذاتى
من أجل المكرمات
وبقائى فى صفاتى
من قبيح السيئات

ويعبر عنه القطب الكبير سيدى ابراهيم الدسوقى بقوله فى مناجاة ربه : وخذنى اليك منى ، وارزقنى الفناء عنى ، ولا تجعلنى مفتونا بنفسى ، محجوبا بحسى ، واكشف لى عن كل سر مكتوم ، يا حى يا قيوم .

ولا يتسع هذا المقال لتفصيل أكثر عن ذكر الله وأثره فى جمع القلوب على الله ، وقد تغنى الاشارة عن العبارة ، فقد قال العارفون بحق :

الذكر منشور الولاية ، وسلم الهداية ، وصلاح المريدين ، ورأس مال كل عارف ، وشجرة المعارف .

وكفى شرفا للذاكرين قول الله تعالى : (فاذكرونى أذكركم)) وقوله تعالى فى الحديث القدسى : ((أنا جليس من ذكرنى) وقد كان مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يجلس ولا يقوم الا على ذكر الله تعالى .

أما شكر الله فهو دعائم الايمان القوية كما أنه مظهر من مظاهر حبه سبحانه ويكون شكره باللسان ، والأركان ، والجنان .

أما شكر اللسان فالتحدث بالنعمة بنية الشكر واظهار الفضل .

((وأما بنعمة فحدث)) فلا يتحدث المؤمن افتخارا ولا تزكية لنفسه .

والشكر بالاركان يكون باداء العبادات المفروضة ((اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور)) ،

أما الشكر بالجنان فهو أن يعتقد المؤمن ويحس بقلبه أن النعم التى يتقلب فيها ظاهرة وباطنة من احسانه تعالى ومحض جوده سبحانه لا الزام عليه فيها) وما بكم من نعمة فمن الله) .

ومن الهام أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل فى رد الفضل لله تعالى قوله :

وزمانى يقول لى
لا تفتخر بقوة
كل من عاش ذاهب
أى فخر لميت
و حبيبى يقول لى
سر لبابى بخشية
وفؤادى يقول لى
احفظ أصول المودة
يا فؤادى اذا بدا
فضل مولانا فاثبت
ذكر مولاى مقصدى
عز مولاى منعتى
حكمة الله ملجئى
وتقى الله رفعتى

أنا صاف مهذب
ذائق كل رحمة
بالهدى صاننى وقد
بعت نفسى برغبتى
بين عز وحكمة
أكمل الل نعمتى

ومن الهامه كذلك :

سألت فوفانى رجوت فزدانى
وان كريم الكف ما خاب سائله
أحن على ذل وأهوى على هدى
وأسرى على علم بقلبى أواصله
وهل يدرك الآيات الا رجالها
وهل يعرف الوجدان الا مزاوله
وذو المجد لا يغضى عن الحب لحظة
به عاش حتى لو أصيبت مقاتله
فقل للذى لم يشهد الحق لا تحد
عن الحق ان الحق قد خاب جاهله

أما الرضا فيقول عنه سيدى الشيخ ((ولا يهمك أمر الدنيا فان السعة هى الرضا)) والرضا هو السعة حقا كما جربنا ، فبغير الرضا يضيق الفسيح فى الدنيا ، وكم كبير مات وكانت الدنيا تضيق عن نفسه ، فأضحى تسعة حفرة من رمسه ، وما أكثر العبر ةأقل الاعتبار .

عبر كلها الحياة ولكن
أين من يفتح الكتاب ويقرا

أما الصادقون فقد ابتلوا فى الدنيا بأنواع البلاء ، فانزاحت عنهم مرارة البلاء بحلاوة الرضاء ، فعاشوا دنياهم برضاهم سعداء ، وكانوا بعد موتهم فى جوار ربهم أسعد ، (فرحين بما آتاهم الله من فضله) .

و هـذا امير المـؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يرى نعم الله عليه فى البلاء فيقول ما من بلاء يصيبنى الا و أرى لله على فيه أربع نعم : النعمه الأولى أن البلاء وقع فى دنياى و لم يقع فى دينى ، الثانية انه لم يقع أكبر مما وقع ، الثالثة أن الله دفع جزعى منه بالايمان ، الرابعة أنه ادخر لى ثواب الصبر عليه ، وهذا من قوة يقين أمير المؤمنين و تأمله فى حكمة القضاء .

وما أبدع الهام أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل فى تهوين الألم و الرضا بمواقع المقدور اذ يقول رضى الله عنه :

لولا التألم فى الحياة لما بدا
نور التأمل لامرىء قوام
لولا وقود النار فيما ينبغى
ما كان ينضج بعد أى طعام

وكذلك قوله :

انما هذه الحياة قضاء
وقضايا لها البرية تجهل
ليس يدرى القضاء الا الذى
قدره وهو فى الحقيقة أول
ان من ذاق للمحبة طعما
فهو عند الأحداث لا يتململ

ويقول أيضا رضى الله عنه :

كل شىء يهون عندى سوى الله
فما للحياة أعطى انتباها
ليس تفكيرى فى غد كيف يأتى
ما مضى اليوم عفتها أشباها

أما العلم فهو نور يمحو ظلمات الجهالة ، وأشرف ما يعلمه الانسان توحيد ربه والايمان برسله وباليوم الآخر ، فاذا وحد الانسان ربه ، أمكنه أن

يــزداد بالتربيــة الدينيــة ايمانــا ، فيتصــل بــالله اتصــال الخــواص ، الــذين آثــروا ربهــم عمــا ســواه وكيــف لا يتفــانى المــؤمن فــى حــب الله وقــد أحاطــت بــه نعمتــاه ، نعمة الايجاد ، ونعمة الامداد ، ولولاه ما كان شيئا مذكورا .

غيــر أن المــؤمن لا يســتطيع الاتصــال بــالله تعــالى الا مــن البــاب الــذى دلــه الله عليــه ، وهــو مولانــا رســول الله صــلى الله عليــه وســلم فــى قولــه تعــالى (لقــد كــان لكــم فــى رســول الله أســوة حســنة لمــن كــان يرجــو الله واليــوم الآخــر وذكــر الله كثيرا) وصدق سيدى البكرى اذ يقول فى مناجاته صلى الله عليه وسلم :

وانت باب الله أى امرء

أتاه من غيرك لا يدخل

وقــد شــرف الله بــالعلم أبــا البشــر آدم عليــه الســلام ، فعلمــه الأســماء كلهــا ، قبــل أن تعلمهــا الملائكــة ، ومــن الله علــى ســيدنا ومولانــا محمــد رســول الله صــلى الله عليــه وســلم بــالعلم الموهــوب فقــال تعــالى : (وعلمــك مــا لــم تكــن تعلــم وكــان فضــل الله عليــك عظيمــا) وأســاس علمــه صــلى الله عليــه وســلم (فــاعلم انــه لا الــه الا الله) وهبــة العلــم جاءتــه فــى قولــه تعــالى : ((اقــرأ باســم ربــك الــذى خلــق)) وفــى قولــه تعــالى ((فــأوحى الــى عبــده مــا أوحــى)) وكــان علــى الــدوام فــى زيــادة علميــة ، كيــف لا وقــد اختــار لــه ربــه دعــوة بالزيــادة فــى العلــم (وقــل رب زدنــى علمــا) وهــو صــلى الله عليــه وســلم خيــر الســائلين والله تعــالى أقرب المجيبين وفى الخبر (بربى عرفت كل شىء) .

ولأن معرفــة الله تعــالى هــى أول فــرض فرضــه علــى عبــاده حــين خــاطبهم فى عالم الذر (ألست بربكم قالوا بلى) صارت العلوم الشرعية أطهر العلوم وأصــفاها ، وأشــرفها وأزكاهــا لأنهــا تهيــىء القلــوب لتــذوق العبــادات ولتلقــى الــواردات الرحمانيــة ، والنفحــات الربانيــة التــى لا تنفــد ، ومــا يلقاهــا الا أولياؤه المتقون ، فحدث عنها ما شئت ، فانها من الهام الله وكلماته .

ويـــذكر أســـتاذى العـــارف بـــالله ســـيدى الشـــيخ علـــى عقـــل فضـــل ربـــه عليـــه فى الهامه رضى الله عنه فيقول :

آنس الله مهجتى بعلوم
مزجتنى بها فكنت وعاها
طاف بى النور فالمعارف بحرى
تلفظ الدر وهى لا تتناهى
وارتقاء الأرواح فى مورد العلم
يصفى الأرواح من دنياها
وانعدام الأهواء والحس منها
هو معنى السمو فى مسراها
يا سرورى بقوله يا عبادى
أنا فى سمعها أنال رضاها

الا جـــزى الله عنـــى وعـــن اخـــوانى المـــؤمنين أســـاتذتى خيـــرا وجعلنـــى أهـــلا لبنوتهم وهدانا بهداهم ٠

الصوفى جسمه بين الخلق يسعى

وقلبه فى الملكوت يرعى

- ٤ -

((وكـــن مـــع أهـــل الحقيقـــة وابحـــث عـــنهم بحـــث الباحـــث عـــن حـــق يرجـــع اليه لنفسه فقط)) ٠

وتلـــك حكمـــة مـــن الحكـــم الغاليـــة التـــى كتـــب لـــى بهـــا اســـتاذى العـــارف بـــالله ســـيدى الشـــيخ عبـــد الســـلام الحلـــوانى رضـــى الله عنـــه ، وقـــد رجوتـــه حينئـــذ أن يفســـرها لـــى فقـــال دعهـــا حتـــى يفســـرها الـــزمن ، فالتزمـــت أمـــره ، ودار الـــزمن دورتـــه ، وتقـــدمت بـــى الســـن ، وتقلبـــت فـــى التجـــارب ، وفـــى حلـــو الحيـــاة ومرهـــا ، ورأيـــت تفـــاوت النـــاس فـــى معـــادنهم ومشـــاربهم ، فمـــا أبكـــى عينـــى ولا أحـــزن قلبـــى ، مثـــل فـــراق والـــدى وشـــيخى وبعـــض اخـــوان لـــى فـــى الله ، رحـــم الله مـــن مضـــى ، وبـــارك مـــن بقـــى ، فقـــد قـــدرت لهـــم وأكبـــرت فـــيهم صـــلاحهم ومعـــاونتى فـــى طاعة الله والشغف به تعالى وايثارة على ما سواه ٠

ولـــم أخـــرج مـــن تجـــاربى بخيـــر ممـــا أوصـــانى بـــه ســـيدى الشـــيخ عبـــد الســـلام الحلـــوانى ، وقـــد كـــان ينظـــر بنـــور الله فيمـــا أوصـــانى بـــه ، فقـــد وجـــدت أن أهـــل الحقيقـــة هـــم أصـــفى المجتمـــع ، لأنهـــم يطلبـــون ربـــا لا يفنـــى ، ويتلهـــى غيـــرهم بغمرات الدنيا التى تزول ولا تبقى ، والأولون يظنهم الناس حمقى وهم العقلاء ، والآخرون يراهم الناس عقلاء ، وهم حمقى غافلون ٠

ولا أود أن يفهـــم اخـــوانى القـــراء الأعـــزاء ، أنـــى أرمـــى أهـــل الحقيقـــة بالســـلبية فـــى الحيـــاة وتـــرك الســـعى فيهـــا ، لا ، انمـــا أقـــول انهـــم يســـعون فـــى الـــدنيا كمـــا يســـعى النـــاس ، ولكـــنهم مـــع ســـعيهم فـــى دنيـــاهم يجعلـــون ســـعيهم هـــذا فـــى خدمـــة أخـــراهم ، ايثـــارا للآخـــرة علـــى الـــدنيا ، لأنهـــم خلقـــوا للآخـــرة ، وهـــى مقـــرهم ، وهـــم يمـــرون بالـــدنيا فـــى طـــريقهم اليهـــا ، فـــلا يشـــغلهم ممـــرهم عـــن مقرهم ٠

وخصوصية أهل الحقيقة ، محلها البواطن ، وقد كان شيخنا الأكبر سيدى محمد أبو خليل ، رضى الله عنه يقول : ((خلوتنا بالقلب)) لذلك عرف الصوفى بأنه المؤمن الذى صفا قلبه من الكدر ، و امتلأ من الفكر ، و انقطع الى الله من البشر و استوى عنده الذهب و المدر .

و انقطاع الصوفى من البشر ، انما هو انقطاع بالقلب لا بالحس ، فتراه بين الخلق و قلبه فى الملكوت يرعى ، وقد تقلب سادتنا الأنبياء و المرسلون عليهم صلوات الله بين الناس بأجسادهم ، و باينوهم بمواجيدهم و الذين لم يعرفون بخصوصيتهم الباطنة ظلوا على كفرهم ، فقد قالوا مثلا فى مولانا رسول الله صلى الله عليه و سلم ((ما لهذا الرسول يأكل الطعام و يمشى فى الاسواق)) وأضلت الظواهر أبا لهب حين نظر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أنه يتيم أبى طالب فلم ير أنه السراج المنير الهادى الى سواء السبيل ، وهذا من عمى القلب و العياذ بالله .

وقد قال سيدى أبو سعيد الخراز رضى الله عنه : ليس الكامل من صدرت منه أنواع الكرامات . انما الكامل الذى يقعد بين الخلق يبيع ويشترى معهم ويتزوج ويختلط بالناس ولا يغفل عن الله لحظة واحدة . ويؤيده فى كلامه هذا قوله تعالى ((رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله و اقام الصلاة و ايتاء الزكاة ... الآية)) .

و تفصح السيدة رابعة العدوية عن خلوة القلب بالله ، مع تقلب الأجسام فى الناس ، فتقول رضى الله عنها مناجية ربها :

و لقد جعلتك فى الفؤاد محدثى ... و أبحت جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانس ... و حبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

و يقول أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه :

ليس التصوف بالظواهر انما ... هو للبواطن حلة و شعار
كم ضاحك لكنه فى محنة ... كم خائف لكنه مختار
و القلب روض واليقين ثماره ... فاذا اعتززت به تطيب ثمار

و صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أئمة الأمة عامة و أهل الصدق خاصة ، و أهل الحقيقة يحاكونهم فى أخذ الدين بقوة العزائم ،

وقـــد أدى الصـــحابة رضـــوان الله علـــيهم دورهـــم فـــى المجتمـــع أحســـن تأديـــة ، فقـــد تـــاجروا وكســـبوا عيشـــهم ، و جاهـــدوا بـــأموالهم و أنفســـهم فـــى ســـبيل الله و فتحـــوا الأمصـــار لاعـــلاء كلمـــة الله و قـــاتلوا أهـــل الزيـــغ كمســـيلمة ، و أهـــل الـــردة و الخـــوارج ، و أمـــروا بـــالمعروف و نهـــوا عـــن المنكـــر و بلغـــوا الخلـــف أحكـــام الشريعة آداب القلوب .

وقـــد ألتـــبس علـــى النـــاس بمـــا فـــيهم بعـــض علمـــاء الشـــريعة ، معنـــى الحقيقـــة ، وعجبـــوا أن يعـــرف الصـــوفية وأهـــل العنايـــة بالـــدين بـــأنهم أهـــل الحقيقـــة ، واعترضـــوا علـــى ذلـــك بـــأن النـــاس مكلفـــون بالشـــريعة ، فـــلا معنـــى لأن تـــذكر الـــى جنبهـــا الحقيقـــة ، وقـــد أجـــاب الصـــوفية علـــى هـــذه الشـــبهة فقـــالوا أن الشـــريعة عبـــادة ، والحقيقـــة عبوديـــة كمـــا قـــالوا الشـــريعة تعلـــق ، والطريقـــة تخلـــق والحقيقـــة تحقـــق ، أو الشـــريعة بـــاب والطريقـــة آداب والحقيقـــة لبـــاب ، فـــاذا أدى المســـلم العبـــادة علـــى وجههـــا الصـــحيح وذكـــر الله كثيـــرا وأحبـــه مـــن كـــل قلبـــه ، ذاق طعـــم الايمان ، فاستشعر بهذا المذاق عبوديته ، فتفانى فى حب سيده فغمرته الأنوار وزكته الأسرار ، وآثره تعالى عما سواه وصارت أقواله وأفعاله وأحواله لله وبالله وفى الله ، أما العبادة الشكلية فهى عبادة آلية ، لا تتزكى فيها الروح بدرجة الخواص المراعين أنفاسهم مع الله . وزاد السادة الصوفية الأمر ان الشريعة هى القيام بالأوامر ، والحقيقة هى محبة الأمر ، فالدين واحد يجمع حدود الأوامر ومحبة الأمر جل جلاله ، كما قالوا ان فاتحة الكتاب جاء فيها ، اياك نعبد ، وهى شريعة ، واياك نستعين ، وهى حقيقة ، فالعون منه سبحانه ، ولا يعرف ذلك الا من استشعر العبودية لله وحده ، وقالوا فى معنى لا اله الا الله ، أنه لا نافع الا الله ، فيجب أن تكون السيادة له وحده سبحانه .

والنتيجة أن العبادة هى شكل العبادات والعبودية هى روح تلك العبادات ، ولهذا تختلف مثلا درجة المصلين وان تساووا فى شكل الصلاة وعدد الركعات ، فمنهم من ينصرف من صلاته وما كتب له الا نصفها ثلثها ربعها خمسها سدسها سبعها ثمنها كما جاء فى الحديث الشريف .

ويكسب المؤمن روح الدين وقوة اليقين ، بالأخذ عن العارفين من العلماء الربانيين ، و هم اهل الحقيقة ، وهم من فضل الله موجودون فى كل جيل ، و هم عباد الرحمن ، الذين جاءت أوصافهم فى آيات القرآن الكريم و من دعائهم المستجاب ((و اجعلنا للمتقين اماما)) .

و الاحكام الشرعية ربما يحصلها المجتهد من الاطلاع على تآليفها و يستغنى فى تحصيلها عن الاستاذ المعلم ، أما آداب القلوب فى سلوكها الى الله تعالى ، فلابد فيها من الشيخ العارف الذى يربى تلميذه بالحال و المقال و يرشده الى ذكر الله ذكرا كثيرا حتى يستغرق الذاكر بالذكر القلبى فيحيا به حياة الخواص المراعين أنفسهم مع الله ، وقد قال العارفون : حياة الروح بالذكر و حياة الذكر بالذاكر و حياة الذاكر بالمذكور .

و هذه سنة السلف منذ صدر الاسلام ، فقد قيل للامام الحسن البصرى رضى الله عنه و هو أفضل التابعين ، يا أبا سعيد نراك تتكلم بكلام لم نسمعه من غيرك ، فممن تعلمت هذا العلم ، قال : أخذته عن حذيفة بن اليمان ((الصاحبى الجليل)) .

و يحدث حذيفة بن اليمان ، رضى الله عنه ، عن نفسه فيقول : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه عن الخير ، وكنت أسأله عن اشر ، مخافة أن أقع فيه و علمت أن الخير لا يسبقنى ، فكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم يقولون يا رسول الله ما لمن عمل كذا و كذا و كنت أقول يا رسول الله ما يفسد كذا و كذا ، فلما رآنى مقبلا على هذا العلم خصنى به .

و بفضل هذا العلم الذى حرص حذيفة رضى الله عنه على أخذ من منهل النور الأصفى صلى الله عليه وسلم ، خص حذيفه بعلم المنافقين ، حتى أن مولانا عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان لا يصلى على أحد مات الا اذا رأى حذيفة يصلى عليه . و قد وصف الله المنافقين فى القرآن الكريم فقال تعالى ((ان المنافقين يخدعون الله وهو خادعهم و اذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس و لا يذكرون الله الا قليلا)) .

و لأن اهل الحقيقة يعنون بأحوال القلوب و آدابها ، فانه لابد للسالك مسلكهم أن يدقق فى اختيار شيخه الذى يأخذ عنه تلك الآداب الروحية .

وقد قالوا ينبغى أن يكون الشيخ صوفيا منتهيا ، وعرفه ابن الجوزى فقال ((هو ذلك الذى يربيه الحق من صغره ، فتراه فى الطفولة معتزلا عن الصبيان ، كأنه فى الصبا شيخ ، ينبو عن الرزائل ، ويفزع من النقائص ثم لا تزال شجرة همته تعلو ، حتى يرى ثمرها متهدلا على أغصان الشباب فهو حريص على العلم ، منكمش على العمل ، ساع فى طلب الفضائل خائف من النقائص ، فلو تصورت التوفيق والالهام الربانى ، كيف يأخذ بيده ان عثر ، ويمنعه من الخطأ ان هم ، ويستخدمه فى الفضائل ، ويستر عمله حتى لا يراه منه ، فلو تصورت النبوة تكتسب لدخلت فى كسبه .

وأنت ترى أيها الأخ الكريم من ذلك أن الشيخ يجب أن يتوافر له فى الارشاد علم صحيح ، وذوق صريح ، وهمة عالية ، وحالة مرضية ، وبصيرة نافذة .

وقد قالوا ان من العلامات الدالة عليه ، السخاء ، وحسن الخلق ، والشفقة على خلق الله ، وعدم الانكباب على حمع الدنيا ، وعدم المبالاة باقبال الناس عليه أو ادبارهم عنه ، وعدم الشكوى من ضيق العيش ، ومجانية الدعوى ، وليس من لازمه الكرامات أو الاخبار بالغيب .

وقد لمست فى شيخى العارف بالله الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه تلك الصفات التى ذكروها ، وذلك من فضل الله علينا وعلى اخواننا فى الله ، وقد تعرض لفضله فى مناسبة ذكرى مولده المبارك تلميذه العارف الموهوب سيد الشيخ على عقل رضى الله عنه فقال الهاما :

هذا اجتماع فى المباح قد جنينا ثمره
نحيى به ذكرى لعا رف قوى التبصره
من فضله روى القلوب حيث أجرى أنهره
علمنا تصوف الرجا ل أهل الآخره
الحلوانى ذى الوقا ر والأيادى الخيره
حتى غدت قلوبنا بالحق تسرى نيره

ومن معانى الذكر كم تلقى الوجوه مسفره
وجوهنا من ذكره ضاحكة مستبشرة
وما علينا فى هوى رب العباد من تره
من عاش يدعو ربه ونفسه مطهره
فأنه فى حشره يحمد حسن المغفرة
ان كنت ترجو عفوه فأعمل وخذ ما أمره
نجواه رب القلب لا يورق قلب هجره
كالنبت ان رويته أفنانه مزدهره
من قال يارب السما فى علمنا ما أظهره

ويشير رضى الله عنه الى الصادقين من أهل الحقيقة قلة ، والمدعون مثير ، فيقول رضى الله عنه :

لم أبالغ اذا حلفت يمينا ان فى عصرنا يعم البلاء
زمن فيه للتدين ناس زعموه وهم له أعداء
ان رأوا فى الطريق أى فقير نهروه والسادة الأغنياء
وتراهم ان قيل بيك وباشا احنوا الرأس فى النفوس رياء
يحسنون المديح فى لؤم طبع تتأذى بسمعه الأذكياء
عامل الناس بالوداعة والحكمة تمحى من صدرها البغضاء
وترفق اذا نصحت ولا تغل ففى الرفق للنفوس دواء
كن مع الناس فى صفاء ودين واعف عنهم من الذى لا يساء
أن عفوا عن الضعيف مقام والتغاضى عن اللئيم غباء
احفظ عهدكم مع الله صدقا واتبعوا ما دعت به الانبياء
كيف يرضى الجحود من جاءه الحق وبالخير قد حبته السماء

ويقول أيضا طيب الله ثراه :

شراب الحب يعرف بالمذاق وما كل السقاه له بساق
دعاة الحب أكثر ما تتلاقى وقل الصادقون فما تلاقى
وليس بعاشق من لا تراه عن الشهوات طهر والنفاق

اذا ما عشت لا أنسى الهى   به أسمو من الأخرى المراقى
أحب الله عن أدب وصدق   ولا أرضى سوى التقوى خلاقى
تركت جميع خلق الله دونى   شغلت عن الخلائق باشتياقى
يعز على ترك الحب عندى   ولو بلغت بى الروح التراقى
أطوف على الرحاب بكل ذل   مريدا واليقين به انسياقى
ومن عرف المحبة عن يقين   حرام أن يميل الى فراق

وهـا هـو ذا يصـف أحـوال أهـل الحقيقـة ومواجيـدهم ، فيقـول رضـى الله عنه :

أرواحنا فـوق السماء   مع الكواكب سارية
وقلوبنا مثل البـدور   بكل ليل زاهيـة
ونفوسنـا أنفاسـها   كالطيب أمست زاكيـة
ولساننا بيت المعـارف   والعلـوم الراقـية
وكنـوزنا فى قلبنـا   فيها المعانى غاليـة
أعضـاؤنا طربت بحبك   وهى تذكر صـافية
والروح من وجد عن ال   أغيـا ر عاشت نائيـة
فنيت به عن غيره   فاستمسكت بالباقيـة
شرفـت به وتـلذذت   بشـهوده فى عافيـة
ان كان جسمى بالفنـاء   سـقوفه متـداعية
فالروح بعـد فنائه   فى الخلد شمس سامية

اللهـم أرزقنـا حبـك ، وحـب مـن يحبـك ، لنكـون مـن القـوم الـذين قلـت فـيم ((يحـبهم ويحبونـه أذلـة علـى المـؤمنين أعـزة علـى الكـافرين يجاهـدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم .

القرب من الله قرب مكانة لاقرب مكان

الصوفية ينفون الحلول والاتحاد ٠

-٥-

((ان بـاء بنعمـة الاخـلاص اليـك انسـان ، فقـد يكـون هـذا الضـعيف ، الـذى يضـرع الـى الخـالق البـارئ ، أن يهبنـا الاخـلاص الكامـل ، والقـرب الشامل)) ٠

وهكـذا تـرى فـى كـلام سـيدى الاسـتاذ العـارف بـالله الشـيخ عبـد السـلام الحلـوانى ، تواضـع الآئمـة الآتقيـاء ، فهـو يكتـب لتلميـذه الناشـئ بلغـة التواضـع والتـراحم ، ويعلمـه أن السـعى فـى الله تعـالى بـاخلاص كامـل ، يوصـل الـى القـرب الشـامل ، وهـو قـرب مكانـة لاقـرب مكـان ، فانـه تعـالى كما يقول السادة الصوفية :

((يتقـدس عـن الحـدود والآقطـار ، والنهايـة والمقـدار ، ومـا اتصـل بـه مخلـوق ، ولا انفصـل عنـه حـادث مسـبوق بـه ، حلـت الصـمدية عـن قبـول الوصل والفصل ، فقرب هو نعته محال ، وهو تدانى الذوات ، وقرب هو واجب فى نعته ، وهو قرب بالعلم والرؤية ، وقرب هو جائز فى وصفه يخص به من يشاء من عباده ، وهو قرب الفضل باللطف)) ٠

وقـرب الفضـل بـاللطف هـذا هـو مقـام فـى التصـوف يتصـل المـؤمن فيـه بربـه ، بـالروح لا بالبـدن ، ولا تتسـع العبـارات للتعبيـر عنـه ، وقـد قـال عنـه الامام الغزالى ((يضيق نطاق النطق عنه وكل ما أقوله لكم عنه :

فكان ما كان مما لست أذكره فظن خيرا ولا تسأل عن الخبز

ويزيدنا شيئا من الافصاح عنه أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على فيقول :

قد شربنا من حبه فسكرنا وعرفنا من أين تأتى الجوارا

ودخلنا دار الكرامة نروى بيقين الهدى وكنا حيارى

اعذرونا اذا نهيم فانا / فى ديار الهوى خلقنا اسارى
وترانا حيث نشرب فى الكأس / سكارى ولم نكن بسكارى
نتحلى بالعلم فى كل ناد / ونرى بالتقى علينا ازارا
فقلوب مثل الكواكب فينا / تظهر النور فهو لا يتوارى

ولسيدى محى الدين بن عربى (الذى يرميه الحاقدون بأنه من أهل الحلول والاتحاد) ، قدس الله سره ، كلام نفيس فى ذلك المقام يقول فيه ، ومن أعظم دليل على نفى الحلول والاتحاد الذى يتوهمه بعضهم أن نعلم عقلا أن القمر ليس فيه من نور الشمس شىء ، وأن الشمس ما انتقلت اليه بذاتها ، وانما كان القمر مجلاها ، فكذلك العبد ليس فيه شىء من خالقه ولا حل فيه (باب ٢٥٢ من الفتوحات المكية) ، وكذلك جاء فى شعره ما ينفى الحلول والاتحاد الذى ينسبه اليه أعداؤه فيقول رضى الله عنه :

ودع مقالة قوم قال عالمهم / بأنه بالاله الواحد أتحدا
الاتحاد محال لا يقول به / الا جهول به عن عقله شردا
وعن حقيقته وعن شريعته / فاعبد الهك لا تشرك به احدا

وكان سيدى على وفا – رضى الله عنه – يقول :

المراد بالاتحاد حيث جاء فى كلام القوم فناء مراد العبد فى مراد الحق ، كما يقال اتحد فلان وفلان اذا عمل كل منهما بمراد صاحبه ثم أنشد :

وعلمك أن كل الأمر أمرى / هو المغنى المسمى باتحاد

وكان سيدى على البيومى . رضى الله عنه . يقول :

كل له ورد يكون وسيلة / لمعاشه ومعاذه ومعاده
وجعلت ورد ى فى الخروج عن الورى / وأكون مع مولاى تحت مراده

أما الاخلاص فهو السر الذى يودعه الله قلب من أحب ما عباده الذين قال فيهم ((يحبهم ويحبونه)) ويترقى المؤمن فى صلته بربه ، على

قدر ما هب من ذلك الاخلاص الذى أودعه الله فيه وقسمه له ، ((ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور)) .

والصدق هو سلم الترقى الذى يستند الى الاخلاص ، وقد قال تعالى : ((رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه)) ، كما قال تعالى : ((وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين)) . وقد جاء الحض عليهما فى الكتاب والسنة ، ويشير الى ذلك أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل . رضى الله عنه . فيقول الهاما :

ما كل من دخل الطريق أخو هدى   أو كل من صب المدامة ساق
كم عالم فى نفسه مرض العلا   لم ينتفع بمكارم الاخلاق
الصدق والاخلاص أسباب الهدى   يا مدعى التقوى بلا استحقاق
احفظ مقام الناس واترك عرضهم حتى تنال مواهب الخلاق
انا لى من القرآن خير معلم   ومن الحديث منابعى ومذاقى

وأنت ترى من البيت الأخير أن التصوف يجب أن يقوم على الكتاب والسنة ، ولذلك قال السادة الصوفية اذا رأيتم الرجل يرتقى فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى وحفظ الحدود وأداء الشريعة . . وقال الامام الحنيد . رضى الله عنه . علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة .

ويطلب . رضى الله عنه . العون من ربه ، وهو يجاهد فى سبيله ، ويتشرف بالانتساب اليه تعالى فيقول الهامه :

أسعى لخلاقى واقصد وجهه   وعن المسير اليه لن اتخلفا
يا مالكا روحى ومانحها الهدى   انظر الى فأنت أكرم من عفا
ان قيل من قلت امرؤ فى ربه   ساع وهذا فى انتسابى قد كفى
لا والذى غمر العباد بفضله   انى بغير الله لن اتشرفا

أما اخلاص الاستاذ المربى لتلميذه الناشىء ، فهو من حنان الأبوة الذى يلقاه الأبناء من آبائهم ، وقد كان شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى دائم العطف على ، والاحسان الى ، وكان يسره ما يسرنى ، ويؤلمه ما يؤلمنى ، ومن عنايته بى وجهنى الى أخذ حذرى من نفسى التى

بـــين جنبـــى ، وأســـر لـــى فيمـــا بينـــى وبينــــه ، حكمـــة مـــأثورة عـــن الســـادة الصـــوفية يقولون فيها ((لا يدخل حضرة القدوس أحد من أرباب النفوس)) .

وكأنما نقشها . رضى الله عنه . على قلبى ، فهى لا تبارحتى ، وكلما همـــت نفســـى أن تخـــادعنى أذكرهـــا بتلـــك الحكمـــة الغاليـــة ، فأكســـر نخوتهـــا ، وأدعـــوا لســـيدى الشـــيخ بالرضـــا والرضـــوان ، ورضـــوان الله عـــن سيدى الشيخ على اذ يقول فى الهامه :

آفة النفس أن تظن بها الخير   ولا تعطى للمعلم حقه
درجات الرجال لا يقتنيها   غير من ذل وهو ينكر سبقه

ويقول كذلك فى ضبط النفس وانكسار القلوب لله تعالى :

يا مريدا للنفس معنى علاها   احفظ النفس بالتقى من أذاها
واقصد الله وحده وتواضع   ان فضل الاله لا يتناهى
أحزم الناس من اذا نال رزقا   عاش بالذل وهو لا يتباهى
قد صدقنا الرحمن سرا وجهرا   ونفينا الأمثال و الأشباها

ويقول أيضا :

نحن فى عالم اليقين رجال   قد غسلنا نفوسنا ثم غبنا
وشراب الرجال علم وحلم   انما نحن فوق ذاك شربنا
أجد الذل أقرب الباب الى الله   لهذا عن العباد افترقنا
ان قلبا يعيش بالذل للنا   س يعيش الحياة منهم معنى
أيها المستجير بالله طهر   قلبك العمرمن سوى الله تغنى
انما الحب رغبة فاتباع   ففناء من البقاء فيه معنى

وما يشير اليه . رضى الله عنه . بقوله : ((انما نحن فوق ذاك شربنا)) هو السر المكنون بينهم وبين بارئهم وواهبهم . جل جلالـه . ويقول القطب الكبير سيدى أبو الحسن الشاذلى فى مقام هؤلاء الخواص ((أمـــا طريـــق الخاصـــة فطريـــق مســـلوك تضـــمحل العقـــول فـــى أقـــل القليـــل مـــن وصـــفه)) وقـــد جـــاء فـــى وصـــف ســـيدنا الحضـــر . عليـــه الســـلام . ((فوجـــدا عبـــدا مـــن عبادنـــا آتينـــاه رحمـــة مـــن عنـــدنا وعلمنـــاه مـــن لـــدنا علمـــا)) .

وهـــى آيـــة مـــن كتـــاب الله تشـــهد بـــالعلم الـــوهبى للخـــواص مـــن عبـــاد الله ، وحـــرص ســـيدنا موســـى . عليـــه الســـلام . علـــى الانتفـــاع مـــن هـــذا العلـــم البـــاطنى فيـــه دليـــل شـــرعى علـــى وجـــوب طلـــب علـــم التصـــوف مـــن أهلـــه الـــذين خصهم الله برحمته .

ويقول كذلك فى سعيهم اليه تعالى على صراط الشرع الشريف :

أطوف وأسعى بالعباد صادقا وانى بغير الشرع لا أتعبد
وان أنا بالأرض اتخذت مساجدى فقلبى لنور الله بيت ومسجد
وان يعبدوا خوفا عبدتك رغبة ولى لذة فى رغبتى تتجدد
واسبغ ثوب الذل فوقى لعلنى أرى يوم ألقى الله ما أنا أقصد
فقلبك أدبه عن الناس كلهم ولا تعترض عبدا مسالكه دد
فكم مذنب قد صادفته عناية فعاد وقورا بالمتابة يسجد
وكم طائع قد غره سهد ليله فظن العلا فى نفسه وهو مبعد
ومن لم يعلم نفسه قبل غيره فليس له نصح يراد ويحمد

وهذا البيت الأخير عبر عن معناه السادة الصوفية الأقدمون بقولهما : من عجز عن أدب نفسه كان عن أدب غيره أعجز .

وهـــذه حقيقـــة لا شـــبهة فيهـــا ، فـــان نجـــاح شـــيخ فـــى التربيـــة لا يكـــون الا بعـــد تهـــذيب نفســـه ، فيعطـــى مـــن تهذيبـــه لتلاميـــذه الـــدروس العمليـــة قبـــل الـــدروس الكلاميـــة ، فـــاذا صـــار التصـــوف رســـما بـــلا عمـــل ، بقيـــت القلـــوب علـــى آفاتهـــا النفســـية فـــلا تغنـــى أصـــحابها شـــيئا فـــى كســـب آداب الخصـــوص حتـــى لـــو ســـلمت أجســـادهم مـــن العلـــل الصـــحية ، والتصـــوف يقـــوم علـــى تربيـــة القلـــوب والوجـــدان بهمـــة لا تعـــرف الملـــل ، وبجـــد يضـــعف الـــركبتين ويحـــزن القلب ويدمع العين ، ولهذا يقول سيدى الشيخ على رضى الله عنه :

وما التصوف قول قد نزخرفه بل التصوف قلب قد وهبناه
أمسى على أرق اشتاق فى حرق بالدمع فى غرق قصدى محياه

ويقول فى وصف الصوفية :

رجال ولكن علا قدرهم تبارك من لهمو قد خلق
لهم همم كالجبال الرواسى وهو عند ربك نور الغسق
ونارهمو فى النعيم المقيم فيا عجبا جنه فى حرق

ويـــرى الســـادة الصـــوفية أن الانســـان يكـــون انســـانا بنفســـه المهذبـــة العابـــدة الـــذاكرة الشـــاكرة الراكعـــة الســـاجدة المتصـــلة بربهـــا الـــذى خلقهـــا لعبادته فاذا لم يكن على صلى عامرة بربه ورابطة طاهرة بيقينه فيه . ســـبحانه . فـــلا يعتـــد بـــه وان كـــان جســـده فـــى صـــورة انســـان ، ويقـــول بعـــض صـــوفية الفـــرس فيمـــا ترجمـــه الـــى العربيـــة صـــديقى فضـــيلة الشـــيخ الصاوى شعلان :

اذا الورود خلت من طيب نفحتها فلا تزاحم بها فى الأرض بستانا
اذا الوجوه خلت من نور سجدتها لم تستحق غداة الموت أكفانا
اذا القلوب خلت من ذكر خالقها فهى الصخور التى تحتل أبدانا
اذا خلا المرء من فهم ومعرفة ظلمت نفسك لو تدعوه انسانا

وأبلـــغ ممـــا قالـــه القـــائلون جميعـــا فـــى وصـــفهم مـــا ســـجله الحـــق تشـــريفا لعباده الصالحين فى آخر سورة الفرقان :

((وعبـــاد الـــرحمن الـــذين يمشـــون علـــى الارض هونـــا)) الـــى قولـــه تعـــالى ((أولئـــك يجـــزون الغرفـــة بمـــا صـــبروا ويلقـــون فيهـــا تحيـــة وســـلاما ، خالـــدين فيها حسنت مستقرا ومقاما .

- ٦ -

((ان قلت أنا مشتاق ، والشوق شديد فليس هذا معنى ما تقاسيه الروح من ألم ذلك الشوق ، انما أترك الأرواح تتناجى ولها الله سبحانه وتعالى وهو الذى يعلم السر وأخفى)) .

لم تقف هذه العبارة التى كتب لى بها أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه ،عند بث الشوق لتلميذه ، بل تعدت هذا الأفق الى آفاق أبعد وأعمق ، ذلك بأنها دلت على تجاذب الأرواح ، الذى يكون بين الشيخ وتلميذه ، ويكون للشيخ فيه سلطان الأبوة ، وللتلميذ تلقى الأبناء فى الله وهو سلطان قوى ، لا تدرك آفاقه الا بالتجربة العملية ، ويقرب لنا وصفه ، سيدى القطب ابن عطاء الله السكندرى فى قوله رضى الله عنه :

((وليس شيخك من سمعت منه ، انما شيخك من أخذت عنه ، وليس شيخك من واجهتك عبارته ، انما شيخك من سرت فيك اشارته ، وشيخك هو الذى يجلو مرآة قلبك ، حتى تجلت فيه أنوار ربك حتى وصلت اليه ، ولا زال محاذيا لك حتى ألقاك بين يديه ، فزج بك فى نور الحضرة ، وقال لك : ها أنت وربك)) .

فالشيبخ اذن هو النائب عن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تهذيب الروح وصقلها ، ببث الآداب النبوية ظاهرها وباطنها فى قرارة النفس ، حتى يعرج المريد ((التلميذ)) فى معارج الخواص ، المراعين أنفاسهم مع الله سبحانه وتعالى ، فيكون ممن ينطبق عليهم قوله تعالى : ((رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه)) .

وقولـه تعـالى : ((والـذين اجتنبـوا الطـاغوت أن يعبـدوها وأنـابوا الـى الله لهـم البشـرى فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب)) .

والأخـذ عـن شـيخ عـارف بـالله ، أمـر ضـرورى فـى التصـوف لكسـب اليقين ، وقد جاء فى الحديث الشريف ((تعلموا اليقين) أى جالسوا أهل اليقين ، وكل بيعة حصلت بعد النبى صلى الله عليه وسلم هى تجديد لبيعته صلى الله عليه وسلم ، والعارفون بالله نواب عنه صلى الله عليه وسلم فى تعليم الناس آداب الدين الظاهرة والباطنة ، والآداب الباطنة أصعب منالا من الآداب الظاهرة ، لأنها تحتاج لمعترك خفى بين المرء وهوى نفسه وشيطانه ، وغرور الدنيا الخداعة ، وآفاته القلبية من الحقد والحسد والعجب والرياء والنفاق . . الخ ومن طلب طريق القوم بغير امام عارف بالله ، تاه فى أول قدم ، وكفى شرفا لطريقهم النورانى ، ان سيدنا موسى عليه السلام وهو من المرسلين أولى العزم ، طلبه من الخضر عليه السلام وقال له : ((هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا)) .

وهذا أقوى دليل على وجوب طلب التصوف ((وهو علم آداب القلوب)) من أهله .

ويشير الى ذلك أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه فيقول

اذا لم يكن للنفس شيخ له هدى ... يؤدبها بالروح زاغت عن السير
ولا يعبر البحر الخضم ونوأه ... سوى ماهر يدرى الملاحة فى البحر
ولولا اتصال الكهرباء بأصلها ... على موجة التيار ما نورها يسرى

وقد كنت أجالس شيخى رضى الله عنه فلا يكلمنى لسانه ، وانما يناجينى حاله ، فكنت أحس باحساسه فى بعض الأحيان ، ومن أعجب ما وقع لى من ذلك انى جلست اليه مرة ، فأحسست برعب شديد كاد أن ينخلع له قلبى ، والشيخ صامت ، وهو جالس على مقعد فى مقابلتى ،

وخيـل الـى أن الـدقائق صـارت أيامـا ، كمـا خيـل الـى أن رضـوى علـى كتفـى ، وما شعرت حتى اضطربت أعصابى ، وارتجت أركانى ، ولا أدرى من سر ذلك شيئا ، وبعد نحو ربع ساعة نطق الشيخ مخاطبا لى ، ولم يكن معنا أحد ، وقال لى : أتدرى فى ماذا كنت أفكر ، وكأنما نفس عنى كربتى فى التحدث الى ، فقلت : لا يا سيدى فقال : كنت أفكر فى أهـوال يـوم القيامـة ، واتصـور النـار فـى شـهيقها وزفيرهـا ، وأراهـا كالبركـان يرمـى بالقذائف ذات الحمم ، فيقشعر جلدى ، وتكاد من خوفى تزهق روحى ، فقلت رحمنا الله واياك من شرها يا سيدى ، والله لقد كشفت عن سر ما كنت أنا فيه من الهلع ، فقد أحسست باضطراب هد كيانى ، وعرفت الآن السر الذى خفى على ، فانت كنت فى مقام الخوف ، وتعداك الى تلميذك ، وما عهدتك فى ذلك المقام قبل اليوم ، بل كنت أرى فى مجالستك أنسا وسرورا ينسينى أهلى وأعمالى ، ثم سكت وسكت ، ومن السكوت أحيانا خطاب وبيان .

وكذلك وقع لى من مثل هذا معه ، انى دعوته ليتناول عندى طعام الغداء مع بعض اخواننا ، فتفضل وأجاب الدعوة ، وكنت معتادا أن أدعو معه شخصا بعينه كان يلازمه كثيرا ، فوجدنى منصرفا عمدا عـن دعوتـه معـه هـذه المـرة ، بسـبب خفـى عنـى ، واسـتغربت انصـرافى هـذا ، فكاشـفت شيخى رضى الله عنه بما وقع لى ، فقال ((عملت طيبا ان فلانا هذا يظن الآن انى بغيره لا أستطيع أن أتحرك)) فقلت لا حول ولا قوة الا بالله ، ورأيت من التجربة العجيبة التى كان سرها خافيا على حتى كشف غطاءه شيخى رضى الله عنه . مصداق قوله تعالى فى أوليائه ((لهم ما يشاءون عنـد ربهـم)) . فقـد صـرفنى الله بـدافع قلبـى لا أدريـه عـن دعـوة مـن لا يـود شيخى أن يكون معه فى الدعوة ، ومن مثل تلك الوقائع فهمت معنى ما يقوله السادة الصوفية : حال واحد فى ألف خير من كلام ألف فى واحد ذلك جانب تناجى الأرواح بين الشيخ والمريدين ، بقى جانـب آخـر تضـمنه عجـز العبـارة وهـو الـذى قـال فيـه رضـى الله عنـه : ((ولهـا الله الـذى يعلم السر وأخفى)) وهو توجيه صوفى ، يقوم عليه التصوف كله ، فرقابة

الله ، تقتضى أن يخشى المريد ربه فى سره كما يخشاه فى علانيته وزيادة ، لأن الخشية فى العلانية ، قد يكون مراعيا فيها جانب الناس ، من الحكام وغيرهم ، أما السر ، فيكون بينه وبين ربه الذى لا يخفى عليه خافية .

وقد قالوا من رجع عن المخالفات خوفا من عذاب الله فهو تائب ، ومن رجع حياء من نظر الله فهو منيب ، ومن رجع تعظيما لجلال الله فهو أواب .

ويعجبنى فى هذا المقام قول المرحوم السيد اسماعيل صبرى ، وهو الهام صوفى حميل :

يارب أهلنى لفضلك واكفنى شطط العقول وفتنة الأفكار
ومر الوجود يشف عنك لكى أرى غضب الحليم ورحمة الجبار
يا عالم الأسرار حسبى محنة علمى بأنك عالم الأسرار

وها هو ذا شيخى العارف بالله الشيخ على عقل يرينا كيف يطهر المريد قلبه ، ويصحح باطنه ، ليكون مهبط أسرار الله تعالى فيقول رضى الله عنه :

يا أيها السارى السما وفقت جاهد فى فؤادك واحتف
واذا أفتديت فبالكتاب لك الهدى حافظ على آياته بتلهف
وانهض بروحك نهضة قدسية ولسنة المختار فى السير اقتف
وأحب ما فى هذه الدنيا التقى من حاد عنه ليس بالمتعفف
ان المحب اذا صفت أخلاقه مع ربه لمنامه لم يألف
لا تذكر البارى لقصد ولاية أو أن تكون على السما لا تنطفى
اذكر لوجه الله جل جلاله من رام غير جنابه لم يشرف
من كان نور الله ملء فؤاده عيب عليه النوم بعد تعرف
يا قلب كن مع ربك البارى على ثقة وايمان وحسن تصرف

كما يقول أيضا فى العشق الخفى ، الذى يراه الله ولا يراه الناس :

ليس بالعاشق من فى قومه بالعشق يفخر
انما العاشق من فى قلبه للعشق أضمر

لا نريد الناس يوما حبنا لهه يؤثر
قد وزنا كل شىء بقلوب تتـذكر
فتركنا الخلق لله ورب الخلق أكبـر

ويصف لنا رضى الله عنه باطنه الذى فيه يركن فيه الى الله وحده فى الشدة والرخاء فيقول :

فتشتت كل الخلق عن علم فلم أر لى سوى رب السما من وال
فتركت كل العالمين وجئته وجعلت ذكرى ذاته منوالى
يارب قلبى قد غسلت من لورى اذ ليس غيرك ما ذكرت ببالى
ان مربى عصف الزمان وقصفه . والله . لست بما شهدت أبالى
أأحبه وأخاف سطوة غيره هذا وحقك لا تعيه خصالى
روض المحبة قد شهدت جلاله وجماله فثبت فى أحوالى
يا نفس انى لا أمالى غيره قومى الى حوض الكريم تعالى
ان الذىفهم المحبة قلبه لم يتجه يوما لآل زوال
سلم لربك أمـره واترك له أقداره وأحذر من الأقوال
وذر العباد وشأنهم وفعالهم ان كنت مرتادا بلوغ كمال

ويقول مذكرا بأمر الآخرة ، وتحصيل الطاعات فى الدنيا قبل الرحيل منها ، ويحذر من أهمال جانب الآخرة ، بمظاهر الدنيا الفانية ، مبينا أن المال الذى يحصله المرء فى الدنيا لخدمة الدنيا ذاهب لغيره لا محالة ، وما يحصله من مال فى الدنيا ليخدم آخرته ، يبقى له أنيسا فى قبره :

خل عنك الدنيا ان من خدموها خدعتهم والذنب للخدمات
عبدوها بأنها خير جاه بئس جاه نما على السيئات
وتنادى العبا د فى كل يوم احذرونى وجانبوا غدراتى
تترك المال للوريث ولكن تؤنس القبر تركة الصالحات
ان من يفقه الحقيقة يدرى انما كان كاسب الاوقات
ذاكر شاكر مقدم بر ساهرا جانحا عن الشهوات
مستدرا فيض الاله عليه مستقيما ملازم الحسنات

قائما فى عبادة الله يقظان قوى الفؤاد أهل الثبات
ذلك الحى فى الرجال عليه يوم أن مات أعظم الرحمات

وما أروع التجاء ه الى الله فى غفران ذنوبه مع خوفه الباطنى منه سبحانه :

لم يفتنى تذكر الذنب يوما ان ذنبى يطيل من حسراتى
أنا والله لا أخاف سواه كل من فى الوجود عبد الذات
لم أر العصمة التى زعموها انما الذنب مظهرى وسمائى
دون ذنب ما كنت أدرك عفوا ان عفو الاله أزكى صلاتى
رب هبنى رضاك سرا وجهرا واعف عنا يا غافر الزلات

اللهم أرض عن مشايخنا فى الله ، وألحقنا بهم فضلا وكرما ، فاننا مؤمنون بك وقد قلت وقولك الحق ((والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شىء)) .

. آمين .

كنت قد كتبت لسيدى العارف بالله الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه أن بردا أصابنى فى سفر فكتب لى . أعلى الله قدره فى الأولياء . يقول :

وقد آلمنى الذى رافقك من سفرك . شفاك الله وعافاك . واحترس أخى من هواء الخريف لأنه لطيف ولا يخاف الا من اللطيف كما قال بعض الحكماء :

احذر أخى هواء الخريف فانه
مستعذب مستلطف خطاف
يجرى من الأجسام جرى عروقها
بلطافه ومن اللطيف يخاف

وأنت تراه قد تألم لما تألمت منه ودعا لتلميذه بالشفاء والعافية ، ثم لم يفوت الفرصة فى توجيهى لما ينفعنى فى دينى ودنياى ، فحذرنى أولا من هواء الخريف ، بأسلوب رقيق كما ترى ، وزاد على ذلك نصيحة صوفية رقيقة ودقيقة ، جاءت فى عبارته ، ولا يخاف الا من اللطيف ، وأيدها بحكمة شعرية قديمة .

ولنفعهم أولا معنى اسمه تعالى ((لطيف)) ولقد تفضل رضى الله عنه فشرحه لى ذات مرة فى مناسبة من المناسبات وقال لى أن معناه ((مصورالشىء فى قالب ضده)) فرجوته أن يزيدنى شرحا وتوضيحا فقال لى : يخرج الطفل من بطن أمه فترى له جمالا فى الخلقة ولو أنك تفكرت فى سبب الخلقة لوجدته ماء مهينا ، خرج من بين الصلب والترائب ، فتحول هذا الماء المهين فى أطوار متعددة الى أن صار بقدرة الله بشرا سويا ، ذا تقويم حسن وشكل جميل ، أرأيت كيف حول الله الماء القبيح فى بدايته

الى طفل وسيم فى النهاية ، فتطور بقدرة الله من القبح الى الجمال وذلك يدل على أنـه تعالى لطيف ، وكذلك سجن سيدنا يوسف عليه السلام بفرية افتريت عليه ، وكان السجن مهانة وشدة صبر عليهما بضع سنين ، وقد آثر عليـه السلام السجن فرارا مـن معصـية الله ، حـين نـاجى ربـه قـائلا ((رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه)) فلما أراد الله له الفرج خرج من السجن حاكما لمصر ، وجاء بأهلـه مـن البدو ، وجمـع شمل الأسرة بعد الفرقـة ، فتذكر فضل الله عليـه فى كل هذا ثم قال عليـه السلام (ان ربى لطيف لما يشاء) فجعل الله له من المحن منحا ، وذلك من لطفه سبحانه .

ومقام الخوف عند السادة الصوفية من مقامات اليقين الأساسية ، لكنهم يقرنونـه بالرجاء ، حتـى لا ييأس المريد من رحمة ربه ، فيكون فى سيره الى الله ، بين الخوف والرجا ، أشبه بالطائر الذى يطير بجناحيه معا .

ويقول فى ذلك العارف بالله سيدى على عقل رضى الله عنه :

لا تيأسـوا من روحـه فاليائسـون كفـرة
أو تأمنـوا من مكره فالآمنـون فجـره
بين خـوف ورجـا تعبـد نفس حذره

ويقول أيضا :

يـارب أنت علمتنى لم تخف منى خافيـة
سقمى يزيـد وانمـا آيـات عفـوك شـافيه
أنـا مذنب واحسـرتى أنـا ما نسيت حسابية
بل خائف يأتى الحسـاب ومـا أمنت عذابيـه
كنف المهين دائمـا بين الورى أوفى بيـة
مها فعلت فاننى راج جزيل ثوابيه

ويتشبث رضى الله عنه برحمة الله ، ولا يستند الى عمل من أعماله فيقول :

فتشت أعمالى الحسنى فوا أسفى لم ألق من حسن يدنى لعقباء
هجرت كل مرام غير رحمته (فانها حسناتى يوم ألقاه)

وها هو ذا سيدى العارف بالله ، الشيخ أحمد الحلوانى والد شيخى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنهما يجمع بين الخوف والرجاء فى قصيدته المسماة المستغفرة فى قوله :

يا ويلتنا من ذنوب فجورها مفجور
ومن خطاى اللواتى الى الخطا تستطير
وآه من كل اثم عليه يطوى الضمير
ومن مقاصد سوء جرى بها التعبير
ومن خطيئات خطى وما حوى التسطير
ومن ومن لست أدرى فذاك شىء كثير
قبائح كنت فيها أسرى وطورا أسير
سررت منها زمانا وغمها مذخور
نسيتها ووعاها كتابى المسطور
ماذا أقول لربى اذا بدا التحرير
يارب أنت عفو وأنت رب قدير
يارب أنت كريم والعبد عبد فقير
يارب انى حقير جدا وأنت الكبير
وشأن من جل يغضى اذا أساء الحقير
وأين ترب خسيس من ربه يا مجير
وما أريد احتجاجا عليك بل أستجير
أجر عبيدك يامن سواه ليس يجير
مالى سواك أغثنى وهل سواك نصير
ولى اليك شفيع بدر الظلام المنير
غوث الأنام المرجى اذا السماء تمور

به توسلت فاجبر		كسرى فانى كسير
وأسكب عليه التحايا		ما فاض منه النور

وكلامه رضى الله عنه يشع بنوره الفياض ، كيف لا وهو من الهام عالم عارف بالله ، وقد امتلأ ، قلبه من محبة الله وهداه ، ويتعلق أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل بعفو الله فيقول رضى الله عنه :

من ظن أن عطاء الله بدل		واستكثر العفو منه ضل ما نجحا
زادت ذنوبى لكن ما استجرت به		الا وجدت مقام العفو قد وضحا
ان نام قلبى من الزلات فى ظلم		فانه بضياء العفو منه صحا
الذنب يحزننى والعفو يفرحنى		فاعجب لكاسب ذنب ينشىء فرحا

وما أروع المقابلة فى كلامه المبارك فى الأبيات السابقة . ويغلب رضى الله عنه الرجا على الخوف فيقول فى الهامه البديع :

من ينادى الكريم عجزا وذلا		قد أجاب الكريم فضلا نداه
ان علمتم أن الاله كريم		أتراه يرد من ناداه
لو بأعمالنا نكافأ ضعنا		انما عفوه وحسن عطاء
ان رجونا فالرجاء من العبد		جميل اذا دعا مولاه
رب رفقا بمن أتاك ضعيفا		حاملا ثقله كثيرا أذاه
ان ربى بما تقرر آولى		لا يرد الضعيف ان ناجاه
أنا باك ولست يوما بشاك		كيف أشكو والقلب حل حماه

ومع الرجاء فى الله يدعو رضى الله عنه الى الجهاد فى سبيل الله فيقول :

أتحب أن ترقى بغير مشقة		لولا المشقة لا ينال علاه
جاهد تنل واصبر واصدق تسد		واسهر تذق واعبد يهبك عطاه
يا أيها الاخوان هل من ذاكر		عهدا مضى كنا ضياء سماه
كنا أولى أدب وفين حكمة		الفرد منا كوكب بسناه
كنا نقوم على رضا كنا نسير		على تقى كل يحب أخاه

ما بالنا شيطاننـا فى يومنـا   غلب الجميع وما يـرد عنـاه
فيقول لى أنت المحب وينثنى   لسوى يمدح أنت كنز حماه
عودوا بنا لليل نسهر بالهدى   فالليل يكشف للمريد غطاه
أننام ليلا ثم ندعى سادة   هذا الضلال البحث وا أسفاه
لا تطمئنوا للحياة وصفوها   فالصفو قبل الموت ما آراداه
لا تركنوا للنوم فى أيامكم   فالنوم للمشتاق بدء جفاه
سر يا مريد علىالمبادىء صادقا   للمنتهى حتى تنال رضـاه

والخـــوف يبعـــث علـــى تقـــوى الله أتقـــاء لغضـــبه وبـــالتقوى يتخـــذ المـــؤمن ربـــه صـــاحبا ، ويـــدع النـــاس جانبـــا ، والـــى أخـــوانى القـــراء مـــثلا مـــن تفكيـــر الســـادة الصـــوفية ، فيمـــا يقـــربهم الـــى الله ، ويـــدعوهم الـــى المجاهـــدة فـــى ســـبيله والاعتماد عليه فى جميع أمورهم :

روى أن حاتمـــا الأصـــم كـــان تلميـــذا لشـــقيق البلخـــى رضـــى الله عنـــه فقـــال الشـــيخ لتلميـــذه منـــذ كـــم صـــحبتنى ؟ قـــال منـــذ ثـــلاث وثلاثـــين ســـنة قـــال فمـــا تعلمت منى فى هذه المدة ؟

قـــال ثمـــانى مســـائل ، قـــال شـــقيق : أنـــا لله وانـــا اليـــه راجعـــون ذهـــب عمـــرى معـــك ولـــم تـــتعلم الا ثمـــانى مســـائل فمـــا هـــى ؟ قـــال : الأولـــى . . نظـــرت الـــى هـــذا الخلـــق ، فرأيـــت كـــل واحـــد يحـــب شـــيئا فـــلا يـــزال محبوبـــه معـــه ، فـــاذا ذهـــب الـــى قبـــره فارقـــه فجعلـــت الحســـنات محبـــوبى ، قـــال أحســـنت فمـــا الثانيـــة ؟ قـــال : نظـــرت فـــى قـــول الله عـــز وجـــل ((وأمـــا مـــن خـــاف مقـــام ربـــه ونهـــى الـــنفس عـــن الهـــوى فـــان الجنـــة هـــى المـــأوى)) فعملـــت ان قولـــه تعـــالى حـــق ، فأجتهـــدت نفســـى فى دفع الهوى حتى استقرت على طاعة الله تعالى .

الثالثـــة . . انـــى نظـــرت الـــى هـــذا الخلـــق فرأيـــت كـــل مـــن لـــه شـــىء لـــه قيمـــة ولـــه عنـــده مقـــدار يحفظـــه فـــى قـــول الله عـــز وجـــل (مـــا عنـــدكم ينفـــذ ومـــا عنـــد الله بـــاق) فكلمـــا وقـــع لـــى شـــىء لـــه قيمـــة ومقـــدار وجهتـــه الـــى الله تعـــالى ليبقى لى عنده

الرابعـــة : نظـــرت الـــى هـــذا الخلـــق فرأيـــت كـــل واحـــد مـــنهم يرجـــع الـــى المـــال والحســـب والشـــرف والنســـب ، فنظـــرت فـــاذا هـــى لا شـــىء ، ثـــم نظـــرت الـــى قولـــه تعـــالى ((ان أكـــرمكم عنـــد الله أتقـــاكم)) فعمـــدت الـــى التقـــوى حتـــى أكـــون عنـــد الله كريما .

الخامســـة : نظـــرت الـــى هـــذا الخلـــق فوجـــدت بعضـــهم يطعـــن فـــى بعـــض ويلعـــن بعضـــهم بعضـــا ، فعلمـــت أن أصـــل ذلـــك كلـــه الحســـد فنظـــرت الـــى قولـــه تعـــالى : (نحـــن قســـمنا بيـــنهم معيشـــتهم فـــى الحيـــاة الـــدنيا) فتركـــت الحســـد وعـــداوة الخلق وعلمت أن الذى قسم لى كائن لابد منه .

السادســـة : نظـــرت الـــى هـــذا الخلـــق يبغـــى بعضـــهم علـــى بعـــض ويعـــادى بعضـــهم بعضـــا فنظـــرت الـــى عـــدوى فـــى الحقيقـــة فـــاذا هـــو الشـــيطان وقـــد قـــال تعـــالى (ان الشـــيطان لكـــم عـــدو فاتخـــذوه عـــدوا) فعاديتـــه وأحببـــت النـــاس أجمعين .

الســـابعة : نظـــرت الـــى الخلـــق فوجـــدتهم يطلبـــون الكثـــرة ويـــذلون أنفســـهم بســـببها ، ثـــم نظـــرت الـــى قولـــه تعـــالى (ومـــا مـــن دابـــة فـــى الأرض الا علـــى الله رزقهـــا) فعلمـــت أنـــى مـــن جملـــة المـــرزوقين فاشـــتغلت بـــالله عـــز وجـــل وتركـــت ما سواه .

الثامنـــة : نظـــرت الـــى هـــذا الخلـــق فـــرأيتهم يتوكـــل بعضـــهم علـــى بعـــض ويتوكـــل هـــذا علـــى تجارتـــه ، وهـــذا علـــى صـــنعته ، وهـــذا علـــى صـــحة بدنـــه ، وكـــل مخلـــوق يتوكـــل علـــى مخلـــوق ، فرجعـــت الـــى قولـــه عـــز وجـــل (ومـــن يتوكـــل علـــى الله فهـــو حســـبه) فتوكلـــت علـــى الله عـــز وجـــل فقـــال الشـــيخ لتلميـــذه ، وفقـــك الله يا حاتم فقد جمعت الأمور كلها .

اللهـــم انـــا نخافـــك ، وأنـــت الغفـــور الـــرحيم ، ونخافـــك وأنـــت القهـــار ذو الـــبطش الشـــديد ، فاجعلنـــا يـــا إلهـــى فـــى خوفنـــا مـــن الـــراجين ، وفـــى رجائنـــا مـــن الخـــائفين ، ليمتـــزج خوفنـــا ورجاؤنـــا فاننـــا لا نخـــاف الا مـــن نرجـــوه ، ولا نرجـــو الا نخـــاف ، وقـــد ســـبقت رحمتـــك وجودنـــا ، ومغفرتـــك ذنوبنـــا ، وان خوفتنـــا فمـــن رحمتـــك بنـــا ، وان أطمعتنـــا فـــى رحمتـــك فمـــن احســـانك الينـــا ، فعاملنـــا بفضـــلك ولا تعاملنـــا بعـــدلك فانـــك قلـــت وقولـــك الحـــق ((ان ربـــك واســـع المغفرة)) .

- ٨ -

((وانـــى اســـأل الله لكـــم ولنـــا التوفيـــق والرضـــا وأن يجعـــل وجهتنـــا اليـــه ، وان يفـــتح لنـــا طريـــق الخيـــر ، وان يمـــدنا بنـــور مـــن نـــور نبيـــه صـــلى الله عليـــه وســـلم حتـــى نســـلك ســـبيله القـــويم ، وان يجعـــل فرحنـــا بـــه خيـــر مـــا نلقـــاه بـــه يـــوم القيامه ، انه سميع الدعاء))

ويـــرى اخـــى القـــارىء الكـــريم فـــى كـــلام شـــيخى العـــارف بـــالله ســـيدى الشـــيخ عبـــد الســـلام الحلـــوانى رضـــى الله عنـــه ، مشـــرب الســـاده الصـــوفيه الاكـــابر ، فـــى التبـــرى مـــن الحلـــول والقـــوه ، والركـــون الـــى الله تعـــالى فيمـــا يحتاجـــه العبـــد للفـــلاح ، مـــن التوفيـــق ، وعـــون الله ، والنـــور النبـــوى المبـــين الـــذى يهـــدى الـــى الله ســـبحانه ، مصـــداقا لقولـــه تعـــالى (وان تطيعـــوه تهتـــدوا) وقولـــه تعـــالى (وانـــك لتهـــدى الـــى صـــراط مســـتقيم) ، فمـــن اطاعـــه صـــلى الله عليـــه وســـلم فقـــد اطـــاع الله (مـــن اطـــاع الرســـول فقـــد اطـــاع الله) ومـــن بايعـــه صـــلى الله عليـــه وســـلم فقـــد بـــايع الله ((ان الـــذين يبايعونـــك انمـــا يبـــايعون الله يـــد الله فـــوق ايـــديهم)) ويـــرى الســـاده الصـــوفيه ان هـــذه الآيـــه الأخيـــرة هـــى امـــدح آيـــة فـــى القـــرآن لمولانـــا رســـول الله صـــلى الله عليـــه وســـلم ، حيـــث كانـــت يـــده صـــلى الله عليـــه وســـلم ممثلـــه ليـــده تعـــالى بـــين العبـــاد ، فصـــارت ايـــدى العبـــاد فـــى الأرض فـــى يـــد مولانـــا رســـول الله صـــلى الله عليـــه وســـلم ، وصـــار الله فـــى عليائـــه شـــهيدا علـــيهم فـــى بيعـــتهم ، وارضـــيا عـــنهم فيمـــا بـــايعو عليـــه ، فمـــن نكـــث فأنمـــا ينكـــث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما .

كـــل مـــؤمن مبـــايع بايمانـــه لمولانـــا رســـول الله صـــلى الله عليـــه وســـلم بمثـــل ما بايع عليه أسلافه الأولون ، لذلك كان مولانا رسول الله عليه

وسلم أبا للأرواح المؤمنة ، وله على المؤمنين حرمة الأبوة ، كما أن أزواجه الطاهرات . رضوان الله عليهن . لهن حرمة الأمومة ، فحرم الله نكاحهن من بعده ، تأكيدا لهذه الحرمة ، وذلك بنص صريح فى القرآن كما هو معلوم ، ويوجب السادة الصوفية الاكثار من الصلاة على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لعظم فضلها ، وكثرة نفعها للمصلى ، ورايت فى بعض مراجعهم ، ان اقل حد لها عندهم ، ثلثمائة مرة فى اليوم ، ويقولون فى تبرير الاكثار منها انه تعالى أبرز فضلها فى قوله تعالى (ان الله وملائكته يصلون على النبى يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) وهى آية تدلنا على أنه سبحانه يثنى عليه عند الملائكة المقربين ، وأن الملائكة يصلون عليه ، فأراد الله تعالى أن يصلى عليه أهل الأرض ، كما يصلى عليه أهل السماء (ان فضله كان عليك كبيرا) وكان هو صلى الله عليه وسلم يصلى على نفسه امتثالا لأمر الله تعالى ، وليتأسى به المؤمنون .

ويقول العارفون ليست الصلاة عليه شفاعة منا له صلى الله عليه وسلم ، ولكنها مكافأة لمن أحسن الينا ولأننا عاجزون عن مكافأته على احسانه وجب علينا أن ندعو له فتكون صلاتنا عليه مكافأة باحسانه ، ولا نعمة أفضل من نعمة الايمان التى جاءتنا على يديه صلى الله عليه وسلم ، واذا كان الحق سبحانه شرفه بالصلاة عليه مع ملائكته فما أخجلنا ان فرطنا فيها ، كأنه تعالى يقول لنا ان صليتم عليه كسبتم خيرا لأنفسكم لأنه غنى عن صلاتكم بصلاتى عليه وكفاه غنى بها .

وقد كان بعض السلف الصالح يتوددون اليه صلى الله عليه وسلم بقربات أخرى الى جانب الصلاة عليه ، لعلمهم أنه صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية ويثيب عليها ، ومن ذلك مثلا ، ما رواه الامام أبو طالب المكى رضى الله عنه فى كتاب قوت القلوب من أن الامام على بن الموفق رضى الله عنه حج حجات عن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فرآه صلى الله عليه وسلم يقول له يا ابن الموفق حججت عنى ؟ قال قلت نعم يا رسول الله ؟ ولبيت عنى ؟ قال قلت نعم يا رسول الله ؟ قال له صلى

الله عليه وسلم : هذه يد لك عندى أكافئك بها يوم القيامة ، آخذ بيدك وأدخلك الجنة ، والخلائق فى كرب الحساب . فيافوز أهل المودة ، جعلنا الله منهم بفضله وكرمه آمين .

وفى مناسبة قوله تعالى (يد الله فوق أيديهم) يعجبنى ما يقوله السادة الصوفية فى المتشابهات ، فهم يقولون جاء فى كتاب الله تعالى (يد الله فوق أيديهم) وجاء (بل يداه مبسوطتان) وجاء (والسماء بنيناها بأيد) ونحن نؤمن بها كلها على ما أراد الله منها . وهم لذلك لا يؤولون المعانى كما أولها بعض العلماء من الخلف .

ولما كان مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا للأرواح المؤمنة فهو الأسوة الحسنة لأبنائه ممن كان يرجو الله واليوم الأخر وذكر الله كثيرا ، ولا يصل المؤمن الى ربه الا من بابه ، بحسن التأسى به ، والعمل بأقواله وأفعاله وأحواله ، وصدق سيدى محمد البكرى الكبير رضى الله عنه اذ يقول :

وأنت باب الله اى امرىء أتاه من غيرك لا يدخل

والشيوخ العارفون بالله تعالى ، وقد بينا وصفهم فى المقالات السابقة نواب عنه صلى الله عليه وسلم فى الدعوة والارشاد والتهذيب الروحى ، وكل جيل مرزوق من فضل الله بأمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون .

ولأبوته صلى الله عليه وسلم ، أشفق على أمته شفقة الأب على أبنائه ، وحرص على ما ينفعهم وشق عليه ما يؤلمهم ، فكان فى شأنهم الرءوف الرحيم (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) .

وقد وقع لى ما لم أكن أحب أن أبوح به ، لولا أنى قصدت بذلك وجه الله فى تثبيت أفئدة اخوانى المؤمنين ، أقول وقع لى ما أكد عندى ، انه وهو فى قبره الشريف حى يلحظنا ويبرنا ، ويشمل بره ، المجد منا والمقصر ، فقد كنت وأنا المقصر متشرفا بزيارته صلى الله عليه وسلم ، وحين

حـــان موعـــد الســـفر زرنـــا زيـــارة الـــوداع وبينمـــا أنـــا قاصـــد الـــى مكتـــب شـــركة الطيـــران ، ســـمعت صـــوته الشـــريف يـــرن فـــى آذانـــى بهـــذه العبـــارة الرحيمـــة (شـــيعتكم الســـلامة) ولـــم أقـــرأ أو أســـمع فـــى أيـــة مناســـبة مثلهـــا ، فالشـــائع بيننـــا فـــى الاســـتعمال رافقـــتكم الســـلامة ، فجاشـــت نفســـى متـــأثرة بعاطفتـــه الكبيـــرة صـــلى الله عليـــه وســـلم ، وذرفـــت عينـــاى الـــدموع ، ومـــا كـــادت الســـيارة التـــى تقلنـــا الـــى المطـــار تنعطـــف فـــى الشـــارع الـــذى نـــرى منـــه جبـــل أحـــد حتـــى أشـــتد بكـــائى مـــع مغـــالبتى لـــه ، وكـــان بكـــائى مـــن رؤيـــة جبـــل أحـــد ، مـــدفوعا بتضـــحيات مولانـــا رســـول الله صـــلى الله عليـــه وســـلم فـــى اقامـــة هـــذا الـــدين القـــيم ، وقلـــت ورثنـــاه ســـهلا ، فلـــم نقـــدره قـــدره ، ولـــم نعمـــل لـــه عمـــل الســـلف الأوائل ، الذين جاهدوا فى الله حق جهاده بالنفس والمال .

وكنـــت أظـــن أن تلـــك العبـــارة الرحيمـــة انمـــا هـــى توديـــع لزائـــر تشـــرف بالرحـــاب النبـــوى الشـــريف الكـــريم ، واذا بـــالأمر يتعـــدى التوديـــع ، الـــى أفـــق آخـــر لا تحســـه الا الـــروح النبويـــة المشـــرفة ، ذلـــك بـــأن الطـــائرة مـــا كـــادت ترتفـــع فـــى الجـــو علـــى كثرتهـــا ، واذا بـــالقلوب تكـــاد تنخلـــع ، واذا بـــالقىء يشـــتد عنـــد كثيـــر مـــن الركـــاب واذا بمســـاعد الطيـــار الأمريكـــى يخـــرج ليطمـــئن النـــاس ، ولمـــا رآنـــى أتصـــبب عرقـــا قـــال لـــى لـــى بالانجليزيـــة ابلـــع الهـــواء ، وظـــن أنـــى لـــم أفهمـــه ، فأخـــذ يبلـــع الهـــواء لأحاكيـــه ، ولكنـــى كنـــت مطمئنـــا علـــى نفســـى وعلـــى جميـــع الركـــاب ، بالعبـــارة النبويـــة الرحيمـــة التـــى كـــان ســـماعها فـــى ذلـــك اليـــوم الأغـــر أحب الى مما طلعت عليه الشمس .

وابتهجـــت يومئـــذ مـــن موقـــف ســـيدة مؤمنـــة انطلقـــت تقـــول والطيـــارة تعلـــو وتهـــبط فـــى عنـــف عنيـــف ، ودادا يارســـول الله ، ودادا يارســـول الله ودادا يارســـول الله ، وقصـــدت أن تتجنـــب عامـــدة كلمـــة وداع وهـــو ذوق يدركـــه المحبون والمحبات فلله درها من مؤمنة ، بدل الله خوفها أمنا .

وعلـــى قـــدر التأســـى بـــه صـــلى الله عليـــه وســـلم ، يقـــوى الارتبـــاط بـــه روحيـــا ، فمـــن جـــد فـــى التأســـى بـــه ، جـــد بـــه شـــوقه اليـــه ، واســـتمداده منـــه صـــلى الله عليـــه وســـلم

وفـــى ذلـــك الاســـتمداد يقـــول امـــام المـــادحين الامـــام البوصـــيرى رضـــى الله عنه :

كل فضل فى العالمين فمن فضل النبى استعاره الفضلاء
أى نور وأى نور شهدنا يوم أبدت لنا القباب قباء
فترى الركب صائرين من الشوق الى طيبة لهم ضوضاء
وقرأنا السلام أكرم خلق الله من حيث يسمع الاقراء
وذهلنا عند اللقاء وكم أذهل صبا من الحبيب لقاء
ووجمنا من المهابة حتى لا كلام منا ولا ايماء
ورجعنا وللقلوب التفاتات اليه وللجسوم انثناء
يا رحيما بالمؤمنين اذا ما ذهلت عن أبنائها الرضعاء
يا شفيعا للمذنبين اذا أشفق من خوف ذنبه البرآء
قد تمسكت من ودادك بالحبل الذى استمسكت به الشفعاء
وانطوت فى الصدور حاجات نفس مالها عن ندى يديك انطواء
جد لعاص وما سواى هو العاصى ولكن تنكرى استحياء

الى أن قال رضى الله عنه وفى قوله نصيحة غالية لنا :

وبحب النبى فابغ رضا الله ففى حبه الرضا والحباء
كيف يصدأ بالذنب قلب محب وله ذكرك الجميل جلاء
هذه علتى وأنت طبيبى ليس يخفى عليك فى القلب داء

ومـــن جـــد بـــه شـــوقه لمولانـــا رســـول الله صـــلى الله عليـــه وســـلم اســـتمد مـــن حبـــه صـــلى الله عليـــه وســـلم لربـــه وقـــد فـــاق فيـــه صـــلى الله عليـــه وســـلم جميـــع المحبـــين لله تعـــالى ، حتـــى لقـــد قـــال العـــارفون ان الله تعـــالى عجـــل لـــه صـــلى الله عليـــه وســـلم الرؤيـــة ، بـــلا كيـــف ، ليلـــة المعـــراج ، لأنـــه تعـــالى رأى بعلمـــه أن القلـــب المحمـــدى هـــو أشـــد القلـــوب شـــوقا الـــى الله فكـــان مـــا قـــال تعـــالى (مـــا كـــذب الفـــؤاد مـــا رأى) أمـــا ســـائر المـــؤمنين فـــانهم يتمتعـــون بالرؤيـــة بـــلا كيفيـــة عنـــد التجلـــى لهـــم فـــى الجنـــة مصـــداقا لقولـــه تعـــالى (وجـــوه يومئـــذ ناضـــرة الـــى ربهـــا نـــاظرة) وتتشـــوف المحبـــة الولهانـــه العارفـــة بـــالله الســـيدة رابعـــة العدوية الى تلك الرؤية فتقول :

ليس قصدى من الجنان نعيما غير أنى أحبها لأراكا

ولـذلك التجلى الأقدس يشير سيدى الشيخ رضى الله عنه ((وان يجعل فرحنا به خير ما نلقاه به يوم القيامة)) ويقول فيه بعض العارفين شعرا :

ولله أفراح المحبين عندما يخاطبهم من فوقهم ويسلم
ولله أبصار ترى الله جهرة فلا الضيم يغشاها ولا هى تسأم
فيا نظرة أهدت الى الوجه نضرة غدا كل وجه بالجمال مبسم
فحى على جنات عدن فانها منازلك الأولى وفيها المخيم
وحى على يوم المزيد الذى به زيارة رب العرش فاليوم موسم

أما قول سيدى الشيخ ((انه سميع الدعاء)) فيفيد حسن الظن بالله تعالى وهو سبحانه عند ظن عبده به ، فان ظن خيرا وجد خيرا ، وان ظن شرا وجد شرا . ألست تراه تعالى يقول للكافرين والعياذ بالله (وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين) .

ويقول العارفون ان كل دعوة عن حسن ظن بالله تعالى مستجابة قطعا لكن على الوجه الذى يريده الله ويرى بعلمه فيه الخير للداعى ، فقد يجيبه الى طلبه ، وقد يصرفه عنه لحكمة يعلمها الله ويبدله خيرا منه ، وقد يثيبه الله تعالى يوم القيامه ، لأن الدعاء عبادة بل هو مخ العبادة كما جاء فى الحديث الصحيح :

ولله در سيدى العارف ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه اذ يقول :

ففى افتقارى وتسآلى ومد يدى أقوى دليل على أن تقضى الأربا
لو لم تردنى لما أرجو وآمله من فيض جودك ما علمتنى الطلبا

ويكشف أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل عن حسن ظنه بالله وعن موالاة الله له فى الدنيا والآخرة فيقول رضى الله عنه :

ولنا من نور حضرته أمل فى يوم رؤيته
قد رجونا فيض رحمته وتلاحقنا بساحته

فلقينـا أطيب الأمـل

ادخرنا ذكـره عـددا واتخذنا وده مـــددا

ومـددنا للعطـاء يدا فأفاضـت باليقين يدا

خـالقى فالكل فى نـهل

رائـدى فى حبـه سهـرى وبهـذا تم لـى ظفـرى

يا فؤادى كن على حـذر من حسـاب الله واعتبـر

بالذى قـد مر من دول

طول ليلى فى محبتكم أتحلى من جلالتك

قد غرقنا فى مودتكم وانتظمنـا فى حمايتكم

فى جلال صيب هطل

يا حبيبى أنت محتسبى وتوجهنـا بذلتنـــا

أنت يارب السما أربى أنت يا خلاق منتســبى

أنت لى ياذا الجـلال ولى

قد تعـاهدنا بمـهجتنا وتجملنـــا برقتنـــا

وتأهبنـا بخشــيتنا وتوحهنـا بذلتنـــا

وعن الأعتـاب لم نمل

ولنـا من ربنـا كرم وعلينـا تسكب النعـم

نحن بالأيمـان نغتنـم وبوجـه الله نعتصـم

ولنـا الاخلاص فى العمل

راحتى فى الحب وجهتكم مطلبى فى العمـر رؤيتكم

مقصدى فى الموت رحمتكم قد دعتنى اليوم خشيتكم

لكمو والقلب وجل

لم تغب عنى مشاهدكم طالما روحى تعاهدكم

وتـزكينى مقاصدكم وتجلينـى مـــواردكم

فأرى من ١ضوئها أملى

أما نور مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى سأل الله شيخنا أن يمدنا به ، فهو نور الهدى الذى يمد به كل مؤمن من روحه الوضاءة صلى الله عليه وسلم ، لأنه السراج المنير الذى يهتدى به السالك الى ربه عز وجل (يا أيها النبى انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا) ويقول فيه تلميذه المبارك العارف بالله سيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه .

دع زمانا مضى وعد بى لأرض شفعتنى بنورها المتلالى
بين بيداء روعت ووهاد وذئاب يختال فى اقبال
ونجوم مثل الحباب على الكأس تسامت أو كالحلى واللآلى
قيل ماذا تريد من هذه الأرض اتبغى البقاء فى جمع مال
قلت والله غير أحمد مالى بعد رب العباد من آمال
يا حبيبى رضاك دنيا ودين فهما باتباعكم صحا لى
نفحتنى بنوركم نعمة الخير وقد طابت منكمو آمالى
يا جميلا ما مثله من جميل كان للبدر منك فضل الجمال
أنت للكون مبدأ وانتهاء أنت من ساقه الى الاجلال
أول النور فى الحياة وان جئت على بعثة ختام الأوالى
انما الكون منك كالصدف استوطنته درة تسود الغوالى
أنت سر الحياة بل سيد الكون أجرنى مما أرى من وبال
انما أنت مصدر النور من ربى ومعنى الرضا وباب الوصال
مدح خير الورى أحب لنفسى من أنيسى وصاحبى وعيالى
بل ومنى ومن جميع البرايا لحماه الحياة أزجى رحالى

وقد سئل رضى الله عنه أن يرتجل على البيت الآتى فجاء الهامه بالعجب العاجب ، الذى ألهب القلوب بالشوق لولانا رسول الله صلى الله عليه وصلم وذلك البيت هو :

المصطفى ما زال يعلو قدره حتى غدا فى الكون مسكا عاطرا

فكان مما ألهمه الله على الفور :

المصطفى مازال يعلوا قدره فسما الزمان أوائلا وأواخرا
طهر فؤادك من شوائب غيه حتى تقابله فؤادا طاهرا
ياسيدى ولقد غدرت مناجيا عمرى وبت مع الجلال مسامرا
كم من صغير جاء حيك تائبا أضحى يسود من الرجال أكابرا
لم أنس أيام الطفولة حيثما كنت المؤمل لى وكنت الظافرا
فاذا نهلت نهلت من نور الهدى واذا سكرت سكرت علما زاخرا
واذا غفوت غفوت صبا مغرما واذا أفقت رأيته لى ناظرا
أنا ان اكن جسما بعيدا انما روحى من النجوى تفيض سرائرا
لم أنسى حبك ما حييت وان مت أجد الغرام على مد منابر
أنا هائم ومن المحبة هائج كالريح قد أزجى السحاب الماطر
فأصب فى الاحساس من مهج الورى حكما تقلبها القلوب مزاهرا
أنا كل شىء فى الحياة تركته ووقفت نفسى للنبى مثابرا
والوقف لا يشرى وليس يباع فى حال يدوم الى القيامة حاضرا
أنا باسمكم والى اسمكم ولو سمكم فى رسمكم قلبى على الشعرى سرى

ولم يتمالك السامعون أعصابهم حين سمعوا هذا البيت الأخير فهبوا واقفين وهتفوا هتاف الاعجاب ونظرت الى وجه الشيخ فوجدته استدار كوجه القمر ، وكأنه كسى نورا من الأنوار النبوية التى وصفها سيدنا حسان ابن ثابت الأنصارى رضى الله عنه (وهو شاعرمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى قوله :

لما نظرت الى أنواره سطعت وضعت من خيفتى كفى على بصرى
خوفا على بصرى من حسن صورته فلست أنظره الا على قدر
روح من النور فى جسم من القمر كحلية نسجت فى الأنجم الزهر

اللهم اجعلنا يا مولانا ممن احببتهم وأحبوك وجعلت علامة حبهم لك اتباع رسولك الأمين صلى الله عليه وسلم فى قولك الكريم (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله فغور رحيم) .

((أما عن تخيركم الاقامة فى حى السيدة زينب ، فانها نعمت الخيرة ونعمت الجيرة ، وهل تكون جيرة أحق من تلك الجيرة ، جيرة أهل البيت ولك حق الجوار : الرحمة والبركة واستدرار الخير من الرحمن الرحيم ، الذى يكرم آل البيت ، ويكرم من يجاورهم ومن جاور السعيد يسعد فنعم ما فعلت)) .

هذه لفتة كريمة من شيخى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه يريبنى فيها ، على محبه سادتى آل البيت والتبرك بهم ، ويعلمنى أن التبرك بهم ليس من الاشراك بالله كما يفهم بعض المغالين بل هو استدرار الخير من الرحمن الرحيم ، الذى أكرم آل البيت ، بأن جعلهم فى الدنيا فروع الشجرة المحمدية النامية ، ذات الظل الظليل ، والثمر الناضج الأصيل وفى الآخرة ورثة الجنة والسلسبيل ، فمن استظل بهم تمتع بعطاء الله فهم القوم لا يشقى جليسهم ، وكيف يشقى بهم جليسهم وهم أمان لأهل الأرض يهدون من الضلال ، ويعصمون من الفتن ، وانعامهم على جيرانهم ، من انعام الله عليهم وقد قال تعالى لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ((واذ تقول للذى انعم الله عليه وانعمت عليه امسك عليك زوجك واتق الله)) ، والمنعم واحد سبحانه ، لكنه تعالى جعل الانعام باسبابه ، فمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان سببا فى اسلام زيد ، وفى زواجه من السيده زينب القريش ، وفى عتقه من الرق ، فلا تنافى بين انعام مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين التوحيد ، بل هو التوحيد بعينه لان العلم بان الأسباب لا تغنى وحدها عن المسبب ، هو عين التوحيد ، فان علم الانسان منا بان والديه هما سبب وجوده فى الدنيا ليس معناه انهما هما الخالقان ، بل الله وحده سبحانه هو الخالق ، وقد جاءت الشبهه

للمغالين من ظنهم أن المؤمنين يخلطون بين الأسباب ومسبباتها خلط الشرك ، وليس هذا صحيحا ، بل الصحيح أنهم بحب الله ورسوله أحبوا آل البيت ، وباكرام الله لهم أكرموهم ، وببركات الله التى تجرى عليهم من ربهم ، وتبركوا بهم ، الوحدانية لله وحده ، والعطاء عطاؤه ، والبركة منه والوسائل بينه وبين عبادة قامت بتدبيره تعالى وارادته ، فخاطب عباده على ألسنة الرسل عليهم صلوات الله ، وفرض صلاة الجنازة ، ليشفع البعض فى البعض ، وجعل الملائكة مستغفرين للذين آمنو ، ليكون استغفارهم وسيلة لمغفرته تعالى ، وأمر الخضر عليه السلام أن يقيم الجدار ، ليحفظ الصالح الذى مات فى ذريته الضعاف ، ولا شك أن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أولى بأن يحفظه الله فى ذريته بعد انتقاله الى الرفيق الأعلى من ذلك الرجل الصالح ، وكيف لا يسعد آل البيت به صلى الله عليه وسلم وقد صرف الله العذاب عن أعدائه بوجوده بينهم فقال تعالى ((وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم)) ولا يخفى أن آل البيت جمعوا الى شرف النسب ، شرف العمل ، فصاروا أئمة الهدى فى كل جيل ، والله يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

وانما حملنى على التمهيد المتقدم عا عمد اليه بعض المغالين من تكفير زائرى السادة آل البيت أو الداعين ربهم فى رحابهم ، أو المتبركين بهم ، وفى الزائرين علماء أجلاء وصالحون أتقياء ، وائمة يقتدى بهم ، وينتفع بصحبتهم .

وواجب على المسلمين أن يحموا عقيدة التوحيد من أى زيغ أو شطط ، وكل مسلم بحمد الله يشهد فى كل تشهد ، بأن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم هو عبد الله ورسوله ، فاذا كانوا لم يشركوه صلى الله عليه وسلم مع الله ، فكيف يقال أنهم أشركوا أولياء الله مع الله ، حاشا وكلا ، فذلك ليس من الحقيقة فى شىء ، واذا كنا نسمع من الجاهلين كلمات موهمة فلنعلمهم آداب الزيارة ولا نكفرهم ، والله مطلع على النيات ولا يأخذ عباده بظواهر الألفاظ . ألست تراه تعالى يقول ((لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم)) .

وتعـــالى معـــى أيهـــا القـــارئ الكـــريم ، أســـمعك كلمـــات طيبـــات طـــاهرات ، شـــدا بهـــا أســـتاذى العـــارف بـــالله ســـيدى الشـــيخ علـــى عقـــل طيـــب الله ثـــراه اذ يقـــول فى سادتى آل البيت من دوره وقد سئل أن يرتجل على البيت الآتى :

بنفسى أفدى الزهر من بضعة الزهرا   وان هم رضوا نفسى فقد عظمت قدرا

فقال الهاما على الفور من عطاء الله تعالى :

بنفسى أفدى الزهر من بضعة الزهرا   بهم نلت الخير دنياى والأخرى
لقد غرسونى من زهور رياضهم   فطابت حياتى من مكارمهم زهرا
اذا قيل لى تهواهموا قلت ملكهم   ووقف يمين لا يباع ولا يشرى
ولو أن جود العالمين أقيسه   على جودهم يوما لما مثل العشرا
تساموا على كل الأنام فضائلا   وقد بين القرآن أوصافهم طهرا
جداول من بحر النبى محمد   فما مثلها تلقى جداول أو بحرا
لقد شهدت روحى حماهم ومتعت   بأنوارهم أنعم بها منة كبرى
اذا عشيت عينى فطى جوانحى   عيون ترينى سر أنوارهم جهرا
وكم عازل لى قال كيف تحبهم   وكيف لهم تسعى وقد غيبوا قبرا
وعينا من القرآن آية هل أتى صفا سعيهم لله واستوجب الشكرا
فان كان ذنبى أن قلبى يحبهم   فان ذنوبى لن تلم بها حصرا
وعندى يقين أن لى باتباعهم   حياة محب باسمهم كسب الأجرا
وما أحسن الدنيا على صدق ودهم   وما أحسن الأخرى لتابعهم ذخرا
وها أنا مشتاق اليهم وسائر   علىحبهم أنفقت سعيى والعمرا
اذا اتصلت روحى بهم فى مسيرها   تفوز باكرام وتسعد بالبشرى
أحب وأستجدى وأهوى وأهتدى   ولى لذة فى مدحهم تثلج الصدرا
اذا نظرونى زال من قلبى الأسى   وان منحونىعشت أغترف الخيرا
على بابهم أسمو سمو أولى النهى   فان هم رضوا نفسى فقدعظمت قدرا

واقـــرأ أيهـــا الأخ الكـــريم حســـن تعليلـــه فـــى ارتيـــاد ديـــارهم لأنهـــا ديـــار التجلـــى علـــى أصـــفياء عبـــاده ، فيكســـب المحـــب زيـــادة فـــى يقينـــه مـــن عنـــد أهـــل التجلى – فيقول رضى الله عنه من كلام طويل :

دعونى أمجد آل بيت محمد فانهو نورى وأصل تعبدى
همو سندى الأسمى همو مدد العلى همو قوة التقوى همو شمس موردى
دعونى فى حب الحسين وجده أشاهد من عليائهم كل مشهد
أتعذلنى فى الحب والحب نعمة اذا ذاقها المشتاق لم يتباعد
اذا كان حبى سبط أحمد بدعة فانى بتلك البدعة العمر مقتدى
ولست بناء عن هواهم لأننى عرفت بهم ربى فهم أصل معهدى
وقد طال بى وجدى ولذ لى الجوى فقلبى قلب العاشق المتوقد
فيا مانحى روح اليقين وموردى ديار التجلى أنت لى خير مرشد
تجلت لى الأفراح وهى شواهد ودانت لى الأرواح والكل قد هدى

وفى الوقت ذاته يرشد الى التعلق بالله وتوحيده سبحانه فيقول :

أخى لا تغرنك الحياة وزيفها فما هى حظ الناسك المتزهد
ودونك أيام أمامك غيرها فان زال عنك الأمس فانظر الى الغد
وحاضرك اقرنه بماضيك عبرة ونفسك عودها الحساب لتهتدى
سريرتك احفظها لربك وحده فان نقاء القلب أصل التعبد
واقبل على مولاك يقبل بفضله عليك ووجه نحوه القلب تحمد

وأنت ترى من ارشاده أن حب آل البيت لا ينافى توحيد الله وأن حب آل البيت والأهتداء بمسلكهم لله ، والتشبه بهم فى ايثار الله تعالى على ما سواه ، من وسائل تنقية السرية لله سبحانه ، وتعليل ذلك ، أنهم رضوان الله عهليهم اتبعوا جدهم المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وتأسوا به عن صدق طوية ، وعلو همة ، فتخلقوا بأخلاقه ، وتحلوا بأحواله ، واستناروا بنوره ، وليس وراء نور النبوة نور يستضاء به على وجه الأرض ، فالمقتدى بهم أنما يقتدى بنواب مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الدعوة الى الله فهو اقتداء به صلى الله عليه وسلم .

وقد قال تعالى ((قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم)) وقد ورد فى الحديث الشريف (أحبوا الله

لمـــا يغـــذوكم مـــن نعمـــة وأحبـــونى لحـــب الله ، واحبـــوا أهـــل بيتـــى لحبـــى)
ويعجبنى ما يقوله سيدى محيى الدين بن عربى :

أرى حب أهل البيت عندى فريضة ... على رغم أهل البعد يورثنى القربا

فما اختار خير الخلق منا جزاءه ... على هديه الا المودة فى القربى

وهـــو يشـــير الـــى قولـــه تعـــالى ((قـــل لا أســـألكم عليـــه أجـــرا الا المـــودة فـــى القربى)) .

واقـــرأ يـــا أخـــى ، ومتـــع نفســـك ، بمـــا وصـــفهم بـــه الامـــام علـــى كـــرم الله وجهـــه حـــين قـــال فـــى ســـادتنا آل البيـــت بحـــق ((هـــم عـــيش العلـــم ومـــوت الجهـــل ، يخبـــركم حلمهـــم عـــن علمهـــم وظـــاهرهم عـــن بـــاطنهم ، وصـــمتهم عـــن حكـــم مـــنطقهم ، لا يخـــالفون الحـــق ولا يختلفـــون فيـــه ، هـــم دعـــائم الاســـلام ، وولائـــج الاعتصـــام بهـــم عـــاد الحـــق الـــى نصـــابه ، وانـــزاح الباطـــل عـــن مقامـــه ، وانقطـــع لســـانه عـــن منبتـــه ، عقلـــوا الـــدين عقـــل وعايـــة ورعايـــة ، لا عقـــل ســـماع وراوايـــة ، فـــان رواة العلم كثير ورعاته قليل)) .

اللهـــم انـــا نحـــب ســـادتنا آل البيـــت بحبـــك لهـــم ، وعلامـــة حبـــك أنـــك اختـــرتهم علـــى علـــم ، وأذهبـــت عـــنهم الـــرجس فخـــافوك وطهـــرتهم تطهيـــرا فـــأحبوك ، ســبحانك لا مـــانع لمـــا أعطيـــت ولا معطـــى لمـــا منعـــت ، وقـــد أردتهـــم فيمـــا اختـــرت لهـــم ، وأنـــت الفعـــال لمـــا تريـــد ، فانـــك القائـــل حقـــا وصـــدقا ((انمـــا يريـــد الله ليـــذهب عـــنكم الـــرجس أهـــل البيـــت ويطهـــركم تطهيـــرا)) ونســـألك يـــا الهـــى ان تقبـــل توبتنـــا وتغســـل حويتنـــا ، وأن تحشـــرنا فـــى زمـــرتهم تحـــت لـــواء ســـيد المرســـلين ، صلى الله عليه وسلم ، فيشملنا قولك الكريم .

((يـــا أيهـــا الـــذين آمنـــوا توبـــوا الـــى الله توبـــة نصـــوحا عســـى ربكـــم أن يكفـــر عـــنكم ســـيئاتكم ويـــدخلكم جنـــات تجـــرى مـــن تحتهـــا الأنهـــار يـــوم لا يخـــزى الله النبـــى والـــذين آمنـــوا معـــه نـــورهم يســـعى بـــين أيـــديهم وبأيمـــانهم يقولـــون رنبا أتمم لنا نورنا واغفر لنا انك على كل شىء قدير)) .

أمـا هـذه المسـألة التـى أخبرتمـونى بهـا فلهـا ظروفهـا ، والله هـو المـدبر ، فلـيس لنـا مـن الامـر شـىء ، انمـا هـى آمـال ولـو اطلـع أحـدكم علـى الغيـب لاختـار الواقـع ، واختيـار الله لنـا خيـر ممـا نختـاره ، انمـا هـى أسـباب يـدفع الله فى قلوبنا طلب اتخاذها لينفذ أمره .

على المرء أن يسعى الى الخير جهده   وليس عليه أن تتم المطالب

وجهنـى شـيخى العـارف بـالله سـيدى عبـد السـلام الحلـوانى طيـب الله ثراه فى العبارة المتقدمة الى مبادىء أساسية فى التصوف هى :

١ - التفويض لله والرضا بالمقدور واتخاذ الأسباب المشروعه مع التفويض لله فى النتائج .

أمـا عـن التفـويض لله فهـو مـن علامـات تقـوى المـؤمن واذا بلـغ المـؤمن مقـام اليقـين بـالله أيقـن أن اختيـار الله لـه خيـر مـن اختيـاره لنفسـه ، وقـد علمنـا القـرآن الكـريم فيمـا علمنـا ((وعسـى أن تكرهـوا شـيئا وهـو خيـر لكـم ، وعسـى أن تحبـوا شـيئا وهـو شـر لكـم والله يعلـم وأنـتم لا تعلمـون)) لـذلك وجـب التفـويض للعلـيم الخبيـر الـذى يضـع الأمـور مواضـعها لعلمـه بمـا كـان ومـا يكـون ، والغائـب عنـا بالحجـاب ظـاهر لـه سـبحانه وتعـالى ، اذ لا يخفـى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

وقـد يجيبنـا الله تعـالى الـى مـا نسـعى لـه ، وقـد يفوتـه علينـا ويأتينـا بغيـره ، ويجـب علـى المـؤمن الرضـا فـى الحـالتين مـع الصـبر علـى مـا فلـت فـى الحالـة الثانية .

أما الرضا بالمقدور فهو عند السادة الصوفية من مقامات اليقين ، حتى انهم اذا خيرك الله فى شىء فاياك أ تختار ، وفر من اختيارك

الـى اختيـاره فانـك جاهـل بالعواقـب ، والصـبر علـى مـا فـات مـن علامـات الرضـا بالمقـدور ، كمـا قـالوا الرضـا بالمقـدور نعـم الوسـيلة الـى درجـات المعرفـة .

ويـروى السـادة الصـوفية فـى هـذا المجـال أن سـيدنا داود عليـه السـلام نصـح ابنـه سـيدنا سـليمان عليـه السـلام فقـال لـه ((يـابنى انمـا يسـتدل علـى تقـوى الرجـل بـثلاث ، حسـن التوكـل فيمـا لـم ينـل ، وحسـن الرضـا فيمـا قـد نال ، وحسن الصبر فيما قد فات)) .

أمـا الأسـباب عنـد السـادة الصـوفية فيـرون اتخاذهـا ولا يرونهـا متنافيـة مـع التفـويض ، ومـن أقـوالهم فـى التكسـب والتوكـل : الكسـب سـنة الرسـول وهـو عبـادة ، والتوكـل حـال الرسـول وهـو عبوديـة ، فهمـا يتلازمـان ولا يتنافيـان وقـد قـال صـلى الله عليـه وسـلم للأعرابـى حـين سـأله أيعقـل ناقتـه أو يتركهـا ويتوكل على الله . ((اعقلها وتوكل)) .

وغايـة الأمـر عنـدهم أنهـم يوجهـون المـؤمن الـى الاعتمـاد علـى الله تعـالى فـى الـرزق ، فـلا يـرون الأسـباب الا وسـيلة مـن وسـائل عطائـه سـبحانه ، وليسـت هـى الرازقـة ، والسـلاح يعـد لقتـال الأعـداء بـأمر الله تعـالى ((وأعـدوا لهم ماستطعتم من قوة)) ولا يتنافى ذلك مع اعتقاد أن النصر من عند الله .

وهـم يفوضـون كـذلك فـى نـوع الأسـباب ويـرون أن الله تعـالى هـو المـدبر والموجـه فيهـا والـدافع اليهـا ليـتم الأمـر علـى مـا أراد ومـن ثـم لا يحسـدون أحـدا هلـى مـا آتـاه الله مـن فضـله ففـى الحسـد سـخط بالحـال علـى المقـدور ، واعتـراض على تقدير العزيز العليم وان لم يتحرك اللسان بالمقال .

وقـد وقـع فـى ذلـك المقـام حـوار طريـف بـين الامـام أبـو القاسـم الجنيـد وتلاميـذه حـين قـالوا لـه أيـن نطلـب الـرزق ؟ فقـال : ان علمـتم موضـعه فـاطلبوه قالوا : نسأل الله فيعطينا ، قال : ان علمتم أنـه ينساكم فذكروه قالوا ندخل البيت ونتوكل على الله ، قال : التجربة مع الله شك خطر. قالوا : ما الحيلة ؟ قال : ترك الحيلة .

وهو لا يقصد يترك الحيلة ترك الأسباب انما يقصد بـه ترك آلام التفكير الطويل الحزين الذى ينتاب أكثر الناس قلقا على أرزاقهم وأرزاق

ذراريهـــم ، ومـــن أروع مـــا قـــرأت لهـــم مـــن الحكـــم قـــولهم : كـــن كمـــا كنـــت فـــى بطـــن أمـــك مـــدبرا غيـــر مـــدبر ، مرزوقـــا مـــن حيـــث لا تحتســـب ، أى انهـــم يقولـــون كيـــف يتكـــدر خـــاطرك مـــن هـــم الـــرزق ، وقـــد رزقـــك وأنـــت جنـــين فـــى بطـــن أمـــك دون عنـــاء فـــى تفكيـــر أو تـــدبير ، فكيـــف يتخلـــى عنـــك بعـــد أن كبـــرت ، وكيـــف يتخلـــى عنـــك ولا رازق ســـواه ، وقـــد ضـــمن الـــرزق لعبـــاده لـــئلا يشـــغلهم الـــرزق علـــى الـــرازق . واذا تكلـــم الســـادة الصـــوفية عـــن الزهـــد فـــانهم لا يقصـــدون بـــه العـــزوف عـــن الطيبـــات التـــى أحلهـــا الله تعـــالى ، انمـــا يقصـــدون بالزهـــد معـــانى رفيعـــة تـــدل علـــى صـــفاء مواجيـــدهم ، فهـــم يقولـــون : الزهـــد هـــو الرضـــا بـــالموجود والصـــبر علـــى المفقـــود عمـــلا بقولـــه تعـــالى ((لكـــيلا تأســـوا علـــى مـــا فـــاتكم ولا تفرحـــوا بمـــا آتاكم)) .

فكســـب العـــيش محمـــود عنـــدهم ، لكـــنهم يحـــذرون مـــن الافتتـــان بســـعة الـــرزق لأن الافتتـــان بـــه غفلـــة عـــن الآخـــرة ، ولا يصـــح للعاقـــل أن يجتهـــد فـــى كســـب الفـــانى ولا يجتهـــد فـــى كســـب البـــاقى ويقـــول العـــارف بـــالله ســـيدى ابـــن عطـــاء الله الســـكندرى رضـــى الله عنـــه ((اجتهـــادك فيمـــا ضـــمن لـــك وتقصـــيرك فيمـــا طلب منك دليل على انطماس البصيرة فيك)) .

وفـــى هـــذا المقـــام أرنـــى مضـــطرا لأن أســـجل رســـالة للمربـــى الكبيـــر وأســـتاذ الأســـتاذين الســـيد العميـــد محمـــد حمـــدى ، أول عمـــداء كليـــة التجـــارة وفخـــر التجـــاريين ، وقـــد تشـــرفت بـــالتخرج علـــى يديـــه ، وان كانـــت قـــد تعرضـــت بالثنـــاء علـــى بحســـن ظنـــه فـــى ، لكنهـــا تضـــمنت معـــانى جليلـــة فـــى مضـــمار التصـــوف والزهد .

وقـــد جـــاءتنى رســـالته تلـــك بعـــد أن تفضـــل بـــالاطلاع علـــى بعـــض محاضـــرات لـــى فـــى التصـــوف ، ولســـت أزكـــى الرســـالة فـــى بلاغتهـــا ، لأنـــه مـــد الله فـــى عمـــره وبـــارك لـــه فـــى عملـــه كفـــانى أمـــر التزكيـــة بمـــا عهـــد فيـــه مـــن رســـوخ فـــى العلـــم ورقـــى فى أسلوب الكتابة والخطابة ، باللغة العربية والأجنبية .

وها هى ذى رسالته :

مصر الجديدة فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٦٥ . .

عزيــزى الحســن الكامــل التقــى التقــى بوركــت تــالله انــى لســعيد ســعيد فــى الــدنيا والآخــرة لأنــك بهــذا الصــفاء الربــانى ، صــفاء الســيرة والســريرة ، كــذلك وبهــذا العــزوف عــن كــروب الــدنيا الدنيــة ، والاقبــال علــى فيحــات الآخــرة الرضية ، قد وصلت الى السماك الأعلى عند غاية المنتهى .

فيــا عجبــا كيــف بــدأت وثــابرت حتــى وصــلت الــى أن تعــى بقلــب طــاهر ونفــس مطهــرة ، كــل مــا تحاضــرنا بــه مــن الأيــات البينــات ، والروحانيــات الســمات ، فــأنى لــك هــذا الملتقــى ، وكيــف يمكــن أن تصــل بــى ممــا علمــت رشــدا ، وأن تــدخلنى مــدخل صــدق فــى هــذا النــور الالهــى الــذى تتعشــقه والــذى لا أكــاد أدركــه مــن محاضــراتك ملفلفــا فــى الكــلام وأقــوال وأحاديــث وآيات لا أستطيع أن شق اليه طريقى على بصيرة .

لقــد أصــبحت أتمنــى لــو أراك رأى العــين ، لأجتلــى مــن محيــاك ذيــاك النــور الــذى تحكيــه ، أو أجــد القــبس الــذى يهــدينى ســواء الســبيل ، لأنــى وأنــا فــى هــذه الســن المتــأخرة والمتطلعــة ، وقــد نيفــت علــى الثمــانين ـــ وبلغتهــا . لا يمكــن لــى أن أخلــى نفســى مــن همــوم الــدنيا وأوضــارها ، لكــى أفــرغ وأنصــب وأرغــب ، الــى ربــى الــذى خلقنــى فهــو يهــدين ، والــذى هــو يطعمنــى ويســقين ، واذا مرضــت فهــو يشــفين ، والــذى يميتنــى ثــم يحيــين ، والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين .

كيــف أخلــع وشــاح الــدنيا ، وأتســربل ســرابيل التقــوى والصــلاح ، متجردا الى الله وحده .

ســمع النــاس براهــب تضــرب الأمثــال بورعــه وزهــده ، فتاقــت نفــس الــى رؤيــاه ، فســعى جاهــدا الــى لقيــاه ، فلمــا وصــل الــى موطنــه ، وجــده يقطــن قصــرا فخمــا ، تحفــه حديقــة فيحــاء غنــاء فلمــا شــق طريقــه فــى الــدار بــين أثــاث ورى ، وجــده يقبــع فــى زاويــة منكــرة علــى كرســيه ، فــى ردائــه الخشــن ، منــتعلا حــذاءه النحيــف فهــبط الرجــل باهتــا لا ينــبس ببنــت شــفة ، حتــى ابتســم لــه الراهــب قائلا :

لا تعجب يابنى ، فليس الزهد فى العدم ، وانما الزهد أن تجرد نفسك مما تملك ، أو صحيح هذا ؟ أهو ممكن ؟ جمعنا الله فى أسعد الأوقات .

انتهت الرسالة الكريمة ، وقد ضمنت ردى على تلك الرسالة الكريمة ما قالت السادة الصوفية فى الزهد فى مذاق آخر : ((ليس الزهد أن تترك الدنيا من يدك وهى فى قلبك ، بل الزهد أن تتركها من قلبك وهى فى يدك)) ودللوا على صحته بموقف أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، فقد ملك المشارق والمغارب وكانوا فى زمانه يبحثون عمن يستحق الزكاة فلا يجدونه ، حيث عم الرخاء ، ومع ذلك زهد فى عيشته ، ورضى منها البساطة حتى لقد روى أن الامام الحسن البصرى وفد ضيفا عليه فأخرج له خبزا واداما يسيرا وقال له : كل يا حسن فانا فى زمن لا يتسع الحلال فيه لأكثر من هذا .

وينهى السادة الصوفية عن العجز والبطالة ، لأنهم يتمسكون بآداب الشرع الشريف ، وقد قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : اليد العليا خير من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول ، وقد كان للسادة الصحابة وهم سادة الأتقياء ، تجارة أشير اليها فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة فى مثل قوله تعالى ((علم أن سيكون منكم مرضى ، وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله ، فاقرأوا ما تيسر منه)) فصار التجار قرناء للمقاتلين فى سبيل الله .

ومن طريف ما قرأته فى استبصار السادة الصوفية ، أن أحد ملوك الفرس سأل أحدهم : لماذا يرزق الأحمق ويحرم العاقل ، فأجاب الصوفى : دل الصانع بذلك على نفسه . ويقصد أن الرزق عن تقدير من الله العزيز الحكيم وليست الأسباب هى الجالبة له ، وانما هى تعرض لعطاء الله الذى تعبدهم بها فى سبيل الله وعلينا أن ننبذ الأدعياء الذين يتزيون بزى الصوفية كذيبا ، لنوجههم الى ضرورة التكسب من الأبواب الشريفة ، فخير ما يأكل المرء من كسب يده ، والسعى على العيش عبادة من أجل العبادات

وقـــد كـــان أميـــر المـــؤمنين عمـــر بـــن الخطـــاب يقـــول : لا يقعـــد أحـــدكم عـــن طلـــب الـــرزق وهـــو يقـــول اللهـــم ارزقنـــى وقـــد علـــم أن الســـماء لا تمطـــر ذهبـــا ولا فضـــة . كمـــا كـــان يقـــول : كنـــت أرى الشـــاب فيعجبنـــى منظـــره فـــاذا قيـــل لـــى لا حرفة له سقط من عينى .

والقـــول الفصـــل فـــى موقـــف الســـادة الصـــوفية مـــن الأســـباب والتوكـــل مـــا يقولـــه ســـيدى ابـــن عطـــاء الله صـــاحب الحكـــم ، انـــه لابـــد لـــك مـــن الأســـباب وجـــودا ولا بـــد لـــك مـــن الغيبـــة عنهـــا شـــهودا ، فأثبتهـــا مـــن حيـــث أثبتهـــا بحكمتـــه ولا تستند اليها لعلمك بأحديته .

والتفـــويض والتوكـــل لا ينافيـــان حســـن التـــدبير فيمـــا كســـب المـــؤمن مـــن رزق ، فـــان الله تعـــالى أرشـــد فـــى كتابـــه الكـــريم ، مولانـــا رســـول الله صـــلى الله عليـــه وســـلم أرشـــد فـــى ســـنته ، الـــى حســـن التصـــرف فـــى الأمـــوال فجعـــل الله النفقـــة حســـنة بـــين ســـيئتين ، كمـــا عبـــر أميـــر المـــؤمنين الـــورع عمـــر بـــن عبـــد العزيـــز مشـــيرا الـــى قولـــه تعـــالى فـــى وصـــف عبـــاد الـــرحمن ((والـــذين اذا أنفقـــوا لـــم يســـرفوا ولـــم يقتـــروا وكـــان بـــين ذلـــك قوامـــا)) ، فنهـــى الله عـــن ســـيئة الســـرف كمـــا نهـــى عـــن ســـيئة التقتيـــر وجعـــل الاعتـــدال فضـــيلة بـــين الافـــراط والتفـــريط وكـــذلك قـــال حبيبنـــا المصـــطفى صـــلى الله عليـــه وســـلم ((مـــا عـــال مـــن اقتصـــد)) أى لا يتعرض لألام الفقر من كان معتدلا فى نفقاته .

علـــى أن الســـادة الصـــوفية لا يفهمـــون الســـرف والتقتيـــر علـــى الوجـــه الـــذى نعرفـــه ، فعنـــدهم أن مـــن أكثـــر النفقـــة فـــى مرضـــاة الله لا يعـــد مســـرفا ، ومـــن أنفـــق أقـــل المـــال فـــى معصـــيته تعـــالى يعـــد مســـرفا ، وتعلـــيلهم فـــى فهمهـــم هـــذا تعليـــل وجيـــه ، اذ يقولـــون أن جمـــع المـــال لـــيس غايـــة قـــى ذاتـــه بـــل هـــو وســـيلة للنفـــع فمـــا أنفـــق منـــه فـــى وجـــوه البـــر ، بقـــى لصـــاحبه عنـــد الله ، ألســـت تـــراه تعـــالى يقـــول ((مـــا عنـــدكم ينفـــذ ومـــا عنـــد الله بـــاق)) أمـــا النفقـــة فـــى المعصـــية فتنطـــوى علـــى كفـــران نعمـــة الله ، فقـــد أعطـــى عبـــده المـــال ليطيعـــه فـــى انفاقـــه ، ويكـــون بـــذلك شـــاكرا لأنعـــم الله ، فـــاذا أنفقـــه فـــى معصـــيته فقـــد بـــدل نعمـــة الله كفـــرا وقـــد قـــال تعـــالى ((لـــئن شـــكرتكم لأزيـــدنكم ، ولـــئن كفـــرتم ان عـــذابى لشـــديد)) فالشـــكر عنـــدهم ، كما يقول امامهم أبو القاسم الجنيد ، هو ألا تعصى الله بنعمه .

وكما انهم ينهون عن انفاق المال فى معصية الله لا يقرون الغبن فى شراء ما يلزمهم ، والغبن فى نظرهم من السفه اذ يترتب عليه وضع المال فى غير موضعه ، وتروى فى هذه المناسبة رواية طريفة ، فقد قالوا ان الصحابى الجليل الورع عبد الله بن عمر رضى الله عنهما كان يهب لبيت المال ما يعجبه من ماله من جياد أو أبل . ولكنه كان يساوم فى السلعة اذا اشتراها ، فتعجب الناس لأمره وقالوا له ، نراك سخيا بمالك اذا كان لبيت المال ، ونراك تساوم فى دراهم عند الشراء ، فقال فى براعة وفطنة ، ذاك مالى جدت به ، وهذا عقلى بخلت به .

ولا يتبرم فقراء الصوفية من ضيق الرزق بل يرونه عطاء من الله ويقولون فى هذا المضمار : اذا منعك لم يمنعك من بخل ، وانما يمنعك رحمة ، فمنع الله عطاء ولكن لا يفهم العطاء فى المنع الا صديق .

والسادة الصوفية يطمئنون بالله فى كسب أرزاقهم ، وينفقونها فى مرضاته سبحانه ، ويرضون بما أقامهم فيه من بسطة العيش أو ضيقه ، فاذا وسع عليهم شكروا بكثرة العطاء ، واذا ضيق عليهم صبروا على البلاء . ومن الهام أستاذى العارف بالله الشيخ على عقل فى أمر الرزق قوله رضى الله عنه :

كفل الله للبرية رزقا وتولاهم ثم أسبغ سترا
حينما الدود أسكن الصخر بيتا أنبت الله الصخور الزهرا
تصبح الطير فى الهواء جياعا يشبع الله بعد ذاك الطيرا

وينهى رضى الله عنه سؤال الناس فيقول :

لا تمد اليدين للناس يوما مدها للعباد بالشرك أحرى
وسؤال العباد شرك خفى قد حفظنا حين ذقنا السرا
واذا ما أتجهت لله فردا نلت يا صاحبى من الله خيرا
حسب الناس مذ رأونى أناجى فى جلال الرحمن أقرض شعرا
منشدا أبتغى من الناس شيئا أو أخص المديح زيدا وعمرا
قلت كفوا فلست أقصد الا وجه ربى وقد وهبت العمرا

فاذا عشت ستر ربى غطائى وإذا مت لست أعدم قبرا
أن تكن نشوة الضلوع بخمر قد جعلنا هداه للروح خمرا
ان ذكرنا وقد سكرنا بروح فسكارى ولم نذق بعد سكرا

وأنت تراه فى الأبيات المتقدمة ، كاسبا عيشة فى عفة ، عازفا عن سؤال الناس ، ويرى فى سؤالهم شركا خفيا ، ثم هم مع كسب عيشه الدنيوى كاسب عيشه الأخروى ، ومأنوس بربه فيهما ، فحيا جسده بكسب دنياه ، وحيت روحه بكسب الباقيات الصالحات التى يقدمها لأخراه وكانت له يكسبها نشوة فى الضلوع تشبه نشوة السكر ، ولكن سكره لم يكن من خمر أهل الدنيا ، بل من خمر أهل الآخرة الذى يقول فيه طيب الله ثراه :

ان كان سكر الناس من عنب ومن بلح فانى فى المحبة أسكرا

ويقول أيضا :

سكرنا لا خمر يد ولكن بعلم الله مولانا سقينا

ويقول مذكرا بنفع المال فى أمر الآخرة و محذرا الغافلين به عن الله تعالى :

ألم يك فى الدنيا الذى قد جمعته علام اذن سب الحياة تزاول
وما السب الا للذى زيف الهدى ومنه على الدنيا ترامت رذائل
فيا رائد الدنيا وصولا لربه لتسعد فى الأخرى مرادك كامل
ولا تمدح الدنيا اذا عز عيشها فما دحها للعز فى الناس غافل
ولا تجعل الدنيا مرادك وحدها فمن لم يجزها بالهدى فهو جاهل
فان لم تكن بالذكر والفكر ساهرا وللدين والايمان قلبك ناهل
وان لم تكن من أهل هذا ولم تكن مع الله فى سر وجهر تواصل
فسيرك فى الدنيا فجورا وعلة وعيشك فى الدنيا مجون وباطل

وما أروع قوله رضى الله عنه :

ومهرق وجهه للناس مهما ... رأى الاحسان ما عز انتسابا
تمسك بالاله تسد حياة ... وتحمد من أياديه الثوابا
فان قالوا أتخذ لك أى جاه ... فخذ تقواه جاهك والمآبا
وان قالوا اتخذ لك أى كأس ... فخذ من كأس عزته الشرابا

وقوله رضى الله عنه :

قالوا أتخذ لك جاها قلت واعجبى ... أغير ربى ايمان وتوحيد
أطوف بالحى صبا فى مكارمه ... يارب صب رواه البر والجود
وانما أنا فان فى محبته ... لكننى فى كتاب الحب موجود
سارع الى الله معتزا برحمته ... فالكل عبد ورب الكل معبود

ألا رحم الله أسلافنا الصالحين ، ومشايخنا المرشدين ، الذين سعدنا بارشادهم وان قصرت خطانا عن خطاهم ، ولئن اقتفينا آثارهم ، والتزمنا طريقهم وصلنا الى ما وصلوا اليه من ايثاره تعالى على ما سواه ، فان فعلنا ، دخلنا معهم فى حماه تحت قوله تعالى ((ان عبادى ليس لك عليهم سلطان)) فخلص جهادنا فى سيرنا الى الله فاهتدينا بهداه مصداقا لقوله الكريم ((والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين)) .

.١١.

((ولــك حجــة مــن بعــد عــدد معلــوم ، وقــد يكــون بعيــدا وتــراه قريبــا والبعيد قريب والله مجيب)) .

لا أســتطيع أن أصــف فرحــى بهــذه العبــارة التــى جــاءتنى فــى أول رســالة تلقيتهــا مــن شــيخى العــارف بــالله ســيدى عبــد الســلام الحلــوانى ، فقــد كــان فرحــا مضــاعفا ، فقــد فرحــت أولا بعطفــه علــى فــى ارســال الرســالة بادئــا بالفضــل ، وقبــل أن أكتــب اليــه ، فرحــت ثانيــا بالبشــرى التــى كانــت نفســى تتحــدث بهــا وأنــا فــى شــرخ الشــباب ، حــين كنــت أتطلــع للســفر الــى الحجــاز للتشــرف بــالوقوف علــى قبــر حبيبنــا المصــطفى . صــلى الله عليــه وســلم . والتســليم عليــه ، وكنــت أتصــور أن ســعادتى لا تــتم ، وأن أمــورى لا تتيســر الا يتلــك الوقفــة ، لكنــى كنــت ناشــئا لا أملــك مــالا كافيــا مــن كســب يــدى ، يمكننــى مــن تأديــة فريضــة الحــج علــى نفقتــى ، وكــان والــدى . رحمــه الله . علــى قيــد الحيــاة ، ولــم أكــن أود أن أحــج علــى نفقتــه ، فكــان الحــج مــن كســب يــدى بعيــدا فــى خيــالى علــى الــرغم مــن شــوقى الشــديد ، فمــاذا يجــدى مرتبــى الناشــىء وكــان خمســة عشــر جنيهــا لا تزيــد ، ومــاذا أســتطيع أن أدخــره منــه بعــد نفقــاتى الضــرورية ، وكــان أبــى . رضــوان الله عليــه . يعــاوننى فــى المعيشــة لقلة المرتب الذى كنت أتقاضاه يومئذ .

ومــا كــدت أقــرأ البشــرى التــى زفهــا الــى الشــيخ طيــب الله ثــراه . حتــى قــرب البعيــد ، وســهل فــى نفســى العســير وقلــت لله رجــال يــرون بالبصــائر مــا لا نراه بالأبصار .

وســـافرت فـــى أجـــازة عيـــد الفطـــر الـــى القريـــة ، لأقضـــى أيامهـــا بـــين والـــدى وأهلـــى ، وبـــدأ لـــى أن أحاضـــر قـــومى فـــى المســـجد ، وكـــان شـــيخى أمرنـــى بالتـــدريس لهـــم ، فشـــرح الله صـــدرى أن أكلمهـــم فـــى الحـــج ، الـــذى تبـــدأ أشـــهره مـــن شـــوال ، وخـــرج كلامـــى ممزوجـــا بالشـــوق الخفـــى عنـــدى ، وغلبنـــى الحمـــاس ، فتـــأثر القـــوم ، ومـــا كـــدت أنهـــى كلامـــى ، حتـــى أقبلـــوا علـــى مهنئـــين بـــالحج ، فقلـــت لهـــم ومـــا أدراكـــم أنـــى ســـأحج ، قـــالوا حماســـك فـــى المحاضـــرة دلنـــا على عزمك فقلت فى نفسى :

يا ليتنى والأمانى ربما صدقت أحظى بمعتنق منه وملتزم

ثـــم ناجيـــت ربـــى ، مناجـــاة خفيـــة ، يـــارب أنـــت الكـــريم المنـــان ، وقـــد جعلـــت ضـــيافتك عنـــد البيـــت الحـــرام ، فاجعـــل ضـــيافتك لـــى مـــن مصـــر ، ويســـر لـــى نفقـــات الحـــج والزيـــارة مـــن كســـبى ، وأنـــت تعلـــم ســـرى وعلانيتـــى ، لايخفـــى عليـــك مـــن أمـــرى خافيـــة ، ان كـــان بـــى شـــوق للســـفر فأنـــت مصـــدره وان كـــان عبـــدك فقيـــرا فأنـــت ســـاتره ، والعبـــاد يقترضـــون ليكرمـــوا الأضـــياف ، وليســـت أنـــت محتاجـــا لأحـــد ، وخزائنـــك مملـــوءة لا ينقصـــها العطـــاء ، فـــدبر الأمـــر ويســـر الســـفر ، وعلـــى الله قصـــد الســـبيل ، وكـــان أن عزمـــت علـــى تقـــديم الطلـــب معتمـــدا علـــى فضـــله تعـــالى ، وواثقـــا فـــى تـــوكلى ، وصـــارحت بعـــض أهلـــى وأحبـــابى بمـــا عزمـــت عليـــه ، فرغبـــوا فـــى صـــحبتى ، وقـــدموا طلبـــاتهم معـــى ، ولكنـــى لـــم أكشـــف لهـــم حقيقة حالى ، ولا السر الذى بينى وبين ربى .

وكـــان والـــدى - رحمـــه الله - قـــد ســـافر الـــى القـــاهرة ، فقلـــت ان اذن ســـيدى الوالـــد بســـفرى فهـــى علامـــة التيســـير ، ومـــا كـــاد رحمـــة الله يعلـــم ، وهـــو بالقـــاهرة مـــن عمـــى ، أنـــى قـــدمت طلبـــا للحـــج ، حتـــى بـــادر بالكتابـــة الـــى مهنئـــا بالحج ، وداعيا لى بالتوفيق ، فسرنى ذلك كل السرور .

ثـــم عـــدت بعـــد الأجـــازة لعملـــى بالقـــاهرة ، فـــأخبرت زمـــيلا لـــى بعزمـــى علـــى الحـــج ، وقلـــت لـــه ســـأغيب شـــهرين ، وســـأكتب لـــك لتقـــبض عنـــى مرتبـــى ، وان شـــئت أخـــذت منـــك الأن مرتـــب الشـــهرين ، وقبضـــت أنـــت المبلـــغ لنفســـك أداء لحقـــك ، قـــال ســـيان عنـــدى ، وقـــدم لـــى ثلاثـــين جنيهـــا علـــى الفـــور ، وقبضـــت

شـــهرا ثالثـــا فـــى صـــباح اليـــوم الثـــانى ، فصـــار معـــى خمســـة وأربعـــون جنيهـــا وخيـــل الـــى عنـــد ذلـــك أنـــى حـــزت ملـــك ســـليمان عليـــه الســـلام ، حيـــث تحقـــق أملى ، ودبر الله تعالى ويسر لى نفقات الرحلة .

وســـافر معـــى الـــى الســـويس المغفـــور لـــه والـــدى وأعمـــامى ، وقـــدموا لـــى جريـــا علـــى التقاليـــد ، معـــاونتهم الماليـــة ، فـــامتلأت جيـــوبى ، واذا كانـــت نفقـــات الحـــج والزيـــارة لا تزيـــد عـــن ثلاثـــين جنيهـــا ، فقـــد بقـــى مـــن مـــالى الخـــاص مـــا يكفـــى نفقـــاتى الضـــرورية ، ومـــا جـــاءنى مـــن أعانـــات جعلتـــه للهـــدايا والصـــدقات .

ولا يفـــوتنى ان اذكـــر ، كنـــت اطلعـــت بجريـــدة الأهـــرام فـــى كلمـــة ((حـــديث الصـــيام)) علـــى ابيـــات لشـــاعر قـــديم صـــدر بهـــا مقالـــه المرحـــوم الشـــيخ التفتـــازانى ، فحركـــت أشـــواقى وأشـــجانى ، ولعبـــت بعقلـــى وروحـــى ، حتـــى كأنها سحر ساحر ، ومن المفيد أن أذكر تلك الأبيات وهى :

قف بنا يا سعد ننزل ها هنا   فأثيلات النقـا موعـدنا
ان لمـع البرق من خيف منى   جدد الوجـد وهـاج الحزنا
كلمـا طرز أثـواب الدجى   وشيـه أحـرم عينى الوسنا
وديـار حول بطحـا مكة   يأمـن الخـائف فيها ما جنى
من لعينى أن ترى كعبتها   أو تمس الركن منها اليمنا
آل ذاك البيت أنى جـاركم   لم يـكن جاركمـو ممتهنا
زاركم صحبى وعنكم عاقنى زمنى   كم ذا ألـوم الزمنـا
أنـا منكم واليـكم وبكم   فاذكـروا عهـدا قديما بيننا

وأقلعـــت بنـــا البـــاخرة مـــن الســـويس الـــى جـــدة ، وعنـــد رابـــغ صـــفيرها ايـــذانا بـــالاحرام مـــن الميقـــات ، فاغتســـلنا ، وخلعنـــا المخـــيط ولبســـنا المحـــيط ، وعقـــدنا النيـــة وكـــان مـــن حالنـــا مـــا جـــاء فـــى رســـالة لأســـتاذى العـــارف بـــالله ســـيدى الشـــيخ عبـــد الســـلام الحلـــوانى ، رضـــى الله عنـــه ، كـــان قـــد بعـــث بهـــا لتلميـــذه الصـــالح المبـــارك حبيـــب قلوبنـــا وأرواحنـــا الســـيد / ســـالم عمـــر جمعـــة زاده الله فضلا ، قال الشيخ لتلميذه فى الرسالة فيما قال له :

((. . وفـــى اصـــطلاح هـــؤلاء القـــوم قصـــد مجـــردين مـــن الشـــواغل متطهـــرين مـــن العلـــل ، مثـــل مـــن يحـــج ، فـــاذا نـــوى الحـــج ، خلـــع كـــل نيـــة تكـــون غير نيته الحج الى الله ، والوقوف بين يديه ، خاليا من كل الشوائب .

فـــاذا نـــزع لباســـه تجـــرد مـــن كـــل شـــىء ، فـــاذا تطهـــر زالـــت عنـــه كـــل علـــة ، فـــاذا لبـــى ســـمع بقلبـــه جـــواب التلبيـــة ، فتلـــذذ بالنـــداء ، فـــاذا دخـــل الحـــرم تـــرك كـــل محـــرم ، فـــاذا أشـــرف علـــى مكـــة ، أشـــرف عليـــه حـــال مـــن الحـــق ، وعلامتـــه البكاء ، لأن الملائكة تحفه .

((فـــاذا دخـــل المســـجد فـــى قـــرب مـــن الله ســـبحانه وتعـــالى ، فخشـــع وطـــاف ورمـــل هاربـــا مـــن الـــدنيا ، ورجـــع وســـكر ، فركـــع بعـــد أن صـــافح الحـــق بمصـــافحة الحجـــر ، كمـــا ورد فـــى الأثـــر ، فظهـــر عليـــه الأثـــر ، ومـــن ظهـــر عليـــه الاثـــر نـــال الرضـــا ، واستشـــعر أنـــه تحـــت العجـــز عـــرف واعتـــرف ، وتـــرك أمـــره لله ، وصـــفا لـــه الحـــال ، وافتقـــر مـــن الـــدنيا مـــالا وعلمـــا وعمـــلا واغتنـــى بالمـــآل ، مـــآل الخـــادم عنـــد مـــولاه ، يصـــيره كيـــف يشـــاء ، ويضـــعه فـــى مكانـــه كمـــا شـــاء ، ويجعلـــه مـــن خدامـــه والله رءوف رحـــيم ، فمـــن عـــرف القـــوم وســـار بســـيرهم نجـــا ، وكان من شدة الخوف كثير الرجا)) .

واستشـــعار العبوديـــة الـــذى يوجهنـــا اليـــه ســـيدى الشـــيخ فـــى كلامـــه المتقـــدم ، يـــذكرنى بمـــا وقـــع لـــى يومـــا عنـــد الملتـــزم حيـــث تعلقـــت بالبيـــت لاجئـــا داعيـــا ، فتـــذكرت مـــن الهـــام أســـتاذى العـــارف بـــالله الشـــيخ علـــى عقـــل قولـــه رضـــى الله عنه :

انى علـى أعتـابكم — لم أرض غير الحب مشرب
حـريتى رق لـكم — وهى المقـام وذاك أقرب
وأدلتـى أنى ضـعيف — والضـعيف علـيك يحسب
قالـوا بانـك لـم تكن — فيمـا تقـرره منسـب
فأجبتهـم أنـا نسبتى — عبـد على الأبواب أحسـب

وكلامـــه رضـــى الله عنـــه فـــى ذلـــك المضـــمار معـــروف لأحبائـــه ومـــا أبـــدع قوله :

اذا رابنى ذنبى دعتنى محبتى ... اليـه وما تثنى الذنوب عن الحب
فيـارب ان زادت ذنـوبى فاننى ... وثقت بأن الفضل أوسـع من عيبى
تركت الورى دونى وجئتك مـفردا ... فلم يك غير الله فى السمع والقلب
وطهرت فى نجـواك سر جوانحى ... فخلصتها من عالم البعد والحجب
رضاء الفتى بالله يشرح صـدره ... فلن يتأذى بالحـوادث والخطب
فما أنـا فى نفسى أميـل لغيره ... أراقب ربى فى الشـهادة والغيب
صـعاب الهوى كلفتهـا وحملتها ... وكنت أنا المعروف بالواجد الصب
فان كان ذنبى مبعدى عنك لحظة ... فانك غفــار الذنوب بلا ريب
وان كان لى ممـا فعلت جريمة ... فحوضك لى طهرى وفضلك لى طبى
وما لـذتى الا التجائى لوجهكم ... فوجهكمـو دون العوالم لى قطبى
سهام الهوى لم تثننى عن رحابكم ... ولو أننى منها على مركب صعب
وكيف أهاب الصعب أو أ رهب السرى ... ومن نام لا يرقى الى مشهد القرب
وغفلـة قلب المرء بعد وحسرة ... فما نــال عقبى ربه غافـل القلب
لقد ذل فى يوم القيـامة غافل ... تأخـر فى يوم الجهـاد عن الركب
ودنياك أرض لو بذرت بها الهدى ... حمدت أوان الحصـد سالمة الحب
ونحن أولـو علـم ولكن بوجدنا ... شربنا من الأنوار ما ليس بالشرب
فكنا بفيص الله خـير أئمـه ... لنا نوره يهدى من الزيغ والعجب
ولـما تدانينا ولاحت ديـاره ... وقد جذبتنـا نحـوها أيما جذب
هتف بحبى دم لربك وحده ... وأخرج جميع الكائنات من القلب

وبعـــد أن قضـــينا مناســـك الحـــج ، شـــددنا الرحـــال للمدينـــة المنـــورة ، حيـــث الحـــرم الشـــريف ، وقبـــر الحبيـــب المصـــطفى صـــلى الله عليـــه وســـلم ، ووجـــدنا مـــن نفوســـنا فـــى الســـير اليهـــا لهفـــة الشـــوق ، ومواجيـــد العشـــاق ، وماكـــدنا نحـــط الرحـــال ، حتـــى أغتســـلنا ولبســـنا أفخـــر ثيابنـــا ، وقصـــدنا الحـــرم ، فادينـــا تحيـــة المســـجد وادينـــا الزيـــارة التـــى تمـــت بهـــا الســـعادة ، والحـــق انهـــا كانـــت لحظـــة

خالـــدة ، تلـــك التـــى صـــدقت فيهـــا أمنيتـــى ، لـــوقفتى السـعيدة بـــين يديـــه صـــلى الله عليـــه وســـلم : بعـــد أن كانـــت روحـــى تحـــوم حـــول الحمـــى مـــن بعيـــد كمـــا يقـــول المرحوم الشاعر الكبير اسماعيل صبرى :

روحى على بعض دور الحى حائمة ... كظامئ الطير اذ يهفو على الماء

مـــا أســـعدها مـــن لحظـــة ، قـــال فيهـــا علـــى لســـانى ، وفـــى زيـــارة لاحقـــة ، صـــديقى الأديب اللامع الأستاذ محمد جاد الرب أكرمه الله :

لقد عدنا وكان العود أحمد ... سلاما يا مقرب يا مؤيد
سعيد من يحبك من بعيد ... ومن يسعى لبابك كان أسعد
فجد بالوصل للمشتاق فضلا ... فأنت من السحاب الجود أجود
وصل عليه يا ربى وسلم ... ووفق كل مشتاق ليشهد

أما صديقى العلامة الشيخ الصاوى شعلان فقال لى، مهنئا فى عودة من زيارة أخرى :

بالله كيف شهدت أنوار الحمى ... تشفى بمرآها المحب المغرما
ودخلت من باب السلام الذى ... صلى عليه ذو الجلال وسلما
وسعدت يا حسن الرضا برحابه ... فبلغت تكريما وعدت مكرما
ووقفت بين الصالحين تخشعا ... وكأنما القمرا ن فيض منهما
فى باب جبريل ومهبط وحيه ... يجد الدعاء الى الاجابة سلما
ورأيت جنات البقيع نواضرا ... تختال أجداثا وتشرق أعظما
أصغيت فى أحد الى شهدائه ... قد كاد حمزة فيه أن يتكلما
جمعتهم الفردوس تحت ظلالها ... بالسفح أقمارا تضئ وأنجما

وفـــى هـــذه المناســـبة أمتـــع الســـادة القـــراء ، بـــبعض مـــن كـــلام طويـــل ، جـــرى بـــه الهـــام الســـيدة عائشـــة الباعونيـــة الدمشـــقية ، رحمهـــا الله ، وهـــى تتشـــوق لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والكلام ينم عن جذب شديد ٠

سعد ان جئت ثنيات اللوى حى عنى الحى من آل لؤى
وأجر ذكرى فاذا اصغوا له صف لهم ما قد جرى فى مقلتى
وبشرح الحال فانشر ما انطوى فى سقام قد طوانى أى طى
من لعينى أن تشاهد حسنه وأرى فوق ثراه شفتى
وأغفر فى ثرى أعتابه جنة العشاق كلتا وجنتى
يا رسول الله يا خير الورى ما لقلبى عن هيامى فيك لى
ليس يخلو منك يا كل المنى خاطرى والحال احدى حجتى
يا حياة الروح يا رى الظما ياحبيب الله يا ساقالحمى
مسنى جدب وقد لظ الظما وكفى ما قد جرى من محجرى
فتداركنى وكن لى شافعا ببلوغ السؤل من مرأى ورى
وبتحقيق الرجا من فضله وبلوغ القصد منه فى بنى
ووفا مغفرة شاملة لذوى القربى ومن أسدى الى
قلت ما قلت ولو لا فيضكم مدنى فى مدحكم ما قلت شئ
وعليك الله صلى متحفا بسلام يملأ ا لأرجا شذى
وعلى آل وصحب كلما هيج الشوق وبريق من كدى
وشدا الحادى لصب قد صبا هى هيا لمليح الحى هى

وهكذا حقق الله لى البشرى ، التى زفها لى سيدى الشيخ ، رضى الله عنه ، وكنت أرى الحج بعيدا فرأيته قريبا كما قال فى الهامه ، الذى صدرت به المقال ، ((وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب)) ٠

-١٢-

دخلت ذات يوم على العارف بالله شيخى الشيخ عبد السلام الحلوانى ، قدس الله سره ، فوجدت بين يديه رقعتين ، كتبهما بيده المباركة ، احداهما عن النفس ، والأخرى عن الروح ، فلما قرأتهما ، عجبت من المنازل التى عددها – رضى الله عنه – للنفس والروح ، وفهمت غوامض المنازل من شرح خطه قلمه على كل رقعة فى ايجاز مفيد ، فرجوته – رضى الله عنه – أن يسمح لى بأخذ الرقعتين ، فتفضل وأذن ، وهما محفوظتان عندى مع رسائله الكريمة ٠

قال – رضى الله عنه – فى منازل النفس ٠

((النفس اذا سبحت عميت ، فان عميت غفلت ، فاذا غفلت شردت ، فان شردت بدأت ، فان بدأت دأبت ، فأن دأبت نأت ، فان نأت شربت ، فان شربت سكرت ، فان سكرت طربت ، فان طربت طارت ، فان طارت سارت ، فان سارت فاحت ، فان فاحت ناحت ، فان ناحت شكت ، فان شكت أوبقت ، فان أوبقت باءت ، فان باءت شطحت ، فان شطحت نطحت ، فان نطحت جرحت ، فان جرحت أدمت ، فان أدمت قتلت ، فان قتلت أجرمت ، فان أجرمت طغت ، فان طغت بغت ، فان بغت آثرت ، فان آثرت هزمت ، فان هزمت صاحت ، فان صاحت راحت ، فان راحت وقعت ، فان وقعت ظنت ، فان ظنت ندمت ، ((فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هى المأوى)) ٠

أما تفسيره – رضى الله عنه – فقد قال فيه ، النفس اذا سبحت فى الدنيا فقد عميت عن الآخرة ، فان عميت غفلت عن ذكر الله ، فان غفلت شردت عن الحق ، فان شردت بدأت فى الشر ، وطلب الدنيا ، فان بدأت

دأبـت زادت فـى الطلـب ، فـان دأبـت نـأت عـن الخيـر ، فـان نـأت شـربت شـراب الهـالكين ، فـان شـربت سـكرت بحـب الـدنيا ، فـان سـكرت طربـت بـاللهو ، فـان طربـت طـارت الـى المهـاوى ، فـان طـارت صـارت الـى حيـث لا يعلـم مصـيرها ، فـان سـارت فاحـت أعمالهـا ، فـان فاحـت ناحـت مـن الخسـران ، فـان ناحـت شـكت ممـا حـل بهـا ، فـان شـكت أوبقـت غيرهـا ، فـا أوبقـت بـاءت بالخسـران ، فـان بـاءت شـطحت أى تخبطـت ، فـان تخبطـت نطحـت لعـدم اهتـدائها ، فـان جرحـت أدمـت النفـوس ، فـان أدمـت قتلـت غيرهـا ، فـان قتلـت أجرمـت ، فـان أجرمـت طغـت ، فـان طغـت بغـت ، وان بغـت آثـرت الحيـاة الـدنيا ، فـان آثـرت بعـدت عنهـا العاقبـة ، فـان هزمـت صـاحت مـن خسـران العاقبـة ، فـان صـاحت راحـت تلتقـى حتفهـا ، فـان راحـت وقعـت فـى الحسـاب ، فـان وقعـت فطنـت الـنفس الـى ظلمها ، فان فطنت ندمت حيث لا ينفع الندم .

واقـرأ يـا أخـى بعـد ذلـك تحليـل أسـتاذى العـرف بـالله الشـيخ علـى عقـل ـ رضـى الله عنـه . لمسـلك الـنفس فـى ركونهـا الـى زخـرف الـدنيا وغفلتهـا فيهـا ، وكـان بعـض الحاضـرين قـد طلـب اليـه أن يرتجـل مـن الهامـه الفـورى علـى قول القائل :

عجبا لها تهوى الذى تهوى به — دون الذى تعلو به فى ذاتها

فأجاب . رضى الله عغنه . فورا من عطاء الله والهامه :

عجبا لها تهوى الذى تهوى به — كم عالم قد زل من نزعاتـها
تنأى عن الاصلاح طول حياتـها — وتواصـل الاقبال فى شهواته
تدعى لتادية الصـلاة وانمـا — شغلت بغير الله حين صلاتها
وقفت على الدينار حسن بلائـهـا — فأمالهـا عن هديهـا وهداتها
قد رحبت بالسيئات مريضـة — وتضـج ان دعيت الى حسناتها
والنفس أعدى صـاحب تاسى به — قد أدخلنـا النار من رغباتها
ان أنت تنصحها تضل طريقهـا — واذا تركت غرقت فى حسراتها
جهلت طريق الخير وادعت الهدى — كم تكثر الدعـوى على قرباتها
ضحكت على جهالـها فتوهمـوا — أن العلا والفوز فى نزواتها
ظنـوا بنفسهمـو الكمـال وانمـا — تتوافـق الجهـلاء فـى غاياتهـا

فنحا مسيلمة النبوة وانتهى فرعون للتألية من عثراتها
والنفس ما برحت تضل وما بها نور يزيل الظلم من ظلماتها
فازجر لنفسك فى الأمو لعلها قد ترزق الأنوار فى سبحاتها
ترضى تسفلها لكل نقيصة دون الذى تعلو به فى ذاتها

وينبه . رضى الله عنه . الى غفلة المسلمين فى زماننا ، ومسايرتهم لهوى نفوسهم فى كسر حدود الله ، ونهش أعراض اخوانهم بالغيبة المضرة التى نهى عنها ، فيقول الهاما وارتجالا لوقته :

رفعة النفس بالهداية لكن قل من بالقتى الى الله عائد
اننا لو نصاب يوما بشىء حز فى صدورنا المصاب الواحد
واذا كانت الاصابة فى الدين فما ضرنا زوا ل المعابد
للرزايا نخاف أما المعاصى فلها دائما أقمنا الموائد
عابد المال فى الرجال كثير وقليل من كان لله عابد
غيبة الناس خير ما فى النوادى أصبحت بينها أعز الفرائد
انشأوا النادى المدعم للعلم فأمس وما به غير سامد
يشرب الكاس أو يساجل فى النرد وبالدس والوشاية قائد
واذا ما قلت اتركوا الناس قالوا ليس فى الفسق غيبة لا نعاند
فسقوا غيرهم لكى يستحلوا عرض من خالفوا وبئس العوائد
ان سوق العصيان أروج شىء حيث سوق الأخلاق والعلم كاسد

ثم ينصح . رضى الله عنه . المؤمن الصوفى فيقول فى ارشاد بارع

أيها الآخذ الطريق اذا ما سرت صوب الطريق فادأب وجالد
لا تخلها من السهولة بالقدر الذى أنت فيه سار ووارد

ويعظ المؤمن الصوفى مرة أخرى فيقول . رضى الله عنه . :

أخى لا تعرنك الحياة وزيفها فما هى حظ الناسك المتزهد
ودونك أيام أمامك غيرها فان زال عنك الأمس فأنظر الى الغد

وحاضرك اقرنه بماضـك عبرة ونفسك عودها الحساب لتهتدى
سريرتك احفظها لربك وحـده فان نقاء القلب أصل التعبد
وأقبل على مولاك يقبل بفضلـه عليك ووجه نحوه القلب تحمـد

ثـم يبـين لنــا . رضـى الله عنــه . ان محبــة الله ، وذكــره تعــالى ، والانابــة اليه ، هى الأدوية الناجعة من أمراض النفوس ، فيقول من الهامه :

لذة الحب فى لقاء الحبيب والتلاقـى للسقم خير طبيب
واذا حلت المحبـة قلبـا سترت كل ما به من عيوب
أى شىء فى الحياة أحلى وأسمى من تلاقى الحبيب بالمحبـوب
ان أكن مخطئـا فربى غفور أو أكن بالضعيـف فهو مجيبى
طالما أنت فى السريرة يا ربـاه لـم أخش من وجـود الرقيب
أفتدى سـدة الحبيب بروحى قد بدا بالفداء كشف الغيـوب
لم أخف غيره وان كـان قلبى طاول الطود فى تلاقى الخطوب
ان قلبى دون البـرية سرى لست أفشى سرى لأى قريب
ومن الحب لى أجل ثيـاب دق فى وصفــه عن التقليب
أدب الذكـر مهجتى وميـولى أدب الذكر أفضل التأديب
أنت ياروحى ان رجعت الى الله ففى حصنه الممنـع توبى
وارجعى باسمه اليه وعيشـى فى حمـاة وبالمحبة ذوبى
نحن قوم لنـا الطريق حياة قد كتبنا فى روضها المرغوب
وشربنا مـن حوضها فطربنـا وغسـلنا بمائهـا كل حوب
فاحفظونى من العبـاد فـانى قد رأيـت العباد أهـل ذنوب
يشرب النـاس من عصير ولكـن قوة العـلم والهـدى مشروبى

وقد سئل . رضى الله عنه . أن يرتجل على وزن البيت الآتى :

سـتباشر الغرباء خدك وسيضحك البــاقون بعدك

فجاء الهامه بالعظات البالغات ومنها :

((ستباشر الغبراء خدك)) والى الذبــول سقيت وردك
مهما بلغت من العـــلا لا تملكن العمــر سـعدك

الموت حق واجب فاجعله بين الناس عهدك
واسلك سبيل الأقدمين وخل ذكر الله وردك
يا قلب انك أن ترد باب الاله فلن يردك
أنا قد خلوت عن الورى وجعلت حبى فيك وحدك
وأخذت ذكرك غايتى وتبعت بالايمان جندك
وسهرت ليلى بالهدى ورفعت بين الناس حبك
ومشيت أنصح فى الملا وأعلم الأصحاب قصدك
ياقلب مالك غيره بعد الممات يعيد ذكرك
أقبل عليه فانه كرما وفضلا لن يصدك
ودع الحياة اذا دعت وانظر لما خلدت بعدك
مهما أقمت بها فلن تلقى على الأيام خلدك
ستزول عنك بصفوها وسيضحك الباقون بعدك

ويشبه صوفية الفرس الأقدمون نفس الانسان بالذئب ، فان تركها صاحبها فى هواها استأسدت فقتلته ، كما يستأسد الذئب الذى يغفل مربيه عن شره ، فيتعرض لضره ، وفى ذلك يقول سعد الشسرازى ، فيما ترجمه عنه من الفارسية الى العربية ، صديقى العلامة الشيخ الصاوى شعلان :

سمعت بأن امرأ صاد ذئبا فأولاه عطفا وأصفاه حبا
فلما نما الذئب واستأسدا بأنيابه مزق السيدا
وقيل لذاك الجريح المصاب حليف الردى من يربى الذئابا
ونسك ذئب فحاذر هواها فان المنايا سرت فى مناها

ويقول امامنا على .كرم الله وجهه . : ((ما أنا ونفسى الا كراعى غنم مع غنمه كلما ضمها من جانب شردت من جانب)) .

ويقـــول الســـــادة الصــــوفية فــــى نصــــائحهم : ولتحــــذر الــــنفس فانهــــا مهلكــــة مهلكــــة ، وملكـــه مملكــــة ، غـــادرة غيـــر عـــاذرة ، شـــاردة للحتـــوف ، مبـــادرة ســـاعية فــى تلــف الــروح ، داعيـــة الـــى ســد بــاب الفتــوح ، فــانهج منــاهج أهــل المجاهــدة ، لتــــدرج مــــدراج أهـــل المشـــاهدة ، وصـــاحب بصـــدق التوجـــه الـــروح ، فـــان معهـــا الراحة ، وجانب هذه الدابة الجمع فانها تسلب الصفا من الراحة .

ويقول سيدى العارف بالله مصطفى البكرى . رضى الله عنه :

شمر ذيول التعامى عنك تشميرا ... وعمـر القلب بالأذكار تعميرا
واحذر لقرية نفس منك تقربها ... فتلك دمرها المحبوب تدميرا
واقرب الى أهل بيت زال رجسهمو ... والحب طهرهم من ذاك تطهيرا
قوم لقد عرفـوا بالقرب أنفسهم ... فصار ناظرهم بالله أكسيرا
اذا رأوا ذكر المـولى برؤيتهم ... اذ نورهم يورث الأحشاء تنويرا

اللهـــم انـــا نعـــوذ بـــك مـــن شـــرور أنفســـنا ، وســـيئات أعمالنـــا ، فخـــذ بأيـــدينا اليـــك ، ولا تكلنـــا الـــى أنفســـنا طرفـــة عـــين ، ولا أقـــل منهـــا ، فانـــك قلـــت وقولـــك الحق ((من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا)) .

.١٣.

تنــــاول مقـــالى الســـابق كـــلام شـــيخى العـــارف بـــالله ســـيدى الشـــيخ عبـــد السـلام الحلـوانى فـى منـازل الـنفس ، والـى القـراء الاعـزاء مـا قالـه رضـى الله عنه فى منازل الروح حتى تصل الى رضوان الله تعالى :

الـــروح اذا ســـبحت نظـــرت ، فـــان نظـــرت ذكـــرت ، فـــاذا ذكـــرت بـــدأت فـــاذا بـــدأت دأبـــت ، فـــان دأبـــت عرفـــت ، فـــان عرفـــت شـــربت ، فـــان شـــربت شـــكرت ، فـــان شـــكرت ســـكرت ، فـــان ســـكرت طربـــت ، فـــان طربـــت طـــارت ، فـــان طـــارت ســـارت ، فـــان ســـارت باحـــت ، فـــان باحـــت فاحـــت ، فـــان فاحـــت ناحـــت فـــان ناحـــت راحـــت فـــان راحـــت فـــاءت ، فـــان فـــاءت بـــاءت ، فـــان بـــاءت تابـــت ، فـــان تابـــت طابـــت ، فـــان طابـــت عابـــت ، فـــان غابـــت فطنـــت ، فـــان فطنـــت عـــادت ، فـــان عـــادت طلبـــت ، فـــان طلبـــت درســـت ، فـــان درســـت علمـــت ، فـــان علمـــت وقفـــت ، فـــان وقفـــت شخصـــت ، فـــان شخصـــت خافـــت ، فـــان خافـــت اطمأنـــت ، فـــان أطمأنـــت لامـــت ، فـــان لامـــت رجعـــت ، فـــان رجعـــت رضـــيت ، فـــان رضـــيت فـــازت ، فـــان فـــازت دخلـــت ، فـــان دخلـــت درجـــت ، فـــان درجـــت عبـــدت ، فـــان عبـــدت استقرت ، والجتة هى المأوى ، (ولمن خاف مقام ربه جنتان) .

وقـــد فســـر بنفســـه رضـــى الله عنـــه كلامـــه فقـــال : الـــروح اذا ســـبحت أى تفكـــرت نظـــرت مـــن قـــول الله تعـــالى (قـــل انظـــروا مـــاذا فـــى الســـموات) فـــان نظـــرت ذكـــرت الصـــانع ، فـــاذا ذكـــرت أســـماءه بـــدأت فـــى ذكرهـــا ، فـــاذا بـــدأت دأبـــت علـــى الـــذكر ، فـــان دأبـــت عرفـــت حـــلاوة الـــذكر ، فـــان عرفـــت شـــربت شـــراب الـــذاكرين ، فـــان شـــربت شـــكرت مولاهـــا علـــى الهدايـــة ، فـــان شـــكرت ســـكرت مـــن لـــذة الـــذكر ، فـــان طربـــت مـــن لـــذة الأحـــوال ، فـــان طربـــت طـــارت وجـــدانا ، فـــان طـــارت ســـارت فـــى الســـبيل الســـوى ، فـــان ســـارت باحـــت بمـــا

يعتريها ، فان باحت فاحت من رائحتها ، فان فاحت ناحت على ما فرط عنها ، فان ناحت راحت تتخبط ، فان راحت فاءت لا تدرى ، فان فاءت باءت الى أمر الله ، فان باءت تابت بنعمة الله ، فان تابت طابت من الذموب ، فان طابت غابت فى سبيل الاستقامة ، فان غابت فطنت لا تميل لغير الله ، فان فطنت عادت لمعرفة الصواب ، فان عادت طلبت من الله المعونة ، فان طلبت درست العلم ، فان درست علمت حتى تصدر عن حق ، فان علمت وقفت على الحدود ، فان وقفت شخصت الى الله بحق ، فان شخصت خافت منه سبحانه وتعالى ، فان خافت اطمأنت ((يا أيها النفس المطمئنة)) فان اطمأنت لامت نفسها على الماضى وخافت الرجوع اليه ، فان لامت رجعت الى ربها بثبات وصدق ، فان رجعت رضيت بربها ، فان رضيت فازت مرضية ، فان فازت دخلت فى عباد الله ، فان دخلت درجت فى العباد ، فان درجت عبدت عبادة حقة ، فان عبدت استقرت الروح فى الجنة والجنة هى المأوى (ولمن خاف مقام ربه جنتان) .

وخوف الله عند السادة الصوفية مقام جليل من مقامات العارفين وهم يستندون فى الاشادة بمقام الخوف الى قوله تعالى (ان أكرمكم عند الله اتقاكم) أى أشدكم له خشية كما أنه تعالى نسب العلم بالله لأهل الخشية فقال تعالى (انما يخشى الله من عباده العلماء) ويروى السادة الصوفية أن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل فى معنى قوله تعالى (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة) هم الذين يعصون ويخافون المعصية ؟ فقال لا بل الرجل يصوم ويتصدق ، ويخاف الا يقبل منه . وهم يقولون ان المؤمن لا يكون خائفا حتى ينهى نفسه عن هواها ، ويستندون الى قوله تعالى (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى) ويروون قوله صلى الله عليه وسلم ((ما من قطرة أحب الى الله من قطرة دمع من خشية الله ، أو قطرة دم اريقت فى سبيل الله) .

وقد قيل للامام الحسن البصرى (أفضل التابعين) رضى الله عنه : يا أبا سعيد كيف نصنع بمجالسة أقوام من أصحابك ، يخوفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير فقال : انك والله لأن تصحب قوما يخوفونك حتى تدرك الامن خير لك من أن تصحب قوما يؤمنونك حتى يدركك الخوف .

والسادة الصوفية مع خوفهم من مقام ربهم ، لا يسقطون الرجاء فيه سبحانه ، بل هم يقابلون الخوف بالرجاء حتى لا يقنطوا من رحمة الله ، وفى مقام الرجاء هم يفرحون مستندين الى قوله تعالى (ان الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما روقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور) وهم يروون أن مولانا رسول الله صلى الله عليه دخل على رجل من أصحابه ، وهو يجود بنفسه فقال كيف تجدك قال أجدنى أخاف ذنوبى وأرجو رحمة ربى فقال صلى الله عليه وسلم : ((ما اجتمعنا فى قلب عبد فى هذا الموطن الا أعطاه الله ما جاه وأمنه مما خافه)) .

وجاء فى وصف امامنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه للمؤمن التقى : يمسى وهمه الشكر ، ويصبح وهمه الذكر ، يبيت حذرا ، ويصبح فرحا ، حذرا لما حذر من الغفلة ، وفرحا بما أصاب من الفضل والرحمة . تراه قريبا أمله ، قليلا زلله ، خاشعا قلبه ، قانعة نفسه ، سهلا أمره ، حريزا دينه ، ميتة شهوته ، مكظوما غيظه .

الخير منه مأمول ، والشر منه مأمون ، ان كان فى الغافلين كتب فى الذاكرين ، وان كان فى الذاكرين لم يكتب من الغافلين .

يعفو عمن ظلمه ، ويعطى من حرمه ، ويصل من قطعه ، بعيدا فحشه ، لينا قوله ، غائبا منكره ، حاضرا معروفه ، مقبلا خيره ، مدبرا شره .

فى الزلزال وقور ، وفى المكاره صبور ، وفى الرخاء شكور ، لا يحيف على من يبغض ، ولا يأتم فيمن يحب .

نفسه منه فى عناء والناس منه فى راحة ، أتعب نفسه لآخرته وأراح الناس من نفسه .

فـــانظر رعـــاك الله ، صــورة المــؤمن التقـى النقـــى ، كمـــا أبرزهـــا أئمـــة الســـلف والخلـــف ، ولـــيقس كـــل منـــا نفســـه بمقياســـها ، ليـــرى مـــدى تخلفنـــا عـــن تلـــك الصـــورة المحمـــودة فـــى الأولـــى والأخـــرة ، فنعنـــى باصـــلاح نفوســـنا فيمـــا بقـــى مـــن أعمارنا والله ولى التوفيق .

ويتعـــرض أســـتاذى العـــارف بـــالله ســـيدى الشـــيخ علـــى عقـــل رضـــى الله عنـــه ، لبعض تلك المنازل فيقول فى الهامه المشرق :

تفنن غيرى فى الملاهى وشرها ... ولكن بحب الله نلت فنونى
وانى اذا ما الناس بالمال حصنوا ... جعلت هدى الرحمن كل حصونى
وان سجنوا فى النفس والمال والهوى ... ففى مشهد الايمان أصل سجونى
نسح جفونى خشـية ومهابة ... اذا أهل ودى بالرضا نظرونى
أسير أسير الحب فى كل موقف ... وما بسوى الاحسان قد أسرونى
وقالوا لى اصبر قلت هل فيه منعة ... فقالوا نعم قلت اشهدوا وخذونى
ولم أدر طعم الحب من بدء نشأتى ... ولكنهم بالذكر قـد شغفونى
أطوف بوجدانى على كل عاشق ... فألقى احتراما ان هـم شهدونى
فيا ما نحى حسن المحبة باسمه ... غسلت فؤادى من جميع فتونى
لقاؤك ايمانى وذكرك حجتى ... وحبك روحـى واليقين وتينى .
بحزم علمت الحب بالعلم خضته ... ففى شدتى ألقى نداك ولينى

ويقول رضى الله عنه شارحا مع ربه سبحانه وتعالى :

حب من أهوى بلحمى ودمى ... أملى فى الوصل يشفى ألمى
ليتنى أفنى على أعتابه ... وأرانى فيه ضـمن الخدم
ان دمعى كاد أن يغـرقنى ... بينما قلبى ثوى فى ضرم
لعب الحب بروحى دوره ... ألهب الحس وأزكى شيمى
انما رحمتـه مغـرفتى ... وبهذا كان معنى عدمى
ان أكن أفقد عينى فما ... كان قلبى فى هدى الله عمى
انما ينظر قلبى عـن هدى ... أعين القلـب منـار الحكم
ان قلبى يا دجى فى ولـه ... ذائـع الاشجان بل لم ينم
ليس فى الحب منام لفتى ... ذاق أقسى وجده فى كرم

انما الوجد جنين قاتل ومذاق الوجد فوق الكلم
وأحاديث الهوى تطربنى فالهوى روحى وعقلى ودمى

ويقول رضى الله عنه فى فضل التقوى ومحبة الله تعالى :

الحب فيه حارت العقلاء هو قوة للمرتجى وضياء
وله على الرواح أكبرعصمة وهو الامان وللنفوس وقاء
فاذا عشقت الله عشقا صادقا كن بعد ذلك صاح كيف تشاء
الحب ان ملك النفوس أعزها والعاشقون بربهم علماء
فاذا اتقينا الله جل جلاله قضيت حوائجنا وسال الماء
ان المريد اذا صفت اخلاقه لم يبق فيه من الصفاء رياء
واذا هو أتخذ المهيمن جاهه فمقامته بين الرجال سماء
والأصل فى الدنيا المحبة والهدى لولا الهدى لم تخلق الاشياء

وفى التعلق بالله تعالى واستدرار فضله سبحانه ، وهو فضل لا يتناهى يقول رضى الله عنه :

ان ذات الحبيب قد غمرتنى ودرست الغرام من معناه
عزتى عزة الكواكب لكن زدت بالعقل والهدى من علاها
فوق نجم السماء وطدت رأسى وتلاشت عندها من سناها
ان أمنيتى فنائى بحبى وهو نعم البقاء فى معناها
لا أبالى بالكون فى أى أمر انما الكون كان من مقتصاها
كل روح تفرغت لرضاه سعدت بالقبول من مسعاها
وشراب الرجال كان من الماء ولكن شرابنا من سناها
ان روحا خافت من الله حقا واستغاثت به رأته رجاها
قبلتى فى الصلاة ساعة وقت كم مصل بعد الصلاة تلاهى
انما قبلتى جميع حياتى هى ذات الاله لن أنساها
مسائى مع اليقين نهار ونهارى سعادة برضاها

هذا ، وليعلم السادة القراء ، أن روح المؤمن لا تتزكى فى جنب الله ، وتترقى فى مراقى اليقين ، الا بالتربية الصحيحة ، على يد عارف بالله ،

يصـــفى الـــنفس مـــن كـــدوراتها البشـــرية ، التـــى تعكـــر صـــفوها النـــورانى ، ولهـــذا فـــرض الله علـــى فريـــق مـــن العلمـــاء الربـــانيين الـــدعوة الـــى الله تعـــالى فـــى قولـــه الكـــريم (ولـــتكن مـــنكم أمـــة يـــدعون الـــى الخيـــر ، ويـــأمرون بـــالمعروف وينهـــون عـــن المنكـــر وأولئـــك هـــم المفلحـــون) ، وكمـــا ان صـــحبة الاشـــرار تـــورث الشـــر فـــان صـــحبة الاخيـــار تـــورث الخيـــر ، فقـــد روى الامـــام البخـــارى فـــى صـــحيحه قولـــه صـــلى الله عليـــه وســـلم ((مثـــل الجلـــيس الصـــالح كصـــاحب المســـك ، أمـــا ان يحـــذيك أو تبتـــاع منـــه أو تجـــد ريحـــا طيبـــة)) يحـــذيك أى يعطيـــك ، وتبتـــاع منـــه أى تشترى ، وحقا ما يقوله بعض الحكماء :

والروح كالريح ان مرت على عطر

طابت وتخبث ان مرت هلى الجيف

وقـــد تتواجـــد الأرواح مـــن أثـــر مـــذاقها النورانيـــة فتقهـــر الأجســـاد علـــى حركـــات لا اراديـــة ، فيتمايـــل الجســـد ، أو تبكـــى العـــين ، أو يـــئن المـــؤمن ، أو يتـــأوه ، فيعيـــب النـــاس علـــى المتواجـــدين مثـــل هـــذه الظـــواهر ، وهـــم معـــذورون فيهـــا ، ومتهـــدرون عليهـــا مـــن غيـــر تكلـــف ولا تعمـــل بـــل هـــو مـــن خضـــوع الأجســـاد لسلطان الارواح اذا قويت .

والمطلـــع علـــى كتـــب الســـنة ، يـــرى انـــه وقـــع مـــن بعـــض الســـادة الصـــحابة التواجـــد ، ولـــم ينكـــره علـــيهم صـــلى الله عليـــه وســـلم ، والـــيكم مـــثلا مـــا رواه الامـــام أحمـــد فـــى مســـنده عـــن الامـــام علـــى كـــرم الله وجهـــه قـــال : أتيـــت النبـــى صـــلى الله عليـــه وســـلم أنـــا وجعفـــر وزيـــد ، فقـــال صـــلى الله عليـــه وســـلم لزيـــد أنـــت مـــولاى فحجـــل (أى خطـــا علـــى رجـــل واحـــدة) فقـــال لجعفـــر ، اشبهت خلقى وخلقى ، فحجل ، ثم قال لى ، انت منى ، فحجلت .

والقرآن الكريم أثبت وقوع المواجيد فى مثل قولـه تعالى (وخر موسى صعقا) وقولـه تعالى (ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من

من الحق) وقوله تعالى (خروا سجدا وبكيا) وقوله تعالى (فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم) .

على أن التواجد يكون غالبا مع أهل البدايات ، فاذا كمل المؤمن فى تربيته ثبت وصارت له قوة على احتمال المنازلات ، وقد قيل للامام أبى القاسم الجنيد : مالك لا تتواجد بينما يتواجد أصحابك فقال (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب) .

وينصحنا الامام أبو مدين التلمسانى رضى الله عنه الا نعيب التواجد لأن المتواجدين معذورون فيه ، ويقول فى تعليله :

فقل للذى ينهى عن الوجد أهله ... اذا لم تذق معنى شراب الهوى دعنا
اذا اهتزت الأرواح شوقا الى اللقا ... ترقصت الاشباح يا جاهل المعنى
اما تنظر الطير المقفص يا فتى ... اذا ذكر الأوطان حن الى المغنى
يفرج بالتغريد ما بفؤاده ... فتضطرب الاعضاء فى الحس والمعنى
ويرقص فى الاقفاص شوقا الى للقا ... ويطرب أرباب العقول اذا غنى
كذلك أرواح المحبين يا فتى ... تهززها الاشواق للعالم الاسنى
أنلزمها بالصبر وهى مشوقة ... وهل يستطيع الصبر من شاهد المعنى
فيا حادى العشاق قم واحد قائما ... ودندن لنا باسم الحبيب وروحنا
وصن سرنا فى سكرنا عن حسودنا ... وان انكرت عيناك شيئا فسامحنا
فانا اذا طبنا وطابت قلوبنا ... وخامرنا خمر الغرام تهتكنا
فلا تلم السكران فى حال سكره ... فقد رفع التكليف فى سكرنا عنا
وسلم لنا فيما ادعيناه اننا ... اذا غلبت اشواقنا ربما بحنا
شربنا طربنا ثم همنا صبابه ... فبالله يا أخى الحشا لا تعنفنا

أمـا سـيدى العـارف بـالله الشـيخ العـز بـن عبـد السـلام ، شـيخ الاسـلام فـى زمانه فيقول رضى الله عنه فى تعليل التواجد :

ما فى التواجد ان حققت من حرج ولا التمايل ان اخلصت من باس
راح وأكؤسها الارواح فهى على قدر الكؤوس تريك الصفو فى الكاس
حاد يذكرك العهد القديم وان تقادم العهد ما المشتاق كالناسى
فليس عار اذا غنى له طربا يئن بالباس لا يخشى من الناس

ويفسـر بعـض العـارفين مـا جـاء فـى البيتـين الاخيـرين فيقـول : سـبب اضـطراب الانسـان بالصـوت الحسـن ، ان الـروح تتـذكر لذيـذ خطـاب يـوم (الســت بــربكم) حــين أخرجــت مــن صــلب آدم وخوطبــت بــذلك فــتحن لمــا تتذكر من لذيذ الخطاب .

اللهـم اجعلنـا بفضـلك مـن عبـادك الصـالحين الـذين تختصـهم برحمتـك مـن بـين عبـادك المـؤمنين وتتـوه بقـدرهم عنـدك فـى قولـك الكـريم (مـن المـؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نخبه ، ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا) .

((يا حسن ، أنت حسن وحسن ، وقد روى بسند حسن ، عن الحسن البصرى ، عن الحسن السبط ، عن أبى الحسن على بن أبى طالب ، أن أحسن الحسن الخلق الحسن ، ويكفيك فى خلقك انك أحسن الحسن ، فكن مسرورا دائما ، وان لم تجده فاخلقه فى نفسك لتفوز)) .

جاءتنى هذه العبارة فى احدى رسائل شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى نور الله ضريحه ، وقد داخلنى حرج كبير فى نشرها ، لأنها تضمنت حسن ظن شيخى فى شخصى الضعيف ، وقد كنت حين تلقيتها منه فى شرخ شبابى ، ولكنى قصدت بنشرها وجه الله فى الدعوة الى الخلق الكريم ، الذى يعمل السادة الصوفية الصادقون على بثه فى نفوس تلاميذه ما أستطاعوا الى ذلك سبيلا ، وقد بلغ من عنايتهم بمكارم الأخلاق أنهم عرفوا التصوف فقالوا انه هو الدخول فى كل خلق سنى والخروج من كل خلق دنى .

وسندهم فى ذلك التعريف سند قوى ، لان الصوفى الصادق يتأسى بمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أقواله وأفعاله وأحواله ، وقد سئلت السيدة عائشة رضى الله عنها عن خلقه صلى الله عليه وسلم فقالت كلمتها الجامعة : كان خلقه القرآن .

ومعلوم أن القرآن الكريم دعا الى كل خلق سنى ونهى عن كل خلق دنى ، وقد بلغ مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مستوى خلقه الغاية التى أثنى عليها رب العزة فى قوله الكريم (وانك لعلى خلق عظيم) وفى صيغة الآية من التأكيد ما فيها ، ومن أصدق من الله قيلا .

ولا عجب أن يبلغ مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مكارم الاخلاق تلك الغاية لأن الله تولى تربيته ، وهيأه ليكون أسوة حسنة للناس لذلك يقول صلوات الله وسلامه عليه ((أدبنى ربى فأحسن تأديبى)) ويقول ((انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)) . كما يقول صلوات الله عليه وعلى آله ((انكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم)) ويقول المغفور له العلامة رفاعة الطهطاوى فى كتابه مناهج الألباب :

((اتفقت الأخلاق ، والعوائد ، والشرائع ، والأحكام ، على مكارم الأخلاق منحصرة فى قوله صلى الله عليه وسلم (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) وأن هذا الحديث قاعدة عظيمة فى الدين ، لأن الرجل الصالح المستقيم الحال ، لا يقتصر على الكف عن فعل الشر ، بل يرى أن الحقوق الواجبة عليه فعل الخير والمعروف ، فمن لم يضع المعروف فى موضعه مع التمكن منه لا يعد صالحا فالاستقامة تنهى عن الشر ، والصلاح يأمر بالخير .

ثم أورد سيادته لبعض الحكماء قوله

كل الامور تبيد عنك وتنقضى   الا الثناء فانه لك باق
لو اننى خيرت كل فضيلة   ما اخترت غير مكارم الاخلاق

وأورد لآخر قوله :

ليس دنيا الا بدين وليس الدين   الا مكارم الاخلاق
انما المكر والخديعة فى الناس   هما خصال أهل النفاق

وقد قال الامام زروق . رضى الله عنه . وهو من ائمة الصوفية :
((أصول الخير ثلاثة . التواضع . وحسن الخلق . والتضحية)) فالتواضع تتبعه ثلاث : الانصاف من نفسك ، وترك الانتصاف لها ، وخدمة المؤمنين .
((وحسن الخلق تتبعه ثلاث : العدل فى الرضا والغضب ، والقصد فى الرضا والغضب ، والخشية فى السر والعلن)) .

((والنصـــيحة تتبعهـــا ثـــلاث : العمـــل الصـــالح ، والعمـــل الصـــحيح ، واتبـــاع الحق فى كل حال)) .

وانـــك أيهـــا القـــارئ العزيـــز ، لتجـــد فيمـــا قالـــه ســـيدنا جعفـــر بـــن أبـــى طالـــب للنجاشـــى ملـــك الحبشـــة ، أثـــر الاســـلام فـــى تهـــذيب الاخـــلاق واضـــحا بينـــا ، فقـــد قال له فيما قال :

((أيهـــا الملـــك كنـــا قومـــا أهـــل جاهليـــة ، نعبـــد الأصـــنام ونأكـــل الميتـــة ، ونـــأتى الفـــواحش ، ونقطـــع الأرحـــام ، ونســـئ الجـــوار ، ويأكـــل القـــوى منـــا الضعيف)) .

((فكنـــا علـــى ذلـــك ، حتـــى بعـــث الله الينـــا رســـولا منـــا ، نعـــرف نســـبه ، وصـــدقه ، وأمانتـــه ، وعفافـــه ، فـــدعانا الـــى الله لنوحـــده ، ونعبـــده ، ونخلـــع مـــا كنـــا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان)) .

وأمرنـــا بصـــدق الحـــديث ، وأداء الأمانـــة ، وصـــلة الـــرحم ، وحســـن الجـــوار والكف عن المحارم والدماء)) .

((ونهانـــا عـــن الفـــواحش ، وقـــول الـــزور ، وأكـــل مـــال اليتـــيم ، وقـــذف المحصنة)) .

((وأمرنـــا أن نعبـــد الله وحـــده لا نشـــرك بـــه شـــيئا ، وأمرنـــا بالصـــلاة ، والزكـــاة ، والصـــيام (وعـــدد عليـــه أمـــور الاســـلام) فصـــقناه ، وآمنـــا بـــه ، واتبعنـــاه ، علـــى مـــا جـــاء بـــه مـــن الله ، فعبـــدنا الله وحـــده ، ولـــم نشـــرك بـــه شـــيئا ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا .

((فعـــدا علينـــا قومنـــا ، فعـــذبونا ، وفتنونـــا عـــن ديننـــا ، ليردونـــا الـــى عبـــادة الأوثـــان مـــن عبـــادة الله تعـــالى ، وأن نســـتحل مـــا كنـــا نســـتحل مـــن الخبائـــث ، فلمـــا قهرونـــا ، وظلمونـــا ، وضـــيقوا علينـــا ، وحـــالوا بيننـــا وبـــين ديننـــا خرجنـــا الـــى بلادك .

وهى صورة تريك النقيض ، حسن الخلق وسوء الخلق ، فليس من حسن الخلق أن يحسن المرء معاملة الناس ويغفل عن معاملة الله ، والله أولى

لـه وأقـرب اليـه ، وحسـن صـلته بـالله يـؤدى بـه الـى حسـن خلقـه مـع النـاس ولا عكس .

وقـد سـألنى يومـا ، الصـديق الصـالح كـريم الخلـق السـيد / سـالم جمعـة ، عـن العلـة فيمـا نشـاهده مـن حسـن معاملـة الأجانـب ، وسـوء معاملـة أكثـر المسـلمين ، فتحيـرت فـى اجابتـه مـدة طويلـة ، حتـى عثـرت علـى العلـة ، وأنـا أطـالع الأحاديـث النبويـة الصـحاح فـى كتـاب تيسـير الوصـول ، فقـد وقفـت فيهـا علـى حـديث يقـول فيـه مولانـا رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم ((ان الشـيطان أيـس أن يعبـد فـى بلـدكم هـذا ، ولكـن سـتكون لـه طاعـة فيمـا تحتقـرون مـن أعمـالكم وسيرضـى بـه)) ، ويؤخـذ مـن ذلـك الحـديث الشـريف أن الشـيطان لا يسـتطيع التسـلط علـى المسـلمين فـى عقيـدة التوحيـد ، ولكنـه يتسـلط علـيهم فـى أخلاقهـم ، فيختلفـون بأخلاقـه السـيئة مـن الحسـد والغـل والكبـر ، والغـش ، والنفـاق ، والربـا ، واتبـاع الباطـل ، ومجانيـة الحـق الـخ . . فيسـيئون للنـاس ويحسـبونه هينـا وهـو عنـد الله عظـيم ، وفـاتهم أن الـدين المعاملـة ، أمـا غبـر المسـلمين فقـد رضـى مـنهم الشـيطان فسـاد العقيـدة فتـركهم وشـأنهم فـى معاملـة النـاس ، فأحسـنوا المعاملـة كسـبا للـدنيا ، وقـد وصـفهم الله تعـالى فقـال (يعلمـون ظـاهرا مـن الحيـاة الـدنيا وهـم عـن الآخـرة هم غافلون) .

وقـد قـال سـيدى القطـب الامـام أبـو الحسـن الشـاذلى رضـى الله عنـه : رأيـت النبـى صـلى الله عليـه وسـلم فـى المنـام فقـال لـى : يـا علـى طهـر ثيابـك مـن الـدنس ، تحـظ بمـدد الله فـى كـل نفـس ، فقلـت يـا رسـول الله ، ومـا ثيـابى ، فقـال ، اعلـم أن الله تعـالى كسـاك حلـة الايمـان وحلـة المعرفـة ، وحلـة التوحيـد ، وحلـة المحبـة ، قـال ففهمـت حينئـذ قولـه تعـالى : وثيابـك فطهـر ، فمـن عـرف الله صـغر لديـه كـل شـىء ، ومـن أحـب الله هـان عليـه كـل شـىء ، ومـن وحـد الله لـم يشـرك بـه شـيئا ، ومـن آمـن بـالله أمـن مـن كـل شـىء ومـن أسـلم لله قلمـا يعصيه ، ومن عصاه اعتذر اليه ، وان اعتذر اليه قبل عذره .

وقـد قـدم البصـرة أميـر المـؤمنين علـى كـرم الله وجهـه ، فـدخل جامعهـا ، فوجد القصاص يقصون ، فاخرجهم ، وكان يقول ، هذا بدعة ، هذا منكر ،

حتى جاء الى الحسن البصرى فقال : يافتى انى سائلك عن شىء ، فان أجبت عنه أبقيتك ، والا أخرجتك كما أخرجت أصحابك ، وكان قد رأى عليه سمتا وهديا ، فقال سل عما شئت يا أمير اتلمؤمنين فقال كرم الله وجهه ، ما صلاح الدين ، وما فساده ، فقال الحسن ، صلاحه الورع ، وفساده الطمع ، قال اجلس ، فمثلك يصلح أن يتكلم مع الناس .

وأنت ترى من اجابه الامام الحسن البصرى أن الورع يورث صاحبه حسن الخلق مع الله ومع الناس ، وأن الطمع يجر صاحبه الى سوء الخلق الذى نهى الله عنه .

والدين عقيدة ، وأحكام ، وتطبيق ، والتطبيق شكل وموضوع ، وقد يتم تطبيق العبادات شكلا بالعادة ، فلا يثمر فى قلب العابد ثمرة العبادة ، ومن هنا وجب أن تقوم التربية الروحية بين المسلمين ، ليأخذ المسلم دينه علما وعملا وحالا ، من ورثة الاخلاق النبوية ، وهم الذين اصطلح على تسميتهم السادة الصوفية ، وهم الذين نالوا علوم الدراسة ، وخلصت عليها معاملاتهم فمنحوا علوم الوراثة ، وصفت سرائرهم فأكرموا بصدق الفراسة وقد قال فيهم امامنا على كرم الله وجهه : عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية ، لا عقل سماع ورواية ، فان رواة العلم كثير ورعاته قليل .

واذا أردت أيها القارىء العزيز ، مزيدا من شرح حالهم ، فى تربية أتباعهم ، فاستمع الى ما قاله أمير المؤمنين على كرم الله وجهه عند تلاوته (يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) فقد قال فابدع كما هو شأنه فى كل ما قال : ان الله سبحانه وتعالى ، جعل الذكر جلاء للقلوب ، تسمع به بعد الوقرة ، وتبصر به بعد العشوة ، وتنقاد به بعد المعاندة ، وما برح لله ـــ عزت آلاؤه . فى البرهة بعد البرهة ، وفى أزمان الفترات ، عباد ناجاهم (أى ألهمهم) ، وكلمهم فى ذات عقولهم ، فاستصحبوا بنور يقظة فى الاسماع والأبصار والأفئدة ، يذكرون بأيام الله ، ويخوفون مقامه ، بمنزلة الأدلة فى الفلوات ، من أخذ القصد حمدوا طريقه ، وبشروه

بالنجـــاة، ون أخـــذ يمينـــا وشـــمالا ذمـــوا اليـــه الطريـــق وحـــذروه مـــن الهلكـــة ، وكانوا كذلك مصابيح تلك الظلمات ، وأدلة تلك الشبهات ٠

وان للـــذكر لأهـــلا ، أخـــذوه مـــن الـــدنيا بـــدلا ، فلـــم تشـــغلهم تجـــارة ولا بيـــع عنـــه ، يقطعـــون بـــه أيـــام الحيـــاة ، ويهتفـــون بـــالزواجر عـــن محـــارم الله ، فـــى أســـماع الغـــافلين ، ويـــأمرون بالقســـط ويـــأتمرون بـــه ، وينهـــون عـــن المنكـــر ويتنـــاهون عنـــه ، فكـــأنهم قطعـــوا الـــدنيا الـــى الآخـــرة وهـــم فيهـــا ، فشـــاهدوا مـــا وراء ذلـــك ، فكأنمـــا اطلعـــوا غيـــوب أهـــل البـــرزخ فـــى طـــول الاقامـــة فيـــه ، وحققـــت القيامـــة علـــيهم عـــداتها ، فكشـــفوا غطـــاء ذلـــك لاهـــل الـــدنيا ، حتـــى كـــانهم يـــروى مـــا لا يـــرى الناس ، ويسمعون ما لا يسمعون ٠

فلـــو مثلـــتهم لعقلـــك فـــى مقـــاومهم المحمـــودة ، ومجالســـهم المشـــهودة ، وقـــد نشـــروا دواويـــن أعمـــالهم ، وفرغـــوا لمحاســـبة أنفســـهم فـــى كـــل صـــغيرة وكبيـــرة ، أمـــروا بهـــا فقصـــروا عنهـــا ، أو نهـــوا عنهـــا ففرطـــوا فيهـــا ، وحملـــوا ثقـــل أوزارهـــم ظهـــورهم ، فضـــعفوا عـــن الاســـتقلال بهـــا ، فنشـــجوا نشـــيجا ، وتجـــاوبوا نحيبـــا ، يعجـــون الـــى ربهـــم مـــن مقـــام نـــدم واعتـــراف – لرأيـــت أعـــلام هـــدى ، ومصـــابيح دجـــى ، قـــد حفـــت بهـــم الملائكـــة ، وتنزلـــت علـــيهم الســـكينة ، وفتحـــت لهـــم أبـــواب الســـماء ، وأعـــدت لهـــم مقاعـــد الكرامـــات ، فـــى مقعـــد اطلـــع الله علـــيهم فيـــه ، فرضـــى سعيهم ، وحمد مقامهم ٠

يتنســـمون بدعائـــه روح التجـــاوز ، رهـــائن فاقـــة الـــى فضـــله ، وأســـارى ذله لعظمته ، جرح طول الأسى قلوبهم ، وطول البكاء عيونهم ٠

لكـــل بـــاب رغبـــة الـــى الله مـــنهم يـــد قارعـــة ، يســـألون مـــن لا تضـــيق لديـــه المنادح (المواضع الواسعة) ولا يخيب عليه الراغبون ٠

فحاسب نفسك لنفسك ، فان غيرها من الأنفس لها حسيب غيرك ٠

وهـــذا الوصـــف ينخلـــع قلـــب القـــارئ لـــه مـــرة واحـــدة ، فكيـــف بـــالملازم لأحـــد هـــؤلاء الأئمـــة يســـمع منـــه ، ويأخـــذ عنـــه ، لاشـــك أنـــه يتحـــول مـــن الظلمـــات الـــى النـــور ، فـــتخلص نفســـه مـــن الســـيئات والشـــرور ، ويتحلـــى بمكـــارم الأخـــلاق وقد تلحظه عناية ربه فيصير اماما من أئمة الهدى ، وما ذلك على الله بعزيز ٠

وحين كان أسلافنا بمكارم الأخلاق ، كان للاسلام بهم أكبر دعاية عملية ، فدخل الأعاجم فى الاسلام عن اعجاب به ، وبرز من هؤلاء الاعاجم أجلاء فى علوم الدين والتربية الروحية ، كما هو معلوم ٠

لذلك نحن فى حاجة لبث الاسلام الصحيح فى نفوس أهله ، قبل أن ندعو اليه غيرهم ، فان رأى غيرهم منا مسلكا مشرفا ، أغنانا الحال عن المقال ، وحال واحد فى ألف خير من كلام ألف فى واحد ٠

ونحن مأمورون من الله ان تكون شهداء لله ولو على أنفسنا ، ولا شبهة اننا انحرفنا فى زماننا هذا عن خلق المسلمين الأوائل ، فتعادينا ، وتحاسدنا وبخلنا ، وفرطنا فى واجباتنا الخاصة والعامة ، واعتدى بعضنا على بعض ، ففشت فينا الغيبة والنميمة ، ولو كانت عبادتنا حقة لاثرت فى قرارة نفوسنا وأصلحتها ، والعبادات ليست مقصودة لذاتها ، وانما هى وسيلة لتهذيب النفوس ، واصلاح القلوب ، وعلاج النقائص ، والدين منذ قام لم تتغير أحكامه ، انما تغيرت نفوسنا ، لاننا لم نأخذه بقوة وصدق ، بل أخذناه شكلا لا روحا ، وفاتنا أن الله غنى عنا وعن طاعتنا ، ولكن تعبدنا بالطاعات لصلاح المجتمع ، وليسعد الناس فيما بينهم على أساس الاخوة والتعاون ، فلا يقوم بينهم التنافر أو التخاذل فى أفرادهم أو طوائفهم ٠

وقد زرت الريف ، بعد غيبة طويلة عنه ، فأحزننى ما رأيت ، من الشقاق والخلاف والاختلاف ، بين الأخوة ، وأبناء العمومة والجيران ، ولم أعهد مثل هذا من قبل ، ولم اجد بعد البحث من علة ، الا ان أهل الاصلاح بين الناس قلوا فاشتدت الخصومات لأسباب تافهة ، وقد أسعدنى التقاطع والمخاصمة ، وقيام الخلافات يضعف التربية الروحية ، وقد أسعدنى أنى فى أيام معدودات أزلت الخلافات بالنصيحة الأمينة ، فاستجاب القوم لى عن فطرة سليمة ، وتصافى المتخاصمون ، وتزاور المتقاطعون ، فلو أن أهل الخير تتبعوا هذه الخلافات فى نشأتها ، وأرادوا اصلاحا من قلوب خالصة ، بعيدة عن الهوى والغرض ، لعاش القوم فى صفاء ووفاء وأخذ الخلف عن السلف حسن الخلق ، والخلاف شر ومفسدة فى المجتمع والصلح

خير ومرحمة ولهذا حض الله على لاصلاح بين الناس (لا خير فى كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما) ٠

وقد تعرض لآفاتنا الخلقية ، أستاذى العارف بالله ، الشيخ على عقل ، طيب الله ثراه فى ارتجاله الهاما ، وكنت قد صحبت معى الى حفل صوفى ، ابن شقيقتى ، الشاب التقى ، الأستاذ عبد الحميد أحمد الملطاوى ، وكان عندئذ طالبا فى كلية التجارة ، وهو الآن مراقب عام الايرادات بالميزانية ، فسأل الشيخ أن يرتجل على قول القائل :

مررت على المروءة وهى تبكى   فقلت علام تنتحب الفتاة
فقالت كيف لا أبكى وأهلى   جميعا دون خلق الله ماتوا

وكان مما قاله الشيخ رضى الله عنه فى كلام طويل من الهامه الفورى :

مررت على المروءة وهى تبكى   فقد قلت من الدنيا الهداة
اذا فقد المروءة أى قوم   فليس لهم من الدنيا حياة
وان مروءة من غير دين   ضلال لا تقول به الثقاة
تركنا حد مولانا وراء   تنازعنا بذاك النازعات
وقلدنا سوانا عن ضلال   وقد لعبت بأكثرنا الغواة
اذا وعظ الورى الوعاظ يوما   فتسخر بالكلام الناشئات
وكم رمضان نحييه بلهو   ليليه باثم ساهرات
نحج البيت روادا ولكن   قلوب بعد ذاك مخربات
وكم ذا ندعى نعطى زكاة   وليس لنا مع المولى زكاة
نبيع ونشترى لكن حراما   وأبواب الحلال معطلات
وكم يفشو الربا فينا جهارا   وتعجبنا الفتاوى الفاسدات
محاكمنا قد امتلت نساء   وهل ترضى بكثرتها القضاء
وأخلاق تمزق كل يوم   ثياب بالضلال مرقعات
وكم داع الى التقوى افتخرا   وليس له من التقوى صلات
طباع الناس أمست كالافاعى   فألينها ملامس لاذعات
وأهل المال فى جهل تسلموا   وأهل العلم ليس لهم حياة
اذا زمن فقدنا الدين فيه   فأيام السعادة ذاهبات

وقـــد عجـــب الاســـتاذ عبـــد الحميـــد والســـامعون عـــن تـــدفق الشـــيخ ارتجـــالا ، فقلـــت لهـــم لا تعجبـــوا فانـــه مـــن عطـــاء الله لأوليائـــه ، وقـــد قـــال تعـــالى (يـــؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا) .

ويعلـــل الســـيد محمـــد اقبـــال فليســـوف الباكســـتان العظـــيم ، رحمـــه الله تغييـــر أحـــوال المســـلمين ، وضـــعف قـــوتهم الروحيـــة ، باشـــتغالهم بـــالملاهى التـــى انتشـــرت بيـــنهم فوقفـــوا اكثـــر أوقـــاتهم عليهـــا ، وتلهـــوا بهـــا عـــن التفكـــر فـــى أمـــور الآخـــرة ، فيقـــول فيمـــا ترجمـــه عنـــه الـــى العربيـــة صـــديقى العلامـــة الشـــيخ الصاوى شعلان ، جزاه الله خيرا :

هى المدنيـة الحمقاء ألقت

بهم بين المذاهب حائرينا

لقد صنعت لهم ضنم الملاهى

لتحجب عنهم الحرم الأمينا

والســـيد اقبـــال لا يعـــارض المدنيـــة النافعـــة انمـــا يعـــارض المدنيـــة الضـــارة التـــى تنســـى النـــاس آخـــرتهم ، التـــى خلقـــوا لهـــا ، وســـيردون اليهـــا فينبـــئهم الله بما عملوا .

ويعلـــل الســـيد اقبـــال عـــدم اســـتجابة الله لـــدعوات المســـلمين فـــى زماننـــا ، بـــانهم غيـــر صـــادقين بقلـــوبهم وأرواحهـــم مـــع الله ، ولـــو صـــدقوا الله لكـــان خيـــرا لهـــم ، لأنـــه تعـــالى انمـــا يتقبـــل مـــن المتقـــين ، فيقـــول طيـــب الله ثـــراه علـــى لســـان الحق جل شأنه :

عطايانا سحائب مرسلات

ولكن ما وجدنا السائلينا

ولو صدقوا وما فى الارض نهر

لاجرينا السما لهم عيونا

ولا عـــذر اليـــوم ، لمختلـــف عـــن ربـــه ، فـــان العلـــم يـــدخل علينـــا مســـاكننا مـــن وراء الجـــدر ، والـــوعظ مســـتمر فـــى اذاننـــا ليـــل نهـــار ، ومـــا علينـــا الا ان نفـــتح له قلوبنا التى صدئت بكسب السيئات ، وباب التوبه مفتوح الى يوم

القيامة فلنتب عما مضى ، ولنبدأ حياة جديدة فى صلتنا بربنا ، ليغفر لنا خطايانا ، ويبدل سيئاتنا حسنات ، فانه تعالى القائل (وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) واذا أراد الانسان أن يعرف قدره عند ربه فلينظر الى مقام ربه عنده ، فان خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى كما وعد الله تعالى ، وان طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هى المأوى ونعوذ بالله منها .

وأنى أدعو بما كان يدعو به شيخنا الأكبر القطب سيدى الشيخ محمد أبو خليل ساكن ضريحه بالزقازيق رضى الله عنه :

اللهم بجاه نبيك المصطفى ، وحبيبك المجتبى ، ووليم المرتضى ، وأمينك على وحى السما ، سيدنا ومولانا محمد ، صلى الله عليه وسلم ، نسألك أن تغفر ذنوبنا ، وتستر عيوننا ، وتكتب لنا عندك براءة وعتقا من النار ، وأمنا من العذاب ، وجوازا على الصراط ، وطريقا الى الجنة وعاقبة الى الخير ، اللهم توفنا يا الهى بكرمك مسلمين مؤمنين موحدين وألحقنا بالصالحين ، آمين .

وقد دخل فرقد ومجهر بن واسع على رجل يعودانه ، فجرى ذكر العنف والرفق ، فروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قيل له : على من حرمت النار يا رسول الله ، قال ((على الهين اللين السهل القريب)) فلم يجد محمد بن واسع بياضا يكتب ذلك فيه ، فكتب على ساقه وأخيرا وليس آخرا لا تنس ان الله تعالى وصف حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم فقال مانحا له الشرف كله (وانك لعلى خلق عظيم) .

- ١٥ -

. . ((ولكن ربك رب الكون الذى خلقه ودبره ، وقام بأسبابه من غير سبب ولا الزام ، فاذا وقر عيناك ، فاشكر الله ، والصبر أولى ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ، فانك انما تنتظر نفاذ القضاء ، وما قضاه لك خير كبير ، ورزق كثير ، ونعمة وافية ، وقلب راض . . والله يرزق من يشاء بغير حساب)) .

وهكذا يوجهنى شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى ـ رضى الله عنه ـ الى ما يقول به السادة الصوفية ، من أن المؤمن لا يحصل له حقيقة الايمان بربه الا بامرين : الامتثال لامره ، والاستسلام لقهره .

والامتثال لامره سبحانه ، يقتضى من المؤمن اداء ما تعبده الله به ، وفى اداء العبادات يلقى المؤمن بعض المشقات التى تستعصيها النفس فى البداية حتى اذا استقرت عليها ، تعودتها واستحلتها فى مذاقها ، فساعدت حلاوة المذاق على اسباق الخيرات فاستنارت البصيرة ، وأدركت بنورها ما حجب عن عوام المؤمنين .

وتلك الأنوار التى تضىء بصائر الخواص ، تعينهم على احتمال ما يتعرضون من المكاره التى قدر الله تعالى أن تصيبهم ، لحكمة يعلمها سبحانه ، وتكون خافية عن عباده .

وفى هذا يقول القطب سيدى ابن عطاء الله السكندرى ـ رضى الله عنه ـ : ((أنما يعينهم على حمل الاقدار ورود الأنوار ، وذلك أن الأنوار اذا وردت كشفت عن قرب الحق سبحانه وتعالى منه ، وان هذه الاحكام لم تكن الا عنه ، فكان علمه بأن الاحكام من سيده سلوة له ، وسبب لوجود صبره ، ألم تسمع لما قال الله سبحانه وتعالى لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

((واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا)) . . أى ليس هو حكم غيره فيشق عليك ، بل هو حكم سيدك القائم باحسانه اليك ، ولنا فى هذا المعنى :

وخففف عنى ما ألاقى من العنا
بأنك انت المبتلى والمقدر
وما لامرىء عما قضى الله معدل
وليس له منه الذى يتخير

ثم قال سيدى ابن عطاء الله : ((ومثال ذلك لو ان انسانا فى بيت مظلم ، فضرب بشىء ، ولا يدرى من الضارب له ، فلما أدخل عليه مصباح ، نظر فاذا هو شيخه أو أبوه أو أميره فان علمه بذلك مما يوجب صبره على ما هنالك . .))

وقد وقع لى مرة أنى كنت مرشحا للدرجة الرابعة ، فلم أظفر بالترقية اليها ، فضاق صدرى بفواتها ، ورأيت أن أزور سيدى عبد السلام الحلوانى . نور الله ضريحه . وكان على قيد الحياة ، لاخفف برؤيته الالم عن نفسى ، فركبت الترام قاصدا لقاءه فاشتد ضيق صدرى فى الطريق وما كدت أصل الى منتصف الطريق ، حتى وعظنى واعظ الله فى قلبى ، واذا بهاتف يهتف بى : ده ده انت ها تعمل زى اللى بيقول فيهم ربنا ((ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فان أصابه خير اطمأن به ، وان أصابه فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين)) .

فتنبهت من غفلتى وبانت زلتى ، فاستغفرت ربى وسألته التوبة ، فذهب الحرج عن صدرى ولما وصلت الى سيدى الشيخ سلمت عليه وقصصت عليه ما جرى فابتسم . رضى الله عنه . وقال لى : ((خواطر القرآن عظيمة جدا)) أى الزم ما وعظك به ربك فى كتابه الكريم .

وقـــد قـــال همـــام ، وكـــان رجـــلا عابـــدا ، لمولانـــا الامـــام علـــى بـــن أبـــى طالـــب ــ كــرم الله وجهــه . يــا أميــر المــؤمنين صــف المتقــين حتــى أنظــر الــيهم فتثاقــل الامـــام عـــن اجابتـــه ، ولكـــن ألـــح عليـــه . . فقـــال لـــه فيمـــا قـــال . كــرم الله وجهه . :

((نزلـــت أنفســـهم مـــنهم فـــى الـــبلاء كـــالتى نزلـــت فـــى الرخـــاء ، ولـــولا الأجـــل الـــذى كتـــب لهـــم ، لـــم تســـتقر أرواحهـــم فـــى أجســـادهم طرفـــة عـــين شـــوقا الـــى الثواب وخوفا من العقاب)) .

((عظـــم الخـــالق فـــى أنفســـهم فصـــغر مـــا دونـــه فـــى أعيـــنهم ، فهـــم والجنـــة كمـــن قـــد رآهـــا فهـــم فيهـــا منعمـــون ، وهـــم والنـــار كمـــن قـــد رآهـــا ، فهـــم معـــذبون ، قلـــوبهم محزونـــة وشـــرورهم مأمونـــه ، وأجســـادهم نحيفـــة وحاجـــاتهم خفيفـــة ، وأنفســـهم عفيفـــة ، صـــبروا أيامـــا قصـــيرة أعقبـــتهم راحـــة طويلـــة ، تجـــارة مريحـــة يســـرها لهـــم ربهـــم ، ارادتهـــم الـــدنيا فلـــم يريـــدوها ، وأســـرتهم ففـــدوا أنفســـهم منهـــا ، ((فمـــن علامـــة أحـــدهم أنـــك تـــرى لـــه قـــوة فـــى ديـــن ، وحزمـــا فـــى لـــين ، وعلمـــا فـــى حلـــم ، وقصـــدا فـــى غنـــى ، وخشـــوعا فـــى عبـــادة وتجمـــلا فـــى فاقـــة وصـــبرا فـــى شدة ، وطلبا فى حلال ، ونشاطا فى هدى ، وتحرجا عن طمع)) .

وقـــد زرت ســـيدى الشـــيخ عبـــد الســـلام الحلـــوانى . رضـــى الله عنـــه . فـــى مرضـــه الأخيـــر ، فـــدلنى مظهـــره علـــى شـــدة مرضـــه فاشـــتد ألمـــى ، وأحـــس الشـــيخ بنـــور بصـــيرته ، انـــى متـــألم لمـــا يجـــد ، فـــأراد أن يســـرى عنـــى . . وأن يعلمنـــى الرضـــا بالمقـــدور فـــى كـــل حـــال ، فقـــال . رضـــى الله عنـــه . فـــى صـــوت خافـــت مـــن الاعيـــاء ، لـــه الملـــك ولـــه الحمـــد ، عطـــف ســـبحانه الحمـــد علـــى الملـــك ، والملـــك يشـــمل الخيـــر والشـــر ، اشـــارة منـــه ســـبحانه ، الـــى انـــه يجـــب أن يحمـــد فى الخير والشر على السواء .

وهـــذا الـــذى وجهنـــى اليـــه بمذاقـــه العـــالى ، ييســـر لنـــا فهـــم مـــا قـــال بـــه امامنـــا علـــى . كـــرم الله وجهـــه . نزلـــت أنفســـهم مـــنهم فـــى الـــبلاء كـــالتى نزلت فى الرخاء .

وقـــد حـــدثنى أحـــد أصـــدقائى الصـــالحين ، ان شـــيخنا الأكبـــر وصـــاحب طريقتنـــا قطـــب عصـــره ، ســـيدى الحـــاج محمـــد أبـــو خليـــل ، الحســـينى نســـبا ، وســـاكن ضـــريحه الأنـــوار بالزقـــازيق ((انتقـــل الـــى رضـــوان الله فـــى يونيـــة ١٩٢٠)) أصـــابه مـــرض فـــى ســـاقيه ، فتـــألم المريـــدون لمرضـــه ، فقـــال لهـــم مســـليا ومعلنـــا : ان ســـاقى حملتـــانى ثمـــانين عامـــا ، ولـــم تشـــكوا منـــى مـــره ، فكيـــف أشـــكو اذا مرضتا أياما قصيرة .

وتـــذكرنى فلســـفة شـــيخنا الاكبـــر هـــذه بفلســـفة صـــوفى مـــن الأقـــدمين ، عـــاد تلميـــذا لـــه كـــان مريضـــا فقـــال التلميـــذ لشـــيخه شـــاكيا : انـــى مـــلازم فراشـــى منـــذ مائـــة وعشـــرين يومـــا ، مســـتطيلا بـــذلك مـــدة المـــرض ، فقـــال لـــه شـــيخه معلمـــا : أحصيت أيام البلاء فهل أحصيت أيام الرخاء .

أقـــول ومـــا أكثـــر مـــن يحصـــى منـــا علـــى ربـــه أيـــام المـــرض ، وينســـى لربـــه أعـــوام الصـــحة ، واذا أعطـــى المـــؤمن العـــدل مـــن نفســـه ، فيجـــب أن يشـــكر لربـــه فـــى الرخاء وأن يصبر لحكمه فى البلاء .

وفـــى قـــول ســـيدى الشـــيخ عبـــد الســـلام : ولكـــن ربـــك رب الكـــون الـــذى خلقـــه ودبـــره ، وقـــام بأســـبابه مـــن غيـــر ســـبب ولا الـــزام ، تعلـــيم بـــاللجوء اليـــه ـــ ســـبحانه . فـــى كـــل أمورنـــا لأننـــا عبيـــد احســـانه ، أوجـــدنا فضـــلا مـــن العـــدم ، ورزقنـــا كرمـــا مـــن غيـــر حـــول منـــا ولا قـــوة ، وجـــاد علينـــا مـــن جـــوده ، فحبـــب الينـــا الايمـــان وزينـــه فـــى قلوبنـــا وكـــره الينـــا الكفـــر والفســـوق والعصـــيان . . واذا نحـــن تعرضـــنا للـــبلاء فـــى هـــذه الحيـــاة الـــدنيا ، فانمـــا ذلـــك لخيرنـــا واســـعادنا ، وقـــد قـــال تعـــالى ((انمـــا يـــوفى الصـــايرون أجـــرهم بغيـــر حســـاب)) . ونحـــن لا نـــدرك حلاوة العافية الا ان ذقنا مرارة البلاء .

واذا جاءنـــا الـــبلاء تضـــرعنا اليـــه . ســـبحانه . بالـــدعاء ، مفتقـــرين اليـــه ، ومظهـــرين العبوديـــة بـــين يديـــه ، ومقـــربين بضـــعفنا لـــه ، ومعتـــرفين بســـلطانه علينـــا . . ونـــراه ســـبحانه عنـــد الـــبلاء أقـــرب الينـــا مـــن كـــل قريـــب ، وأحـــب الينـــا مـــن كـــل حبيـــب ، وأيجـــع فـــى كشـــف ضـــرنا مـــن كـــل طيـــب ، فـــاذا كشـــف الضـــر عنـــا شـــكرناه تعالى فى السراء التى أعقبت الضراء . . فبان بالضدين فضله ، وبرز

بالنقيضين لطفه ، فقوى يقين العبد فيه واعتماده عليه ، واتجاهه اليه ، وهى درجات لاينالها المؤمن بالعبادات الخالية من المذاق ، فسبحان اللطيف الخبير الرءوف الرحيم .

تعرف سبحانه الى عباده بالرحمة فى قوله الكريم ((بسم الله الرحمن الرحيم)) لئلا ييأس مذنب من مغفرته ، ولا مبتل من شفائه ولا فقير من سمعته ، ولا جاهل من تعليمه ، ولا مكروب من تفريجه ، وعلمنا . سبحانه . أن ندعوه ليستجيب ، و الدعاء مخ العبادة كما جاء فى الحديث الصحيح .

و يفرق سيدى ابن عطاالله ، بين عوام المؤمنين و خواصهم فى صلتهم بربهم فيقول ((لا يزال اضطرار الوالى لربه ، لتحققه بفقره و لا يكون مع غير الله قراره ، لا ستيحاشه مما سواه ، فهو مستأنس بقربه ، طلق اللسان بذكره ، بخلاف العامة فان اضطرارهم بمثيرات الاسباب فاذا زالت زال اضطرارهم و ذلك لغلبة دائرة الحس على مشهدهم ....))

قد سمع سيدى ذو النون المصرى . رضى الله عنه . برجل صالح فوق جبل المقطم فذهب اليه زائرا ، و أقام معه بعض الوقت ، فلما أراد الانصراف سأل ذلك الصالح دعوة فقال الصالح : آنسك الله بقربه ، فقال سيدى ذو النون : زدنى ، قال : من آنسه الله بقربه أعطاء أربعاء بغير أربع : علما بغير طلب ، و غنى بغير مال ، و عزا بغير عشيرة ، و أنسا بغير جماعة .

و مقام الرضا بقضاء الله ، مقام شريف ، وهو من مقامات اليقين الكبرى ، و دون الوصول اليه ، جهاد كبير ، و صبر جميل ، وذكر كثير و سهر طويل ، و لا تبدو آيات الله مكشوفة . الا لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياما و قعودا و على جنوبهم ، و يفهم فى الهامه المشرق ، أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل فيقول . رضى الله عنه . :

هم الجواهر طبعا لا يغيرهم	مر الزمان و هم من أهله الدرر
ان يشبعوا حمدوا أو أفقروا صبروا	أو احزنوا كتموا أو يوهبوا شكروا
لهم سمات مع الأملاك سائرة	و فوق هام سماء المجد قد نظروا
ملائك الله ترعاهم و تتبعهم	و الفضل يحضر فيهم أينما حضروا

من أمهم كان فضل الله غامره و حيث منزلهم يستنزل المطر
أزكى القلوب و أسماها و أشرفها من بالهداية و الايمان يأتزر
ان النفوس اذا زادت محبتها فى ربها و استنار القلب و البصر
صارت ملائك تصفو من كدورتها حتى ترى كل شىء ما به كدر
و العاشقون لهم فى الحب ان صبروا روض من الغز لم يذبل له ثمر
مياهه الذكر و التقوى ينابعه و العلم و الدين والآيات و الصبر
خل المعارف للعاشق تقطفها ان كنت منهم فسر واسهر كما سهروا

و أنت ترى مما تقدم ، ان السادة الصوفية يتعلقون بالله و حده ، و يركنون اليه فى جميع أمورهم ، مع التفويض اليه سبحانه فيما يختار لهم ، و الرضا بالمقدور فى كل حال و هم لذلك يرفعون همتهم عن الخلق ، و لذلك قال سيدى القطب الكبير الشيخ أبو الحسن الشاذلى . رضى الله عنه . انى أيست من نفع نفسى لنفسى ، فكيف لا أيأس من نفع غيرى لنفسى ، و رجوت الله لغيرى ، فكيف لا أرجوه لنفسى .

و كذلك قال . رضى الله عنه . : نظرت الى الخلق ، فوجدتهم على قسمين : أعداء و أحباء فنظرت الى الاعداء فعلمت أنهم لا يستطيعون أن يشكونى بشوكة لم يرد الله بها ، فقطعت نظرى عنهم ، ثم تعلقت بالأحباء فرأيتهم لا يستطيعون أن ينفعونى بشىء لم يرد الله به فقطعت ایاسی منهم ، وتعلقت بالله تعالى ، فقيل لى انك لن تصل الى حقيقة هذا الأمر حتى لا تشك فينا ، وتيأس من غيرنا ، ان يعطيك غير ما قسمناه لك .

وقال مرة أخرى لما سئل . رضى الله عنه . عن الكيمياء ، فقال : أخرج الطمع من قلبك ، واقطع يأسك من ربك أن يعطيك غير ما قسمه لك ، وليس يدل على شعار العبد ، كثرة عمله ، ولا مداومته على ورده ، وانما يدل على نوره غناه بربه ، وانحباسه اليه بقلبه وتحرره من رق الطمع ، وتحليه بحلية الورع وبذلك تحسن الأعمال ، وتزكوا الاحوال ، قال تعالى :

((انــا جعلنـــا مـــا علـــى الأرض زينــــة لهـــا لنبلــوهم أيهـــم أحســـن عمــــلا)) .
فحســن الأعمــال انمــا هـــو بـــالفهم عـــن الله تعـــالى والفهـــم هـــو مـــا ذكرنـــاه مـــن الاغتنــاء بـــالله . . والاكتفـــاء بـــه ، والاعتمـــاد عليـــه ، ورفـــع الحـــوائج اليـــه ، والـــدوام بين يديه ، وكل ذلك من ثمرة الفهم عن الله تعالى .

وقـــد قـــال لنـــا شـــيخنا العـــارف بـــالله ســـيدى عبـــد الســـلام الحلـــوانى . رضـــى الله عنـــه . انـــه وقـــع لـــه ضـــيق مـــالى يومـــا ، فمـــد يـــده الـــى ورقـــة أخرجهـــا مـــن جيبـــه ، وكتـــب فيهـــا : مـــن كـــان رزقـــه علـــى الله فـــلا يحـــزن ، وطـــوى الورقـــة ، ومـــا هـــو الا وقـــت قصـــير ، حتـــى جـــاءه شـــخص وســـلم عليـــه ، وقـــدم لســـيدى الشـــيخ مبلغـــا كـــان دينـــا عليـــه للشـــيخ ، ولـــم يكـــن فـــى بـــال الشـــيخ واعتـــذر المـــدين مـــن تـــأخره فـــى الاداء ، وهكـــذا فـــرج الله ضـــيق الشـــيخ مـــن مـــال كـــان لـــه عنـــد بعـــض النـــاس فجـــاء بـــه المـــدين عنـــد احتيـــاج الشـــيخ اليـــه ، ولـــم يســـأل النـــاس شيئا .

اللهـــم ارزقنـــا مـــن حبـــك ، مـــا يتناســـب مـــع احســـانك الينـــا ، فـــان نعمـــك علينـــا لا تعـــد ولا تحصـــى ، فوجـــب أن يكـــون حبنـــا لـــك شـــديد القـــوى ، بعيـــد المـــدى ، فـــلا ينتهـــى أفقـــه الا بالســـكون مـــع المحبـــوب الاعلـــى . . واجعلنـــا يـــا ألهـــى مـــن الشـــاكرين عنـــد الرخـــاء والصـــابرين عنـــد الـــبلاء ، فتشـــهد قلوبنـــا العطـــاء فـــى الـــبلاء ، كمـــا تشـــهده فـــى الرخـــاء ، والطـــف بنـــا فيمـــا يجـــرى بـــه القضـــاء فيكـــون اللطـــف مظهـــرا لرحمتـــك فانـــك رحـــيم ودود علـــى الـــدوام وقـــد قلـــت جـــل شـــأنك ((مـــا يفعـــل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما)) .

. ١٦ .

((فـــان أنـــا أبصـــرت فـــلا أبصـــر الا مـــن ضـــوء روحـــك الطـــاهرة الطيبـــة التـــى يـــنعكس نورهـــا علـــى قلبـــى الكثيـــف ، فيـــرى قلبـــك التقـــى الســـليم ، فيحمـــد الله ســـبحانه وتعـــالى علـــى ذلـــك الاخـــلاص ، الـــذى يـــدين بـــه قلبـــى . فيـــدعو الله أن يـــديم علـــيكم نعمتـــه ، وأن يـــرزقكم الحســـنى وزيـــادة ، وأن يجعلنـــا جميعـــا مـــن عبادة المخلصين الذين لا يرون سواه)) .

وبأســـلوبه الحكـــيم هـــذا ، كـــان العـــارف بـــالله ، ســـيدى عبـــد الســـلام الحلـــوانى . رضـــى الله عنـــه . يربينـــى فـــى جنـــب الله ، فهـــو يمتـــدح الصـــفات التـــى رجـــا أن أكـــون متصـــفا بهـــا ، ومحافظـــا عليهـــا ، ويعلمنـــى فـــى قالـــب التشـــجيع الســـعى اليهـــا . ويرشـــدنى بحالـــه ومالـــه الـــى التواضـــع لله ، والافتقـــار اليـــه ســـبحانه ، مهمـــا بلـــغ المـــؤمن فـــى طاعتـــه ، ويـــود شـــيخى أن يكلمنـــى فـــلا أرى لنفســـى عمـــلا ، بـــل أرى المنـــة لله تعـــالى وحـــده (ومـــا بكـــم مـــن نعمـــة فمـــن الله)) وعندئـــذ لا أزكـــى نفســـى ، أو أفـــاخر غيـــرى ((فـــلا تزكـــوا أنفســـكم هـــو أعلـــم بمـــن أتقـــى)) وانمـــا يتحـــدث المـــؤمن بنعمـــة الله عليـــه ((فـــاذكرونى أذكـــركم ، واشـــكروا لـــى ولا تكفـــرون)) ، ومـــا أبـــدع مـــا يقـــول ســـيدى العـــارف بـــالله ابـــن عطـــاء الله الســـكندرى : اذا أراد أن يظهر فضله عليك ، خلق فيك ونسب اليك)) .

ثـــم ان شـــيخى طيـــب الله ثـــراه ، ينســـب لنفســـه كثافـــة القلـــب ، مـــع مـــا بلغـــه مـــن ولايـــة بفضـــل الله عليـــه . وذلـــك بشـــهادة شـــيخه القطـــب الاكبـــر ، ســـلطان وقتـــه . ومجـــدد قرتـــه . . ســـيدى الغـــوث الحـــاج محمـــد أبـــو خليـــل ، ســـاكن ضـــريحه الأنـــوار بالزقـــازيق ، فانـــه كـــان اذا قـــدم عليـــه ســـيدى عبـــد الســـلام ، يرحـــب بـــه فـــى شـــوق واعـــزاز ، ويقـــول لـــه علـــى مســـمع المريـــدين ، أهـــلا بـــالولى الكامل ، كما يقول : والله العظيم والله العظيم ، أنت قطب . . أنت قطب .

والتواضـــــع لله تعــــالى ، مـــــن شــــأن كملـــــة الرجـــــال ، فــــان شــــيخنا الأكبــــر القطـــب ســـيدى ابـــو خليـــل . رضـــى الله عنـــه . ورث تلاميـــذه العظـــام ذلـــك التواضـــــع وكـــــان اميــــا ، لا يقـــرأ ولا يكتـــب ، ولكـــن اتـــــاه الله ولايـــــه كبـــرى وعلمـــه مـــا لـــم يكـــن يعـــام مـــن علمـــه الـــوارث الـــوهبى .. الـــذى فـــتح الله بـــاب بتعلـــيم ابـــى البشـــر ادم . عليـــه الســـلام وجعلـــه بـــه معلمـــا للملائكـــه الطهـــار ، الـــذين لا يعصون الله ما امرهم ، ويفعلون ما يؤمرون .

ومـــا لـــى اذهـــب الـــى ســـيدنا ادم . عليـــه الســـلام . ونبينـــا الاكـــرم ـــ صـــلوات الله وســـلامه عليـــه وعلـــى الـــه وصـــحبه . اقـــرب الينـــا عهـــدا وهـــو الأمـــى ، الـــذى بعـــث فـــى الاميـــين ، وغـــرف العلمـــا مـــن بحـــر علمـــه .. مـــا ارتـــوت منـــه الاجيـــال المتعاقبـــه ، ولا زالـــو يرتـــوون ، ومـــا خفـــى عـــنهم مـــن علمـــه ، اضـــعاف مـــا ظهـــر لهـــم ، وســـبحان الله الفعـــال لمـــا يشـــاء ، ويـــرحم الله اميـــر الشـــعراء شـــوقى اذ يقول مخاطبا له . صلى الله عليه وآله . :

يا ايها الامى حسبك رتبة

فى العـلم ان دانت بك العلماء

كمـــا يقـــول ســـيدى العـــارف بـــالله الشـــيخ احمـــد الحلـــونى الخليجـــى (شيخى . رضى الله عنه .) :

تلك المعارف والعوارف فيهمو

من بحر منتك العميقه سيب يم

وتواضـــع مولانـــا رســـول الله . صـــلى الله عليـــه وســـلم . اشـــهر مـــن ان يـــذكر ، وقـــد قـــال صـــديقى العلامـــه الشـــيخ الصـــاوى شـــعلان ، فـــى ذكـــرى مولـــده . عليـــه الصـــلاه والســـلام . وهـــو يشـــير الـــى تواضـــعه ، ركـــب البـــراق وســـاير الملائكـــة ، وعـــرج بـــه الـــى الســـموات العـــلا ومـــا فوقهـــا ومـــع ذلـــك جلـــس على الحصير وكلم الفقير .

والأوليـــاء ، وهـــم خـــواص المـــؤمنبن ، يتأســـون بـــه . صـــلوات الله وســـلامه عليـــه . فـــى أقوالـــه وأفعالـــه وأحوالـــه ، لـــذلك يكونـــون فـــى افتقـــار دائـــم الـــى الله تعـــالى فـــى كـــل حـــال ، وهـــذا مـــا يجعلهـــم فـــى تـــرق متزايـــد مـــن عطـــاء الله الـــذى لا ينفذ ، اما عوام المؤمنين فلا يظهرون الافتقار اليه سبحانه الاعند

الاضطرار فاذ انفرج كربهم ، غفلوا عن افتقارهم بزوال الضرورة التى الجأتهم اليه جل جلاله .

والسادة الصوفية يتهمون أنفسهم على الدوام ، ويرونها مقصرة فى جنب الله ، مهما خلوا فى سلوكهم اليه تعالى ، لان كل مقام أعلى يصلون اليه يرون به المقام الأدنى الذى تركوه فيجاهدون أنفسهم جهادا مريرا . . ويحاسبونها محاسبة الشرك لشريكه ، فان سولت لهم أنفسهم أن لهم عملا صالحا ، رأوا ذلك ذنبا يستغفرون الله منه ، لذلك قالو فى حكمهم : شتان بين تائب يتوب من الزلات وتائب من الغفلات ، وتائب يتوب من رؤية الحسنات .

وهم فى جهادهم المرير يذلون أتفسهم لله ، ويترفعون عن غيره ، والذلة من صفات العبودية ، والعزة من صفات الربوبية ، فمن تجلى عليه الحق . سبحانه . برضاه أتصف بالعزة ، كما قال تعالى ((ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين)) .

لذلك يقول بعض العارافين :

تذلل لمن تهوى فليس الهوى سهل
اذا رضى المحبوب صح لك الوصل
تذلل له تحظى برؤيا جماله
تقدم والا فالغرام له أهل

واذا لم يشهد العارف ربه بعين يقينه ، استنجد بالله من ذل الحجاب ، لذلك قال بعضهم فى مناجاته : الهى مهما عذبتنى بشىء فلا تعذبنى بذل الحجاب .

ولا يستطيع المؤمن أن يشهد ربه بعين يقينه ، الا بعد مجاهدات كبيرة ، يقطع بها العقبات التى تعوقه فى صلته بربه . ويعبر عنها السادة الصوفية بالعلائق والعوائق ، لان النفس البشرية تميل الى الشهوات بطبيعتها وهى أمارة بالسوء بجبلتها ، وهى مأمورة شرعا بالكف عن الشهوات ، وفى ذلك ابتلاؤها واختبارها ، ويتميز المؤمنون بعضهم من

بعـض علــى قــدر الهمــة فــى جهــاد الــنفس بــالكف عــن الشــهوات والجــد فــى الطاعــات ، حتـــى تصـــفو مـــن كـــدوراتها ، وتتظـــر مـــن رعوناتهـــا ، فتـــزول عنهـــا ظلمـــة الشـــهوات وتتحلـــى بـــأنوار الطاعـــات فتـــذوق مـــن مقامـــات اليقـــين ، مـــا شـــاء الله لهـــا أن تـــذوق ، وتنـــزع بمـــذاقها هـــذا الـــى عـــالم الملكـــوت الـــذى منـــه هبطـــت بسر الهى وقدرة علية .

وشـــاء الله . جلـــت حكمتـــه . ان ينتفـــع القلـــب مـــن فعـــل الجـــوارح ، كمـــا تنتفـــع الجـــوارح مـــن أنـــوار القلـــب ، ويعلـــل الامـــام الغزالـــى ذلـــك بســـر العلاقـــة التـــى بـــين عـــالم الشـــهادة وعـــالم الملكـــوت ، فـــان ظـــاهر البـــدن مـــن عـــالم الشـــهادة والقلـــب مـــن عـــالم الملكـــوت بأصـــل فطرتـــه وانمـــا هبوطـــه الـــى عـــالم الشـــهادة كالغريـــب ، وكمـــا تنحـــدر مـــن معـــارف القلـــب أنـــوار وآثـــار الـــى الجـــوارح فكـــذلك قد يرتفع من أفعاله الجوارح أنوار الى القلب .

ولدقـــة خفايـــا اليقـــين ، ولقـــوة الـــنفس البشـــرية فـــى امرتهـــا لابـــد مـــن الاســـتعانة فـــى التربيـــة الروحيـــة بشـــيخ عـــارف بـــالله ممـــن ســـلكوا ســـبيل التصـــوف حتـــى نضـــجوا ، وصـــاروا أهـــلا للارشـــاد فـــاذا وجـــد المريـــد شـــيخا مقيـــدا بالشـــريعة ومؤيـــدا بالحقيقـــة ، تتلمـــذ عليـــه واســـتعان بـــه فـــى مقاومـــة حظوظـــه وهـــواه ، وكســـب الأنـــوار الروحيـــة وهـــى مهمـــة شـــاقة علـــى الشـــيخ ، ولكنـــه ميســـرا لمـــا خلـــق لـــه . فـــاذا كـــان الشـــيخ ناضـــجا وعارفـــا مـــن العـــارفين بـــالله ولـــم ينتفـــع المريـــد بصـــحبته فلـــيس ذلـــك بقـــادح فـــى الشـــيخ انمـــا فـــى اســـتعداد المريـــد ، أمـــا المريـــد المطيـــع والمجـــد فـــى ظـــاهره وباطنـــه . . فانـــه يتقـــدم فـــى دينـــه لا محالـــة لأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

وقـــد قـــال مولانـــا رســـول الله . صـــلى الله عليـــه وســـلم . : ســـلمان منـــا آل البيـــت ، وســـلمان . رضـــى الله عنـــه . كـــان فارســـيا ولكـــن حســـن صـــحبته ، وقـــوة حجتـــه وشـــدة ورعـــه كانـــت ســـببا فـــى نوالـــه هـــذا الشـــرف الـــذى خلـــده فـــى الـــدنيا والآخـــرة ، وقـــد كـــان أبـــو جهـــل مـــن صـــيم قـــريش لكنـــه علـــى قربـــة مـــن مولانـــا رســـول الله صـــلى الله عليـــه وســـلم لـــم ينتفـــع بشـــىء فـــى الـــدين وذلـــك نتيجـــة لســـوء مســـلكه ، وشـــدة عنـــاده وقســـوة معاداتـــه وقـــوة حســـده ، ونعـــوذ بـــالله مـــن أخلاق الشياطين .

ويعين المريد فى الانتفاع من شيخه ، حسن استعداده فى التلقى والاتباع ، وحسن ظنه فى شيخه واعتقاده الراسخ فى كماله ، ولئن لم يكن الشيخ معصوما عصمة الأنبياء ، فهو محظوظ بعناية الله التى يحفظ بها أولياءه ويقول تعالى فى عنايته بهم :

((ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم)) .

ولغة التواضع التى كتب لى بها سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى ليست متكلفة ، فقد كان التواضع سجية فيه ، ومع تواضعه كساه الله تعالى وقارا ملحوظا كان يحس به من عرفه ومن لم يعرفه ، وذلك لقوة روحه فى صلتها بالله عز وجل ، حتى لقد شرفنى مرة بزيارته فى الوزارة وبعد انصرافه ، جاءنى رئيسى وكنت معه فى غرفة واحدة ، فقال لى من زائرك هذا الذى ودعنه . قلت له : وماسبب سؤالك : قال : أحسست له باحترام ورأيت له وقارا غريبا فأحببت أن أسأل عنه ، فأخبرته بخبره ، وقلت له انه كان يتابع مسألة له بالوزارة فهو لا يفرط فى أمر دينه أو دنياه ، كما قيل :

فلا هو فى الدنيا مضيع نصيبه
ولا عرض الدنيا عن الدين شاغل

وقد كتبت فى سيرته كتيبا اسمه ((المربى)) طبع بمطبعة الحلبى فى سنة ١٩٤٧ ، وكان الشيخ رحمه الله قد انتقل الى جوار ربه راضيا مرضيا فى سنة ١٩٤٤، وقد تعرضت لتواضعه المقرون بوقاره فقلت ما نصه :

((وأذكر ياسيدى ، انك كنت تنكر ذاتك ، وتحاول أن تخفيها فلا يزيدها الله بذلك الا رفعة وظهورا . ورحمة منه بعباده . لأن الاتصال بمثلك ، رزق يسوقه الله للمؤمنين ، فكم هدى بك الى الرشد وكم زاد بك اليقين . ثم تمثلت بقول أبى الطيب :

ان كنت تكبر أن تختال فى بشر
فان قدرك فى الاقدار يختال
كأن نفسك لا ترضاك صاحبها
الا وأنت على المفضال مفضال

أما ما كنت فيه من فضل فقد أشرت الى بعضه ، ولا داعى أنى وصلت الى عده . وحسبى أن يكون ما قلت ، كاشارة الأصبع الى النجم فى سماه ، فيهتدى بك من أراد أن يتخذ الى ربه سبيلا .

وأقسم لقد اجتمعت بكثير من ذوى الصلاح والفضل ، فما رأيت فيهم أحدا يوازيك أو يدانيك ، وأقسم ما وجدت صفة محموده فى القرآن الكريم الا وجدتها بارزة فيك ، فالعلم والحلم والصبر والكرم والاقدام والشمم والتسامح والوفاء والتواضع والصفاء والتعفف والسخاء ، كل هذه كانت من صفاتك الغراء الى جانب ما حباك الله به من ايمان فذ بالله تعالى وثقة تامة فيه ، واعتماد كلى عليه ، واتجاه دائم اليه .

فلا تعجب اذن أيها القارىء الكريم ، مع صفاته تلك . أن يكتب لى الكلمات التى صدر بها المقال ، ولئن ظهر لك كماله من مقاله ، فقد كان كماله فى حالة أظهر لمن أخذ طريق القوم عنه ، واسترشد به السلوك الى الله تعالى ، وعاشره فى صدق وطاعة . .

وقد تعرض لمناقب شيخنا الاكبر القطب سيدى محمد أبو خليل ، ساكن ضريحه الانوار بالزقازيق ، ولمناقب خليفته الذى كان أثيرا عنده سيدى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى ، أستاذى الملهم سيدى الشيخ على عقل الذى أنجبته الطريقة الخليلية وتربى فيها على يد العارف بالله سيدى عبد السلام فقال ارتجالا فيهما من كلام طويل :

أراد ربك يحيى القوم فانبعثت   آياته بعد اخفاء توالينا
أتى مجددهم يحيى الطريق ومن   أعطاه مولانا علما ثابتا فينا
أبو خليل أعز الله سيرته   محمد من لوجه الله داعينا
شهم أشم قوى الجأش ذو همم   مصرف سيد بالحق ينجينا
أعطاه مولاه نورا لا حدود له   فبين العلم والايمان والدينا
فكان بالفيض والألهام آتينا   للسالكين وكم أحيا مريدينا
وكان سلطان أهل الذكر أجمعهم   أولاده بقيام الليل راضونا
وكم له خلفاء قال قائلهم   الى هنا تنتهى روح المجدينا

أجلهم منزلا أعلاهم ثقة ... أرضاهم خلقا أزكاهم دينا
احلاهم منطقا أقواهم همما ... أوفاهم كرما لا يقبل الهونا
مؤدب ما رأينا فى مجالسه ... الا الكمال وسهل اذا يناجينا
عبد السلام وزكى الله تربته ... بالطيب والمسك وازدانت رياحينا
أخلاقه فى حدود الدين قد رسمت ... وكان فى سنة المختار مأمونا
وكان ينطق عن علم وعن حكم ... يزجى لنا لؤلؤ بالفيض موزونا
يكفيه فضلا بان الله سخره ... للناس يحييهمو دينا ويحيينا

وما دمنا قد تعرضنا للعلاقة بين الشيخ وتلميذه ، فانى أقدم للسادة القراء الاعزاء ، بعض ما أتحفنا به من بركاته القطب العرف بالله سيدى عمر جعفر الشبراوى صاحب الطريقة الشبراوية المباركة . رضى الله عنه . فى شرحه على ورد الستار ، فقد قال قدس الله سره ما خلاصته :

سئل الشيخ زروق عما قاله من أن التربية بالاصطلاح انقطعت ولم يبق الا التربية بالهمة والحال ، فأجاب رضى الله عنه . بأن المقصود من التربية تصفية الذات وتطهيرها من رعونتها حتى تتحمل الأسرار وليس ذلك الا بازالة الظلام منها وقطع علاقة الباطل عن وجهتها . .

وقطع الباطل عنها ، تارة يكون بصفائها فى أصل خلقتها بأن يطهرها الله بلا واسطة ، وهذه حالة القرون الثلاثة الفاضلة الذين هم خير القرون ((يقصد الصحابة والتابعين وتابعى التابعين رضوان الله عليهم أجمعين)) . فقد كان الناس فى هذه القرون متعلقين بالحق تعالى اذا ناموا ناموا عليه . واذا استيقظوا استيقظوا عليه ، واذا تحركوا تحركوا به حتى ان من فتح الله بصيرته ونظر الى بواطنهم ، وجد عقولهم متعلقة بالله تعالى وبرسوله ، باحثة عن مرضاتهما ، فلهذا كثر فيهم الخير ، وسطع فى ذواتهم نور الحق تعالى ، وظهر فيهم من العلم وبلوغ درجة الاجتهاد مالا يكيف ولا يطاق ، مع قلة الزمن فكانت التربية فى هذه القرون غير محتاج اليها ، وانما يلقى الشيخ مريده فيكلمه فى أذنه فيقع الفتح للمريد بمجرد ذلك لطهارة ذواتهم وصفاء عقولهم وتشوقها الى طريق الرشاد .

أما بعد القرون الفاضلة حيث فسدت النيات والطويات وصارت العقول متعلقة بالدنيا باحثة عن الوصول الى نيل الشهوات فصار الشيخ

صـــاحب البصـــيرة يلقـــى مريـــده فيعرفـــه وينظـــر اليـــه فيجـــد عقلـــه متعلقـــا بالشـــهوات الباطلـــة ، ويجـــد ذاتـــه تتبـــع العقـــل فـــى ذلـــك . . فتلهـــو مـــع اللاهـــين وتســـهو مـــع الســـاهين الغـــافلين وتميـــل مـــع المبطلـــين وتتحـــرك الجـــوارح فـــى ذلـــك حركـــة غيـــر محمـــودة فيـــأمر الشـــيخ مريـــده بـــالخلوة وبالـــذكر وبتقليـــل الأكـــل ، ليـــتخلص ممـــا هو فيه ، فتطيق ذاته حمل الاسرار .

ثـــم بقـــى الامـــر علـــى هـــذه الحالـــة مـــدة ، الـــى أن اخـــتلط الحـــق بالباطـــل ، والنـــور بـــالظلام فصـــار أهـــل الباطـــل يربـــون مـــن يـــأتيهم بادخـــال الخلـــوة ، وتلقـــين الاســـماء علـــى نيـــة فاســـدة وغـــرض مخـــالف للحـــق ، وقـــد يضـــيفون الـــى ذلـــك عـــزائم واســـتخدامات تقتضـــى المكـــر والاســـتدراج فأشـــار الشـــيخ زروق علـــى النـــاس بـــالرجوع عـــن مثـــل تلـــك التربيـــة كثـــر فيهـــا المبطلـــون . وباتبـــاع الكتاب والسنة .

ويعقـــب ســـيدى القطـــب الشـــيخ عمـــر الشـــبراوى فيقـــول . رضـــى الله عنـــه . انمـــا نهـــى الشـــيخ زروق عـــن تلـــك التربيـــة لانـــه كـــان ناصـــحا لله ولرســـوله ولـــم يقصـــد الانقطـــاع عـــن التربيـــة الحقيقيـــة رأســـا ، فـــان نـــور المصـــطفى . صـــلى الله عليه وسلم . باق وخيره شامل وبركاته عامة ، الى يوم القيامة .

وأمـــا الشـــيخ الـــذى يلقـــى اليـــه بالقيـــاد فهـــو العـــارف بـــأحوال النبـــى . صـــلى الله عليـــه وســـلم . حتـــى صـــار علـــى قدمـــه وســـقيت ذاتـــه مـــن نـــوره . صـــلى الله عليـــه وســـلم . وأمـــده بحقيقـــة الايمـــان وصـــفاء العرفـــان وهـــؤلاء العـــارفون موجودون فى البلاد الاسلامية .

فاطلـــب شـــيخك مـــن بـــين أهـــل الســـنة والجماعـــة ، فـــان الله مـــع الـــذين اتقـــوا والذين هم محسنون .

ثـــم أورد ســـيدى الشـــيخ عمـــر قصـــيدة للعـــارف بـــالله ســـيدى أبـــى العبـــاس البكرى فى شروط الشيخ ومنها :

وللشيخ آيات اذا لم تكن له ... فما هو الا فى ليالى الهوى يسرى
اذا لم يكن علم لديه بظاهر ... ولا باطن فاضرب به لجج البحر
فاقرب احوال العليل الى الردى ... اذا لم يكن منه الطبيب على خبر
وآياته آلا يميل الى الهوى ... فدنياه فى طى وأخراه فى نشر

هـــذا ويقـــول ســـيدى محيــى الـــدين بـــن عربـــى ، وهـــو شـــيخ التصـــوف الأكبـــر . رضـــى الله عنـــه . مـــن لـــم يأخـــذ الطريـــق مـــن الرجـــال فهـــو ينتقـــل مـــن مجـــال الـــى مجـــال ، كمـــا يقـــول : الشـــيخ مـــن حمـــل عنـــك المشـــقات وأشـــهدك منـــازل القربـــات ، الشـــيخ مـــن أخـــذ منـــك وكشـــف عنـــك ، الشـــيخ مـــن أمـــات نفســـك قبـــل أن تمـــوت ، وجـــال بروحـــك فـــى عـــالم الملكـــوت ، الشـــيخ مـــن أطلعـــك علـــى حالك لا من أخذ من مالك .

ويشـــبه العـــارف بـــالله المعاصـــر ، الســـيد محمـــود أبـــو الفـــيض المنـــوفى . مـــد الله فـــى عمـــره وبـــارك فـــى جهـــاده . أثـــر روح الشـــيخ فـــى روح المريـــد كالعدســـة ذات البـــؤرة فانهـــا تتلقـــى حـــرارة الشـــمس ، وتركزهـــا فـــى البـــؤرة ، فـــاذا ســـلطت علـــى ورقـــة أحرقتهـــا ، وكـــذلك الشـــيخ يمحـــو بنـــوره ظلمـــات الغفلـــة من قلب المريد ، فيصحو القلب ويتلقى موارد الاحسان .

أمـــا قـــول ســـيدى الشـــيخ عبـــد الســـلام . رضـــى الله عنـــه . فـــى ختـــام عبارتـــه ، وأن يجعلنـــا مـــن عبـــاده المخلصـــين الـــذين لا يـــرون ســـواه ، فقـــد وصـــفهم ابنـــه وخليفتـــه المبـــارك الســـيد أحمـــد عبـــد المـــنعم الحلـــوانى . مـــد الله فـــى عمـــره ومـــدده . فقـــال فـــى مقدمـــة كتابـــه ((الســـمو الروحـــى فـــى الأدب الصـــوفى)) (ولـــه غيـــره كتـــب كثيـــرة آخرهـــا كتـــاب نـــور الحـــى القيـــوم فـــى التوحيـــد) مـــا نصـــه : ((هـــو الـــذى نـــور بـــاطن المـــؤمنين يهديـــة . . وشعشـــع أرواحهـــم بحبـــه ، وســـربلهم بســـربال جلالـــه ، وأســـكرهم مـــن خمـــر جمالـــه ، وأفـــاض علـــيهم مـــن فـــيض أنســـه ، وأطعمهـــم مـــن لذيـــذ وصـــاله ، فغابـــت نفوســـهم عـــن المحسوســـات ، واســـتظلت بعـــرش الغيـــب ، فظلـــت فـــى ســـر المكنونـــات ، فلـــم يأنســـوا الا بنـــوره ســـبحانه وتعـــالى ، ولـــم يـــروا حركـــة ولا ســـكونا فـــى الاكـــوان كلهـــا ، دقـــت أو جلـــت ظهـــرت أو خفيـــت . الا مـــن تـــأثير ارادتـــه ، فوهبـــوا أنفســـهم وأنفاســـهم لنـــور معرفتـــه ، ورأوا ســـر قيوميتـــه ســـاريا فـــى جســـد الاكـــوان ، فنظـــروا الـــى نورهـــا فغـــابوا عـــن الحـــس ، الـــى حقيقـــة المشـــاهدة وفنـــاء القـــرب ، أولئـــك الـــذين اصـــطفاهم الله لحضـــرته ، واصـــطنعهم لذاتـــه ، وســـيرهم فـــى الخلـــق علـــى عينـــه ، ســـير المحبـــة والعنايـــة والاختصـــاص ، وحفـــظ قلـــوبهم عـــن الأغيـــار وهياكـــل أرواحهم من الأشرار ، وكان منهم ملء السمع والبصر)) .

ويقـــول فـــى وصـــفهم ســـيدى أبـــو بكـــر الكلابـــاذى (مـــن أعـــلام القـــرن الرابع الهجرى) :

((ســـبقت لهـــم مـــن الله الحســـنى ، وألـــزمهم كلمـــة التقـــوى ، وعـــزف بنفوســـهم عـــن الـــدنيا ، صـــدقت مجاهـــداتهم فنـــالوا علـــوم الدراســـة . . وخلصـــت عليهـــا معـــاملاتهم فمنحـــوا علـــوم الوراثـــة وصـــفت ســـرائرهم فـــأكرموا بصـــدق الفراســـة ، ثبتـــت أقـــدامهم وزكـــت أفهـــامهم وأنـــارت أعلامهـــم فهمـــوا عـــن الله ، وســـاروا الـــى الله ، وأعرضـــوا عمـــا ســـوى الله ، خرقـــت الحجـــب أنـــوارهم ، وجالـــت حـــول العـــرش أســـرارهم وجلـــت عنـــد ذى العـــرش أخطـــارهم ، وعميـــت عمـــا دون العـــرش أبصـــارهم ، فهـــم أجســـام روحـــانيون ، وفـــى الارض ســـماويون ومـــع الخلـــق ربـــانيون ، ســـكوت نظـــار . . غيـــب حضـــار ، ملـــوك تحـــت أطمـــار ، أتـــراع قبائـــل ، وأصـــحاب فضـــائل ، وأنـــوار دلائـــل ، آذانهـــم واعيـــة ، وأســـرارهم صـــافية ، وصـفوته فـى بريتـه ، ووصـاياه لنبيـه ، وخبايـاه عنـد صـفيه .. ودائـع الله بـين حياتـــه أهـــل صـــنعته . وبعـــد وفاتـــه خيـــار أمتـــه ، لـــم يـــزل يـــدعو الأول الثـــانى ، والسابق التالى بلسان فعله ، أغناه عن قوله .

والوصـــف المتقـــدم ، يقـــرب لنـــا فهـــم الأبيـــات الآتيـــة المنســـوبة الـــى أميـــر المؤمنين الامام على بن أبى طالب . كرم الله وجهه . وهى :

رأيت ربى بعين قلبى ... فقلت لا شك أنت أنت
أنت الذى حزت كل أين ... بحيث لا أين ثم أنت
فليس للأين منك أين ... فيعرف الأين أين أنت
وليس للكيف منك كيف ... فيعرف الكيف كيف أنت
أحطت علما بكل شىء ... فكل شىء أراه أنت
وفى فنائى فنى فنائى ... وفى فنائى رأيت أنت

اللهـــم ارزقنـــا محبتـــك ، واجعلهـــا شـــعارنا ودثارنـــا ، وخـــذنا اليـــك مـــن أنفســـنا ، لنكـــون مـــن عبـــادك الـــذين لـــم يـــروا ســـواك ، فشـــرفتهم بالانتســـاب اليـــك ، فى قولك الكريم :

(ان عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا) . آمين .

((هـــذا وان اشـــكرك علــــى تفضـــلك بـــالتحرير ، فقـــد يقـــال شـــكر فـــاعتبر غيـــر مـــا هـــو واجـــب ، اذ واجبنـــا اعتبـــار الســـؤال مـــن واجبـــات الأســـرة ، وانـــت منـــا ونحـــن منـــك ، فـــلا شـــكر علـــى واجـــب ، وانمـــا غايتنـــا الاطمئنـــان عليـــك ، وعليـــك السؤال عنا)) .

جـــاءتنى هـــذه العبـــارة مـــن شـــيخى العـــارف بـــالله ســـيدى الشـــيخ عبـــد الســـلام الحلـــوانى ، قـــدس الله ســـره ، ومـــن كمـــال خلقـــه ، نســـب الـــى الفضـــل فـــى الكتابـــة اليه ، وهو يعلمنى فى عبارته هذه مبادىء عالية وغالية .

مـــن ذلـــك تواضـــع الشـــيخ لتلميـــذه ، واذا رأى التلميـــذ تواضـــع شـــيخه معـــه ، حـــرص التلميـــذ علـــى تواضـــعه مـــع النـــاس عامـــة ، ومـــع زملائـــه خاصـــة ، فـــاذا ورثـــه الله قـــدم الارشـــاد فـــى طريـــق الله ، عـــرف كيـــف يتواضـــع لـــيعلم غيـــره التواضع وفى الحديث الشريف : ((من تواضع لله رفعه)) .

ومـــن ذلـــك شـــكر النـــاس عنـــد الاقتضـــاء ، ويقـــول صـــلوات الله عليـــه وآلـــه : ومـــن لـــم يشـــكر النـــاس لـــم يشـــكر الله وقـــد ذهـــب ســـيدى الشـــيخ الـــى شـــكر تلميـــذه علـــى التحريـــر لـــه ، وان كـــان ذلـــك واجبـــا علـــى التلميـــذ ، باعتبـــاره فرعـــا فـــى أســـرة الشـــيخ الروحيـــة ، ولـــو أن النـــاس قـــالوا فـــى أمثـــالهم : لا شـــكر علـــى واجـــب . وهـــذا مـــا يعلمنـــا بـــه   . رضـــى الله عنـــه   . أن نكـــون مـــع آداب الشـــريعة الغـــراء ، ولا نكـــون مـــع غيرهـــا ، لأنـــه لـــيس وراء نـــور النبـــوة علـــى وجـــه الأرض نـــور يستضـــاء بـــه ، كمـــا يقـــول الامـــام الغزالـــى   . رضـــى الله عنـــه   .
وقد علمنا الله تعالى فقال ((أإن اشكر لى ولوالديك الى المصير)) .

ومـــن ذلـــك أن يعطـــف الشـــيخ علـــى تلميـــذه ، عطـــف الأب الـــرحيم علـــى ابنـــه الصغير ، فيجعله بعضه ، بحيث لوأصاب التلميذ تألم الشيخ له ، واذا

جاءه ما يسر كان فى ذلك سرور للشيخ ، ووجب على التلميذ أن يطوى ضلوعه على محبة الشيخ ويبادله فى الله حبا بحب ، واحساسا باحساس ، وعندئذ يكون التلميذ من الشيخ والشيخ من التلميذ ، وهو امتزاج يذوقه المتصوفون المتحابون فى الله تعالى وقد قال سيدى الامام أبو الحسن الشاذلى . رضى الله عنه . لتلميذه سيدى المرسى أبو العباس . رضى الله عنه . : ما صحبك الا لتكون أنت أنا وأنا أنت .

وقد وصف الله تعالى حبيبنا المصطفى . صلى الله عليه وسلم .
فقال تعالى : ((لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم)) والشيخ العارف بالله يتأسى بمولانا رسول الله . صلى الله عليه وسلم . قولا وفعلا وحالا ، فيكسب الرأفة والرحمة التى تحلى بها رسول الله . صلى الله عليه وسلم . كما يأخذ عنه ـ صلى الله عليه وسلم . الشفقة والحرص على المؤمنين ، وقد تحلى أصحابه . صلى الله عليه وسلم . بالتراحم فيما بينهم ، اقتداء به . صلوات الله وسلامه عليه وآله . فوصفهم الله تعالى بقوله ((رحماء بينهم)) .

ويدلك على شدة الامتزاج والتراحم ما قاله أمير المؤمنين عمر . رضى الله عنه . فى رثائه للخليفة الأول سيدنا أبو بكر الصديق . رضى الله عنه . فقد قال يصور لوعة الأسى التى أصابته بفقده :

ذهب الذين أحبهم
فعليك يا دنيا السلام
انى رضيع وصالهم
والطفل يؤلمه الفطام

فانظر . رعاك الله . كيف يصور سيدنا عمر ، نفسه بطفل رضيع فقد أمه فحرم الرضاعة ، وهى غذاؤه .

وصدق مولانا الامام أبو عبد الله الحسين حين قال : الناس ثلاثة رجل كالغذاء لا يستغنى عنه أبدا ، ورجل كالدواء يحتاج اليه حينا بعد حين ، ورجل كالداء لا يحتاج اليه أبدا .

ويحدث سيدنا عمر عن مكانة سيدنا أبى بكر من رسول الله . صلى الله عليه وسلم . فيقول : كنت أدخل عليهما فيتكلم رسول الله . صلى الله عليه وسلم . بالرمز معه فلا أفهم ما يدور من الكلام ، وكأنى زنجى بينهما .

ولا تعجب من أن تكون لسيدنا أبى بكر تلك المكانة ، فانه آثر الله ورسوله بمحبته ، وبماله وبجهاده ، وصحب رسول الله . صلى الله عليه وسلم . فى السفر والحضر ، وكان صاحبه فى الغار ، وفى الهجرة وفى الحرب ، وقد شرفه مولانا رسول الله . صلى الله عليه وسلم . فقال فيه : ((لوكنت متخذا خليلا لا تخذت أبا بكر ، ولكن أخى وصاحبى)) كما قال فيه حين عاد صلى الله عليه وسلم من حجة الوداع ، قبيل وفاته ـ صلى الله عليه وسلم . ((أيها الناس ، ان أبا بكر لم يسؤنى قط فاعرفوا له ذلك . . الحديث)) كما أنه حين اشتد عليه المرض أنابه عنه فى الصلاة فقال : مروا أبا بكر فليصل بالناس .

وقد بادل سيدنا أبو بكر ، مولانا رسول الله . صلى الله عليه وسلم . حبا بحب ، حتى أنه كان يبكى عندما يدخل رسول الله . صلى الله عليه وسلم ، الى داره ويقول : واشوقاه اليك يا رسول الله .

وكان من أثر هذا الحب الخالص ، أن سيدنا أبا بكر مرض لمرض رسول الله . صلى الله عليه وسلم . فلما شفى رسول الله . صلى الله عليه وسلم . شفى من سروره برؤيته سيدنا أبو بكر ، وقال فى ذلك :

مرض الحبيب فعدته
فمرضت من أسفى عليه
شفى الحبيب وعادنى
فشفيت من نظرى اليه

وقد انقطع أحد أتباع سيدى المرسى أبى العباس عن الاجتماع به فقال له : لم تنقطع عنى ، قال سيدى استغيث بك ، فقال . رضى الله عنه . معلما لنا : ما استغنى أحد بأحد ، وما استغنى سيدنا أبو بكر برسول الله . صلى الله عليه وسلم . ولم ينقطع عنه يوما واحدا

ويقـــول الســـادة الصـــوفية بحـــق أن مـــن جـــالس جـــانس ، فـــان جلســـت مـــع المحـــزون حزنـــت ، وان جلســـت مـــع المســـرور ســـررت . . وان جلســـت مـــع اللاهـــين ســـرت اليـــك الغفلـــة ، وان جلســـت مـــع المتقـــين ســـرت اليـــك اليقظـــة ، كمـــا يقولون :

والروح كالريح ان مرت على عطر

طابت وتخبث ان مرت على الجيف

والرســـائل التـــى يتبادلهـــا المريـــد مـــع شـــيخه ان لـــم يكـــن معـــه فـــى بلـــد واحـــد ، يتلاقـــى فيهـــا روحيـــا مـــع شـــيخه فيبثـــه ويوقفـــه علـــى حالـــه وأخبـــاره ، وفـــى رد الشـــيخ تثقيـــف وارشـــاد وتوجيـــه ، وقـــد كنـــت أفـــرح برســـالة شـــيخى فرحـــا لا حـــد لـــه ، ومـــن شـــغفى بكتابتـــه ، كنـــت أحفـــظ الرســـالة أو أكـــاد مـــن قراءتهـــا مـــرة واحـــدة ، وكنـــت أكـــرر قراءتهـــا الفينـــة بعـــد الفينـــة ، وأتـــدبر ألفاظهـــا وأتفكـــر فـــى غـــوامض خطابهـــا ، وكـــان . رضـــى الله عنـــه . يكتـــب بلغـــة ســـهلة ممتعـــة ، لا تكلـــف فيهـــا ، وكـــان خطـــه جمـــيلا ، لا تشـــبع العـــين مـــن رؤيتـــه ، وكـــان يعلمنـــى أكبـــر قســـط فـــى أقـــل ســـطور ، ولا أذكـــر أن رســـالة لـــه تجـــاوزت صـــحيفة واحـــدة مـــن الحجـــم الصـــغير ، وخيـــر الكـــلام مـــا قـــل ودل ، وبـــلاغ الســـلام بعـــض التلاقى كما قال الشريف الرضى فى شعره . رضى الله عنه . .

ولقـــد كتـــب بعـــض الســـلف الصـــالح الـــى تلميـــذ لـــه كـــان يجـــنح الـــى الاشـــتغال بـــدنياه عـــن أخـــراه فكـــان فيمـــا كتبـــه لـــه : أخبرنـــى عـــن هـــذا الـــذى تكـــدح فيـــه ، وتحـــرص عليـــه مـــن أمـــر الـــدنيا ، هـــل بلغـــت فيـــه مـــا تريـــد ، وأدركـــت مـــا تتمنـــى ، فقـــال لا والله ، فقـــال الشـــيخ : أرايتـــك هـــذا الـــذى أنـــت حـــريص عليـــه لـــم تنـــل منـــه مـــا تريـــد ، فكيـــف تنـــال مـــن الآخـــرة وقـــد أعرضـــت عنهـــا وصـــرفت عنهـــا ، فمـــا أراك تضرب الا فى حديد بارد .

ويقـــول الســـادة الصـــوفية فـــى تفســـير قولـــه تعـــالى ((يا أيهـــا الـــذيم آمنـــوا اتقـــوا الله ولتنظـــر نفـــس مـــا قـــدمت لغـــد واتقـــوا الله ان الله خبيـــر بمـــا تعملـــون ، ولا تكونـــوا كالـــذين نســـوا الله فأنســـاهم أنفســـهم أولئـــك هـــم الفاســـقون)) : ان تســـويف الأعمـــال الصـــالحة مـــن نســـيان الـــنفس لأن المـــرء لا يـــدرى متـــى يفجـــؤه أجله ، لذلك تراهم يبادرون بالأعمال ، ويستبقون الخيرات .

بقـــى مـــا يقولـــه ســـيدى الشـــيخ ((وانمـــا غايتنـــا الاطمئنـــان عليـــك ، وعليـــك السـؤال عنـــا : والاطمئنـــان هنـــا يقصـــد بـــه الاطمئنـــان علـــى دينـــى ودنيـــاى ، ولا يقـــف علـــى دنيـــاى وحـــدها ، فـــان رابطتـــى بـــه هـــى فـــى أصـــلها رابطـــة الـــدين ، لانـــى ســـلمته نفســـى ليربيهـــا فـــى جنـــب الله ، بمـــا آتـــاه الله مـــن فضـــله مـــن قـــوة اليقـــين ، ونـــور البصـــيرة ، والمـــرء ضـــعيف بنفســـه فـــى مقاومـــة وســـاوس الشـــيطان ، وحظـــوظ الـــنفس ، والشـــيخ مهـــوان لـــه علـــى نفســـه وشـــيطانه . . أمـــا أمـــر الـــدنيا فيـــأتى فـــى المرتبـــة الثانيـــة ، ودنيـــا المريـــد لا تكـــون حلـــوة مباركـــة الا اذا اســـتعملها فـــى مرضـــاته تعـــالى ليشـــكر نعمـــة الله ويتعـــرض للمزيـــد مـــن فضـــله ، لـــــذلك يقـــــول ســـــيدى الشـــــيخ علـــــى عقـــــل فـــــى أهميـــــة اتخـــــاذ الشـــــيخ ا لمربى وضرورته للمؤمن فى اجتياز النفس والشيطان :

اذا لم يكن للنفس شيخ له هدى
يؤدبها بالروح زاغت عن السير

ولا يعبر البحر الخضم ونوأه
سوى ماهر يدرى الملاحة فى البحر

ولولا اتصال الكهرباء بأصلها
على موجة التيار ما نورها يسرى

ويـــرى الســـادة الصـــوفية ، أن التصـــوف فـــرض عـــين علـــى المـــؤمن ، ويعلـــل الامـــام الغزالـــى تلـــك الفرضـــية العينيـــة بأنـــه اذا ديســـت حرمـــة الـــوطن صـــار الجهـاد فـرض عـين علـى كـل مـؤمن ، والشـيطان عـدو مبـين ، ويجـرى مـن ابـن آدم مجـرى الـدم فـى العـروق ، ويـدوس حرمـة الـنفس ، فوجـب أن يـدافع كيـده ، ولا يقـوى الانسـان وحـده علـى رد كيـده ، فيجـب أن يسـتعين فـى مغالبتـه بأهـل التقـوى واليقـين ، لانهـم أصـحاب رقـائق ودقـائق وحقـائق تـذاق فـى البـواطن ولا تعبـر عنهـا الألفـاظ ، والـروح سـر مـن أسـرار الله وأحوالهـا مـن الأسـرار الروحية .

والنـاظر فـى كتـاب الله تعـالى يـرى حـرص السـلف الصـالح علـى تربيـة أبنـائهم علـى الـدين الصـحيح ، فقـد خلـد الله تعـالى مـا وعـظ بـه لقمـان ، عليـه السـلام . ابنـه ((يـا بنـى انهـا ان تـك مثقـال حبـة مـن خـردل فـتكن فـى صـخرة

أو فـــى الســـموات أو فـــى الارض يـــأت بهـــا الله ان الله لطيـــف خبيـــر . يـــا بنـــى أقـــم الصـــلاة وأمـــر بـــالمعروف وانـــه عـــن المنكـــر واصـــبر علـــى مـــا أصـــابك ان ذلـــك مـــن عـــزم الآمـــور . ولا تصـــعر خـــدك للنـــاس ولا تمـــش فـــى الارض مرحـــا ان الله لا يحـــب كـــل مختـــال فخـــور . واقصـــد فـــى مشـــيك واغضـــض مـــن صـــوتك ان أنكر الاصوات لصوت الحمير)) .

وهـــى وصـــية كمـــا نراهـــا حملـــت الـــدين الخـــالص مـــن أطرافـــه فقـــد دل الوالـــد ابنـــه علـــى مـــا تصـــلح بـــه نفســـه مـــن المراقبـــة الدائمـــة لله تعـــالى ، وكـــان لقمـــان . عليه السلام . من أهل الحكمة .

((ولقـــد آتينـــا لقمـــان الحكمـــة ان اشـــكر لله ومـــن يشـــكر فانمـــا يشـــكر لنفسه ومن كفر فان الله عنى حميد)) .

والحكمـــة هـــى العلـــم النـــافع ، ولا علـــم أظهـــر مـــن علـــم القلـــوب بـــالله . وزاده ـــ عليـــه الســـلام . ان يـــأمر بـــالمعروف وينهـــى عـــن المنكـــر ، ومـــن وعـــظ نفســـه صـــلح لـــوعظ غيـــره ، لـــذلك أمـــره أبـــوه بـــالمعروف ونهـــاه عـــن المنكـــر ، وكملـــه بـــالآداب الظـــاهرة والباطنـــة ليجعـــل منـــه مربيـــا لغيـــره فتتـــوارث دعـــوة الحـــق بـــين الناس .

وقـــول الله تعـــالى الـــذى ســـبق النصـــيحة المتقدمـــة جـــاء فيـــه : ((واتبـــع ســـبيل مـــن أنـــاب الـــى ثـــم الـــى مـــرجعكم فـــأنبئكم بمـــا كنـــتم تعملـــون)) ، فالاقتـــداء بأهـــل الانابـــة لازم ومحـــتم فـــى التربيـــة الدينيـــة العاليـــة ، لأن مـــن أنـــاب الـــى الله هداه الله فصار هاديا لغيره :

((الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب)) .

لا بـــل ان القـــرآن الكـــريم نقـــل الينـــا موقفـــا لســـيدنا يعقـــوب . عليـــه الســـلام . حـــين حـــرص علـــى عقيـــدة التوحيـــد عنـــد ابنائـــه وهـــو يجـــود بأنفاســـه الأخيـــرة فـــى هـــذه الـــدنيا فقـــال تعـــالى : ((أم كنـــتم شـــهداء اذ حضـــر يعقـــوب المـــوت اذا قـــال لنبيـــه مـــا تعبـــدون مـــن بعـــدى قـــالوا نعبـــد الهـــك والـــه آبائـــك ابراهيم واسماعيل واسحق الها واحدا ونحن له مسلمون)) .

وهـــذا مـــا يعلـــم الاباء الحـــرص علـــى رعايـــة عقيـــدة ابنـــائهم ، فـــانهم أمانـــة بـــين أيـــديهم ورعيـــة لهـــم وكـــل راع مســـئول عـــن رعيتـــه ((يـــا أيهـــا الـــذين آمنـــو قـــوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة)) .

ويقـــول ســـيدى محيـــى الـــدين بـــن عربـــى ، وهـــو شـــيخ التصـــوف الأكبـــر ، فـــى لـــزوم الشـــيخ : مـــن لـــم يأخـــذ الطريـــق مـــن الرجـــال ، فهـــو ينتقـــل مـــن محـــال الـــى محـــال ، ويقـــول : الشـــيخ مـــن حمـــل عنـــك المشـــقات وأشـــهدك منـــازل القربـــات . . ويقـــول : الشـــيخ مـــن أمـــات نفســـك قبـــل أن تمـــوت وجـــال بروحـــك فـــى عـــالم الملكوت ، الشيخ من أطلعك على حالك لا من أخذ من مالك .

وأمـــا قـــول ســـيدى الشـــيخ : وعليـــك الســـؤال عنـــا ، فـــان المريـــد الصـــادق يجـــب عليـــه أن يـــؤدى لشـــيخه حقـــه ، ولـــئن كـــان أبـــوه يربـــى جســـده ، فـــان شـــيخه يربـــى روحـــه ، فـــالروح جـــوهر ، والجســـد كالصـــدف ، وتربيـــة الوجـــدان أصـــعب كثيـــرا مـــن تربيـــة الابـــدان . وقـــد علمنـــا الله أن نعطـــى الوالـــدين حقهمـــا وأن نواليهمـــا بالرعايـــة والأدب العـــالى ، والـــدعاء ، وأن نخفـــض لهمـــا جنـــاح الـــذل مـــن الرحمـــة ، وهـــذا مـــا يوجهنـــا الـــى شـــيوخنا وتـــوقيرهم والـــدعاء لهـــم ، والســـؤال عـــنهم . ولا شـــك أن رضـــاهم مـــن رضـــا الله ســـبحانه ، ويـــا فـــوز مـــن أحســـن صـــحبتهم وأحســـن الأخـــذ عـــنهم ، وكـــان ســـيدى ابـــو العبـــاس اذا ذكر شيخه سيدى أبو الحسن الشاذلى ـ رضى الله عنهما ـ يقول :

لى سادة من عزهم
أقدامهم فوق الجباه
ان لم أكن منهم فلى
فى حبهم عز وجاه

ولقـــد كتـــب بـــديع الزمـــان لتلميـــذ قصـــر فـــى زيارتـــه والســـؤال عنـــه يعاقبـــه فكـــان فيمـــا كتبـــه : ((ولـــو لـــم تزرنـــا الا لترينـــا رجحانـــك ، كمـــا طالمـــا رأينـــا نقصـــانك ، لكـــان فعـــلا صـــائبا ، وفـــى القيـــاس واجبـــا ، وقـــد يـــزور الطبيـــب المـــريض بعد خروجه من دائه واستغنائه عن دوائه . . الخ)) .

وجاء في عظة للامام الحسن البصرى التى كان يعلم بها تلاميذه ، وينوه فيها بصحبة الصالحين الأخيار (ويعده أهل المعرفة أفضل التابعين) :

((يا ابن آدم طأ الأرض بقدمك ، فانها عن قليل قبرك ، واعلم أنك فى هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك ، رحم الله أمرأ نظر فتفكر ، وتفكر فاعتبر ، واعتبر فأبصر ، فقد أبصر أقوام ولم يقصروا ، ثم هلكوا فلم يدركوا ما طلبوا ، ولا رجعوا الى ما فارقوا .

((خذوا صفوة الدنيا ، ودعوا كدرها ، ودعوا ما يريبكم الى مالا يريبكم ، ظهر الجفاء وقلت العلماء ، وعفت السنة ، وشاعت البدعة . . لقد صحبت أقواما ما كانت صحبتهم الا قرة عين لكل مسلم ، وجلاء الصدور . . ولقد رأيت أقواما كانوا من حسناتهم أن ترد عليهم ، أشفق منكم من سيئاتكم ان تعذبوا عليها ، وكانوا مما أحل لهم من الدنيا أزهد منكم فينا حرم عليكم منها .

((ما لى أسمع حسيسا ولا أرى أنيسا ، ذهب الناس وبقى النسناس ، لو تكاشفتم ما تدافنتم ، تهاديتم الأطباق ولم تتهادوا النصائح ، أعدوا الجواب فانكم مسؤولون ، ان المؤمن ما يأخذ دينه عن رأيه ، ولكن عن ربه . . الخ .))

أما امامنا على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - فقد استحث المؤمنين فى الطاعة فقال وما أبدع ما قال :

((وان غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة ، لجديرة بقصر المدة ، وان غائبا يحدوه الجديدان ، الليل والنهار ، لحرى بسرعة الأوبة ، وان قادما يقدم بالفوز أو الشقوة ، لمستحق لأفضل العدة .

الى أن قال - كرم الله وجهه - :

((فيالها حسرة على ذى غفلة ، أن يكون عمره عليه حجة ، وأن تؤديه أيامه الى الشقوة ، نسأل الله سبحانه واياكم ممن لا تبصره نعمة ولا تقصر به طاعة الله غاية ، ولا تحل بعد الموت ندامة ولا كآبة .

وإذا كـــان الأولـــون قـــد نبهـــوا المجتمـــع علـــى النحـــو المتقـــدم ، فمـــا أحـــوج مجتمـــع المســـلمين فـــى المشـــارق والمغـــارب اليـــوم ، لأن يطـــرح حجـــب الغفلـــة عـــن القلـــوب الصـــادئة ، التـــى جرفتهـــا الـــدنيا عـــن الصـــراط المســـتقيم وصـــرفتها أدوات الملاهـــى عـــن الاشـــتغال بـــأمر الآخـــرة ، حتـــى كـــأن النـــاس نســـوا ربهـــم فأنســـاهم أنفســـهم ، ولســـت أنكـــر أن العلـــم كثيـــر ، والتـــذكير قـــائم ، ولكـــن أيـــن مـــن يســـتمعون القـــول فيتبعـــون أحســـنه ، فـــالعلم لـــيس غايـــة فـــى ذاتـــه ، وانمـــا هـــو وســـيلة للعمـــل ، والعمـــل وســـيلة لتربيـــة القلـــوب فـــى جنـــب الله لأن الله ـــ جلـــت حكمتـــه . شـــاء أن ينتفـــع القلـــب مـــن فعـــل الجـــوارح ، كمـــا تنتفـــع الجوارح من أنوار القلب .

ويعلـــل الامـــام الغزالـــى ذلـــك فيقـــول : وذلـــك لســـر العلاقـــة التـــى بـــين عـــالم الشـــهادة وعـــالم الملكـــوت ، فـــان ظـــاهر البـــدن مـــن عـــالم الشـــهادة ، والقلـــب مـــن عـــالم الملكـــوت بأصـــل فطرتـــه وانمـــا هبوطـــه الـــى عـــالم الشـــهادة كالغريـــب ، وكمـــا تنحـــدر مـــن معـــارف القلـــب أنـــوار وآثـــار الـــى الجـــوارح ، فكـــذلك قـــد يرتفع من أفعال الجوارح أنوار الى القلب .

اللهـــم اجـــز عنـــا ســـلفنا الصـــالح خيـــرا كثيـــرا ، واجـــز عنـــا شـــيوخنا خيـــرا مثيـــرا واجعلنـــا يـــا الهنـــا ممـــن يســـتمعون القـــول فيتبعـــون أحســـنه ، وقـــد قلـــت فيهم :

((أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب)) .

- ١٨ -

((والحب لله أكبر كل أمر ، وهو الولى الحميد)) .

بهــذه العبـارة قليلــة الألفــاظ ، كثيـرة الدلالــة ، علمنــى شـيخى العــارف بــالله سـيدى عبــد الســلام الحلــوانى ، ان حــب الله وحمـــده ، همـــا المعرجــان اللــذان يعــرج عليهمــا المؤمنــون الــى كمــال العبوديــة ، فالحــب يحملــه علــى الطاعــة واسترضــاء حبيبــه وتــوقى غضــبه ، والحمــد يكشــف لــه عــن مــوارد الاحســان التــى تغمــره فضــلا مــن ربــه ، حتــى يحـس انــه لا يســتطيع أن يشــكرها لــه سـبحانه ، الا بعجــزه عــن شـكرها ، فــان مــن عجــز عــن عــدها واحصــائها ، لا يبلــغ شــكرها الا بــذلك العجــز ، وانمــا يكــون التحــدث بالنعمــة مظهــرا مــن مظــاهر الاعتــراف بجريانهــا عليــه مــن المــنعم المتفضــل ســبحانه (وأمــا بنعمــة ربــك فحدث) .

علــى اننــا لــو قلنــا ان المــؤمن قــد يعــدد كثيــرا مــن الــنعم الظــاهرة لــه ، فانــه فيمــا يعــدد عــاجزا عــن الشــكر ، لعــدم اســتطاعته مكافــأة ربــه ، مهمــا بلغــت طاعتــه ، لأن ايمــان المــؤمن بربــه مــثلا وهــو علــى رأس الــنعم ، قــدره الله لــه فــى ســوابق الأزل ، ولــم يكــن المــؤمن حينئــذ شــيئا مــذكورا ، فكــان العجــز عــن الشــكر هــو غايــة الشــكر ، لــذلك جــاء فــى كتــب التفســير انــه حــين قــال تعــالى (اعملــوا آل داود شــكرا ، وقليــل مــن عبــادى الشــكور) قــال ســيدنا داود عليــه الســلام : يــارب كيــف اشــكرك والشــكر نعمــة منــك تســتوجب بــدورها عليــه الســلام : يــارب كيــف اشــكرك نعمــة منــك تســتوجب بــدورها شــكرا عليهــا (أى ان المعادلــة فــى الشــكر ى تنتهــى الــى نهايــة) ، فقــال تعــالى يا داود الآن عرفتنى وشكرتنى .

وهــذا أشــبه بمــا يقولــه ســيدنا أبــو بكــر الصــديق فــى معرفتــه لله ســبحانه وتعــالى اذ يقــول : ســبحان مــن لــم يجعــل الــدليل الــى معرفتــه الا بــالعجز عــن معرفتــه ، لــذلك يقــول الســادة الصــوفية : لا يعرفــه الا مــن تعــرف اليــه ، ولا

بوحـــده الا مـــن توحـــد لـــه ، أى أن معرفتـــه تعـــالى وتوحيـــده لا يكونـــان الا بعطائـــه لعبـــده ، فيعرفـــه تعـــالى اذا أراد أن يعرفـــه العبـــد ، ويوحـــده العبـــد اذا أراد الله لـــه أن يكـــون مـــن أهـــل التوحيـــد ، وهـــذا مـــا يفســـر قـــول الســـادة الصـــوفية : لـــيس الايمـــان مـــا يتـــزين بـــه العبـــد مـــن الاقـــوال والأفعـــال ولكنـــه جـــرى الســـعادة فـــى ســـوابق الأزل (بـــل الله يمـــن علـــيكم أن هـــداكم للايمـــان) كمـــا يفســـر قـــول الســـيدة رابعـــة العدويـــة حـــين ســـألها ســـائل : هـــل لـــو تبت يتوب الله على فقالت : بل لو تاب عليك لتبت .

أمـــا مـــا فـــرق بـــه العلمـــاء بـــين الحمـــد والشـــكر بـــأن الحمـــد لله وحـــده والشـــكر يكـــون لله ، ولعبـــاده الـــذين تجـــرى علـــى أيـــديهم نعـــم الله ، فيؤيـــده قـــول الله تعـــالى فـــى الحمـــد (الحمـــد لله رب العـــالمين) وقـــول الله تعـــالى فـــى الشكر (ان أشكر لى ولوالديك الى المصير) .

ويقـــول ســـيدى المرســـى أبـــو العباســـى رضـــى الله عنـــه ، قولـــه تعـــالى (الحمـــد لله رب العـــالمين) أى قولـــوا الحمـــد لله رب العـــالمين ، أى أن الحمـــد لله ، حمـــد رب العـــالمين نفســـه بنفســـه وهـــو حمـــد لـــه ولا ينبغـــى أن يكـــون لغيـــره ، وعلـــى ذلـــك تكـــون أل للعهـــد ، وقـــال ســـيدى عبـــد الســـلام الحلـــوانى رضـــى الله عنـــه فـــى مقدمـــة كتابـــه الســـيرة الخليليـــة الـــذى وضـــعه فـــى مناقـــب شـــيخه العـــارف ســـيدى أبـــى خليـــل رضـــى الله عنـــه : يـــا مالـــك الحمـــد هـــب لـــى مـــن لـــدنك علمـــا يســـع بـــه ادراكـــى كيـــف يكـــون حمـــدك وشـــكرك ، فأحمـــدك ولأثنـــى عليـــك كمـــا ينبغى لجلال عظمتك .

وقـــد جـــرت ســـنة رســـول الله صـــلى الله عليـــه وســـلم ، وتابعـــه فيهـــا ســـلف الأمـــة الصـــالح ان تبـــدأ الخطبـــة بحمـــد الله تعـــالى والثنـــاء عليـــه ، لـــذلك يقـــال للامـــة المحمديـــة ((الحمـــادون)) لكثـــرة حمـــدها لله تعـــالى ، وقـــد بـــين تعـــالى صـــفات كملـــة المـــؤمنين : فقـــال عـــز وجـــل (التـــائبون العابـــدون الحامـــدون الســـائحون الراكعـــون الســـاجدون الآمـــرون بـــالمعروف والنـــاهون عـــن المنكـــر والحـــافظون لحـــدود الله وبشـــر المـــؤمنين) أى بالجنـــة التـــى بشـــر بهـــا المقـــاتلين فـــى ســـبيل الله فـــى الآيـــة التـــى ســـبقتها وهـــى قولـــه تعـــالى (ان الله اشـــترى مـــن المـــؤمنين أنفســـهم وأمـــوالهم بـــان لهـــم الجنـــة يقـــاتلون فـــى ســـبيل الله فيقتلـــون

ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) وقد قالوا فى سبب نزولها ان رجالا من الأنصار أنافوا على السبعين واجتمعوا بمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عند العقبة (فى منى) فقال عبد الله ابن رواحة للنبى صلى الله عليه وسلم : اشترط لربك ولنفسك ماشئت فقال النبى صلى الله عليه وسلم : اشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، واشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم) قالوا فان فعلنا ذلك فما لنا ، قال الجنة قالوا ربح البيع ، لا نقيل ولا نستقيل فنزلت (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم . . الآية) .

ويقول الامام القرطبى فى تفسيره : وهو عوض عظيم لا يدانيه المعوض ولا يقاس به فأجرى ذلك على مجاز ما يتعارفونه فى البيع والشراء فمن العبد تسليم النفس والمال ، ومن الله الثواب والنوال ، فسمى هذا شراء ، وروى الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((ان فوق كل بر بر حتى يبذل العبد دمه فاذا فعل ذلك فلا بر فوق ذلك)) وقال الشاعر :

الجود بالمال جود فيه مكرمة
والجود بالنفس أقصى غاية الجود

ويقول سيدى عمر بن الفارض فى احدى غرامياته :

مالى سوى روحى وباذل نفسه
فى حب من يهواه ليس بمسرف
فلئن رضيت بها فقد أسعفتنى
ياخيبة المسعى اذا لم تسعف

وبان من الآيتين السابقتين أن الجهاد نوعان ، جهاد الأعداء فى الحرب لاعلاء كلمة الله ، وجهاد النفس بالتوبة والعبادات ، لتتزكى فى جنب الله تعالى ، ولكل من الجهادين نتيجة واحدة هى كسب رضاء الله تعالى ودخول الجنة التى أعدها تعالى لأهل رضوانه .

وإذا نظرنـــا الـــى العـــوض الـــذى أعـــده لأهـــل رضـــوانه ، نجـــده أكبـــر ولا شـــك مـــن الجهـــاد المبـــذول فـــى ساحة الحـــروب أو فـــى جهـــاد الـــنفس ، ذلـــك بـــأن حيـــاة المـــؤمن محـــدودة فـــى هـــذه الـــدنيا بمـــدة أجلـــه التـــى قـــدرها الله لـــه ، وكيفمـــا طالـــت فهـــى لا تتعـــدى عشـــرات الســـنين ممـــا نعـــده ، لكـــن نعـــيم الجنـــات خالـــد أبـــد الآبـــدين ، ولا يقـــاس العمـــر النافـــد ، بـــالنعيم الخالـــد ، ذلـــك الفضـــل مـــن الله وكفـــى بالله عليما .

فـــاذا زالـــت غشـــاوة الحجـــاب عـــن القلـــوب ، ورأوا تلـــك الحقيقـــة ، هـــان علـــيهم مـــا يبـــذلون فـــى الجهـــادين ، جهـــاد الســـيف وجهـــاد الـــنفس ، حقـــا مـــا قالـــه الســـادة الصـــوفية : مـــن عـــرف مـــا يطلـــب هـــان عليـــه مـــا يبـــذل ، ويقـــول الامـــام الغزالـــى رضـــى الله عنـــه : ان كنـــت تـــؤمن بـــالآخرة ولســـت تســـتعد لهـــا وتبيعهـــا بالـــدنيا فهـــذه حماقـــة ، فانـــك لا تبيـــع الاثنـــين بواحـــد ، فكيـــف تبيـــع مـــالا نهايـــة لـــه بأيام معدودة .

والـــنفس والشـــيطان يعوقـــان ســـلوك المـــؤمن ، لأن الـــنفس أمـــارة بالســـوء بطبعهـــا ، والشـــيطان يعاونهـــا بتـــزيين المعاصـــى وأســـباب الغفلـــة (زيـــن للنـــاس حـــب الشـــهوات مـــن النســـاء والبنـــين والقنـــاطير المقنطـــرة مـــن الـــذهب والفضـــة والخيـــل المســـومة والأنعـــام والحـــرث ذلـــك متـــاع الحيـــاة الـــدنيا والله عنـــده حســـن المآب) .

فـــاذا تلهـــى القلـــب بزينـــة الـــدنيا ، خـــاض غمـــرات الـــدنيا ، ونســـى جنـــات النعـــيم فلـــم يعـــد نفســـه لـــدخولها مـــع المرضـــى عـــنهم ، وعلـــى ضـــده مـــن أراد الآخـــرة وســـعى لهـــا ســـعيها وهـــو مـــؤمن ، فانـــه لا يبيـــع دينـــه بـــدنياه ، بـــل يجعـــل دنيـــاه ممرا لأخراه ، كما وعظه الله .

ولـــو لا مشـــقات الجهـــاد علـــى الـــنفس ، واخـــتلاف الهمـــم فـــى طلـــب الله ، مـــا تفاضـــل المؤمنـــون وان تســـاووا فـــى العقائـــد ، وهـــذا يفســـر لنـــا لمـــاذا جعـــل الله المـــؤمنين علـــى درجـــات ثـــلاث فـــى قولـــه الكـــريم (ثـــم أورثنـــا الكتـــاب الـــذين اصـــطفينا مـــن عبادنـــا فمـــنهم ظـــالم لنفســـه ومـــنهم مقتصـــد ومـــنهم ســـابق بـــالخيرات بـــاذن الله ذلـــك هـــو الفضـــل الكبيـــر) وقـــد خاطـــب الله تعـــالى عـــوام المـــؤمنين

فقال لهم (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) فى حين وصف الخواص فقال تعالى (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه و منهم من ينتظر و ما بدلوا تبديلا) كما قال فيهم ((فى بيوت اذن الله أن ترفع و يذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والاصال . رجال لا تلهيهم تجارة و لا بيع عن ذكر الله ، و اقام الصلاة و ايتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب و الأبصار . ليجزيهم الله أحسن ما عملوا و يزيدهم من فضله و الله يرزق من يشاء بغير حساب)) .

و كذلك فرق الله بين القاعدين و المجاهدين فقال تعالى (لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدين بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما ، درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما) .

وقد يشترك المؤمنون فى عمل واحد ، ويفضل الله بعضهم على بعض ، لاختلاف ظروف العمل ، فمثلا تراه تعالى فضل الذين أنفقوا أموالهم فى سبيل الله قبل فتح مكة على الذين أنفقوها بعد الفتح ، لأن شوكة المسلمين قبل الفتح كانت ضعيفة ثم قويت بعد الفتح وتمت للمسلمين الغلبة على أعدائهم الكافرين ، فتضحية الذين أنفقوا قبل الفتح كانت أعظم مشقة على النفس منها بعد الفتح ، وكذلك كان شأن القتال قبل الفتح أعظم درجة منه بعد الفتح ، ولذلك قال عز شأنه (وما لكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير) .

كذلك قد يكون العمل صالحا فى ظاهر أمره ، والنية فيه مشوبة بعلة تخفى على الناس ، ولا تخفى على الله الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، مثال ذلك ، مسجد الضرار الذى ندد الله بمن أقاموه بسوء نية فقال تعالى فى شأنه (والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين

المـــؤمنين وارصـــادا لمـــن حـــارب الله ورســـوله مـــن قبـــل ولـــيحلفن ان أردنـــا الا الحســـنى ، والله يشـــهد انهـــم لكـــاذبون) وقـــد نهـــى الله رســـوله صـــلى الله عليـــه وســـلم ان يقـــوم فيـــه ، ومـــدح لـــه مســـجد قبـــاء والمصـــلين فيـــه وأمـــره أن يصـــلى فيـــه فقـــال عـــز شـــأنه ، (لا تقـــم فيـــه أبـــدا لمســـجد أســـس علـــى التقـــوى مـــن أول يـــوم أحـــق أن تقـــوم فيـــه فيـــه رجـــال يحبـــون أن يتطهـــروا والله يحـــب المطهـــرين) ولهـــذا أمـــر مولانـــا رســـول الله صـــلى الله عليـــه وســـلم بعـــض أصـــحابه أن يهـــدموا مســـجد الضـــرار ويحرقـــوه فقـــال لهـــم : ((انطلقـــوا الـــى هـــذا المســـجد الظـــالم أهلـــه فاهدموه واحرقوه)) فنفذوا ذلك الأمر على وجه السرعة .

لـــــذلك يعنـــــى الســـــادة الصـــــوفية بتصـــــحيح النيـــــات ، وتطهيـــــر الطويـــــات ، فيقصـــدون بأعمـــالهم وجـــه الله تعـــالى ، لأنـــه تعـــالى قـــال (ألا لله الـــدين الخـــالص) وهـــم لـــذلك يخـــافون الله حتـــى فـــى الطاعـــات التـــى يأتونهـــا ، خشـــية أن يـــداخل نفوســـهم بهـــا غـــرور أو عجـــب أو ســـوء ظـــن بغيـــرهم مـــن أهـــل التقصـــير فـــى الطاعـــات وهـــم لا يـــدرون خاتمـــة المطـــاف ، فقـــد يتـــوب الله علـــى المعاصـــى ، فتحســـن خاتمتـــه ، وقـــد نـــزل قـــدم المطيـــع فتســـوء خاتمتـــه ، ومـــن هنـــا يحـــذرون الاســـتدراج .

ويقـــول ســـيدى الامـــام المرســـى أبـــو العبـــاس رضـــى الله عنـــه : قـــد تلـــج المعصـــية فـــى الطاعـــة ، والطاعـــة فـــى المعصـــية ، فيتطبـــع العبـــد بالطاعـــة ، فيعجـــب بهـــا ، ويعتمـــد عليهـــا ، ويستصـــغر بهـــا ســـيئات ، ويـــذنب العبـــد الـــذنب فيلجـــأ الـــى الله فيـــه ، ويعتـــذر منـــه ، ويستصـــغر نفســـه ، ويعظـــم مـــن لـــم يفعلـــه ، فهـــذه ســـيئة أحاطـــت بها حسنات .

وقـــد ســـألت شـــيخى العـــارف بـــالله ســـيدى عبـــد الســـلام الحلـــوانى يومـــا عمـــا كنـــت أحســـه مـــن ظـــل ثقيـــل لـــبعض أهـــل الطاعـــة دون أن أعلـــم عـــنهم ســـوء وقلـــت لـــه انـــى اتهـــم نفســـى فـــى احساســـى نحـــوهم بانطمـــاس بصـــيرتى ، ولكنـــى أرانـــى أســـتخف غيـــرهم ، وان كـــانوا اقـــل مـــنهم همـــة فـــى الطاعـــات فقـــال لـــى رضـــى الله عنـــه : ان احساســـك صـــحيح ، وثقـــل الظـــل الـــذى تحـــس بـــه انمـــا يأتيـــك مـــن أنهـــم فـــى قـــرارة نفوســـهم يعجبـــون بأعمـــالهم ، ويمنـــون بهـــا علـــى الله ، وأيـــد كلامـــه رضـــى الله عنـــه ، بانـــه زار مـــرة واحـــدا مـــن هـــؤلاء وكـــان مريضـــا ، فقـــال

لسيدى الشيخ ، معترضا على الله ، لماذا يمرض مثلى أ انى اقيم الصلاة فى أوقاتها ، وأصلى صلاة الفجر حاضرة ، وأصوم ، وأتصدق ، وأخذ يعدد على الله أعماله فى جهل وغرور .

أقول والقرآن الكريم حذرنا ان نقع فى هذا الخطأ فى مثل قوله تعالى (قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض والله بكل شىء عليم . يمنون عليك ان أسلموا قل لاتمنوا على اسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان ان كنتم صادقين) .

ويقول السادة الصوفية فى هذا المقام : القلوب أوعية ، فاذا امتلأت من الحق ، أظهرت زيادة انوارها على الجوارح ، واذا امتلأت من الباطل أظهرت زيادة ظلمتها على الجوارح ، ويشهد لقولهم هذا قوله تعالى (سيماهم فى وجوههم من أثر السجود) وقد جاء فى تفسير الامام القرطبى رضى الله عنه حديث عن جابر يقول فيه مولانا رسول الله صلوات الله عليه وآله ((من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار)) وقال ابن عباس ومجاهد : السيماء فى الدنيا وهو السمت الحسن ، وعن مجاهد أيضا هو الخشوع والتواضع ، قال منصور : سألت مجاهدا عن قوله تعالى (سيماهم فى وجوههم) أهو أثر يكون بين عينى الرجل ، قال لا : ربما يكون بين عينى الرجل ركبة العنز ، وهو أقسى قلبا من الحجارة ، ولكنه نور فى وجوههم من الخشوع ، وقال ابن جريح : هو الوقار والبهاء .

فالمدار على القلوب كما رأيت ، لأن الله تعبد القلوب بالنيات ، وتعبد الجوارح بالأعمال ، وانما الاعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى ، ولهذا يقول سيدى الشيخ فى عبارته التى صدرت بها المقال : والحب لله أكبر كل أمر ، والحب كامن فى القلب لا يراه الا الله تعالى ، والمدعون كثير ، والصادقون قليل بل وأقل من القليل ، وما يعلمهم الا الله الذى قال فيهم منوها بشأنهم (يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) .

وقـــد ربـــت صـــلى الله عليـــه وســـلم حـــين نزلـــت هـــذه الآيـــة علـــى كتـــف سـلمان الفارســـى رضـــى الله عنــــه قـــال : هـــذا وذووه ، فـــدلنا صـــلى الله عليـــه وســـلم علـــى نـــوع المحـــب لله ، ومعلـــوم انـــه صـــلى الله عليـــه وســـلم ألحـــق ســـلمان بـــآل بيتــه فـــى قولــه صــلوات الله عليــه ((ســلمان منـــا آل البيـــت)) وجـــاء فـــى حـــديث شــريف آخــر : (ان الجنــة تشــتاق الــى أربــع ، عمــار وعلــى وســلمان وبــلال) ومــن الحكــم التـــى نقلـــت عـــن ســـيدنا ســـلمان رضـــى الله عنـــه قولـــه : انمـــا مثـــل المـــؤمن فـــى الـــدنيا ، كمثـــل مـــريض معـــه طبيبـــه الـــذى يعلـــم داءه ودواءه ، فـــاذا اشـــتهى مـــا يضـــره منعـــه ، وقـــال ان أكلتـــه هلكـــت ، وكـــذلك المـــؤمن يشـــتهى أشـــياء كثيرة فيمنعه الله عز وجل منها حتى يموت فيدخل الجنة .

أمـــا عـــن الولايـــة فيقـــول ســـيدى الحســـن الشـــاذلى رضـــى الله عنـــه : أعلــم رحمــك الله تعــالى باقبــال عليــك ، وجعــل أنــواره واصــلة اليــك انمــا همــا ولايتـــان ، ولـــى يتـــولى الله ، وولـــى يتـــولاه الله ، قـــال تعـــالى فـــى الولايـــة الاولـــى (ومـــن يتـــولى الله ورســـوله والـــذين آمنـــوا فـــان حـــزب الله هـــم الغـــالبون) ((وقـــال تعـــالى فـــى الولايـــة الثانيـــة (وهـــو يتـــولى الصـــالحين))) وهـــى التـــى خرجـــت للعبـــد مـــن خـــزائن المـــنن علـــى بســـاط المحبـــة ، أمـــا الولايـــة الاولـــى ، فولايتـــك لله تعـــالى خرجـــت مـــن المجاهـــدات ، وولايتـــك لرســـوله خرجـــت مـــن متابعـــة ســـنته ، وولايتك للمؤمنين خرجت عن الاقتداء بالأئمة فافهم ذلك .

ويقـــول ســـيدى أبـــو القاســـم الجنيـــد رضـــى الله عنـــه ، وهـــو امـــام الصـــوفية محـــدثا عـــن نفســـه : لمـــا دخلـــت فـــى طريـــق المحبـــة الـــذى يســـلكه القـــوم (يقصـــد الســـادة الصـــوفية) ذقـــت حـــالا ، فكنـــت لا أتعقـــل أن أحـــدا يعبـــد الله لطلـــب ثـــواب ، ولا لخـــوف عقـــاب قـــط ، وأقـــول أى فائـــدة لمـــا جـــاءت بـــه الســـنة مـــن الأحاديـــث فـــى الترغيـــب فـــى العبـــادات والترهيـــب فـــى ارتكـــاب المحرمـــات ، فرأيـــت النبـــى صـــلى الله عليـــه وســـلم فـــى عـــالم غيـــر هـــذا ، وقـــال لـــى لـــو لـــم تبـــين للخلـــق مراتـــب العبـــادات ومـــا فيهـــا مـــن الثـــواب ، ومراتـــب المحرمـــات ومـــا فيهـــا مـــن العقـــاب ، لقامـــت الحجـــة فـــى الآخـــرة ، وقيـــل لنـــا هـــلا بينـــتم مراتـــب الأحكام وما فيها من الثواب والعقاب ، لكنا بادرنا اليها فى دار الدنيا فقد

بينا ، فزال عنى ما كنت أجده ، و علمت ما علمت فصلى الله وسلم عليه ما أحسنه من معلم و بالله التوفيق .

و المحبون يشهدون منة الله عليهم فيما يوفقون اليه من الطاعات ، كما يشهدون فضله تعالى فى قبولها ، و التجاوز عن عيوبها ، و هم يرون أن العبد انما يأتى بالطاعات على سبيل العبودية و الخضوع لربه ، و الله يتفضل بقبولها على ما بها من نقائص ، و يضعون فى فهمهم هذا نصب أعينهم قوله تعالى (وما قدروا الله حق قدره) و لو بلغوا أعلى درجات الأولياء و يبررون ذلك بأن مولانا رسول الله صلى الله عليه و سلم قام الليل حتى تورمت قدماه ، و كانت أوقاته كلها فى عبادة ربه و مع ذلك قال صلوات الله عليه فى مناجاته ((سبحانك لا نحصى ثناء عليك ، أنت كما اثنيت على نفسك)) و هذا من نظره صلى الله عليه وآله لجلال الله و هيبته .

و محبة السادة الصوفية لربهم ، تقتضيهم جهادا مريرا فى تخلية قلوبهم من غير الله ، و تحليتها بذكر الله ، و هم يقولون : لا ينال غاية رضاه من فى قلبه سواه ، و هو مقام لا يذوق الا الخواص ، و نحن نستبعده لأننا من العوام لا من الخواص . فلا تعجب اذن أن يحكى الشلبى عن نفسه قائلا : قال لى استاذى انظر يا ولدى ان خطر ببالك من الجمعة الى الجمعة غير الله تعالى ، فلا تعد تأتنا ، فانه لا يرجى منك أن تكون تلمذا .

و يقول سيدى عبد الوهاب الشعرانى تعقيبا على قوله الشلبى فى كتابه الأنوار القدسية فى بيان آداب العبودية ، فاذا كان هذا حال تلميذهم ، فكيف حال شيخهم ، فتأمل حال هذا التلميذ ، و حال أكثر المشايخ الآن تعرف الفرق بين طالبى الآخرة و طالبى الدنيا .

و الكلام فى المحبة و المحبين يطول ، و الكتاب يقرأ من عنوانه ، و لا مطمع لنا أن نبلغ ما بلغوا مع قصورنا و تقصيرنا ، ولقد اجتمعت مرة بأحد

علماء دمشق ، و كان مفتيا لاحدى الولايات ، و كان معروفا فى قومه بصلاحه و تقواه ، و جرى الحديث فى المحبة و المحبين ، فقال رحمه الله كلنا فى زماننا يدعى المحبة ، و ليس له من وسائلها قليل أو كثير و تمثل :

كيف الوصول الى سعاد و دونها
قنن الجبال و دونهن حتوف
الرجل حافية و مالى مركب
و الكف صفر و الطريق مخوف

فقلت فى نفسى يكفى من وقوفنا على حال المحبين من أسلافنا ، أن نعرف مدى تخلفنا ، و شعورنا بالنقص بداية السعى للكمال .

و أختم مقالى هذا بأبيات لأستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل :

شراب الحب يعرف بالمذاق ... و ما كل السقاة له بساقى
و ليس أخو غرام من مناه ... لقاء الغيد أو كأس دهاق
و ليس بعاشق من لا تراه ... من الشهوات طهر و النفاق
اذا ما عشت لا أنسى الهى ... به اسمو من الأخرى المراقى
احب الله عن أدب و صدق ... و لا أرضى سوى التقوى خلاقى
يعز على ترك الحب عندى ... و لو بلغت بى الروح التراقى
تركت جميع خلق الله دونى ... شغلت عن الخلائق باشتياقى
أ لا يا ساقى العشاق مهلا ... تعال املأ كؤوسك من حقاقى
غرامى قد مزجت به رجائى ... على خوف فمن خوفى مذاقى
و روحى ادركت معنى التجلى ... فمنه ارى اصطباحى و اغتباقى
و من عرف المحبة عن يقين ... حرام ان يميل الى فراق

أطوف على الرحاب بكل ذل مريدا و اليقين به انسياقى
و كيف أحب غير الله يوما وليس سواه فى الأكوان باق

و الأبيات المتقدمة أراها من أعلا ما قرأته فى الأدب الصوفى ، و يباهى بها عصرنا الحاضر عصر الصوفية ، الزاهر فى القرون الأولى ، وكم كان لشيخنا الملهم من فيوضات و فتوحات ، نقلتنا من عالم الملك الى عالم الملكوت .

الا رحم الله شيوخنا ، و رضى عنهم ، فقد رأينا فيهم ، مع تأخر زماننا ، صورة صادقة للمحبين الأوائل ، الذين قال فى شأنهم رب العزة جل شأنه (الا ان أولياء الله لا خوف عليهم و لا هم يحزنون . الذين آمنوا و كانوا يتقون . لهم البشرى فى الحياة الدنيا و فى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم) .

١٩. -

أهــــلا وســـــهلا بكتابــــك القـــيم ، الــــذى أزال وحشـــة البعـــد خصوصـــا وأنـــى لـــم أحـــظ هـــذا الاسـبوع بلقـــائكم ، وقـــد أصـبح القلـــب يحـــن الـــى اللقــاء دائمـــا لتتمتـــع الأرواح بلقــــاء الأشـــــباح ، وان كانـــــت مجتمعـــــة ، فللــــه درك ، ولله كتابـــك هذا ، وأسأل الله أن يمنحك التقوى الثابته وسعادة الدارين .

بهـــذه الكلمـــات الرقيقـــة ، وجهنـــى شـــيخى العـــارف بـــالله ، ســـيدى عبـــد الســـلام الحلـــوانى ، رضـــى الله عنــــه ، الــــى أهميـــة اجتمـــاع المريـــدين بشـــيخهم ، الـــذى يـــربيهم فـــى جنـــب الله لتتمتـــع الأرواح بلقـــاء الأشـــباح ، وان كانـــت مجتمعـــة فى عقيدة التوحيد ، وفى محبة الله تعالى .

ويؤيـــد القـــرآن الكـــريم ، كمـــا تؤيـــد الســـنة المطهـــرة ، ذلـــك التوجيـــه ، فقـــد ســـافر ســـيدنا موســـى عليـــه الســـلام ، وهـــو كلـــيم الله ، وصـــاحب التـــوراة ، ســـفرا لقـــى فيـــه نصـــبا ، ليلتقـــى بالخضـــر عليـــه الســـلام ، حينمـــا أعلمـــه الله أنـــه رجـــل أتـــاه الله رحمـــة مـــن عنـــده ، وعلمـــه مـــن لدنــــه علمـــا ، وحينمـــا التقـــى بـــه اســـتأذنه فـــى اتباعـــه علـــى أن يعلمـــه ممـــا علمـــه الله رشـــدا ، فكاشـــفه بانــــه لا يســـتطيع صـــبرا علـــى أمـــور يأتيهـــا وتكـــون محـــل اعتـــراض مـــن موســـى عليـــه الســـلام ، والـــتمس لـــه العـــذر فـــى الاعتـــراض عليهـــا (وكيـــف تصـــبر علـــى مـــالم تحـــط بـــه خبـــرا) فأجابـــه فـــى أدب وقـــال لـــه (ســـتجدنى ان شـــاء الله صـــابرا ولا أعصـــى لـــك أمـــرا) فاشـــترط عليـــه الخضـــر الا يعقـــب علـــى فعلـــه حتـــى يتبـــين جليـــة الأمـــر (قـــال فـــان اتبعتنـــى فـــلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا) .

وبقيـــة القصـــة معروفـــة كمـــا جـــاءت فـــى ســـورة الكهـــف الكريمـــة ، فكـــان الاعتـــراض ، ثـــم الاعتـــذار مـــن ســـيدنا موســـى عليـــه الســـلام ، وكـــان التبريـــر مـــن ســـيدنا الخضـــر عليـــه الســـلام ، وانتهـــت التبريـــرات بقـــول الخضـــر عليـــه الســـلام (وما فعلته عن أمرى ذلك تأويل مالم تستطع عليه صبرا)

و الحـــق ، انهـــا قصـــة رائعـــة ، تـــدل علـــى شـــرف اصـــحاب القلـــوب المتصـــلة بـــالله تعـــالى ، الـــذين يتلقـــون مـــن عطائـــه ، علـــومهم اللدنيـــة ، التـــى تفضـــل ســـبحانه فأعطاهـــا أول مـــا أعطـــى مـــن البشـــر ، أبـــاهم آدم عليـــه الســـلام حـــين علمـــه الاســـماء كلهـــا ، و كـــان قبلهـــا لا يعلـــم شـــيئا منهـــا ، ثـــم زاده شـــرفا فجعلـــه معلمـــا للملائكـــة ، حـــين جهلـــوا مـــا علمـــه آدام عليـــه الســـلام ، فســـبحان ربنـــا مـــن علـــيم خبيـــر ، كمـــا تـــدل القصـــة علـــى شـــرف علـــم التصـــوف ، و هـــو علـــم الفـــيض ، الـــذى تمتلـــىء بـــه و بأســـراره قلـــوب أصـــفياء الله ، الـــذين يختـــارهم بعلمـــه ، ويصـــتفيهم لنفســـه ، و يعلمهـــم مـــن كلماتـــه التـــى لا تنفـــذ ، اظهـــارا للســـعادة التـــى جـــرت لهـــم فـــى ســـوابق الأزل ، ليكونـــوا دعـــاة الـــى الله ، بالحـــال و بالمقـــال ، فمـــن شـــاء الله هدايتـــه علـــى أيـــديهم دلهـــم علـــيهم ، ليأخـــذوا عـــنهم مـــا شـــاء الله أن يأخـــذوا ، فهـــم الأدلـــة المرشـــدون فـــى متاهـــات الغفلـــة ، و ظلمـــات النســـيان ، يرشـــدون التائـــه الـــى طريـــق الهـــدى ، و يـــذكرون النـــاس بيـــوم لا ريـــب فيـــه ، يـــوم لا ينفـــع مـــال و لا بنـــون الا من أتى الله بقلب سليم .

كمـــا أن القصـــة تعلمنـــا ، كيـــف يكـــون التواضـــع لعبـــاد الـــرحمن ، فقـــد ضـــرب لنـــا ســـيدنا موســـى و هـــو مـــن المرســـلين أولـــى العـــزم ، المثـــل فـــى هـــذا التواضـــع ، و بـــين كيـــف يحـــرص الـــؤمن علـــى تقويـــة صـــلته بـــالله ، و كيـــف ينـــزل المـــتعلم مـــن معلمـــه ، و كيـــف يجاهـــد فـــى ســـبيل العثـــور عليـــه ليســـمع منـــه ، و يأخـــذ عنـــه فيـــزداد خيـــرا فـــى دينـــه . و قـــد علمنـــا مولانـــا رســـول الله صـــلى الله عليـــه و ســـلم الحـــرص علـــى نـــوال الزيـــادة فـــى الـــدين فقـــال صـــلى الله عليـــه و آلـــه (اذا طلـــع علـــى يـــوم لا أزداد فيـــه علمـــا يقربنـــى الـــى الله عـــز و جـــل فـــلا بـــورك لـــى فـــى طلـــوع شـــمس ذلك اليوم) .

و قـــد بـــين لنـــا ســـيدنا الخضـــر ، كيـــف يصـــبر المـــتعلم ، حتـــى تتكشـــف لـــه أســـرار امامـــه ، فيمـــا لـــم يحـــط بـــه خبـــرا ، و كيـــف يحســـن ظنـــه بامامـــه ، فيمـــا يبـــدو لـــه غامضـــا مـــن تصـــرفاته ، و كيـــف يـــؤول الـــى الخيـــر تلـــك التصـــرفات ، مـــادام قـــد أحسن اختيار الامام و تأكد له أنه من أهل اليقين الصادقين .

و لـــيس معنـــى ذلـــك ، أننـــا نقـــر تصـــرفات الخـــارجين علـــى أحكـــام الشـــريعة و آدابها من أولئك المدعين ، المشعوذين ، بل اننا نشترط أول ما نشترط ،

أن يقاس الامام بميزان الكتاب والسنة والجماعة ، لأن التصوف الحق مقيد بالكتاب والسنة ، وانما قد يتكلم فى مذاقات أهل اليقين ، بما لا يتسع له ادراك الناشئين ، ويكون موجها لأهله من السامعين ، لأن السامعين لهؤلاء الأئمة مراتب ، لذلك نرى المشايخ ينهون أهل البدايات عن قراءة كتب التصوف ، لأنها فوق مستواهم وقد يسيئون فهمها أو ينكرونها ، فيكون سوء الفهم ، أو الانكار ، مضرا بالمريد فى سلوكه ، ومن الطبيعى ألا يكون غذاء الرجال الكبار مناسبا لمعدة الاطفال الصغار ، فلكل منهم ما يناسبه ويلائمه ، وكذلك غذاء الارواح يتناسب مع درجاتهم ومراتبهم فى السلوك ٠

وقد وجدنا بالتجربة العملية ، ان صحبة رجال الله ، تكسب الهمة فى طلبه سبحانه ، وتلهب القلوب بالشوق اليه جل جلاله ، وتربط الأرواح بعالم الملكوت الذى منه هبطت ، وتذيقها من الأسرار والرقائق والدقائق ما يجل عن الوصف ويدرك بالذوق ، ولا تعجب من ذلك فان مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ((خير عباد الله من اذا رأيتهم ذكرت الله)) ، ويقول كذلك صلوات الله عليه وآله ((من بايع اماما أعطاه صفقة يده ، وثمرة قلبه ، فليطعه ان استطاع)) ٠

وقد صدق الامام سهل بن عبد الله التسترى فى قوله ((ان الدين الحى هو ما صبته الصوفية حارا فى النفس الانسانية)) ذلك بان السادة الصوفية لهم أسرارهم الروحية ، التي ينيرون بها الهدى للبصائر ، أكثر مما ينير الضوء للابصار ٠

ويقول الامام الغزالي رضى الله عنه ، ان الانسان لا يصل بالحس الى شئ أرفع من المحسوسات المادية ، وقد يرتقى بعقله الى شئ ما يدركه الحس ولكنه لا يتجاوز نطاق المحسوسات ٠

أقول وقد فشل رجال الكلام فى أن يذيقوا القلوب حرارة الايمان ، وسعادة اليقين ، بينما نجح السادة الصوفية فى هذا المضمار ايما نجاح ، ويعلل الامام جلال الدين الرومى ذلك فيقول : ان المتكلمين والفقهاء ، انما يحومون حول رواق الوجود من غير أن يدخلوه لانهم لا يعرفون الحب ،

و يقـــول ســـيدى أبـــو القاســـم الجنيـــد رضـــى الله عنـــه مـــا طلبنـــا التصـــوف بالقيـــل و القال و المراء و الجدال ، بل طلبناه بالجوع و السهر و الافعال .

و يتعـــرض ســـيدى أبـــو الحســـن الشـــاذلى رضـــى الله عنـــه لحـــب الصـــوفية لله تعـــالى ، و هـــو المعـــراج الـــذى يعرجـــون عليـــه الـــى المعرفـــة و مقـــام القـــرب فيقـــول : المحبـــة آخـــذة مـــن قلـــب عبـــده كـــل شـــىء ســـواه ، فتـــرى الـــنفس مائلـــة لطاعتـــه ، و العقـــل متحصـــنا بمعرفتـــه ، و الـــروح مـــأخوذة فـــى حضـــرته ، و الســـر مغمـــورا فـــى مشـــاهدتة ، و العبـــد يســـتزيد فيـــزداد ، ويفـــاتح بمـــا هـــو أعـــذب مـــن لذيـــذ مناجاتـــه ليكســـى حلـــل التقريـــب علـــى بســـاط القربـــة ، فـــيمس أبكـــار الحقـــائق و ثيبـــات العلوم .

و يقول سيدى محى الدين بن عربى رضى الله عنه فى الحب الالهى :

ذبت اشتياقا ووجدا فى محبتكم فآه من طول شوقى آه من كمدى
يدى وضعت على قلبى مخافة أن ينشق صدرى لما خاننى جلدى
ما زال يرفعها طورا و يخفضها حتى وضعت يدى الاخرى تشد يدى

أما سيدى ابراهيم الدسوقى رضى الله عنه فيقول :

حرام على من وحد الله ربه و أفرده ان يحتذى أحدا رفدا
و يا صاحبى قف بى مع الجد وقفة موات بها وجدا و أحيا بها وجدا
وقل لملوك الارض تجهد جهدها فذا الملك ملك لا يباع و لا يهدى

و أمـــا أســـتاذى العـــارف بـــالله ســـيدى الشـــيخ علـــى عقـــل طيـــب الله ثـــراه : فيقول فى الهامه الفورى الذى نقلته عنه :

وقفت على نجوى الاله جوانحى لذلك قلبى منزل كله ذكر
و أخليت قلبى من مناجاة غيره فأصبح طودا لا يزلزله الغير
أسارع مشتاقا و اسكت هائما و أنطق اجلالا و ما عاقنى سير
ففى صحوتى شوق وفى غفوتى هوى و فى مشيتى علم و فى وقفتى سر

فاذا انت ربطت بين الأولين و الآخرين من السادة الصوفية ، وجدت الجامع بين الفريقين عاطفة فوارة بحب الله ، والتفانى فى التقرب اليه ، لنيل

رضـــاه ، ورضـــاه ســـبحانه غايـــة دونهـــا مجاهـــدات ظـــاهرة و باطنـــة ، لا تكســـبها الا بارشـــاد هـــؤلاء الكـــرام البـــررة ، الـــذين يقولـــون ، لا ينـــال غايـــة رضـــاه ، مـــن فـــى قلبـــه ســـواه ، قـــد بلغـــوا بـــذلك القمـــة ، فـــاذا أردت الهمـــة فـــى مرضـــاة ربـــك ، فخـــذها عـــنهم لأنهـــم اتصـــلوا بـــه بعـــد أن قطعـــوا العلائـــق والعوائـــق فصـــار هـــو وحده مقصدهم سبحانه .

ويناجـــى ســـيدى ابـــن عطـــاء الله الســـكندرى ، رضـــى الله عنـــه ربـــه فيقـــول فى مناجاته :

((الهـــى مـــاذا وجـــد مـــن فقـــدك ، ومـــا الـــذى فقـــد مـــن وجـــدك ، لقـــد خـــاب مـــن رضـــى دونـــك بـــدلا ، ولقـــد خســـر مـــن بغـــى عنـــك متحـــولا ، الهـــى كيـــف يرجـــى ســـواك ، وأنـــت مـــا قطعـــت الاحســـان ، أم كيـــف يطلـــب غيـــرك ، وأنـــت مـــا بـــدلت عادة الامتنان .

((كيـــف يشـــرق قلـــب صـــور الأكـــوان منطبعـــة فـــى مرآتـــه ، أم كيـــف يرحـــل الـــى الله وهـــو مكبـــل بشـــهواته ، أم كيـــف يطمـــع أن يـــدخل حضـــرة الله وهـــو لـــم يتطهـــر مـــن جنابـــة غفلاتـــه ، أم كيـــف يرجـــو أن يفهـــم دقـــائق الأســـرار وهـــو لـــم يتـــب من غفواته)) .

ولـــم يـــؤثر مثـــل هـــذا الكـــلام العـــالى الرقيـــق عـــن ســـيدى ابـــن عطـــاء الله قبـــل أن يتعـــرف الـــى أســـتاذه القطـــب العـــارف ســـيدى المرســـى أبـــو العبـــاس رضـــى الله عنـــه ، لا بـــل انـــه .كمـــا حـــدث عـــن نفســـه .كـــان فـــى أول أمـــره مـــن المعترضـــين عليـــه ، وكـــان يـــرى ان مجـــالس العلمـــاء أولـــى بالنـــاس مـــن مجـــالس الصـــوفية ، فلمـــا اتصـــل بشـــيخه الجليـــل واســـتمع اليـــه ، أخـــذ عنـــه ، وانتفـــع منـــه ، وشـــاد بمـــآثره وفضـــائله ، ورأى بالتجربـــة أن الســـادة الصـــوفية نـــالوا مـــا عنـــد العلمـــاء مـــن العلـــم فشـــاركوهم فـــى علمهـــم ، ولكـــن العلمـــاء لـــم يشـــاركوا الســـادة الصـــوفية فـــى مـــذاقاتهم الباطنـــة ، التـــى يعطونهـــا بعـــد التطبيـــق الروحـــى الجـــاد لمـــا علمـــوه مـــن الأحكـــام ، وهيهـــات أن يثمـــر التطبيـــق الأخـــف مثـــل هـــذه الثمـــرات ، وأيـــن تبلـــغ الـــرخص والتـــأويلات مـــن العـــزائم والمجاهـــدات ، ويقـــول صـــلوات الله وســـلامه عليه ((من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم)) .

ومشـــرب الحـــب الالهـــى انمـــا أخـــذه الســـادة الصـــوفية عـــن أســـلافنا الأولـــين ، الـــذين ورثـــوه عـــن ســـيد المرســـلين صـــلى الله عليـــه وســـلم وهـــو القائـــل ((أحبـــوا الله لمـــا يغـــذوكم بـــه مـــن نعمـــة ، وأحبـــونى لحـــب الله ، وأحبـــوا أهـــل بيتـــى لحبـــى)) .

ويقـــول : ((ثـــلاث مـــن كـــن فيـــه وجـــد بهـــن حـــلاوة الايمـــان ، أن يكـــون الله ورســـوله أحـــب اليـــه ممـــا ســـواهما ، وان يحـــب المـــرء لا يحبـــه الا لله ، وان يكـــره أن يرجـــع الـــى الكفـــر بعـــد أن أنقـــذه الله منـــه كمـــا يكـــره أن يقـــذف فـــى النـــار)) .

وقـــال أيضـــا صـــلى الله عليـــه وســـلم ((لا يـــؤمن أحـــدكم حتـــى يكـــون الله ورسوله أحب اليه من روحه التى بين جنبيه)) .

واليـــك مناجـــاة ســـليلة الشـــريف ســـيدى علـــى زيـــن العابـــدين بـــن الحســـين بـــن على رضى الله عنهم أجمعين :

((اللهـــم لـــك قلبـــى ولســـانى ، وبـــك نجـــاتى وأمـــانى ، وأنـــت العـــالم بســـرى واعلانـــى ، فأمـــت قلبـــى عـــن البغضـــاء ، وأصـــمت لســـانى عـــن الفحشـــاء ، وخلـــص ســـريريتى وعلانيتـــى مـــن علائـــق الأهـــواء ، واكفنـــى بأمانـــك عواقـــب الضـــراء ، واجعـــل ســـرى معقـــودا علـــى مراقبتـــك ، واعلانـــى موافقـــا لطاعتـــك ، وهـــب لـــى جســـما روحانيـــا ، وقلبـــا ســـماويا ، وهمـــة متصـــلة بـــك ، ويقينـــا صـــادقا فـــى حبـــك))

وقـــد تغنـــى صـــوفية العجـــم ، كمـــا تغنـــى صـــوفية العـــرب ، بالحـــب الالهـــى ، فـــى نظمهـــم ونثـــرهم ، واليـــك مناجـــاة مـــن المتصـــوف العبقـــرى جـــلال الـــدين الرومى ، تريك صورة من حبه فى ربه تعالى اذ يقول :

((يـــا مـــن هـــو عـــزاء الـــنفس فـــى ســـاعة الغـــم والحـــزن ، يـــا مـــن فيـــه غنـــاء الـــروح مـــرارة الفقـــر والعـــوز ، يـــا مـــن نحـــوه أولـــى وجهـــى فـــى حيـــاتى ووجودى ، يا من هو أنسى وفرحتى وسرورى .

((لـــو أنـــى وهبـــت ملكـــا لا يبلـــى ، أو أن كنـــزا خفيـــا فـــتح لـــى يحـــوى كـــل مـــا فـــى الوجـــود ، لســـجدت لـــك روحـــى ، ووضـــعت وجهـــى فـــى الثـــرى وصـــحت قـــائلا : لـــيس لـــى مـــراد غيـــر حبـــك ، كـــل شـــىء يـــزول ويفتـــى ويـــذهب الـــى العـــدم ، ويبقى نور الحب خالدا سرمديا)) .

فأنظر رعاك الله ، كيف يملك حب الله قلوب السادة الصوفية وكيف تفيض بحب الله مشاعرعم ، وما خفى فى قلوبهم من مواجيد الحب أعظم ولا شك مما نطقت به الألسنة ، اذ يصعب التعبير عن المذاقات اليقينية ، وصدق العارف النبهانى فى قوله :

لا تسل وصف حبهم فهو سر
بسوى الذوق ماله افشاء

وها هى كلماتهم تهز قلوبنا بعد قرون من قولها ، لأنها مغروفة من معين القلوب الحية بالحب الخالد الذى لا يفنى مهما تقادم الزمن ، وكيف يفنى حب وقفوه لله تعالى ، وهو الذى يبقى بعد فناء خلقه ، سبحانه من كبير متعال ، تنزل بحب فريق من عباده ، وشرفهم بحبه لهم ، وجعله سابقا على حبهم له ، فقال جل شأنه : (يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) ويحق لهم أن يقولوا ما قالت السيدة رابعة العدوية رضى الله عنها :

اذا صح منك فالكل هين
وكل الذى فوق التراب تراب

وما قال سلطان العاشقين سيدى عمر بن القارض رضى الله عنه :

وعن مذهبى فى الحب مالى مذهب
وان ملت يوما عنه فارقت ملتى
ولو خطرت لى فى سواك ارادة
على خاطرى سهوا قضيت بردتى

وهؤلاء المحبون المحبوبون ، كما انجذبوا بحبهم الصادق لرب العالمين ، يجذبهم غيرهم نحو هذا الحمى الأقدس ، فهم أشبه بالمغناطيس الذى يجذب اليه بخاصيته الحديد غير الممغنط ، وكل قرين بالمقارن يقتدى وما ابدع ما يقوله الامام النبهانى رضى الله عنه :

ان اكن مذنبا فهم أهل عفو وعلى الكون ان رضونى العفاء
أو يكن فى الفؤاد داء قديم فلديهم لكـل داء دواء
أو اكن نازح الديار فمنهم لحظات تدنو بها البعـداء
او اكن مثريا ولست بهذا فمع الهجر ما يفيد الثراء

ويقول بعض صوفية الفرس :

ومن عاشر النفس الزكية لم يزل
يزيد بها حسنا على القرب والبعد

فالسـعيد حقـا ، مـن رزقـه الله اماما متبوعا على الهـدى ، يأخـذ بيـده فـى طريـق الرشـاد ، ويدلـه علـى الله دلالـة الخـواص المـراعين أنفسـهم مـع الله ، وقـد كنـت أجتمـع بشـيخى رضـى الله عنـه فـآنس فـى جنـب الله أنسـا لا يكيـف ، وكنـت أنسـى همـوم الـدنيا وأوضـارها ، وانتقـل الـى فيحـات الآخـرة الرضـية فيلـين قلبـى مـن قسـوته ويصـحو شـعورى مـن غفوتـه ، فتسـعد روحـى بربهـا ، وتتشـوف الـى رضـاه ، وتـأنس بكلامـه ونجـواه ، فكـأنى قطعـت الـدنيا الـى الآخـرة فلحظـات يسـيرات ، لكنهـا مباركـات ، ومـا أبركهـا مـن أوقـات كانـت تجمـع شـملنا علـى الله ، وانـا اليـوم أعـيش فـى ذكرياتهـا ، فـان جـذبتنى الـدنيا الـى الغفـلات ، هربـت منهـا الـى الـذكريات ، وأعـاننى بـارىء الأرض والسـموات فردنـى الـى التعلـق بحظيـرة قدسـه ، فمحـت أنوارهـا العليـة ، ظلمـات الـنفس البشـرية ، فرقـت وارتقـت ، وباعـت الـدنيا بالـدين ، والغفلـة بـاليقين ، وصـدق سـبحانه وتعـالى اذ يقـول (ان الـذين اتقـوا اذا مسـهم طـائف مـن الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون) .

وسـبحان مـن جعـل الـذكر جـلاء للقلـوب ، تسـمع بـه بعـد الـوقرة ، وتبصـر بـه بعـد العشـوة ، كمـا يقـول امامنـا الأكبـر علـى بـن أبـى طالـب كـرم الله وجهـه : وسـبحان مـن رد كيـد الشـياطين عـن المـؤمنين ، وجعلـه ضـعيفا أمـام ارشـاد المرشـدين ، الـذين قيضـهم للأمـر بـالمعروف والنهـى عـن المنكـر ، فهـدى بهـم مـن الضـلال ، وعصـم بهـم مـن الفسـوق ، وجعلهـم أعـوان خيـر فـى مغالبـة اهـواء النفـوس ، وأقـامهم بـين النـاس مـثلا عليـا يحتـذونهم ، وينسـجون علـى منـوالهم .

وصـــدق امامنـــا الأكبـــر علـــى بـــن أبـــى طالـــب اذ يقـــول منوهـــا بفضـــلهم لا تخلـــو الأرض مـــن قـــائم لله بحجـــة ، أمـــا ظـــاهرا مشـــهورا أو خائفـــا مغمـــورا ، لـــئلا تبطـــل حجـــج الله وبيناتـــه ، وكـــم هـــم وايـــن أولئـــك ، والله انهـــم الأقلـــون عددا ، والأعظمون عند الله قدرا .

وهـــاك مـــا وصـــف بـــه أخونـــا الصـــوفى المرحـــوم الاســـتاذ المتـــولى قاســـم ، الـــذى كـــان مدرســـا بالمـــدارس الثانويـــة ، شـــيخه وشـــيخى العـــارف بـــالله ســـيدى عبد السلام الحلوانى قدس الله سره ، وجزاه الله عنا كل خير :

((كـــان عـــذب الـــروح ، جميـــل اللقـــاء ، أنـــيس المجلـــس ، حلـــو الحـــديث ، قليل الكلام ، كثير الصمت ، فاذا تكلم بذ القائلين .

((وكـــان يربـــى الأرواح بـــألطف مـــا يكـــون مـــن الرفـــق وحســـن التـــدرج ، فـــلا يلتوى به القصد ، ولا يصعب عليه المرام .

((وتجلـــس اليـــه فيقبـــل عليـــك بوجهـــه وبروحـــه فتنجـــذب اليـــه ، وتـــأنس بـــه ، وتســـتقى مـــن هديـــة ، وتقتـــبس مـــن نـــوره ، ويعـــز عليـــك فراقـــه فتـــود أن تبقـــى معـــه علـــى الـــدوام ، ولكـــن جليســـه يشـــعر لـــه . مـــع عذوبـــة روحـــه . بمهابـــة تغشـــى النفوس ، وجلال يأخذ بمجامع القلوب .

((فكـــان رفـــع الله درجتـــه ، يهـــدى الحـــائرين ، ويرشـــد الضـــالين ، بحديثـــه الـــذى اســـتوفى حظـــه مـــن اقنـــاع العقـــول ، واســـتمالة القلـــوب ، وبنظرتـــه المؤدبـــة ، ذات التـــأثير العجيـــب ، وبنـــور الاخـــلاص الـــذى يشـــع مـــن جبينـــه ، وتكـــاد تلمســـه فـــى نبـــرات صـــوته ، وبالقـــدوة الحســـنة فـــى افعالـــه ، ويحســـن الســـمت فـــى جميـــع أحواله .

((لا يغضـــب ، ولا يصـــخب ، ولا يضـــجر ، ولا يعتـــب ، بـــل هـــو بطـــل واســـع الصـــدر كثيـــر الاحتمـــال ، وأقـــوى مـــا كـــان ذلـــك فـــى مـــرض موتـــه ، فقـــد

كـــان يحـــث عـــواده ويؤنســـهم ، حتـــى لقـــد ينســـون أن مـــرض محـــدثهم تنـــوء بـــه الجبـــال الراســـيات ، ومـــن ذلـــك تـــدرك مبلـــغ مـــا انفـــق مـــن مالـــه ومـــن أعصـــابه ، ومـــن ذات نفســـه فـــى ذات الله ، مـــع حســـن الصـــبر ، وجميـــل الاحتســـاب ، الـــى أن قال رحمة الله عليه :

((وقـــد أصـــابتنى نازلـــة شـــديدة ، غشـــينى بســـببها يـــأس عنيـــف ، كـــاد يهلـــك نفســـى ، ويزعـــزع ايمـــانى ، فكـــان مـــن فضـــل الله علـــى هـــدانى علـــى يـــد هـــذا الســـيد الكامـــل ، فتنـــاول نفســـى برفـــق وصـــبر عجيـــب ، ومـــا زال بهـــا حتـــى اســـتقادت وزال نفارهـــا ، واســـتقامت علـــى الطريقـــة ، وأشـــرق عليهـــا نـــور الحقيقة .

وقـــد تربـــى شـــيخى العـــارف بـــالله الشـــيخ عبـــد الســـلام الحلـــوانى فـــى طريـــق الحـــق علـــى يـــد قطـــب عصـــره ومجـــدد قرنـــه ســـيدى القطـــب الكبيـــر الحـــاج محمـــد أبـــو خليـــل ، رضـــى الله عنـــه ، وقـــد ألـــف فيـــه كتابـــه القـــيم ((الســـيرة الخليليـــة)) :

وقد جاء فى وصفه لشيخه :

((فـــى أوائـــل القـــرن الرابـــع عشـــر ، ظهـــر قطـــب هـــذا العصـــر ، الغـــوث العامـــل ســـلطان الـــذاكرين وتـــاج العـــارفين ، وقـــدوة العـــاملين ، وحبـــل الواصـــلين ، والشـــمس التـــى أشـــرقت علـــى القلـــوب فانتعشـــت وبســـط عليهـــا شـــعاع الاخـــلاص فانبســـطت ، وأمطـــر عليهـــا غيـــث الرحمـــة فربـــت ، وبـــذر فيهـــا بـــذور المعرفـــة فأنبتـــت وســـقاها مـــن مـــاء ايمانـــه فنمـــت ، ولاحظهـــا بـــروح المناجـــاة فأينعـــت ، وتعهـــدها مـــن عبـــث الشـــياطين وتعـــدى المفســـدين ، فحفظـــت حتـــى أثمـــرت وعرفـــت مولاهـــا وخالقهـــا معرفـــة حقيقيـــة فابتهجـــت ، ودبـــت فيهـــا روح الحيـــاة الطيبـــة فألهمـــت ، وأعطاهـــا معطـــى الـــنعم علمـــا مـــن لدنـــه خالصـــا مـــن شـــوائب الأغيـــار فطهـــرت مـــن رجـــس الظهـــور ، ومـــن نفثـــات الشـــياطين فعملـــت بمـــا علمـــت ، وســـارت بســـير أهـــل الحقيقـــة علـــى نـــاموس الشـــريعة فســـلكت ، وظهـــر الحـــق وزهـــق الباطـــل ،

ان الباطل كان زهوقا ، وقامت على ذكر الله فخشعت ، وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع الا همسا ، فآمنوا به ايمانا سلك بهم الى معرفة نفوسهم ومن عرف نفسه فقد عرف ربه .

وقال المغفور له الشيخ عبد البارى الشرقاوى وكان من علماء الأزهر يصف شيخنا الأكبر سيدى أبا خليل :

كان ملكا فلم يزل يترقى

فى المعالى غدا ملكونا

من يشاهده شاهد الافق الأعلا

وألقى جلاله المنعوتا

ألا رضى الله عن شيوخنا العارفين الأماثل ، الذين أوردونا العذب الفرات من بحورهم ، بحور الحب والصفاء التى يقول فيها أستاذى العارف بالله الشيخ على عقل نور الله ضريحه :

وشراب الرجال علم وحلم

انما نحن فوق ذاك شربنا

اللهم اجعلنا على قدمهم ، واحشرنا فى زمرتهم ، وأظلنا معهم فى ظل عرشك يوم يتحقق قولك الكريم (يوم تدعو كل الناس بامامهم فمن أوتى كتابه بيمينه فاولئك يقرأون كتابهم ولا يظلمون فتيلا) .

- ٢٠ -

أمـــا رحلــــتكم المباركـــــة ، فقــد ســـرتنى جـــدا ، و أمـــا الاذن فلـــديكم مـــن زمـــن و اذا أردتـــه رســـميا فـــانتظروا حتـــى أحضـــر واطلـــب لكـــم اجـــازة رســـمية مـــن المشـــيخة ، و انـــى أســـأل الله لكـــم و لنـــا التوفيـــق و الرضـــا ، و ان يجعـــل و جهتنا اليه ، وان يفتح لنا طريق الخير .. انه سميع الدعاء .

كنـــت قـــد كتبـــت لشـــيخى الجليـــل ســـيدى عبـــد الســـلام الحلـــوانى عـــن رحلـــة قمـت بهـا الـى قريـة مجـاورة لأدعـو فيهـا الـى طاعـة الله ، و التحلـى بالفضـيلة ، علـى مشـــرب الســـادة الصـــوفية ، الـــذين يخلصـــون النيـــة لله ، فـــلا يخـــالطهم فيهـــا مـــا لـــيس لـــه ســـبحانه ، اذ لـــيس لهـــم مـــن دونـــه قبلـــة و لا مقصـــد ، و كنـــت يومئـــذ شـــابا ناشـــئا ، و كنـــت معجبـــا بـــذلك المشـــرب ، و متحمســـا لنشـــره ، فـــى زمـــن اختلطـــت فيـــه علـــى النـــاس الأمـــور ، و صـــار أمـــر الـــدنيا فـــى مـــوازين النـــاس راجحـــا علـــى أمـــر الآخـــرة ، حتـــى كـــأنهم خلقـــوا للـــدنيا ، ولـــم يخلقـــوا للآخـــرة ، وكثيـــر مـــن المشـــتغلين بتربيـــة النـــاس فـــى الـــدين ، تغلـــبهم نزعـــات شخصـــية تنـــأى بهـــم عـــن التصـــوف الحـــق ، و تنـــأى بأتبـــاعهم عنـــــه ، و يتخـــذون التصـــوف حرفـــة لا يتخذونه مسلكا و منهاجا .

و كـــان شـــيخى رضـــى الله عنـــه ، يحـــذرنا كثيـــرا مـــن فتنـــة الـــنفس ، ومـــن تلويـــث النيـــات بالـــدنايا الحقيـــرة ، التـــى يضـــل بهـــا ســـعى النـــاس ، وهـــم يحســـبون أنهـــم يحســـنون صـــنعا ، و قـــد قـــال لـــى مـــرة ، حاولـــت جهـــدى ان أســـتل حـــب الـــدنيا مـــن قلـــوب اخواننـــا فلـــم أســـتطيع ، كمـــا قـــال لـــى مـــرة أخـــرى ، انـــى أعتبـــر اخواننا هؤلاء من المؤلفة قلوبهم للتصوف ، و الا فالتصوف له رجال ، و قال

مـرة ثالثـة علـى مسـمع مـن اتباعـه و الله لـو أن معـى خمسـين الفـا و انفضـوا عنـى مـا عبـأت بهـم ، لأنـى مـع الله ، مـع ملـك الملـوك ، و هـذا شـأن كملـة الشـيوخ العارفين الذين يستغنون بالله فلا يفتقرون لغيره سبحانه .

و لـم يكـن الشـيخ قـد أذن لـى بتلقـين العهـد ، و ارشـاد غيـرى فـى سـلوك طريـق التصـوف ، وكنـت قبـل القيـام بالرحلـة ، قـد رأيـت فـى المنـام مـرتين ، انـى ألقـن العهـد ، كمـا لقننيـه شـيخى ، و لـم أعبـاء بالرؤيـا المناميـة ، لاننـا تعلمنـا مـن مشـايخنا أن الرؤيـا تسـر و لا تغـر ، فكـأنى لـم أر شـيئا ، لكنـى بعـد ان القيـت محاضـرة فـى مسـجد القريـة ، يـوم الجمعـة ، تقـدم لـى لفيـف مـن طلبـة العلـم بـالأزهر ، و طلبـوا أن ألقـنهم عهـدا بسـلوك طريـق التصـوف ، فتورطـت وتـرددت بـين أن أتلقـف الفرصـة ، واكسـب لطريـق التصـوف ، بعـض الناشـئين مـن طلبـة العلـم ، الـذين سـيكونون مـن رجـال الـدين الـداعين الـى الله و بـين أن أحجـم اذ لـيس لـدى اذن بتلقـين العهـد ، فجـاءتنى فكـرة ان اتوسـط فـى الأمـر و اتـوب معهـم الـى الله ، حتـى يشـرف الشـيخ بلـدتهم و يلقـنهم العهـد ، و نفـذت الفكـرة ، و كتبـت بمـا تـم مـن أمـر الرحلـة و التوبـة لسـيدى الشـيخ ، و اذا به يرد على ، و تأتى فى رده العبارة التى جاءت فى صدر هذا المقال .

وكانـت دهشـتى كبيـرة ، أن نـوه الشـيخ بـالاذن الـذى دلـت عليـه الرؤيـا المناميـة مـرتين و التـى لـم احفـل بهـا ، خشـية أن يـداخلنى مـن الرؤيـا ، مـا لـيس لله تعـالى ، حيـث علمنـا مولانـا رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم ان نسـتغفر الله مـن عمـل اردنـا بـه وجهـه ، فخالطنـا فيـه مـا لـيس لـه ، ثـم زاد الشـيخ الأمـر وضـوحا ، فقـال : وان اردتـه رسـميا فـانتظروا حتـى أحضـر واطلـب لكـم اجـازة مـن المشـيخة ، و لكنـى مـع طـول عشـرتى لسـيدى الشـيخ ، رأيـت لـه معـى و مـع تلاميـذه الآخـرين آيـات أخـرى تصـغر بجانبهـا تلـك الواقعـة ، و الله يخـتص برحمته من يشاء .

و لاذن الشـيخ بالارشـاد أهميتـه عنـد السـادة الصـوفية ، لأنـه وصـلة برجـال السلسـلة ، خلفـا عـن سـلف ، فتصـاحب الأذون لـه بـركتهم ، و الرابطـة الروحية ، اقوى أثرا من رابطة الأجساد ، وقد علم الله الخلف ، ان يذكروا

اسـلافهم ، ولا ينسـوهم ((والـذين جـاءوا مـن بعـدهم يقولـون ربنـا اغفـر لنـا ولاخواننـا الـذين سـبقونا بالايمـان ولا تجعـل فـى قلوبنـا غـلا للـذين آمنـوا ربنـا انـك رءوف رحـيم)) كمـا بـين لنـا أن السـلف يـذكرون الخلـف فـى مثـل قولـه تعـالى : ((رب اجعلنـى مقـيم الصـلاة ومـن ذريتـى ربنـا وتقبـل دعـاء)) وقولـه تعـالى : ((والـذين يقولـون ربنـا هـب لنـا مـن أزواجنـا وذريتنـا قـرة أعـين واجعلنـا للمتقـين امامـا)) ، هـذا فـى الأقـربين ، أمـا بـين المـؤمنين عامـة ، ففـرض الله صـلاة الجنـازة دعـاء بـالمغفرة والرحمـة للميـت مـن أمـوات المسـلمين ، فهـى رابطـة روحيـة ، والا فـالله قـادر علـى المغفـرة بغيـر دعـاء ، ولكـن شـاءت حكمتـه تعـالى ، ان يـرزق الـبعض بـالبعض ، فـى أمـر الـدنيا وأمـور الآخـرة ، فـان اعترضـنا علـى ذلـك اعترضـنا علـى تـدبيره العـالى ، ولـيس لنـا ان نفعـل ، وهـو الحكـيم العليم .

بـل انـه سـبحانه ، ربـط المـلأ الأعلـى ، بأهـل الأرض ، لأن الأرواح هبطـت فـى الاجسـاد مـن المـلأ الأعلـى فجعـل سـبحانه الملائكـة يسـتغفرون لمـن فـى الأرض فقـال تعـالى : ((الـذين يحملـون العـرش ومـن حولـه يسـبحون بحمـد ربهـم ويؤمنـون بـه ويسـتغفرون للـذين آمنـو ربنـا وسـعت كـل شـىء رحمـة وعلمـا فـاغفر للـذين تـابوا واتبعـوا سـبيلك وقهـم عـذاب الجحـيم . ربنـا وأدخلهـم جنـات عـدن التـى وعـدتهم ومـن صـلح مـن آبـائهم وأزواجهـم وذريـاتهم انـك أنـت العزيـز الحكـيم . وقهـم السـيئات ومـن تـق السـيئات يومئـذ فقـد رحمتـه وذلـك هـو الفـوز العظـيم)) ومـا كنـا نعلـم ذلـك لـولا ان كشـفه الله تعـالى وبينه لنا ، فسبحانه من عليم خبير ، ومن رءوف رحيم .

وأهـل الكمـال مـن السـادة الصـوفية ، يشـددون فـى تخلـيص النيـة لله تعـالى ، لا مـن الأغـراض الدنيويـة فحسـب ، بـل يخلصـونها كـذلك مـن الأغـراض الاخرويـة ، ولـو كانـت أغراضـا طيبـة عنـد أهـل الايمـان ولأنهـم أهـل احسـان فهـم يطلبـون الله وحـده لذاتـه ، لا طمعـا فـى جنتـه ولا خوفـا مـن نـاره ، ولقـد سـأل سـفيان الثـورى ، رضـى الله عنـه ، السـيدة رابعـة العدويـة ، رضـى الله عنهـا ، مـا حقيقـة ايمانـك ، فقالـت : مـا عبدتـه خوفـا مـن نـاره ، ولا حبـا

فـــى جنتـــه ، فـــأكون كـــالأجير الســـوء ، عبدتـــه شـــوقا اليـــه ، وقالـــت رضـــى الله عنهـــا ، أو لـــو لـــم تكـــن جنـــة ولا نـــار لـــم يعبـــد الله أحـــد ، ولـــم يخشـــه أحـــد ؟ ويقـــول الحـــارث المحاســـبى ، رضـــى الله عنـــه ، مـــن اجتهـــد فـــى باطنـــه ، ورثـــه الله حســـن معاملـــة ظـــاهره ، ومـــن حســـن معاملـــة ظـــاهره مـــع جهـــد باطنـــه ، ورثـــه الله تعـــالى الهدايـــة اليـــه ، لقولـــه عـــز وجـــل ((والـــذين جاهـــدوا فينـــا لتهـــدينهم ســـبلنا)) ومـــا دمنـــا قـــد ذكرنـــا الامـــام الحـــارث المحاســـبى ، رضـــى الله عنـــه ، فلنـــذكر الـــذى قالـــه فيـــه الامـــام احمـــد بـــن حنبـــل رضـــى الله عنـــه ، بعـــد ان اســـتمع اليـــه : هـــذا مـــن رجـــال الله ، وهـــذا علـــم مـــن عنـــد الله ، فـــلا تتعرضـــوا لـــه ، فـــان لعلـــم الله تجليـــات صـــاعقة ، ولقـــد مـــلأ هـــذا الرجـــل قلبـــى ايمانـــا ونـــورا ، وانـــه لأقـــد ر مـــنكم علـــى قلـــوب النـــاس ، فـــدعوه يـــؤدى رســـالته ، فمـــا أحســـب اليـــوم علـــى وجه الأرض أفضل منه ، ولا أجدر بهدى المسلمين والأخذ بأيديهم .

ومثـــل الامـــام أحمـــد بـــن حنبـــل ، رضـــى الله عنـــه ، لا يشـــهد الا الله ، فهـــى شـــهادة صـــادقة ، مـــن امـــام يضـــرب المثـــل بورعـــه وزهـــده ، فلنســـتمع الـــى ســـيدى الحـــارث المحاســـبى ، وهـــو يبـــين لنـــا ، كيـــف اختـــار لتربيـــة نفســـه طريق التصوف ، فهو يقول :

انتهـــى الينـــا ، ان هـــذه الأمـــة ، تفتـــرق علـــى بضـــع وســـبعين فرقـــة ، منهـــا فرقـــة ناجيـــة ، والله أعلـــم بســـائرها ، فلـــم أزل برهـــة مـــن عمـــرى ، انظـــر اخـــتلاف الأمـــة ، والـــتمس المنهـــاج الواضـــح ، والســـبيل القاصـــد ، واطلـــب مـــن العلـــم العمـــل ، واســـتدل علـــى طريـــق الآخـــرة ، وارشـــاد العلمـــاء ، وعقلـــت كثيـــرا مـــن كلام الله عز وجل بتأويل الفقهاء .

وتـــدبرت احـــوال الأمـــة ، ونظـــرت فـــى مـــذاهبها وأقاويلهـــا ، فعقلـــت مـــن ذلـــك مـــا قـــدر لـــى ، ورأيـــت اخـــتلافهم بحـــرا عميقـــا ، قـــد غـــرق فيـــه نـــاس كثيـــر ، وســـلم منـــه عصـــابة قليلـــة ، ورأيـــت كـــل صـــنف مـــنهم ، يـــزعم ان النجـــاة فـــى تبعهم ، وان الهالك من خالفهم .

ثم رأيت الناس أصنافا ، فمنهم العالم بأمر الآخرة ، لقاؤه عسير ، ووجوده عزيز ، ومنهم الجاهل ، فالبعد عنه غنيمة ، ومنهم المتشبه بالعلماء

مشـــغوف بـــدنياه ، مـــؤثر لهـــا ، ومـــنهم عـــالم منســـوب الـــى الـــدين ، ملـــتمس بعلمـــه التعظـــيم والعلـــو ، ينـــال مـــن عـــرض الـــدنيا ، ومـــنهم حامـــل علـــم ، لا يعلـــم تأويـــل مـــا حمـــل ، ومـــنهم متشـــبه بالنســـاك ، متجـــر بـــالخير ، لاغنـــاء عنده ، ولا بقاء لعلمه ، ولا معتمد على رأيه .

ومـــنهم منســـوب الـــى العقـــل والـــدهاء ، مفقـــود الـــورع والتقـــوى ومـــنهم متوادون على الهوى يتفقون وللدنيا يتبادلون ورياستها يطلبون .

ومـــنهم شـــياطين الانـــس عـــن الآخـــرة يصـــدون ، وعلـــى الـــدنيا يتكـــالبون والـــى جمعهـــا يهرعـــون ، وفـــى الاســـتكثار منهـــا يرغبـــون ، فهـــم فـــى الـــدنيا أحيـــاء وعن العرف موتى ، بل العرف عندهم منكر ، والسوء معروف .

فتفقـــدت فـــى الاصـــناف نفســـى ، وضـــقت بـــذلك ذرعـــا ، فقصـــدت الـــى هـــدى المهتـــدين ، بطلـــب الســـداد والهـــدى ، واسترشـــدت العلـــم ، وأعملـــت الفكـــر ، وأطلـــت النظـــر ، فتبـــين لـــى فـــى كتـــاب الله تعـــالى ، وســـنة نبيـــه ، واجمـــاع الأمـــة ، أن اتبـــاع الهـــوى ، يعمـــى عـــن الرشـــد ، ويضـــل عـــن الحـــق ، ويطيـــل المكـــث فـــى العمـــى ، فبـــدأت باســـقاط الهـــوى عـــن قلبـــى ، ووقفـــت عنـــد اخـــتلاف الأمـــة مرتـــادا لطلـــب الفرقـــة الناجيـــة ، حـــذرا مـــن الأهـــواء المرديـــة ، والفرقـــة الهالكـــة ، متحـــذرا مـــن الاقتحـــام قبـــل البيـــان ، والتمســـت ســـبيل النجـــاة لمهجـــة نفســـى ثـــم وجـــدت باحتمـــاع الأمـــة فـــى كتـــاب الله المنـــزل ، ان ســـبيل النجـــاة فـــى التمســـك بتقـــوى الله وأداء فرائضـــه ، والـــورع فـــى حلالـــه وحرامـــه ، وجميـــع حـــدوده ، والاخـــلاص لله تعـــالى بطاعتـــه ، والتأســـى برســـول الله صـــلى الله عليـــه وســـلم ، فطلبـــت معرفـــة الفـــرائض والســـنن عنـــد العلمـــاء بـــالله ، العـــاملين برضـــوانه ، الـــورعين عـــن محاربـــة المتأســـين برســـول الله صـــلى الله عليه وسلم ، المؤثرين الآخرة على الدنيا .

فالتمست من بين هذا الصنف المجتمع عليهم اقفوا آثارهم ، واقتبس من علمهم ، فرأيتهم أقل من القليل ، ورأيت علمهم مندرسا كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((بدأ الاسلام غريبا ، وسيعود

غريبا كما بدا ، فطوبى للغرباء)) وهم المنفردون بعلمهم ، فعظمت مصيبتى بفقد الأدلاء الأتقياء ، وخشيت بغتة الموت ، أن يفجأنى على اضطراب من عمرى ، لاختلاف الأمة .

فقيض لى الرءوف بعباده ، قوما وجدت فيهم دلائل التقوى ، وأعلام الورع ، وايثار الآخرة على الدنيا ، ووجدت ارشادهم ووصاياهم موافقة أئمة الهدى ، مجتمعين على نصح الأمة ، لا يرجون احدا فى معصية ، ولا يقنطون أحدا من رحمته ، يرضون ابدا بالصبر على البأساء والضراء ، والرضا بالقضاء ، والشكر على النعماء ، يحببون الله تعالى الى العباد ، بذكر اياديه واحسانه ، ويحثون العباد على الانابة الى الله تعالى ، علما بعظمة الله تعالى ، وعظيم قدرته ، وعلما بكتابه وسنته ، فقهاء فى دينه ، علماء بما يحب ويكره ، ورعين فى البدع والاهواء ، وتاركين التعمق والاغلاء . مبغضين للجدل والمراء ، متورعين عن الاغتياب والظلم والاذى ، مخالفين لأهوائهم ، محاسبين لأنفسهم ، مالكين لجوارحهم ، ورعين فى مطامعهم وملابسهم ، وجميع أحوالهم ، مجانبين للشبهات ، تاركين للشهوات ، مجتزئين بالبلغة من الأقوات . متقللين من المباح ، زاهدين فى الحلال ، مشفقين من الحساب ، وجلين من المعاد ، مشغولين ببعثهم ، مؤثرين على أنفسهم ، لكل امرىء منهم شأن يغنيه ، علماء بأمر الآخرة ، وأهاويل القيامة ، وجزيل الثواب ، وأليم العقاب ، ذلك أورثهم الحزن الدائم ، والهم المضنى ، فشغلوا عن سرور الدنيا ونعيمها .

ولقد وصفوا للآداب صفات ، وحددوا للورع حدودا ، ضاق لها صدرى ، وعلمت أن آداب الدين ، و صدق الورع بحر لا ينجو من الغرق فيه شبهى ، ولا يقوم بحدوده مثلى ، فتبين لى فضلهم ، واتضح لى نصحهم ، وأيقنت أنهم العاملون بطريق الآخرة ، والمتأسون بالمرسلين ، والمصابيح لمن استضاء بهم ، والهادون لمن استرشدهم ، فأصبحت راغبا فى مذهبهم ، مقتبسا من فوائدهم ، قابلا لآدابهم ، محبا لطاعتهم ، لا أعدل بهم شيئا ، ولا أثر عليهم أحدا ، ففتح الله لى علما ، انفتح لى

برهانــه ، وانــار لــى فضلــه ، ورجــوت النجــاة لمــن أقــر بــه أو انتحلــه ، وايقنــت بــالغوث لمــن عمــل بــه ، ورأيـــت الاعوجـــاج فـــيمن خالفـــه ، ورأيـــت الـــدين متراكمــا علــى قلــب مــن جهلــه وجحــده ، ورأيــت الحجــة البالغــة لمــن فهمــه ، ورأيـــت انتحالـــه والعمـــل بحـــدوده واجبـــا علـــى ، واعتقدتـــه فـــى ســـريرتى ، وانطويـــت عليـــه بضـــميرى ، وجعلتـــه أســـاس دينـــى ، وبنيـــت عليـــه أعمـــالى ، وتقلبــت فيــه بــأحوالى ، وســألت الله عــز وجــل ، أن يــوزعنى شــكر مــا أنعــم بــه علــى وان يقــوينى علــى القيــام بحــدود مــا عرفنــى بــه مــن معرفتــى بتقصــيرى فــى ذلك ، وانى لا أدرك شكره أبدا .

ويقـــول استـــاذى العـــارف بـــالله الشـــيخ علـــى عقـــل رضـــى الله عنـــه فـــى العلم الذى نوه به الامام المحاسبى رضى الله عنه :

وارتقاء الأرواح فى مورد العلم يصفى الأرواح من دنيـاه
وانعدام الأهواء والحس منها هو معنى السمو فى مسراها

وهـــا أنـــت ممـــا شـــرح لنـــا ســـيدى الحـــارث المحاســـبى ، قـــد رأيـــت كيـــف علــت همــة السـادة الصـوفية عــن سفاســف الــدنيا وعــن مفاتنهــا ، فاشــتغلوا بــالله وحــده ، كســبا لرضــاه فــى الأولــى والآخــرة ، وقــديما قــالوا : لا ينــال غايــة رضــاه من فى قلبه سواه .

واذا أردت أن تعـــرف ، كيـــف يرقـــون بمريـــديهم مـــن مقـــام أدنـــى ، الـــى مقـــام أعلـــى ، فاســـتمع الـــى مـــا حكـــاه ســـيدى الامـــام أبـــو الحســـن الشـــاذلى عمــا وقــع لــه فــى بــادىء أمــره مــع شــيخه الامــام سـيدى عبـد السـلام بـن بشـيش رضـــى الله عنهمـــا ، قـــال : وصـــف لـــى ولـــى وكـــان بـــرأس جبـــل ، فصـــعدت اليـــه لـــيلا ، فقلـــت فـــى نفســـى ، لا ادخـــل عليـــه فـــى هـــذا الوقـــت ، فســـمعته وهـــو يقـــول مـــن داخـــل المغـــارة : اللهـــم ان قومـــا ســـألوك أن تســـخر لهـــم خلقـــك ، فســـخرت لهـــم خلقــك فرضــوا بــذلك منــك ، اللهــم وانــى أســألك أعوجــاج الخلــق علــى حتــى لا يكـــون ملجئـــى الا اليـــك ، فالتفـــت الـــى نفســـى وقلـــت : يـــا نفســـى انظـــرى مـــن اى بحـــر يغتـــرف هـــذا الشـــيخ ، فلمـــا أصـــبحت ، دخلـــت عليـــه فارتعبـــت مـــن هيبته ، فقلت يا سيدى كيف حالك ، فقال : أشكو الى الله من برد الرضا

والتسليم ، كما تشكوا أنت من حر التدبير والاختيار ، فقلت : اما شكواى من حر التدبير والاختيار ، فقد ذقته وأنا الآن فيه ، وأما شكواك من برد الرضا والتسليم ، فما ذقتهما ، فقال : أخاف ان تشغلنى حلاوتهما عن الله .
فقلت يا سيدى سمعتك البارحة تقول : اللهم ان قوما سألوك الخ .
فتبسم ثم قال : يا بنى عوض ما تقول سخر لى خلقك ، قل يارب كن لى ، أترى اذا كان ذلك ، أيفوتك شيء ، فما هذه الجبانة .

ومن وصاياه البديعة لسيدى أبى الحسن قوله له : الله الله ، والناس نزه لسانك عن ذكرهم ، وقلبك عن التماثيل من قبلهم ، وقل اللهم ارحمنى من ذكرهم ، ونجنى من شرهم واغننى بخيرك عن خيرهم ، وتولنى بالخصوصية من بينهم ، انك على كل شيء قدير .

ومن ذلك ندرك ، ان التربية فى جنب الله ، على مشرب السادة الصوفية ، يجب أن تتم بجد لا هزل فيه ، لأن الخاصة لا يعرفون الهزل فى ظاهرهم أو باطنهم : بل هو جهاد دائم ، وهيام قائم ، ينتهى بايثار الله ، على ما سواه ، فيمتلىء القلب بالانوار الربانية ، ويقول السادة الصوفية : اذا امتلأ القلب من النور دك كل حجاب بين العبد وبين الله تعالى .

ويحدثنا سيدى ابو الحجاج الأقصرى ، رضى الله عنه ، عن جهاد نفسه فيقول : كنت فى بدايتى أذكر لا اله الا الله ، لا أغفل ، فقالت لى نفسى مرة ، من ربك ، فقلت ربى الله ، فقالت لى ، ليس لك رب الا أنا ، فان حقيقة الربوبية امتثالك العبودية ، فأنا أقول لك أطعمنى تطعمنى ، ثم أقول قم ، تقم ، وامشى ، تمشى ، وابطش ، تبطش ، فأنت تمتثل أوامرى كلها ، فاذن أنا ربك وانت عبدى .

قال فبقيت متفكرا فى ذلك ، فظهرت لى عين من الشريعة ، فقالت لى ، جادلها بكتاب الله تعالى ، فاذا قالت لك نم فقل لها : كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ، واذا قالت كل فقل لها : كلوا واشربوا ولا تسرفوا ، واذا قالت ، امش قل : ولا تمش فى الأرض مرحا ، واذا قالت لك ابطش ، قل :

واذا بطشتم بطشتم جبارين ، فقلت تلك الحقيقة ، فمالى ان فعلت ، فقالت أخلع عليك خلع المتقين ، وأتوجك بتاج العارفين ، وامنطقك بمنطقة الصديقين ، واقلدك بقلائد المحققين ، وأنادى عليك فى سوق المحببين ((التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين)) .

ولقد رأيت بحمد الله فى شيوخى ، صورة هؤلاء الكملة من أهل القرون السابقة ، فأهل الكمال ، وان كانوا قلة ، لكن الله يظهرهم فى كل جيل ، ويجعل منهم مثلا عليا ، يحتذيها السالكون الى الله ، الراغبون فى طريق الرشاد ، ولقد عاشرت شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى فرأيته ذا همة خارقة ، وما تخلف عن موالاة تلاميذه فى أية ليلة ، حتى كان يتحمل مشقة الأسفار البعيدة عن مقر عمله ، داعيا الى الله ويعود فى ساعة متأخرة من الليل ، ليدرك عمله فى أوقاته ، وكم أنفق من ذات نفسه وماله ، ولقد صحبته فى رحلة الى عمروس ، فى يوم صائف ، شديد الحر ، ولما آذانى الحر ، تألمت اذ لم يكن معنا شمسية تقى الشيخ حرارة الشمس ، فقلت ياليت لنا شمسية تقيك هذه الحرارة ، فاستدار ، وقابلنى وجها لوجه ، وكانت تلك عادته رضى الله عنه ، وقال لى ، من نقصد فى هذا السفر ، قلت : وجه الله تعالى ، قال : اذن هو الذى يحفظنا ويقينا الضرر ، فكانت كلماته درسا نافعا لى من يومئذ ، فاذا فاتتنا الأسباب : فالله خير وأبقى .

وكان رضى الله عنه ، فى رحلاته ، لا يستريح ، حتى يطمئن على راحة رفقائه ، وكان يتحمل النفقات عن فقرائهم ، وكان اذا سار معهم فى الطريق ، وتباعدوا يقف حتى يلتئم شملهم ، وكان يلاطف الجميع اذا جلسوا الى الطعام ، وينالهم ما يبعد عنهم بنفسه ، وكان يدخل السرور على مضيفه ، ويمتدح طعامه ، ويتفكه معه بفكاهات جميلة ، مع الوقار والكمال .

واذكـــر أنـــى دعوتـــه رضـــى الله عنـــه مـــرة الـــى طعـــام ، ومعـــه لفيـــف مـــن أحبابـــه وأخرجـــت لهـــم خبـــزا رقيقـــا مـــن صـــنع الريـــف ، فتعجـــب مـــن رقتـــه وســـعة قطـــره ، بعـــض الآكلـــين ، الـــذين لـــم يكـــن لهـــم عهـــد بـــذلك الخبـــز ، فنظـــر رضـــى الله عنـــه الى وقال مبتسما :

يسأل عن خبزنا كيف رق　　　كرقة دمع المشوق الدمع

فقلت حلال وقد قيل قدما　　　يرق الحلال ولا ينقطع

فســـــرتنى هـــــذه البشـــــرى ، ورجـــــوت شـــــيخى ، رضـــــى الله عنـــــه ، ان يعيـــدها ، فأعادهمـــا ، وحفظتهمـــا مـــن يومئـــذ ، وعلمـــت منـــه ، ان الشـــعر لوالـــده العـــرف بـــالله ســـيدى الشـــيخ احمـــد الحلـــوانى الخليجـــى ، رضـــى الله عنه .

ويـــذكرنى ذلـــك بواقعـــة اخـــرى ، فقـــد اشـــتركت مـــع الصـــديق الـــوفى ، الطـــاهر المطهـــر ، الســـيد حســـين محمـــود فـــى البحـــث عـــن دواء كتبـــه الطبيـــب للشـــيخ ، وكـــان نـــادر الوجـــود فـــى زمـــن الحـــرب ، فلمـــا عثرنـــا عليـــه ، وتناولـــه ، جعـــل الله لـــه فيـــه الشـــفاء ، فلمـــا ذهبـــت لزيارتـــه ، ســـرنى ان اراه قـــد اســـترد عافيته بعد مرض شديد ، فنظر الى رضى الله عنه وقال

يا جزى الله صاحبى جميلا　　　صححا لى نصحا به صح حالى

قربا لى وصفا به قربا لى　　　وصفا لى ذاك الذى وصفا لى

وعلمت منه ان الشعر لوالده رضى الله عنه وقد تمثل به .

فهـــل لنـــا مـــن همـــة فـــى طلـــب الله ، وجهـــاد فـــى ســـبيله ، يزدهـــر بـــه اليقـــين فـــى القلـــوب ، ويتعـــاطف المســـلمون بعضـــهم علـــى بعـــض ، ويـــأتلفون ولا يختلفـــون ، ويتعـــاونون ولا يتفرقـــون ، ولـــيس العيـــب ان يكونـــوا فـــى العـــالم قلـــة ، ولكـــن العيـــب أن يكونـــوا اذلـــة ، بعـــد ان كانـــت لهـــم العـــزة ، وان يكونـــوا مســـودين ، وقـــد كانـــت لهـــم الســـيادة فـــى العـــالمين ، ويـــرحم الله فيلســـوف المســـلمين الســـيد محمـــد اقبـــال الباكســـتانى ، حـــين يشـــيد بصـــلاح اســـلافنا الماضـــين

الــذين نشــروا الهــدى بــين النـــاس فـــى قصــيدته المســـماه ((شـــكوى)) ، والتـــى ترجمهـــا عنـــه الـــى العربيـــة العلامـــة الشـــيخ الصـــاوى شـــعلان ، فيقـــول فيما قال كثيرا ، وخاطب ربه جل وعلا :

الدين يحيا فى سعادة أهلـه والكأس لا تبقى بغير السـاقى
اين الذين بنار حبك أرسلوا الـ أنوار بين محافل العشاق
سكبوا الليالى فى آنين دموعهم وتوضأوا بمـدامع الأشـواق
والشمس كانت من ضياء وجوههم تهدى الصباح طلائع الاشراق
يا فرحة الايام حين نرى بها روض التجلى وارف الأغصان
ويعود محفلنا بحسنك مسفرا كالصبح فى اشراقه الفينان

ولا شـــك ان اصـــلاح البـــواطن لـــه أثـــره الفعـــال فـــى صـــلاح الظـــواهر ، ولهـــذا ربـــط الله بينهمـــا فـــى قولـــه الكـــريم : ((ولينصـــرن الله مـــن ينصـــره ان الله لقـــوى عزيـــز . الـــذين ان مكنـــاهم فـــى الأرض أقـــاموا الصـــلاة وآتـــو الزكـــاة وامـــروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور)) .

((وانننى كنت أتمنى أن احظى بمجلسكم كثيرا كثيرا ، لأمتع الروح بتلك الوجوه الساطعة من اشراق قلوبها بنور المحبة واليقين ، ولكن هى الظروف ، وهى التى تجرى بالقدر . . الله بديع السموات والأرض هو المقدر ، وقد رضينا بما يجرى به القضاء . أسأل الله أن يرينا وجهكم فى أسر الاوقات وأسعد الحالات)) .

يوجهنا شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى . قدس الله سره . فى عبارته المتقدمة ، التى جاءتنى فى احدى رسائله الى أخلاق صوفية كريمة ، تحلوا بها حين عملوا بما علموه من كتاب الله وسنة رسول الله . صلى الله عليه وسلم . واخذوا فى عملهم بالعزائم والمجاهدات دون الرخص والتأويلات ، فأشرقت عليهم أنوار المحبة واليقين فازدادوا ايمانا مع ايمانهم ، ورضوا بقدر الله واطمأنوا الى قضائه ، حيث كان له الخلق والأمر ، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فوجب التسليم له مع الأنس واسرور ، والصبر الجميل دون جزع أو حرج فى الصدور . ومن عرف ربه معرفة الخواص رضى بقضائه وصبر على بلائه وشكره فى رخائه .

وقد كان ذلك نهج اسلافنا الصالحين ، من السابقين الأولين ورثوه عن مولانا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو القائل :

((ادبنى ربى فأحسن تأديبى)) واليك بعض ما قال امامنا الأكبر على ابن أبى طالب فى الثناء على الله وعلى قضائه وقدره جل جلاله :

((الحمـد لله الـذى لـم تسـبق لـه حـال حـالا ، فيكـون أولا قبـل أن يكـون آخـرا ، ويكـون ظـاهرا قبـل ان يكـون باطنـا ، كـل مسـمى بالوحـدة غيـره قليـل ، وكـل عزيـز غيـره ذليـل ، وكـل قـوى غيـره ضـعيف ، وكـل مالـك غيـره مملـوك . وكـل عـالم غيـره مـتعلم . وكـل قـادر غيـره يقـدر ويعجـز ، وكـل سـميع غيـره يصـم عـن لطيـف الأصـوات ، ويصـمه كبيرهـا ويـذهب عنـه مـا بعـد منهـا . وكـل بصـير غيـره يعمـى عـن خفـى الألـوان ولطيـف الأجسـام . وكـل ظـاهر غيـره غيـر باطن ، وكل باطن غيره غير ظاهر .

لـم يخلـق مـا خلقـه لتشـديد سـلطان ، ولا تخـوف مـن عواقـب زمـان ، ولا اسـتعانة علـى نـد مثـاور . ولا شـريك مكـاثر ، ولا ضـد منـافر . ولكـن خلائـق مربوبـون ، وعبـاد داخـرون ، لـم يحلـل فـى الأشـياء فيقـال هـو فيهـا كـائن ، ولـم ينأ عنها فيقال هو عنها بائن .

لـم يـؤده خلـق مـا ابتـدأ ولا تـدبير مـا ذرأ ، ولا وقـف بـه عجـز عمـا خلـق ، ولا ولجـت عليـه شـبهة فيمـا قضـى وقـدر ، بـل قضـاء مـتقن ، وعلـم محكـم وأمـر مبرم ، المأمول مع النقم ، والموهوب مع النعم .

أمـا قولـه .كـرم الله وجهـه . : المـأمول مـع الـنقم ، فيؤيـده قولـه تعـالى : ((فـان مـع العسـر يسـرا . ان مـع العسـر يسـرا)) ، ويقـول مولانـا رسـول الله ـ صـلى الله عليـه وسـلم . : ((لـن يغلـب عسـر يسـرين)) . . وأمـا قولـه : المرهـوب مـع الـنعم فيشـهد لـه قولـه سـبحانه وتعـالى : ((سنسـتدرجهم مـن حيـث لا يعلمـون)) . . وقولـه تعـالى : ((أفـأمن أهـل القـرى أن يـأتيهم بأسـنا بياتـا وهـم نـائمون . أو أمـن أهـل القـرى ان يـأتيهم بأسـنا ضـحى وهـم يلعبـون)) وقـد قـال مولانـا رسـول الله .صـلى الله عليـه وسـلم . لأصـحابه ((والله مـا الفقـر أخشـى علـيكم ولكـن أخشـى أن تفـتح علـيكم الـدنيا فتنافسـوها كمـا تنافسها من قبلكم فتهلككم كما أهلكتهم)) .

ومـا دمنـا قـد أيقنـا انـه .سـبحانه وتعـالى . النـافع الضـار ، فوجـب أن نـركن اليـه سـبحانه بكلياتنـا وجزئياتنـا . فـى سـرنا وجهرنـا وان جاءتنـا أسـباب بنفعـه وضـره . وجـب علينـا ان نشـهده سـبحانه قبـل أن نشـهد الأسـباب وقد علمنا سبحانه وتعالى ذلك فى كتابه الكريم فقال تعالى مثلا :

((أفرأيتم ما تحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون . لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون . انا لمغرمون . بل نحن محرومون أفرأيتم الماء الذى تشربون .. أأنتم انزلتموه من المزن ام نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه اجاجا فلولا تشكرون . افرأيتم النار التى تورون . أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون . نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين . فسبح باسم ربك العظيم)) وقوله ((وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو ، وان يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير)) وقوله ((قل لم يصيبنا الا ما كتب الله لنا)) .

وإذا كان الله قد تعبد عباده بالتوحيد والطاعات ، فان نفع ذلك راجع اليهم ، ولن يبلغ العباد نفعه فينفعوه ، ولن يبلغوا ضره فيضروه ، سبحانه من غنى بنفسه . . يغنى غيره بعطائه ، ولا ينقص العطاء ما عنده . . يستغنى عن خلقه ابدا الآبدين ، ولا يستغنون عنه طرفة عين ولا أقل منها .

كلهم سائل وأنت مجيب تلك نعماك ما لها من نفاد

وقد علم مولانا رسول الله . صلى الله عليه وسلم . ابن عمه عبد الله بن عباس . رضى الله عنهما . فيما علمه :

((احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، اذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك الا بشىء كتبه الله لك ، وان اجتمعت على أن يضروك بشىء لم يضروك الا بشىء كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف)) .

لذلك لا تعجب أن يقول لنا السادة الصوفية فى حكمهم ، الرضا بالمقدور نعم الوسيلة الى درجات المعرفة ، فدرجات المعرفة عندهم تتناسب مع الرضا عن قضاء الله وقدره ويتناسب تصرف العبد مع ما ناله من المعرفة . . وقد روى الامام القشيرى . رضى الله عنه . ان شقيقا البلخى رضى الله عنه . سأل الامام جعفر الصادق . رضى الله عنه . عن الفتوة . فقال : ما تقول أنت ؟ فقال شقيق : ان أعطينا شكرنا وان منعنا

صبرنا ، فقال الامام جعفر : الكلاب عندنا بالمدينة كذلك تفعل . . فقال شقيق يا ابن بنت رسول الله ، ما الفتوة عندكم ؟ فقال الامام جعفر : ان اعطينا آثرنا وان منعنا شكرنا .

وقد يقول قائل ، لماذا يشكر الامام جعفر عند المنع ، والشكر انما يكون على العطاء لا على المنع . . والجواب هو ان السادة الصوفية يرون العطاء فى المنع ، فقد يمنعك من شىء ليعطيك خيرا منه ، ولكنهم يقولون لا يفهم العطاء فى المنع الا صديق .

واذا تمكن اليقين بالله فى القلب ، وتم التسليم لله فيما يجرى به قضاؤه ، قوى خلق المؤمن فصار صابرا فى مواطن الشدة ، وشجاعا فى مواطن الحرب ، واحب لغيره ما يحب لنفسه وكره له ما يكره لها . . وألف الناس وألفوه . . ولا يكون له أعداء ، وانما قد يكون له حساد ممن استحوذ عليهم الشيطان ، فكرهوا ما أحب الله ان يكون لأن الشيطان سن الحسد للحاسدين حين أبى أن يسجد لآدم . عليه السلام . مع الساجدين فقال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ، فباء باللعنة الى يوم الدين .

وينصحنا السادة الصوفية فيقولون : رد نفسك الى الله طاهرة كما تلقيتها منه طاهرة . ولهذا لا تعجب ان يرضوا ربهم فى أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم ، ولا تأخذهم فى الله لومة لائم أو صولة حاكم ظالم . . واليك على سيل المثال ما وقع بين الحجاج بن يوسف . سافك الدماء . وبين طاووس اليمانى الصوفى . رضى الله عنه . فقد استدعاه الحجاج فى يوم اشتد برده ، فقال الحجاج متزلفا للصوفية ، يا غلام : هلم الطيلسان ، فلما وضع الحاجب الطيلسان على كتفى طاووس ، حرك كتفيه حتى سقط فغضب الحجاج وسل الحرس سيوفهم ، ثم كظم غيظه وأطرق . . ثم رفع رأسه وقال لطاووس : ناولنى المحبرة . وكانت بجواره . اشارة الى انه سيكتب له بعطاء ، فأبى طاووس أن يمد اليها يده فسأله عن سبب امتناعه فقال : حتى لا تكتب بمدادها ما يغضب الله .

فأطرق الحجاج ثانية ، ودمدم الحرس . . ثم رفع رأسه وقال : يا أبا الفضل ، عليك دين قال نعم . . قال ما مقداره ، قال دين ربى هو أن أنذرك يوما لا تغنى عنك من الله تلك السيوف التى تحيط بك . . فأطرق الحجاج طويلا ، ثم رفع رأسه فقال : اذهب عنى ، فلا يزال فى لسانك جفوة البداوة . . فخرج طاووس وهو يقول : الحمد لله الذى أذهب عنا السوء ، ونجانا من القوم الظالمين .

فلما وصل الى صحبه ، قيل له : ألم ترهب الأمير ؟ قال : رهبتى من الله لم تدع فى قلبى مكانا لرهبة غيره .

وقعد اليه ذات يوم أحد أبناء سليمان بن عبد الملك . وهو خليفة . فلم يحفل به ولم يلتفت اليه ، فقيل له : ابن أمير المؤمنين ؟ قال أعرفه وقد أردت أن أعلمه أن لله عبادا يزهدون فيه وفى أبيه .

وقد دافع الصوفى العابد الزاهد ، أبو نصر الطائى ، عن حق الأمة . . حين اشتد بطش سليمان بن عبد الملك وحاشيته بالشعب . . وحكموهم بالظلم ، فذهب اليه وصرخ فى وجهه :

سأطلق لسانى بما خرست عنه الألسن ، تأدية لحق الله تعالى . . انه قد اكتنفك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم ، وابتاعوا دنياك بدينهم ورضوا بسخط ربهم ، وخافوك فى الله ، ولم يخافوا الله فيك ، فهم حرب للآخرة وسلم للدنيا . . فلا تأمنهم على ما أئتمنك الله عليه ، فانهم لم يألوا الامانة تضييعا . . والامة كسفا وخسفا . . وأنت مسئول عما اجترموا ، وليسوا مسؤولين عما اجترمت فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك ، فان أعظم الناس عند الله غبنا من باع أخرته بدنيا غيره .

ولعل الامثلة المتقدمة ، تصحح عند بعض الناس الفكرة الخاطئة بأن الصوفية قوم اعتزلوا المجتمع الذى يعيشون فيه . . ولم يتحملوا مسؤولياتهم الاجتماعية ، ولعل تلك الفكرة علقت بالأذهان منذ صار التصوف فى العصر التركى شكلا لا روح فيه ، وأصبح حرفة للسيطرة على الأتباع وكسب المال . . وذلك خروج كلى عن التصوف الحق ، والتأكد من ذلك الخروج ، نضع نظر السادة القراء تعريف التصوف كما قاله

سيد الطائفة الصوفية فى القرن الثالث الهجرى ، وهو الامام أبو القاسم الجنيد . رضى الله عنه . فقد عرف التصوف فقال :

((هو تصفية القلب عن موافقة البرية . . ومفارقة الاخلاق الطبيعية . . واخماد الصفات البشرية . . ومجانبة الدواعى النفسانية . . ومنازلة الصفات الروحانية . . والتعلق بالعلوم الحقيقية . . واستعمال ما هو اولى على الأبدية . . والنصح لجميع الامة ، والوفاء لله على الحقيقة . . واتباع الرسول . صلى الله عليه وسلم . فى الشريعة)) .

فكيف يكون القانع بالشكل صوفيا . . والتصوف فلسفة عالية ، تقوم على الجد الذى لا هزل فيه لنيل رضاء الله . . وفى رضائه . سبحانه . السعادة الابدية ، دون بلوغ تلك الغاية عقبات ومجاهدات لا يقطعها ولا يصبر على مشقاتها الا قلة من المؤمنين ، سبقت لهم من الله الحسنى ، وألزمهم كلمة التقوى ، وعزف بنفوسهم عن الدنيا . . صدقت مجاهداتهم فنالوا علوم الدراسة ، وخلصت عليها معاملاتهم فمنحوا علوم الوراثة .

وقد قيل للامام ابن السماك . رضى الله عنه . ما الكمال ؟ فقال : الكمال الا يعيب الرجل احدا بعيب فيه مثله ، حتى يصلح ذلك العيب من نفسه ، فانه لا يفرغ من اصلاح عيب حتى يهجم على آخر فتشغله عيوبه عن عيوب الناس . . والا يطلق لسانه ويده حتى يعلم آفى طاعة أو معصية . . والا يلتمس من الناس الا ما يعلم أنه يعطيهم من نفسه مثله ، وأن يسلم من الناس باستشعار مداراتهم وتوفية حقوقهم ، وأن ينفق الفضل من ماله ويمسك الفضل من قوله)) .

ومن دعاء سيدى ذى النون المصرى . رضى الله عنه . : اللهم اجعل العيون منا فوارات بالعبرات ، والصدور منا محشوة بالعبر والحرقات . . واجعل قلوبنا غواصة فى موج قرع أبواب السموات ، تائهة من خوفك فى البوادى والفلوات . . وافتح لابصارنا بابا الى معرفتك ، ولمعرفتنا افهاما الى النظر فى نور حكمتك ، يا حبيب قلوب الوالهين . . ومنتهى رغبة الراغبين . . اللهم تقبل ما مننت به علينا من الاسلام والايمان . .

ولا تمنعنا عفوك عند السؤال ، فانا اليك آيبون ، ومن الاصرار على معصيتك تائبون)) .

ومن قواعد الفتوة عند السادة الصوفية ان يكون المؤمن ساعيا دائما فى أمر غيره . . تحقيقا لقوله . صلى الله عليه وسلم . : ((لا يزال الله فى حاجة العبد ، مادام العبد فى حاجة أخيه)) .

ويقول الامام أبو الدقاق . رضى الله عنه . ان هذا الخلق لا يكون كماله الا لرسول الله . صلى الله عليه وسلم . فان كل أحد يوم القيامة يقول نفسى نفسى وهو . صلى الله عليه وسلم . يقول : أمتى أمتى .

وكيف يعتزل السادة الصوفية المجتمع . . وهم الدعاة فيه الى الفضيلة الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، والحافظون لحدود الله ، وهى دعوة تعين الوالى ، فيما يعمل له من اصلاح المجتمع واسعاده فيتعاون الناس ويتراحمون ، ويتفشى فيهم حب الخير واجتناب الشر ، وينعمون بالامن افرادا وجماعات . . حكاما ومحكومين .

وانما الأمم الأخلاق ما بقيت فان همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ودعوة السادة الصوفية نجحت فى كل الأزمان فى تقويم الأخلاق لانها دعوة علمية ، أو نظرية وتطبيقية . . والتصوف كله قائم على التجربة والعيان ، قبل أن يقوم على الدليل والبرهان . . فقد يكون الانسان عالما بالطب ، وسقيما فى بدنه ، لأنه لم يحاول أن ينتفع عمليا بعلمه . . وكذلك قد يقرأ الانسان كل كتب التصوف ولا يستتبع هذا أن يكون متصوفا ، لأن التصوف هو الدخول فى كل خلق سنى والخروج من كل خلق دنى ، وذلك لا يتم بالقراءة وحدها ، وانما يتم بالممارسة والمخالطة والارشاد من شيخ عارف بالله ، لأن للنفس آفات أخفى من دبيب النمل لا يحس بها الا العارفون بالله عن تجربة سبقت لهم ، وعناية الهية هيأتهم .

وليس معنى التسليم لما يجرى به القضاء الا نتخذ الاسباب ارتكانا على القضاء . . فالأسباب قامت بأمره وتدبيره . سبحانه . فاتخاذها واجب مع الاستعانة فيها به . سبحانه . وليس معنى التسليم الا تتأثر بما جرى به القضاء بحكم البشرية . . فان أصابنا خير فرحنا . . ولكن دون أشر أو بطر أو خيلاء أو جحود نعمة . . وان أصابنا شر تألمنا . . ولكن فى صبر جميل ، وهو الذى لا شكوى فيه للناس . . أو فى قرارة النفس مكتومة . . كل ذلك فى رضا بما قضى الله وقدر وتسليم مطلق لما شاء ودبر .

واذا كانت من المؤمن شكوى فلتكن لله وحده ، كما قال سيدنا يعقوب عليه السلام : ((انما أشكوبثى وحزنى الى الله)) او كما قال مولانا رسول الله . صلى الله عليه وسلم . حين مات ابنه ابراهيم . عليه السلام . ((يحزن القلب وتدمع العين ولا نقول ما يسخط الرب)) . . ولقد دخل محمد بن واسع ((من تلاميذ الامام الحسن البصرى)) وهو من أئمة الصوفية على قتيبة بن مسلم ، وعليه مدرعه من صوف فقال ما هذا ؟ فسكت . . فأعاد عليه السؤال فقال أكره أقول زهدا فأذكى نفسى . . أو فقرا فأشكو ربى .

وقد سئل استاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل . رضى الله عنه . أن يرتجل الهاما لوقته على قول القائل :

الله قل وذر الوجود وما حوى … ان كنت مرتادا بلوغ كمال

فكان مما قال ونقلناه عنه :

الله قل وذر الوجود وما حوى … متأدبا فى ساحة الاجلال
سلم لتسلم من حياتك انه … من أسلم التقوى سما بظلال
واجعل لنفسك من قضا الله الرضا … حتى تكون موفق الأعمال
ان كنت تحسب ان فى المال الغنى … أنا قد جعلت رضا المهيم مالى
يارب قلبى قد غسلت من الورى … اذ ليس غيرك ما ذكرت ببالى
ان مر بى عصف الزمان وقصفه … والله لست بما شهدت أبالى

أأحبه وأخاف سطوة غيـره   هذا وحقك لا تعيه خـصالى
روض المحبه قد شهدت جلاله وجماله فشبت فى أحوالى
والقول لا يغنى بلا قلب فان   تنطق فكن بالناطق المفضال
سلم لربك أمره واترك لـه   أقداره واحذر من الاقـوال
وذر العباد وشأنهم وفعالهـم   ان كنت مرتاد بلوغ كـمال

ونقلنا عنه كذلك من الهامه الفورى قوله فى مناجاة ربه تعالى :

لقاؤك ايمانى وذكرك حجتى   وحبك روحى واليقين وتينى
وأرضى بما يرضيك ربى فنجنى   حياتى وقومنى فأنت معينى
وقد طاب لى بالذكر ما أنا قاصد   وفى عزة التقوى جمعت شئونى
بحزم علمت الحب بالعلم خضته   ففى شدتى ألقى نداك ولينى

أرأيـت مـن البيـت الأخيـر ، كيـف يـرى اسـتاذى – رضـى الله عنـه – النـدى فـي الشـدة كمـا يراهـا فـى للـين ، ولا يكـون ذلـك الا عـن يقـين عميـق ومـذاق دقيـق ٠٠ شـأن العـارفين بـالله ، وقـد حـدث اسـحق بـن ابـراهيم قـال : سـمعت ذا النـون وفـى يـده الغـل ، وفـى رجلـه القيـد ٠٠ وهـو يسـاق الـى السـجن يـوم أن وشـى بـه الـى الخليفـة والنـاس يبكـون حولـه وهـو يقـول باسـما : هـذا مـن مواهـب الله تعـالى ٠٠ ومـن عطايـاه ٠٠ وكـل فعالـه عـذب حسن طيب ثم أنشد :

لك من قلبى المكان المصون   كل لوم على فيك يهون
دلك عزم بأن أكون قتيلا   فيك والصبر عنك ما لا يكون

ولا يكـون مثـل هـذا التسـليم الفـذ الا مـن يقظـة الشـعور فـى قلـوب العـارفين ٠٠ وهـذه اليقظـة لا تتـأتى الا بعـد امـتلاء القلـوب بمحبـة الله ، وانصـرافها عمـا سـواه ٠٠ وهـو هـدف السـادة الصـوفية ، الـذين يـدعون اليـه ٠٠ ولا يحبـون الا بـه ولـه ٠٠ ولـذلك يقـول القطـب الكبيـر سـيدى ابراهيم الدسوقى – رضى الله عنه – فى احدى مناجاته :

لما علمت بأن قلبى فـارغ   ممن سواك ملأته بهواكـا
وملأت كلى منك حتى لـم أدع   منى مكانا خاليا لسواكـا

فالقلب فيك هيامه وغرامه والنطق لا ينفك عن ذاكراكا
والطرف حيث أجيله متلفتا فى كل شئ يجتلى معناكا
والسمع لا يصغى الى متكلم الا اذا ما حدثوا بحلاكا

وقد وضح لنا الآن الفارق الكبير بيننا وبين السادة الصوفية الذين أراحوا أنفسهم من هموم الدنيا التى ننوء والتى تسبب لنا أمراض الجسد والروح والايمان بالله تعالى أكبر النعم ٠٠ وقد حدثنى أحد اصدقائى من الاطباء أن ابحاث هيئة الامم دلت على أن البلاد التى كانت مهبط الرسالات السماوية أقل البلاد اصابة بالأمراض العقلية والعصبية والعلاقة القائمة بين راحة النفس والغدد الصماء حتى أنهم الآن يعتمدون فى علاج المرضى على الطب النفسانى وينصحون المرضى بارتياد المساجد وأماكن العبادة ٠

ولئن كان الفارق كبيرا بيننا وبين أسلافنا الصالحين فى جهاد النفس حيث شغلتنا المادة كثيرا عن الروح ٠٠ ففى وسعنا أن نتشبه بهم ما استطعنا ، ليضيق الفارق قدر الطاقة بيننا وبينهم ، ومن جد وجد ٠٠ وذلك أعود على صحتنا وديننا ووطننا بالخير ٠٠ وهنيئا لأهل السبق ممن يصلحون فيما بقى من أعمارهم ما فاتهم فيما مضى مسترشدين بقوله تعالى :

((وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض اعدت للمتقين * الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين * والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب الا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون * أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين)) ٠

((وتوكـــل علـــى العزيـــز الـــرحيم الـــذى يـــراك حـــين تقـــوم)) وتقلـــب فـــى الذاكرين وكن معهم ذاكرا شاكرا ..

هـــذه نصـــيحة غاليـــة ، جـــاءتنى فـــى احـــدى رســـائل شـــيخى العـــارف بـــالله سـيدى الشـيخ عبـد السـلام الحلـونى . طيـب الله ثـراه . وقـد وجهنـى فيهـا الى :التوكل والذكر والشكر.

أمـــا التوكـــل ، فهـــو مقـــام عظـــيم ، مـــن مقامـــات أهـــل اليقـــين ، وقـــد قـــال تعـــالى ((وعلـــى الله فتوكلـــوا ان كنـــتم مـــؤمنين)) . فقـــرن ســـبحانه التوكـــل بالايمان .

ولـــيس معنـــى التوكـــل أن يتـــرك المـــؤمن اتخـــاذ الاســـباب ، بـــل معنـــاه أن يـــرى المســـبب قبـــل الاســـباب فيـــركن اليـــه قبـــل أن يـــركن الـــى الاســـباب ، وان كانت له مواهب ، نظر الى الواهب قبل أن ينظر الى المواهب ، الى حول الله وقوته الست تره تعالى يقول لآحب أحبابه . صلى الله عليه وسلم . ((وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى)) فلئن حارب مولانا رسول الله . صلى الله عليه وسلم . بأدوات الحرب ، لكن النصر حـــاءه مـــن عنـــد الله تعـــالى ، الـــذى ان شـــاء اعمـــل الوســـائل وان شـــاء أبطـــل مفععولهـــا ، ومـــن هنـــا نقـــرأ فـــى فاتحـــة الكتـــاب ((ايـــاك نعبـــد وايـــاك نســـتعين)) . فالمتوكـــل يتخـــذ ربـــه تعـــالى وكـــيلا يســـتعين بـــه ، ويعتمـــد عليـــه ، ويســـتند فـــى ظـــاهره وباطنـــه .. وكفـــى بـــالله وليـــا ، وكفـــى بـــالله نصـــير .. وقـــد علمنـــا الله ســـبحانه فـــى كتابـــه الكـــريم حســـن الظـــن بـــالله تعـــالى فقـــال جـــل شـــأنه : ((ومـــن يتوكل على الله فهو حسبه)) .

ويعـــرف الســـادة الصـــوفية التوكـــل فيقولـــون التوكـــل طـــرح البـــدن فـــى العبوديـــة ، وتعلـــق القلـــب بالربوبيـــة ، والطمانينـــة الـــى عطـــاء الكفايـــة ، فـــان أعطـــى شكر ، وان منع صبر ، موافقة للقدر .

ومـــؤدى التوكـــل أن يكـــون المـــؤمن فـــى افتقـــار دائـــم الـــى الله تعـــالى ، وهـــو مـــا يـــدأب عليـــه خـــواص المـــؤمنين ، امـــا عـــوام المســـلمين فـــلا يحســـون بالافتقـــار الا عنـــد الاضـــطرار مـــن بـــلا ينـــزل بهـــم ، فليجـــأون الـــى الله تعـــالى لكشـــف الضـــرعنهم فـــاذا كشـــف الضـــر عـــنهم غفلـــوا عـــن الافتقـــار حتـــى تلجـــئهم اليه ضرورة اخرى ، وقد ندد الله بالكافرين فقال تعالى :

((واذا مـــس الانســـان الضـــر دعانـــا لجنبـــه او قاعـــدا أو قائمـــا فلمـــا كشـــفنا عنـــه ضـــره مـــر كـــأن لـــم يـــدعنا الـــى ضـــر مســـه كـــذلك زيـــن للمســـرفين مـــا كـــانوا يعلمون)) .

وهـــو مـــا يعلمنـــا ان نكـــون علـــى الـــدوام مفتقـــرين اليـــه فـــى الشـــده والرخـــاء ، وفـــى العســـر واليســـر ، وفـــى الصـــحه والمـــرض ، وفـــى الخـــوف والامـــن وهكـــذا .

ولا يتوقـــف التوكـــل علـــى الغنـــى والفقـــر ، فقـــد يكـــون غنـــى الجيـــب متـــوكلا علـــى ربـــه ، وقـــد يكـــون الفقيـــر ضـــعيف التوكـــل ، لان مقـــام التوكـــل مـــن مقامـــات اليقـــين ، واليقـــين مـــن مـــذقات القلـــب ، فـــاذا ذاق المـــؤمن دوام الافتقـــار كـــان متوكلا ولو كان من اغنياء المال .

ويقـــول الســـاده الصـــوفيه ، ان دوام الافتقـــار لـــــه عنـــد المـــؤمن اركـــان اربعـــه : علـــم يســـو ســـه ، وورع يحجـــزه ، ويقـــين يحملـــه ، وذكـــر يؤنســـه ويقـــول المـــام الفرغـــانى . رحمـــه الله . : ذا صـــح الافتقـــار الـــى الله فقـــد صـــح الاســـتغناء بـــالله واذا صـــح الاســـتغناء بـــالله كمـــل الغنـــى بـــه ... وهـــذا مـــا يفســـر لنـــا معنى قولهم ان الأنبياء والاولياء اغنياء فى فقرهم .

وقـــد علمنـــا مولانـــا رســـول الله . صـــلى الله عليـــه وســـلم . دوام الافتقـــار الى الله تعالى فى دعائه الذى دعا به ربه حين حذلته ثقيف ، وقد سعى الى

الطائف يستنصر يهم بعد موت عمه أبى طالب ، فقال فى دعائه المبارك يبث ربه شكواه ، ويستغيث به فى نجواه ، ويسترضيه فى أولاه وأخراه :

((اللهم اليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى . الى من تكلنى ؟ الى بعيد يتهجمنى ، أم الى عدو ملكته امرى ، ان لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من ان ينزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول قوة الا بك)) .

ففى قوله صلى الله عليه وسلم : الى من تكلنى ، يوجهنا الى أنه ليس لنا وكيل من دونه سبحانه وتعالى ، وقد علمنا كتاب الله الكريم ان من ركن الى الأسباب وحدها ، ضيع الله عليه أثرها ، جزاء وفاقا ، كما فعل بقارون حين اغتر بكثرة ماله ، ولم يستمع الى نصح الناصحين فيما حكى الله عنهم :

((ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة اولى القوة اذ قال له قومه لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد فى الأرض ان الله لا يحب المفسدين . قال انما اوتيته على علم عندى أو لم يعلم ان الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون)) .

وقد افتتن أهل الدنيا بقارون ، وعصم الله أهل العلم بالله من الافتتان بظله الزائل ، ونصحوا أهل الغفلة أن يصبروا ولا يفتتنوا بزينة الدنيا وان يكسبوا ثواب الآخرة بالايمان والعمل الصالح فلم يستبينوا النصح حتى رأوا آية الله بأعينهم حين خسف الله به وبداره الأرض ، وقال تعالى فى ذلك : ((فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون انه لذو حظ عظيم . وقال الذين أوتوا

العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها الا الصابرون * فخسفنا به وبداره الارض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين * وأصبح الذين تمنوا مكانه بالامس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون * تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين)) .

هؤلاء الذين فتنتهم زينة قارون فتمنوا أن يكون عندهم مثل أمواله لم يكونوا زاهدين فى الدنيا ، وان كانوا فقراء ، وقد يملك المؤمن الدنيا ويزهد فيها ، ويؤثر الآخرة عليها ، وأبرز مثل لذلك الخلفاء الراشدون فقد كانت فى أيديهم خزائن الأرض فما استشرقت نفوسهم لأخذ المال من غير حله ، بل خافوا الله فيما جعله الله تحت أيديهم منه ، وقلدهم فى ذلك المسلك الرشيد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز الذى عاش فى الترف حتى اذا جاءته الخلافة رد نفسه الى عيشة الزهد مخافة الله تعالى .

وقد عرض على مولانا رسول الله . صلى الله عليه وسلم . ان يحول الله له جبال مكة ذهبا ، فأبى وقال لا يارب أشبع يوما فأشكرك ، وأجوع يوما فأسألك ، والى ذلك يشير الامام البوصيرى رضى الله عنه . فى بردته :

وراودته الجبال الشم من ذهب عن نفسه فأراها ايما شمم
وكيف تدعو الى الدنيا ضرورة من لولاه لم تخرج الدنيا من العدم

وليس معنى هذا ان يترك المرء كسب عيشه ، فان كسب العيش عبادة يعف بها نفسه عن سؤال الناس ، ويعف بها من تجب عليه نفقتهم ، وانما المقصود أن يطمئن المؤمن الى أن الله كفل له رزقه ، فلا يشغله الرزق عن الرازق ، ولا يدعوه القلق على رزقه الى كسبه من طريق حرام ، فلا يقبل الله منه طاعة ، وقد غذى جسمه بالحرام الذى نهى الله عنه ، وليحذر المؤمن ان يتباهى على الخلق بوفرة ماله ، أو أن ينفق المال فى معصية الله ، فذلك يؤدى الى مقت الله والعياذ بالله ، لأن الله يحب من عبده أن يشكر نعمة الله عليه ولا يكفرها . . وانفاق المال فى المعصية كفر بالنعمة لا يرضاها الله تعالى .

ويا سعادة من وسع الله عليه رزقه من حلال فأنفقه فى مرضاة الله وأحسن الى عباد الله كما أحسن الله اليه ، فكان شاكرا نعمة الله ، وتعرض للمزيد من فضل الله ، وهنيئا لمن رضى بقسم الله ان ضاق رزقه ، ورد ذلك الى حكمة يعلمها الله ، وتخفى عليه فتذكر قوله تعالى :

((ولو بسط الله الرزق لعباده لبلغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء انه بعباده خبير بصير)) .

وقد كتب امامنا الأكبر على بن أبى طالب وصية جامعة لابنه الامام الحسن . عليهما الرضا والرضوان . ومما جاء فيها من الروائع العلوية . . . فاذا ناديته سمع نداك ، واذا ناجيته علم نجواك ، فأفضيت اليه بحاجتك ، وأبثثته ذات نفسك ، وشكوت اليه همومك واستكشفته كروبك واستعنته على أمورك . . وسألته من خزائن رحمته ، مالا يقدر على اعطائه غيره ، من زيادة الاعمار ، وصحة الابدان وسعة الأرزاق .

((ثم جعل فى يديك مفاتيح خزائنه بما اذن لك فيه من مسألته فمتى شئت استفتحت بالدعاء أبواب نعمته ، واستمطرت شآبيب رحمته ، فلا يقنطنك ابطاء اجابته ، فان العطية على قدر النية ، وربما أخرت عنك الاجابة ليكون ذلك أعظم لأجر السائل ، وأجزل العطاء الآمل .

((وربما سألت الشىء فلا تؤتاه ، وأوتيت خيرا منه عاجلا أو آجلا ، وصرف عنك لما هو خير لك . . فلرب أمر قد طلبته فيه هلاك دينا لو أوتيته ، فلتكن مسألتك فيما يبقى لك جماله ، وينفى عنك وباله فالمال لا يبقى لك ولا تبقى له .

وجاء فى تلك الوصية القيمة كذلك قوله . كرم الله وجهه . .

((انما مثل من خبر الدنيا كمثل قوم سفر ، بنابهم منزل جديب فأموا منزلا خصبا وجنابا مريعا ، فاحتملوا وعثاء الطريق وفراق الصديق ، وخشونة السفر ، وجشوبة المطعم ، ليأتوا سعة دارهم ومنزل قرارهم ، فليس يجدون لذلك ألما ، ولا يرون نفقة فيه مغرما ولا شىء أحب اليهم مما قربهم الى منزلهم ، وأدناهم الى محلتهم .

((ومثـل مـن اغتـر بهـا ، كمثـل قـوم كـانوا بمنـزل خصـيب فنبـا بهـم الـى منـزل جـديب ، فلـيس شـىء أكـره الـيهم ولا أفظـع عنـدهم مـن مفارقـة مـا كانوا فيه الى ما يهجعون عليه ويصيرون اليه)) .

ويؤخـذ مـن قولـه تعـالى: ((وتوكـل علـى العزيـز الـرحيم الـذى يـراك حين تقوم ونقلبك فى الساجدين . انه هو السميع العليم)) .

ان التوكـل انمـا هـو ثمـرة مـن ثمـرات جهـاد الـنفس وعبـادة الله تعـالى ، فقـد كـان . صـلى الله عليـه وآلـه . يقـوم الليـل والنـاس نيـام ، فيتقـرب الـى ربـه بالقيـام والركـوع والسـجود امتثـالا لقولـه تعـالى ((واسـجد واقتـرب)) فأعلمـه الله انـه يـراه ويسـمع تلاوتـه ويعلـم صـدقه واخلاصـه ، ويكتـب لـه أجـره وآجلـه ، ويتـولاه فـى جميـع أمـوره ، وكفـى بـالله وكيلا)) .

ويؤيـد مـا تقـدم مـا اختتمـت بـه سـورة الحـج مـن الآيـات البينـات ((يأيهـا الـذين آمنـوا اركعـوا واسـجدوا واعبـدوا ربكـم وافعلـوا الخيـر لعلكـم تفلحـون * وجاهـدوا فـى الله حـق جهـاده هـو اجتبـاكم ومـا جعـل علـيكم فـى الـدين مـن حـرج ملـة أبـيكم ابـراهيم هـو سـماكم المسـلمين مـن قبـل وفـى هـذا ليكـون الرسـول شـهيدا علـيكم وتكونـوا شـهداء علـى النـاس فـأقيموا الصـلاة وآتـوا الزكـاة ، واعتصـموا بـالله هـو مـولاكم فـنعم المـولى ونعـم النصير)) .

ويعقـب السـادة الصـوفية علـى قولـه تعـالى : ((ومـن الليـل فتهجـد بـه نافلـة لـك عسـى أن يبعثـك ربـك مقامـا محمـودا)) فيقولـون : اذا كـان خيـر مـن فـى الوجـود أمـر بـالركوع والسـجود فكيـف يطمـع فـى الوصـول مـن لـيس لـه محصـول . لـذلك لـم تقـف نصـيحة سـيدى الشـيخ علـى التوكـل دون عمـل صـالح ، بـل أتبعهـا بقولـه : ونقلـب فـى الـذاكرين وكـن معهـم ذاكـرا شـاكرا حتـى يـأتى التوكـل عـن طريـق جهـاد الـنفس فـى سـبيل الله تعـالى الـذكر والشكر وهما يثمران الركون الى الله والتوكل عليه .

والذكر اذا أطلق شمل بصفة عامة كل ما يذكر به الله تعالى ، فالصلاة ذكر ، وتلاوة القرآن ذكر ، والصلاة على مولانا رسول الله .

صلى الله عليه وسلم . ذكر ، والاستغفار ذكر ، والتفقه فى الدين ذكر ، والافتاء فى الحلال والحرام ذكر ، والجهاد فى سبيل الله ذكر الخ الخ . .
أما اذا خصص الذكر فانما ذكر الله تعالى بأسمائه الحسنى فيتحرك اللسان باسم المحبوب الأعظم ليص نوره الى قلب المؤمن ، فيمحو ظلمه القلب شيئا فشئيا الى أن يصير قلبا وضاء ، فيتعرض لهبوط الفيض والنفحات الرحمانية ، ويعلمه الله ما لم يكن يعلم بطريق الالهام ، ولكن الالهام لا يتأتى للقلب الا بعد تسوية النفس وتربيتها فى جنب الله ، بالجهاد الكبير . . ألست تراه تعالى يقول : ((ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها)) . . ويقول . صلوات الله وسلامه عليه وآله . : ((من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم)) فلا بد لصقل القلب من عمل دائب ، وذكر الله تعالى من أبرك أعمال الصقل وأيسرها ، وأنجعها فى التقرب الى الله لانه تعالى يقول فى الحديث القدسى ((أنا جليس من ذكرنى)) ، وذلك الحديث يبرز شرف الذاكرين ومدى عناية الله بهم .
والالهام زينة الأولياء ، كما ان الوحى حلية الانبياء ، وقد بين سبحانه فضله على الخضر . عليه السلام . فقال جل شأنه : ((فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما)) .
ويقول سيدى ابن عطاء الله السكندرى : ان الناس فى بدايتهم يذكرون باللسان نطقا واقرارا بالشهادة وهو الاسلام ، والخواص يذكرون بالقلب تصديقا واخلاصا وهو الايمان ، وخواص الخواص أهل النهاية يذكرون بعقولهم مشاهدة وهو الاحسان . . والكل سائر فى معرفة الاسماء والصفات لا معرفة الذات لانه لا سبيل الا بالعجز عن الادراك .

ويقول سيدى محيى الدين بن عربى ، وهو شيخ التصوف الأكبر فى الفتوحات المكية : ومن العجب ان الله تعالى يخبر كل شىء عن نفسه فى كتابه المحكم ، فيأتى الانسان بعقله القاصر ، فيقول ان عقلى يرد ذلك ، وفكرى لا يحتمل ذلك ، وانما يجب التأويل ، اليس عاقبة هذا التأويل أن يصوغوا من خيالهم وتفكيرهم خالقا غير ما فى كتاب الله ؟ .

ومن أحسن ما قرأت للسادة الصوفية فى التوحيد قولهم : العقل آلة للعبودية يعرف به العبد ما عرف ، وليس بآلة للاشراف على الربوبية ، وقولهم : العقل عاجز لا يدل الا على عاجز مثله . . وقولهم : العقل يجول حول الكون ، فاذا نظر الى الكون ذاب .

وقال بعضهم : أنا أقطع ان الصحابة ماتوا وما عرفوا الجوهر والعرض ، فان رضيت أن تكون مثلهم فكن ، وان رأيت أن طريقة المتكلمين أولى من طريقة أبى بكر وعمر فبئس ما رأيت .

ومما تقدم تدرك سر قوله . صلوات الله وسلامه عليه وآله . : ((تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا)) . . ولقد رأى سليل بيت النبوة الشريف الامام جعفر الصادق . رضى الله عنه . جده المصطفى . صلى الله عليه وسلم . فى المنام فسأله عن حقيقة التوحيد فأجابه . صلوات الله وسلامه عليه وآله . : ((كل ما خطر ببالك فهو هالك ، والله بخلاف ذلك)) وهو القول الفصل كما ترى ، فما أعظمه صلى الله عليه وسلم من معلم .

ويقول شيخى العارف بالله الشيخ علا عقل . رضى الله عنه . فى العجز عن ادراك الذات ، من الهامة الفورى الذى نقلته عنه :

حب المهيمن باليقن روانى   والى الجلا شهوده أزجانى
أصبحت لا ألوى عنانى للورى   ما دمت بالبارى رفعت بيانى
عجزى عن الادراك ادراكى به   جل المقام فما يبين لسانى
فبحبه وبسره وبنوره   روح اليقين أظلنى وكسانى
أصبو بروحى فى حماه وأنتمى   فالعشق تاجى واليقين عيانى

ويقول سيدى محيى الدين بن عربى

قل لامرىء رام ادراكا لخالقه ... العجز عن درك الادراك ادراك
من دان بالحيرة الغراء فهو فتى ... لغاية العلم بالرحمن دراك
وأى شخص أبى الا تحققه ... فان غايته جحد واشراك
فالعجز عن درك التحقيق شمس ضحى
جرت بها فوق جو النسك أفلاك

وقد دلت التجربة الطويلة عبر القرون الماضية ، على ما للذكر من اثر فعال فى تربية القلوب وتنوير البصائر وايقاظ الفكر من غفلته ، ولهذا ورد الامر بالذكر الكثير فى الكتاب والسنة ، ولئن كانت العبادات شرعت لذكر الله تعالى ، والربط على قلوب المؤمنين ، الا أنها موقوتة بأوقاتها . . أما الذكر فمطلوب فى كل وقت ، وليس مقيدا بوقت معين ، وهو يعين على تذوق العبادات ، ويكشف عن كثير من أسرارها ، كما أنه يعين على رقابة الله ليرضيه فيها ليقينه ان الله يعلم السر وأخفى .

واذا انت تدبرت فى قوله . تعالى . : ((ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد لهم مغفرة وأجرا عظيما)) .

وجدت ان الذكر جاء فى قمة تلك الأوصاف وتوجها مع علو مراتبها عند الله تعالى .

والذاكرون يتفاوتون بحسب مشاهدتهم ومقاماتهم ، فالعامة يذكرون الله على العادة الجارية ، والعلماء يذكرونه تعالى تنزيها وتمجيدا ، والعارفون يذكرون الله تعظيما ، والعابدون يذكرون الله راجين خائفين ، والمحبون يذكرونه ولها ووجدا وهياما حتى يفنوا به عن غيره فهم أرفع الذاكرين درجة .

وقد روى الترمذى عن أبى سعيد أن رجلا سأل النبى . صلى الله عليه وسلم . : ((أى العبادة أفضل درجة عند الله يوم القيامة ؟ قال

الذاكرون الله كثيرا والذاكرات . . قلت يارسول الله ومن الغازى فى سبيل الله ؟ قال لو ضرب بسيفه فى الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختصب دما لكان الذاكرون الله أفضل منه درجة)) .

وهذا يفسر لنا لماذا قال صلى الله عليه وسلم حين رجع من الغزو : رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر ، قالوا وما الجهاد الاكبر يا رسول الله ، قال جهاد النفس . . وقد روى الترمذى كذلك ان رجلا قال : يا رسول الله ان شرائع الاسلام قد كثرت على فاخبرنى بشىء أتشبث به ، قال لا يزال لسانك رطبا بذكر الله .

وروى الشيخان والترمذى عن أبى هريرة قال ، قال رسول الله . صلى الله عليه وسلم . (يقول الله . عز وجل . انا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه حين يذكرنى ، فان ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وان ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ، وان اقترب الى شبرا تقربت اليه ذراعا وان اقترب الى ذراعا اقتربت اليه باعا ، وان أتانى ماشيا أتيته مهرولا)) .

والقرب هنا قرب طاعة وثواب لا قرب مسافة ومكان ، وغير ذلك كثير ، وكثير جدا .

ويقول أبو حيان التوحيدى . طيب الله ثراه . فى مناجاته :

اللهم انى أبرأ من الثقة الا بك ، ومن الأمل الا فيك ، ومن التسليم الا لك ، ومن التوكل الا عليك ، ومن الطلب الا منك ، ومن الرضا الا عنك ، أسألك أن تجعل الاخلاص قرين عقيدتى ، والشكر على نعمك شعارى ودثارى ، والنظر الى ملكوتك دأبى وديدنى ، والانقياد لك شأنى وشغلى ، والخوف منك أمنى وايمانى ، واللياذ بذكرك بهجتى وسرورى . ومثل ذلك الالهام يرد قلوب الذاكرين فتهلج به ألسنتهم ، وقد عهدنا منه الكثير فى اتباع سيدى الاكبر أبى خليل . رضى الله عنه . وهم موفقون للذكر الكثير ببركته وارشاده ، وكان يقول : ابنى الذاكر وكان رضى الله عنه وحيد نسجه فى زمنه فحلق بأتباعه فى عالم الملكوت ، وألحقتهم بركب السابقين الأولين .

ويقول صلوات الله عليه وآله : ((من العلم كهيئة المكنون ، لا يعلمه الا العالمون بالله تعالى)) ويقول امامنا على كرم الله وجهه :

رأيت العقل عقلين فمطبوع ومسموع

لا ينفع مسموع اذا لم يك ممنوع

كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع

ويقول أبو سليمان الدارانى . رضى الله عنه . اذا اعتادت النفوس ترك الآثام جالت فى الملكوت ورجعت الى صاحبها بطرائف الحكمة من غير أن يؤدى لها عالم علما .

فاذا أنت أردت طريق القوم ، واحسنت اختيار امامك ، فاخترته عالما عاملا بالكتاب والسنة والجماعة ، ذائقا أسرار التربية الروحية ، وارثا لها عن شيخ عارف بالله ، مأذونا له من ذلك الشيخ العارف بالارشاد ، وشرح الله صدرك لاتباعه بعد التدقيق فى اختياره ، مستعينا فى ذلك بالله ربك ، أو مقتديا فى اختياره بأهل الرشد فى الدين ، ممن يوثق بهم . . أقول اذا تم لك ذلك فخذ عنه . أخذ قبول وتسليم . لا أخذ شك وتردد ، وكن معه من أهل الهمة والعمل لا من أهل الكسل أو الجدل ، لأنك فى علاج جسمك تحرص على تعاطى الدواء ، ولا تجادل طبيبك فيما تجهله من علم الطب الذى علمه هو وجهلته أنت ، ورضيته معالجا به وسلمت له تسليما ، واذا سلكت الى الله من غير شيخ مؤدب نعرضت لغواية النفس والشيطان وربما أخطأت الطريق فتهلك .

واذا ذكرت ربك . حسب ارشاد شيخك العارف . أعطاك الله نورا بحسب استعدادك وفطرتك وما قدره لك عنده سبحانه ، ولا تغفل عن الذكر بوسوسة يلقيها الشيطان فى صدرك ، ليصدك عن سبيل الله ، كأن يقول لك ، أنت تذكر من كذا سنة ولم تجد فتحا ، أو أنت تذكر باللسان ولا تجد حلاوة فى القلب ، احذرك من ذلك لأن العارفين قالوا بحق : ان الغفلة عن الذكر شر من الغفلة فيه .

وقد سألت شيخى العارف بالله الشيخ على عقل . رضى الله عنه . فى هذه المسألة فقال لى : ((ان اللسان جارحه فاذا تحركت بذكر الله كتب

الله ثـواب ذلـك للـذاكر ، وصـارت لـه قيمـة ، ثـم أيـد لـى ذلـك . رضـى الله عنـه ـ بمثـل فقـال اذا كانـت لـديك عصـا رخيصـة وحليتهـا بحليـة مـن ذهـب جعلـت لهـا قيمـة غيـر قيمتهـا الأصـلية بمـا دخـل عليهـا مـن الـذهب ، وفـى ذلـك تشـجيع علـى الـذكر باللسـان للمبتـدئين ، وهـو يـؤدى بهـم يومـا مـا الـى ذكـر القلـب وهـو الـذى عليـه المعـول ، وذكـر اللسـان بـاب يـؤدى الـى ذكـر القلـب ثـم الـى ذكـر الـروح ثـم الـى ذكـر السـر الـذى لا يطلـع عليـه ملـك فيكتبـه ولا شـيطان فيفسده .

ثـم هـو . رضـى الله عنـه . نصـحنا فـى الهامـة أن نـذكر الله تعـالى لوجهـه فـلا نقصـد بالـذكر فتحـا أو ولايـة أو هبـة ، وحسـبنا أن نتشـرف بـذكر المـذكور سـبحانه ، الـذى لا ينسـانا ، بـل يوالينـا ببـره وآلائـه ، فـى ليلنـا ونهارنـا ، فـى نومنـا ويقظتنـا . . فـى حركتنـا وسـكوننا ، فـى برنـا وبحرنـا . . ومـن فضـله ورحمتـه جعـل لنـا السـيئة واحـدة ، والحسـنة بعشـر أمثالهـا وبأضـعاف كثيرة . . فيقول . رضى الله عنه . :

لا تذكر البارى بقصد ولاية — او أن تكون على السما لا تنطفى
اذكر لوجه الله جل جلاله — من رم غير جنابه لم يشرف
واذا اقتديت فبالكتاب لك الهدى — حافظ على آياته بتلهف
وانهض بروحك نهضة قدسية — ولسنة المختار فى السير اقتف

أمـا عـن الشـكر الـذى وجهنـى اليـه سـيدى الشـيخ . رضـى الله عنـه . فهـو امـا ان يكـون باللسـان تحـدثا بالنعمـة (وأمـا بنعمـة ربـك فحـدث)) أو يكـون بالاركـان ، فيسـتعملها المـؤمن فـى طاعـة الله بالعبـادات والنوافـل ((اعملـوا آل داود شـكرا وقليـل مـن عبـادى الشـكور)) أو يكـون بالقلـب فيـوقن المـؤمن أن كـل نعمـة ظهـرت لـه أو خفيـت عليـه فمـن الله تعـالى ((ومـا بكـم مـن نعمـة فمـن الله)) ومـن شـكر النعمـة ألا يعصـى المـؤمن ربـه يهـا والا كـان جاحدا .

على ان المؤمن لا يبلغ ما يستحقه الله من الشكر ، ولو شكر الله باللسان والاركان والجنان ، لأن نعم الله لا تحصى ولا تستقضى وانما يكون الشكر ولاء واعترافا بفضل الله ، ولذلك ناجى مولانا الامام

الحسين بن على ربه وهو يستلم الحجر الأسود فقال : ((الهى نعمتهنى فلم تجدنى شاكرا ، وبلوتنى فلم تجدنى صابرا ، فلا أنت سلبت النعمة بترك الشكر ، ولا أنت أدمت الشدة بترك الصبر ، الهى ما يكون من الكريم الا الكرم .))

وقد قام صلوات الله عليه وآله الليل حتى تورمت قدماه ، ولما سألته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها . لم تفعل ذلك يا رسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تاخر ، قال أفلا أكون عبدا شكورا . . ولعلو همته . صلى الله عليه وسلم وآله . لم يكتف أن يكون شاكرا بل أراد أن يكون شكورا ، أى كثير الشكر ما وسعه الجهد .

وكذلك فى حمد الله والثناء عليه بما هو أهله ، لا يبلغ الانسان حمد ربه حق الحمد ، ولذلك كان صلى الله عليه وسلم وآله يقول : لا احصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك . ولعجزنا عن حمده سبحانه علمنا فى فاتحة الكتاب المبين أن نثنى عليه بكلامه المعجز فنقول : الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، اياك نعبد واياك نستعين . . الخ .

ويقول العارفون ، فلو ان سائلا سأله تعالى : لماذا اختصصت بالحمد وحدك لقال : لأنى رب العباد ، منى كان الايجاد ، وعلى دوام الامداد . وذلك احسان من عندى ، ولا وجوب فيه على ولا الزام فأنا صاحب الفضل على الدوام ، فالايجاد ودوام الامداد نعمتان ما خلا موجود منهما ، ولا بد لكل مكون منهما ، فاستحققت الحمد وحدى .

اللهم اجعلنا بعونك من اهل التقوى فنكون متوكلين فى الحالين . . شاكرين لانعمك فان الشيطان هددنا بالصد عن شكرك حين قال : ((ولا تجد أكثرهم شاكرين)) فأضعف ياالهنا كيده واحبط صده ، واكتبنا بفضلك فى عبادك الصالحين الذين شرفتهم بمعيتك بأن تكون فى عونهم على أنفسهم وشيطانهم . حين قلت فى القرآن الكريم ((ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون)) آمين .

-٢٣-

((أما (فلان) فأبلغه تحياتى وأشواقى ، وقد بلغنى أنه كان بالاسكندرية ، فلماذا لم يقابلنى ، ان كان لعذر فمقبول ، وان كان لذنب منى فأستغفر الله ، وعليه السماح ، وعلى كل فانه حسن وفعله حسن)) .
جاءتنى هذه العبارة فى احدى رسائل شيخى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى قدس الله سره ، وفلان هذا أخ لى فى الله ، تربطنى به محبة الله ، وقد سبقنى فى أخذ الطريق عن الشيخ ، وله همة فى المجاهدات محمودة ، وكان لها أثرها فى سلوكى ، لأنى صحبته فى نشأتى ، والفته فتأثرت به ، وكان سيدى الشيخ مسرورا بهذه الألفة ، واسم صاحبى حسن ، فلقبنا رضى الله عنه بالحسنين ، وهذا يفسر لك كيف أن الشيخ يعتب عليه من طريقى ، حيث ذهب الى الاسكندرية فلم يقابل الشيخ ، وكان من واجب التلميذ ، ان يلقى شيخه ، ويسلم عليه ، ويجلس بين يديه ، ليسمع منه ، ويأخذ عنه ، وكان شيخنا رضى الله عنه ، من خيار عباد الله الصالحين ، الذين ينتفع بعلمهم وأدبهم وبركتهم ، وفى الحديث الشريف : ((خير عباد الله من اذا رأيتهم ذكرت الله)) .
على اننا نلحظ فى عبارة سيدى الشيخ أدبا رقيقا عاليا : ينفعنا فى مسلكنا ، فقد أبلغه سلامه ، قبل ان يعتب عليه ، والتمس له العذر ، ان كان ثمة عذر ، وقبل عذره قبل ان يبديه ، فان لم يكن عذر ، فهل كان للشيخ ذنب حال دون المقابلة ، فان كان ذنب ، استغفر الشيخ منه ، وطلب العفو عنه ، ثم رحم الشيخ تلميذه ، وخاف عليه من شدة التقريع ، فقرر أنه حسن ، وفعله حسن ، وهذا لعمر الله مسلك جميل فى التربية الخلقية والروحية .

فالشـــيخ اذن لـــم يقابـــل الســـيئة بالســيئة ، بـــل يقابـــل الســـيئة بالحســـنة ، فحيــا التلميــذ الــذى قصــر فــى تحيتــه ، ولحرصــه علــى مودتــه ، عتــب عليــه ، وفــى عتابــه أراه الواجــب عليــه فــى لقائـــه ، ولا شـــك ان تفــريط المريــد فـــى لقـــاء شـــيخه يحرمـــه مـــن كثيـــر ، لأن الشـــيخ وصـــلته بـــالله تعـــالى والتفـــريط الاجتمـــاع بـــه ، تفـــريط فـــى الســـلوك الـــى الله ، لأن الشـــيخ لـــه قـــوة روحيـــة ، يســـتمد منهـــا تلاميـــذه الهمـــة فـــى طلـــب الله ، ولـــو لـــم يـــتكلم معهـــم بلســـانه أحيانـــا ، فـــان حالـــه يغنـــى عـــن مقالـــه ، والاســـتمداد الروحـــى لا ينكـــره الا المعانـــدون ، لأن مـــن جـــالس جـــانس ، كمـــا يقـــول العـــارفون ، وعلـــى قـــدر اســـتعداد المريـــد يكـــون اســـتمداده ، وصـــاحب الفطـــرة الضـــعيفة يتشـــرب بـــبطء وقـــد لا يشـــرب شـــيئا ، وان كـــان شـــيخه مـــن كبـــار الأقطـــاب ، ذلـــك بـــأن المـــريض لا يجـــد فـــى الماء الزلال الطعم الذى يجده الصحيح المعافى ، كما قالوا :

ومن بك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا

وقـــد يقـــول الشـــيخ كلمـــة علـــى مســـمع مـــن عشـــرات المريـــدين ، فتبقـــى فـــى واحـــد مـــنهم ، تفعـــل فعلهـــا ، وتنـــتج أثرهـــا وينســـاها الآخـــرون ، أو يـــذكرونها ولا يتـــأثرون بهـــا ، لضـــعف اســـتعدادهم ، ومـــن هنـــا نـــرى أن دعـــوة الشـــيخ تعـــم الكثيـــرين ، ولا ينضـــج مـــنهم فـــى التربيـــة الا القليـــل وأقـــل مـــن القليـــل ، لأن الجـــوهر النفـــيس عزيـــز المنـــال ، ولعزتـــه وندرتـــه ، قـــد يحكـــم بأنـــه غيـــر موجـــود ، واذا كانـــت تلـــك هـــى الحقيقـــة فـــى كـــل الأزمـــان ، فهـــى أبـــرز فـــى زماننـــا منهـــا فيمـــا ســـبقه مـــن الأزمـــان ، لفتـــور الهمـــة فـــى مجاهـــدة الـــنفس ومخالفـــة هواهـــا وهـــو مبنـــى التصـــوف الحـــق ، المـــؤمن لا يســـتطيع أن يعـــرف ربـــه معرفـــة الخـــواص الا مـــن طريـــق مخالفـــة الـــنفس ، والصـــوفية لـــم يبتـــدعوا ذلـــك مـــن عنـــدياتهم ، بـــل أخـــذوه مـــن كتـــاب الله وســـنة رســـوله صـــلى الله عليـــه وســـلم وقـــد جـــاء فيهـــا الكثيـــر فـــى هـــذا الشـــأن كمـــا هـــو معـــروف للواقـــف علـــى الأمـــور . ويكفـــى منها على سبيل المثال قوله تعالى :

((فأمـــا مـــن طغـــى وآثـــر الحيـــاة الـــدنيا فـــان الجحـــيم هـــى المـــأوى وأمـــا مـــن حاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى)) .

وقوله صلى الله عليه وسلم :

((أخوف ما أخاف على أمتى اتباع الهوى وطول الأمل)) .

وكلما ذاق المريد حلاوة التربية فى جنب الله ، واتسع علمه بالله ، كلما أكبر شيخه وأجله ، وحرص على صحبته وولاه ، حيث يبين له فضل الشيخ وأثره ، كلما ترقى وتلقى موارد الاحسان ، وقد لمست ذلك فى احترام شيخى لشيخه القطب الأكبر سيدى الحاج محمد أبو خليل ، رضى الله عنه وارضاه ، فقد كان يحدثنى عنه كثيرا ، ويذكر لى فضله عليه ، حتى يفنى فيه حبا وتقديرا ، وكان يقول لى : ان سيدى الشيخ الأكبر كان آية من آيات الله فى الأرض ، كما كان يقول لى : انى رأيت بركة سيدى الشيخ الأكبر شاملة لى ولأولادى ، فما أنا وهم فيه من الخير من بركات الشيخ ، أقول وعلى هذا الخلق العظيم درج أسلافنا الصالحون المقتدى بهم فى الدين ، ولقد أخذ الامام مسلم البخارى رضى الله عنهما ثم صار الامام مسلم اماما من أئمة الصحيح ، ومع ذلك كان يذكر لشيخه البخارى فضله ، وكان يجله أيما اجلال ، حتى كان يقول له اذا لقيه ، دعنى أقبل رجليك ياطيب الحديث فى علله ، ويا أستاذ الأستاذين ويا شيخ المحدثين ، وكان سيدى المرسى أبو العباس اذا ذكر بحضرته شيخه الامام أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه يقول :

لى سادة من عزهم أقدامهم فوق الجباه
ان لم أكن منهم فلى فى حبهم عز وجاه

وصحبة الشيخ الناصح ، شرط فى التربية الخاصة ، لأن أدب القلوب ، لا يؤخذ الا من أهله ، ففاقد الشىء لا يعطيه ، وكيف يربى القلوب ، من عجز عن أدب قلبه ، ألست تراه تعالى يقول :

((ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم)) .

فأوجب أن ينذروا أنفسهم قبل ان ينذروا قومهم ، لأن الانذار لا يصح الا ممن أنذر نفسه قبل أن ينذر غيره ، كذلك قال العارفون : اذا أردت أن تهجر اخوان السوء ، فاهجر قبل ان تهجرهم أخلاقك السوء ، فان نفسك أقرب اليك ، والأقربون أولى بالمعروف ، ومن وصايا سيدى عبد السلام بن بشيش لسيدى أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنهما : لا

٠تنقل قدميك الا حيث ترجو ثواب الله ، ولا تجلس الا حيث تأمن من معصية الله ، ولا تصحب الا من تستعين به على طاعة الله ، ولا تصطف لنفسك الا من تزداد به يقينا ، وهى وصية قيمة كما ترى ، ويا سعادة من عمل بها من أهل الطريق .

ولقد أشتد بى يوما حبى لسيدى الشيخ عبد السلام حتى وددت أن لو سكن معى ، وقمت على خدمته بنفسى ، تقربا الى الله تعالى لفضله على ، ولازمنى هذه الأمنية طويلا ، وعلى أثر زيارتى لسيدى الشيخ وكان مريضا ، وملازما الفراش بالمستشفى ، ولما عدته فى اليوم الثانى ، نظر الى وقال : انت لم تتركنى ليلة الأمس ، وكنت تدعونى الى منزلك ، وتقول لى انى أخدمك بنفسى ، وتعاودنى بهذا الكلام مرة بعد مرة ، وسبحان من نور بصائرهم ، وأصلح ضمائرهم وسرائرهم .

ويقول أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل :

والنور للارواح مثل الكهرباء لمن تصوب
يدنى البعيد ويجعل النجم المحلق منك أقرب

ومن وصايا سيدى عبد السلام بن بشيش لسيدى أبى الحسن الشاذلى كذلك : لا تصحب من يؤثر نفسه عليك فانه لئيم ، ولا من يؤثرك على نفسه فانه فلما يدوم ، واصحب من اذا ذكر ذكر الله ، فانه يغنى به اذا شهد ، وينوب عنه اذا فقد ، ذكره نور القلوب ، ومشاهدته مفاتيح الغيوب .

وقال له رجل : يا سيدى وظف على وظائف وأورادا أعمل بها ، فقال له : أرسول أنا ؟ الفرائض مشهورة ، والمحرمات معلومة ، فكن للفرائض حافظا ، وللمحرمات رافضا ، واحفظ قلبك من حب الدنيا ، وحب النساء ، وحب الجاه ، وايثار الشهوات ، واقنع من ذلك بما قسم الله لك ، اذا خرج لك مخرج الرضا ، فكن لله فيه شاكرا ، وان خرج لك مخرج السخط فكن عليه صابرا ، وحب الله قطب تدور عليه الخيرات ، واصل جامع لأنواع الكرامات ، وحصر ذلك كله أربع : الورع ، وحسن النية ، واخلاص

العمـــل ، ومحبـــة العلـــم ، ولا تـــتم هـــذه الجملـــة الا بصـــحبة أخ صـــالح أو شـــيخ ناصح .

أمـــا العفـــو عـــن الاســـاءة ، وقبـــول العـــذر ، والتماســـه لصـــاحبه قبـــل أن يتقـــدم يـــه ، فكلهـــا مكـــارم يـــدعو اليهـــا الاســـلام ، وانظـــر فـــى مثـــل قولـــه تعـــالى ((وليعفـــوا وليصـــفحوا ألا تحبـــون أن يغفـــر الله لكـــم والله غفـــور رحـــيم)) .

وفى مثل قوله صلى الله عليه وسلم :

((مـــن جـــاءه أخـــوه متنصـــلا مـــن ذنبـــه فليقبـــل اعـــذاره محقـــا كـــان أو مبطلا)) .

وقـــد قـــص علينـــا الله فـــى كتابـــه الكـــريم أحســـن القصـــص ، وأرانـــا صـــورا رائعـــة مـــن صـــور التســـامح والصـــفح ، مـــن ذلـــك مـــثلا مـــا كـــان مـــن ســـيدنا يوســـف عليه السلام مع اخوته حين قالوا له :

((تـــالله لقـــد آثـــرك الله علينـــا وان كنـــا لخـــاطئين . قـــال لا تثريـــب علـــيكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين)) .

وكـــذلك مـــا قالـــه ســـيدنا موســـى عليـــه الســـلام لســـيدنا هـــارون عليـــه الســـلام حين اعتذر اليه :

((ولمـــا رجـــع موســـى الـــى قومـــه غضـــبان أســـفا قـــال بئســـما خلفتمـــونى مـــن بعـــدى أعجلـــتم أمـــر ربكـــم والقـــى الألـــواح وأخـــذ بـــرأس أخيـــه يجـــره اليـــه قـــال ابـــن أم ان القـــوم استضـــعفونى وكـــادوا يقتلـــوننى فـــلا تشـــمت بـــى الأعـــداء ولا تجعلنـــى مـــع القـــوم الظـــالمين * قـــال رب اغفـــر لـــى ولأخـــى وأدخلنـــا فـــى رحمتـــك وأنت أرحم الراحمين)) .

ولا ننســـى مـــا قالـــه مولانـــا رســـول الله صـــلى الله عليـــه وســـلم لأعدائـــه بعـــد ان أسرهم فى فتح مكة (اذهبوا فأنتم الطلقاء) .

وهكـــذا نـــرى أن غضـــب المـــؤمن كـــالبرق الخـــاطف لا يكـــاد يظهـــر حتـــى يختفى رحمة بالمخطئين ، ومن عفا وأصلح فأجره على الله .

وجاء فى وصية امامنا الأكبر على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، لابنه الامام الحسن ، رضى الله عنه قوله :

((احمل نفسك من أخيك عند صرمه على الصلة ، وعند صدوده على اللطف والمقاربة ، وعند جموده على البذل ، وعند تباعده على الدنو ، وعند شدته على اللين ، وعند جرمه على العذر ، حتى كأنك له عبد ، وكأنه ذو نعمة عليك ، واياك أن تضع ذلك فى غير موضعه ، أو أن تفعله بغير أهله)) .

((لا تتخذن عدو صديقك صديقا ، فتعادى صديقك ، وامحض أخاك النصيحة ، حسنة كانت أو قبيحة ، وتجرع الغيظ ، فانى لم أر جرعة أحلى منها عاقبة ، ولا ألذ مغبة)) .

((وألن لمن غالظك ، فانه يوشك أن يلين لك ، وخذ على عدوك بالفضل ، فانه أحد الظفرين ، وان أردت قطيعة أخيك ، فاستبق له من نفسك بقية يرجع اليها ، ان بدا له ذلك يوما ما)) .

((ومن ظن بك خيرا ، فصدق ظنه ، ولا تضيعن حق أخيك اتكالا على مابينك وبينه ، فانه ليس لم أخ من أضعت حقه)) .

((ولا يكن أهلك أشقى الخلق بك ، ولا ترغبن فيمن زهد عنك ، ولا يكونن أخيك أقوى على قطيعتك منك على صلته ، ولا تكونن على الاساءة أقوى منك على الاحسان ، ولا يكبرن عليك ظلم من ظلمك ، فانه يسعى فى مضرته ونفعك ، وليس جزاء من سرك أن تسوءه)) .

ولنفهم معنى ما يقوله امامنا الأكبر ((وتجرع الغيظ ، فانى لم أر جرعة أحلى منها عاقبة والذ مغبة)) تنقل القصة التالية التى حدث بها المدائنى فى كتاب المحاسن والمساوىء قال .

كان سهل بن سعد القشيرى خرج مع محمد وابراهيم ابنى عبد الله بن الحسن على المنصور ، فقال المنصور : هذا كان عندنا من الفقهاء والعلماء ، فكيف خرج علينا ، ثم قال المنصور : والله لاقتلنك قتلة ما قتلها أحد ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ان تحنث فى يمينك هذه ، خير عند الله من أن تبر بها ، واعلم يا أمير المؤمنين انك ان قتلتنى قتلت أربعة آلاف حديث سمعتها من الضحاك بن مزاحم ، عن جدك عبد الله بن العباسى ، عن رسول الله صلى

الله عليـه وسـلم ، لا يرويهـا أحـد غيـرى ، قـال فوضـع يـده علـى خـده ، وقـال هـات ، قـال حـدثنى الضحـاك بـن مـزاحم ، عـن جـدك عبـد الله بـن العبـاس ، قـال : قـال رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم : ((عمـل الجنـة حـزن بربـوة ، وعمـل النـار سـهل بسـهوة (السـهوة الأرض السـهلة) ، والسـعيد مـن وقـى شـر الفـتن ، ومـن ابتلـى فصـبر ، فيالهـا ثـم يالهـا ، ومـا امـتلآ عبـد غيظـا فكظمـه الا مـلآه الله ايمانـا)) فـأمره بـالجلوس ثـم قـال لـه هـل مـن أحـد يضـمنك علـى أن تلزمنـا فتسمر عندنا ، وأقام معه .

وقـال موسـى بـن عبـد الله ، أتـى المهـدى برجـل فجعـل يقـرره بذنوبـه ، ويتهـدده ، فقـال الرجـل : يـا أميـر المـؤمنين ، اعتـذارى ممـا تقرعنـى بـه رد عليك ، واقرارای یوجب لی ذنبا ، ولكنی أقول :

فان كنت ترجو فى العقوبة رحمة   فلا تزهدن عند المعافاة فى الأجر

فـأمر باطلاقـه . ومـن نصـائح العـارف بـالله سـيدى الشـيخ أحمـد الحلـوانى الخليجـى رضـى الله عنـه والـد شـيخى سـيدى عبـد السـلام رضـى الله عنـه . فـى منظومتـه المسماة البستان والتى يوجه فيها المريدين فيما بينهم الى التسامح :

ولا تقل الجفا أسلم   ومنـذا يا أخى يسلم
وهل هو وحده أجرم   لعلك يا أخى أظلم
وأنت بدأت بالطغيان

أتهجـره وقـد خدمك   وسـابق جـوده أظلم
فرضـا انـه ظلمك   أليس العفـو قد لزمك
بنص الشـرع والقرآن

الا يا صـاح الا يا صاح   تنبـه كى تسـمى الصاح
وسـامح فالسمـاح رباح   ودع عنـك الـذى قد راح
وهب أن قـد ولـدت الآن

ومن حكمه الجميلة رضى الله عنه قوله :

أخمد بحلمك ما يذكيه ذو سفه   من نار غيظك واصفح ان جنى جان
فالحلم أفضل مازدان اللبيب به   والأخذ بالعفو أحلى ما جنى جانى

وقد كان سيدى الشيخ أحمد الحلوانى الخليجى من كبار العلماء العارفين ، وكان يجل شيخه العالم العارف القطب سيدى الشيخ عمر بن جعفر الشبراوى صاحب الطريقة الشبراوية المباركة ، وقد طلب اليه بعض تلاميذ سيدى عمر أن يمدح شيخهم وشيخه بقصيدة يسمعهم اياها فقال مداعبا لهم على البديهة :

لا تطعموا أن أصف القطب الذى شبرا به باهت محل الفرقد

لكننى أقول من يظفر به فليعتصم بالوارث المحمدى

ويعاصرنا من أحفاد عمر الشيخان العالمان العارفان المباركان الصديقان الشيخ كامل الشبراوى والشيخ عبد السلام الشبراوى وهما يدعوان الى الله على طريقة جدهما حسبه لوجه الله ، لا يريدان من الناس جزاء ولا شكورا ، جزاهما الله عن الاسلام والمسلمين خيرا كثيرا ، وابوهما العارف بالله سيدى الشيخ عبد الخالق الشبراوى ، كان من اجلاء العلماء العارفين ، وهدى به الله العدد العديد ، وقد سعدت بمعرفته ونرددت عليه بأمر من شيخى سيدى عبد السلام الحلوانى حيث قال لى زره وابلغه سلامى فانه ولى من أولياء الله ، وليت رجال الطرق الصوفية اليوم ينهجون نهج هؤلاء الكملة ، فلا يربون تلاميذهم على جفوة غيرهم من المشايخ ، فان الدين يقوم على الأخوة فى الله والمحبة لوجهه سبحانه ، وآفة الطرق اليوم الجفوة بين بعض المشايخ . وهى تستتبع الجفوة بين التلاميذ ، فان سلموا من الجفوة ، وقعوا فى غيبة بعضهم البعض ، والغيبة من الكبائر والصوفى الحق يحاسب نفسه على الصغيرة قبل الكبيرة ، بل انه قد يترك المباح خوف الوقوع فى المشبوه ، اسأل الله لأهل الاسلام وصلاح الحال والمآل ، بعد اصلاح الظواهر والبواطن ، والتسامح بين الأفراد والجماعات .

وكم حاول شيخى سيدى عبد السلام الحلوانى ان يصلح بين رجال الطرق ، وبين الخلفاء ، ولكن الأهواء النفسية والأغراض الشخصية ، كانت تقف فى سبيل الصلاح والاصلاح ، فلو ان الأغراض الشخصية انتفت ، وجاهد المتنافرون أنفسهم ونسامحوا لاستقام المؤمنون على الطريقة ،

وأشرق عليهم نور الحقيقة ، كما كان أسلافهم من قبل ، وما أبدع ما نصح به ابن الرومى كل مريد متصوف حين يقول فيما ترجمه عنه من الفارسية الى العربية صديقى العلامة الشيخ الصاوى شعلان : لا تجعل الأحجار المتراكمة من الخطايا تحطم قلبك ، فان الفخار اذا انكسر لا يرقع ولا يعاد طينا ، سبحان من قدر فهدى ، ووفق كل كائن للغاية من فطرته ، ان الهام النحل الشهد ، والهام حشرة القز نسج الحرير ، والهام البلبل أغانى السحر ، والهام رجال الله نور يشهدون به ملكوت السموات والأرض :

صدقوهم هم مصابيح الدجى اكرموهم هم مفاتيح الرضا

((اتبعو من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون) .

ويقول شيخى سيدى الشيخ على عقل فى وصف رجال الله فى ارتجاله والهامه الفورى الذى نقلناه عنه
:

تمكن حب الله منهم حياتهم
ففاض الهوى بالروح والقلب والصدر

نعم أصلهم ترب ولكن روحهم
من الوجد والاخلاص أصفى من التبر

همو أدب التقوى همو نفحة الهدى
همو درة الأيام هم سادة الدهر

هم الأهل والأعوان فى الانس والاسى
على كل ما تجرى الأمور أولو نصر

هم الثابتون الصادقون فما الغنى
بمبعدهم يوما ولا طارق الفقر

اذا صح بدء المرء صح انتهاؤه
فمن حسن الأولى فأخراه فى خير

وحسبى ان الله قصدى وملجئى
ومن قال يا الله طوق بالأجر

فما انثنى عنه الحياة وان أمت
فمن نعمة التوحيد أسعد فى القبر

وينهى رضى الله عنه عن سوء الظن بالأصحاب ، ويدعو الى مراقبة الله على الدوام ، حتى يوفى المؤمن أجره يوم القيامة ، فيقول فى الهامه الفيضى المرتجل لتوه :

ولا تك فى سوء الظنون مغاليا
ومن يتغالى ربما أخطأ ا لأثر
وظنك خيرا بالمصاحب واجب
ومن بحث الأسرار ليس أخا نظر
ولو لم يصن سر لهان موقر
لذلك سر الخلق غاب عن الفكر
وحسبك ستر الله عزا ومنعه
ولولاه ما ذنب العباد قد استر
سواء لدى الناس الا أخا التقى
عبادته تغنيه ان ورد الحفر
وكل فؤاد راقب الله جنة
منابتها الايمان والعلم والبصر
وأغصانها الاخلاص والصدق جذعها
وأثمارها التقوى وأنعم بها ثمر
فحاسب هنا تهنأ هناك منازلا
ومن حاسب النفس اجتباه الذى فطر
وما هذه الأيام الا رواحل
علوت لها ظهرا وكنت على سفر
وحسبك من دنياك أجر ورحمة
ومن لم ير الأخرى المراد قد اندثر

واذا ترقى المريد فى مراقبة الله تعالى ، كسب التقوى ، وتجنب الخطيئة ، وتقول السيدة فاطمة الزهراء النيسابورية ، وهى من فضليات النساء الصوفيات : من لم يراقب الله تعالى فى كل حال ، فانه بنحدر فى كل ميدان ، ويتكلم بكل لسان ، ومن راقب الله تعالى فى كل حال ، أخرسه

الا عن الصدق ، والزمه الحياء منه ، والاخلاص له ، وكان سيدى ذو النون المصرى يجل تلك السيدة ، وينوه بفضلها ويقول : فاطمة أستاذتى . ولو راقب المسلمون ربهم ، ما تعادوا أفرادا ولا جماعات ، ولكن الشيطان يفتنهم ويوقع بينهم العداوة والشقاق ، ويصدهم عن ذكر الله ، مع أن الله تعالى علمنا ان نحرص على سلامة الصدور ، حتى يشملنا وصفه العالى ((انما المؤمنون اخوة)) وألزمنا أن نصلح بين المتخاصمين ((فأصلحوا بين اخويكم)) وجعل الاصلاح بين المسلمين من التقوى ، كما جعل رحمة فى الدنيا والآخرة ((واتقوا الله لعلكم ترحمون)) ، لا بل أنه سبحانه وتعالى ذهب بنا فى الحرص على السلام بين الناس أن نحاول حسم الخلاف سلميا ان وقع قتال بين طائفتين ، فان فاءت اصلحنا بينهما بالعدل ، واقسطنا فى الحكم بينهما ، وقد تنازل أمامنا الحسن بن على ، رضى الله عنهما ، بوازع من دينه ، وتقربا لربه ، عن خلافة كانت فى يده ببيعة شرعية ، وكان حوله جيش عرمرم يحملون على عوانقهم نحو مائة ألف سيف ، وقد قال رضى الله عنه وعن آل البيت أجمعين حين أشير عليه بنقض صحيفة الصلح : يا مسيب ، انى لو أردت فعلت الدنيا ، لم يكن معاوية باصبر عند اللقاء ، ولا أثبت عند الحرب منى ، ولكنى أردت صلاحكم ، وكف بعضكم عن بعض ، فارضوا بقدر الله وقضائه ، حتى يستريح بر أو يستراح من فاجر .

وينوه صديقى الأديب الكبير المعاصر ، الأستاذ محمد جاد الرب بموقف السلام الذى وقفه أمامنا السبط الكريم الحسن رضى الله عنه وعن آل البيت أجمعين فيقول :

لا نثر يقضى له حقا ولا شعرا   ولو نظمت له القطبين والشعرى
سبط النبى فما اعلاه عن كلمى   لو كانت الأحرف الياقوت والدرا
فمن يكن جده طه ووالده   أبا تراب وكانت أمه الزهرا
وسيد الشهداء من بعض اخوته   فقد تسامى على كل اللغى قدرا

فلنقصر القول ولنقصد رحابهمو ولنلثم الترب لا بل نلثم التبرا

من كل رجس تعالى الله طهرهم وفى فضائلهم كم نزل الذكرا

أهل العباءة فالأعباء كم حملوا من البلاء صنوفا تحطم الصخرا

جهادهم فى سبيل الحقق ما طلبوا دنيا كما طلب الباغون او فخرا

ولو أراد ثراء المال جدهمو لكان من كل أقيال الورى أثرى

لكنه لم يشأ عن هدى أمته الا المودة فى القربى له أجرا

والسيد الحسن الزاكى بحكمته قد آثر الصلح صلحا جائرا مرا

القى الزمام الى من لا زمام لهم اذ كان فى رأيه حقن الدما أحرى

نبوءة من رسول الله قد صدقت وكان لا بد من أن تصدق البشرى

عام الجماعة سموه ومن عجب لم يبق فى الدين تلك الفتنة الكبرى

ملك عضوض لذا أيامه ملئت من الخداع وبالقتلى وبالأسرى

ولو ببيت رسول الله قد بقيت لم تفش فى الدين تلك الفتنة الكبرى

مشيئة الله فى أحبابه سبقت لحكمة حيرت فى فهمها الفكرا

فان يكن ولى الدنيا مناوئهم فقد ولوا المجد فى الدنيا وفى الأخرى

والنبوة المشار اليها آنفا هى ما قاله مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حق الامام الحسن وهو طفل صغير ، فقد قال فيما رواه البخارى : ((ان ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين)) .

ونسأل الله للمسلمين سلامة الصدور ، وصفاء النفوس ، حتى تقوم بينهم ألفة جامعة ، يردون بها كيد الأعداء ، الذين يتربصون بهم الدوائر ، والجماعة رحمة ، والفرقة عذاب ، ويد الله مع الجماعة ، ولن يجد المسلمون لهم ناصحا انصح لهم من ربهم ، جل جلاله ، حين قال قوله الحق :

((يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون . واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فالف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون)) .

- ٢٤ -

((ولا تخـــف فالرضـــا حاصــــل ، وأنـــت كامـــل ، والحقـــوق لأربابهـــا ، والزمـــان لـــه دورتـــه ، وســيتم لـــك مـــا تريـــد مـــا دمـــت مـــع الله وقضـــى ربـــك ، وأنـــت ذو مـــزاج ظريـــف ، فحـــافظ عليـــه ، فاننـــا نريـــد لـــك الأنـــس والســـرور ، ويـــدوم ان شاء الله ، وتأنس ويؤنس بك ، ويتم لك الصفاء والوفاء)) .

جـــاءتنى هـــذه العبـــارة فـــى رســـالة حررهـــا لـــى مـــن الاســـكندرية شـــيخى العـــارف بـــالله ســـيدى عبـــد الســـلام الحلـــوانى ، رفـــع الله قـــدره فـــى الأوليـــاء ، حـــين كنـــت فـــى مقتبـــل شـــبابى ، وكنـــت آمـــل أن يكملنـــى الله بـــآداب عبـــاده الصـــالحين : وأن يحشـــرنى فـــى زمـــرتهم يـــوم لقائـــه ســـبحانه ، وهـــم الـــذين قـــال عـــنهم فـــى القـــرآن المجيـــد ، ((رضـــى الله عـــنهم ورضـــوا عنـــه أولئـــك حـــزب الله ألا ان حـــزب الله هـــم المفلحـــون)) فأشـــار الشـــيخ رضـــى الله عنـــه الـــى أن مـــا أصـــبو اليـــه يتحقـــق بشـــرطه . وشـــرطه أن يكـــون المـــؤمن دائمـــا مـــع ربـــه ، ويفســـره قولـــه تعـــالى ((وقضـــى ربـــك ألا تعبـــدوا الا ايـــاه وبالوالـــدين احســـانا)) كمـــا أشـــار الشـــيخ فى عبارته .

وعبـــادة الله ســـبحانه نقتضـــى توحيـــده ، كمـــا يفيـــد الاســـتثناء فـــى الآيـــة الكريمـــة ، وتوحيـــده يقتضـــى طاعتـــه ، وطاعتـــه تقتضـــى تقـــواه ، وتقـــواه تقتضـــى الائتمـــار والانتهـــاء بنواهيـــه ، وذلـــك مـــا ينتهـــى بـــالمؤمن اذا صـــدق فـــى الائتمـــار والانتهـــاء الـــى محبـــة الله ، وايثـــاره تعـــالى علـــى مـــا ســـواه ، وقـــد يطـــول جهـــاده فـــى هـــذا الشـــأن ، وقـــد يقصـــر بحســـب فطرتـــه ، وهمتـــه ، وتقـــدير العزيز العليم .

ومـــن هنـــا يختلـــف خـــواص المـــؤمنين عـــن عـــوامهم . . فـــالعوام يكتفـــون فـــى العبـــادة بمـــا يســـقط عـــنهم الحـــرج ، أمـــا الخـــواص فـــانهم يطلبـــون الكمـــال فـــى الـــدين ، فـــاذا نظـــر العـــوام الـــى تنفيـــذ الاوامـــر فـــان الخـــواص يرفعـــون همـــتهم الـــى محبـــة الأمـــر الـــذى صـــدرت منـــه تلـــك الأوامـــر ، والـــذى أمـــر بهـــا لحكمـــة هـــى الاتصـــال بـــه ســـبحانه ، اتصـــال حـــب وايثـــار ، كســـبا لرضـــاه ، فـــى دنيـــا المـــؤمن وأخـــراه ، ولهـــذا قـــالوا ((ايـــاك نعبـــد)) شـــريعة ، ((وايـــاك نســـتعين)) حقيقـــة ، فـــالأولى فيهـــا نظـــرة الـــى العبـــد ، والثاتيـــة فيهـــا نظـــرة الـــى فعـــل المعبـــود جـــل شـــأنه ، وخـــروج العبـــد مـــن حولـــه الـــى حـــول الله وقوتـــه رقـــى فـــى المعرفـــة والمـــذاق ، فيصـــل بالعبـــادة الـــى المعرفـــة ، والا كانـــت عبـــادة جوفـــاء ، لا غنـــاء فيهـــا ، ولا نمـــاء ، ونعـــوذ بـــالله مـــن حجـــاب الغفلـــة ، وكيـــف يغتـــر العبـــد بعمله ويجحد فضل ربه وهو القائل ((والله خلقكم وما تعلمون)) .

والشـــريعة بـــاب للحقيقـــة ، وانمـــا تـــؤتى البيـــوت مـــن أبوابهـــا ، واذا كانـــت الشـــريعة هـــى البـــاب ، فالطريقـــة هـــى الآداب ، والحقيقـــة هـــى اللبـــاب ، أو قـــل ان الشـــريعة هـــى التعلـــق ، والطريقـــة هـــى التخلـــق ، والحقيقـــة هـــى التحقـــق ، فـــلا بـــد لـــك مـــن الشـــريعة لتعبـــد ربـــك علـــى صـــحة ، ولا بـــد لـــك مـــن طريقـــة تتبعهـــا ، بارشـــاد عـــارف ، قبـــل أن تصـــل الـــى الحقيقـــة التـــى تنشـــدها مـــن وراء العبـــادة ، فتـــؤثر الله علـــى كـــل شـــىء ، فـــلا يكـــون لـــك قبلـــة ولا مقصـــد الا وجهـــه ســـبحانه ، كما يقول أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل ، طيب الله ثراه :

قبلتى فى الصلاة ساعة وقت ... كم مصل بعد الصلاة تلاهى
انما قبلتى جميع حياتى ... هى ذات الاله لن أنساها
فسمائى مع اليقين نهار ... ونهارى سعادة برضاها

والشـــريعة كالجســـد ، والحقيقـــة كـــالروح فـــى الجســـد ، فـــالروح تلابـــس الجســـد ، ولا وجـــود لـــلأرواح ، الا فـــى الأجســـاد مـــدة عمرهـــا فـــى هـــذه الـــدنيا ، ولا حيـــاة للأجســـاد الا بهـــا ، ولـــذلك قـــال امامنـــا مالـــك رضـــى الله عنـــه : مـــن تصـــوف ولـــم يتفقـــه فقـــد تزنـــدق ، ومـــن تفقـــه ولـــم يتصـــوف فقـــد تفســـق ، ومـــن جمع بينهما فقد تحقق .

وأصل التصوف مقام الاحسان الذى عرفه مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث مسلم المشهور الذى رواه عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقال صلى الله عليه وسلم فى تعريف الاحسان : ((ان تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك)) .

فالتصوف أحد أركان الدين ، لأنه مقام الاحسان الذى سأل عنه جبريل بعد أن سأل عن الاسلام والايمان ، وقد قال مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ((يا عمر أتدرون من السائل)) . وكان فى شكل رجل لا يعرفونه . قلنا الله ورسوله أعلم ، قال هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم ، فالاسلام الايمان والاحسان هى أركان ديننا ، فمن فرط فى واحد منها فقد فرط فى ركن من أركان دينه ، كما قال الامام الجلال السيوطى فى تعقيبه على الحديث الشريف .

ويقول سيدى الامام زروق . رضى الله عنه . فى كتابه القيم ((قواعد التصوف)) : حكم التابع كحكم المتبوع فيما تبعه وان كان المتبوع أفضل ، وقد أثبت الله لأهل الصفة وصفة الخالد ((يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه)) وهكذا هو أصل التصوف ، ثم يقول رضى الله عنه ، وقد كان أهل الصفة فقراء فى أول أمرهم حتى كانوا يعرفون بأضياف الله ، ثم كان منهم الغنى والأمير ، والمتسبب والفقير ، لكنهم شكروا عليها حين وجدت ، كما صبروا عليها حين فقدت ، فلم يخرجهم الوجدان عما وصفهم مولاهم به ، من انهم يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، كما أنهم لم يمدحوا بالفقدان ، بل بارادة وجه الملك الديان ، وذلك غير مقيد بفقر ولا غنى اذا كان صاحبه يريد وجه الله)) .

ويقول أيضا رضى الله عنه : وشرف الشىء بشرف متعلقه ، ولا أشرف من متعلق علم التصوف ، لأن مبدأه خشية الله ، التى هى نتيجة معرفته ، ومقدمه اتباع أمره ، وغايته افراد القلب له تعالى ، فلذلك قال الجنيد رضى الله عنه : لو علمت أن تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم الذى تتكلم فيه مع أصحابنا لسعيت اليه .

ومــن كــلام الامــام زروق تــدرك أنــه لا ســلبية عنــد الســادة الصــوفية كمــا ظــن الــبعض خطــأ ، حــين نظــروا الــى أدعيــاء التصــوف فــى القــرون المتــأخرة ، حــين صــار التصــوف حرفــة لــبعض المعممــين ، يتصــدرون بــه الأتبــاع ، ويجمعــون منهم الأموال ويسعون بهم الى ولائم الطعام ، ويرددون عبارات صوفية ، كما يردد الببغاء أصوات المتكلمين دون فهم لمعناها ، أو عمل بمغزاها ، وما دروا أن التصوف علم صحيح ، وذوق صريح ، وهمة عالية ، وحالة مرضية ، وبصيرة نافذة ، وكسب من حلال ومجاهدة فى بلوغ الكمال وارادة وجه الله تعالى فى كل حال .

ومــا أبــدع مــا يقولــه العــارف بــالله الشــيخ حســن رضــوان . رضــى الله عنه . فى روض القلوب المستطاب فى وصف اولئك المحترفين البطالين :

اعموا جميع الخلق عن سير لسلف ... واستكملوا ما كان من جهل الخلف
واستعملوا أحوال سير العارفين ... حفظا وتقريرا فقط لا عن يقين
بل تلك أحوال لديهم مصيدة ... بالدين للدنيا ونار مؤصدة
ما هكذا والله كان السابقون ... الأولون المخلصون الصادقون
الذائقون الخاشعون الصالحون ... القانتون المتقون المفلحون
التائبون العابدون الحامدون ... السائحون الراكعون الساجدون

ولا يخفــاك أنــه مهمــا جــد الصــوفية ، فــانهم لا يبلغــون مســتوى الصــحابة ، فالســادة الصــحابة هــم خيــر القــرون فــى هــذه الأمــة ، وقــد كــانوا أســودا فــى نهــارهم ، وعبــادا فــى ليلــتهم ، وقــد تولــوا وظــائف الدولــة ، وضــربوا فــى الأرض للتجــارة ، وأنفقــوا طائــل الأمــوال فــى الصــالح العــام ، وقــد حمــوا بيضــة الاســلام بالســيف والقلــم والمــال ، والصــوفيه يتشــبهون بالســادة الصــحابة فــى ارادة وجــه الله فــى كــل أعمــالهم ، فينظــرون وهــم يعملــون الــى المعبــود لا الــى العبــاد ، فــلا يحفلــون بمــدح العبــاد أو ذمهــم ، لأن ارضــاء الله فــى عبــاده وبــلاده هــو قصــدهم ، وهــم فــى المجتمــع يعــاملون الله فــى عبــاده ، ويريــدون وجهه .

وقــد وصــف الله الســادة الصــحابة فقــال فــى وصــفه الرائــع جــل شــأنه ((فــى بيــوت أذن الله أن ترفــع ويــذكر فيهــا اســمه يســبح لــه فيهــا بالغــدو والآصــال . رجــال لا تلهــيهم تجــارة ولا بيــع عــن ذكــر الله وأقــام الصــلاة وايتــاء الزكــاة يخــافون يومــا تتقلــب فيــه القــوب والأبصــار . ليجــزيهم الله أحســن مــا عملــوا ويزيــدهم مــن فضــله والله يــرزق مــن يشــاء بغيــر حســاب)) واذن كانــت للســادة الصــحابة تجــارة ، وكانــت لهــم أمــوال تجــب فيهــا الزكــاة ، ولكــن هــذه التجــارة ، وتلــك الأمــوال ، لــم تلههــم عــن أداء حقــوق الله ، فــذكروا الله ، وأقــاموا الصــلاة ، وآتــوا الزكــاة ، وخــافوا يــوم الحســاب ، يــوم ينظــر المــرء مــا قدمت يداه .

وقــد أدار الخلفــاء الراشــدون دفــة الحكــم ، أحســن ادارة وأقومهــا ، وأعــدلها ، وجيشــوا الجيــوش لحمايــة الأوطــان ، وكــانوا مــن الســابقين الأولــين مــن المهــاجرين ، كمــا قــاد ســعد بــن أبــى وقــاص وخالــد بــن الوليــد ، وأبــو عبيــدة ابــن الجــراح ، وغيــرهم ، الجيــوش أبــرع قيــادة ، فكيــف يظــن أن التــزام الــدين ، وأخــذه بقــوة ، يضــعف دنيــا المــؤمن ، وقــد كانــت الســيادة للمســلمين فــى العــالمين حــين كــانوا أشــد استمســاكا بالــدين فــى القــرون الأولــى ، ذلــك الاستمســاك الــذى أعــانهم علــى فــتح المشــارق والمغــارب ، ونشــر الــدين واللغــة بــين ربوعهــا : ولــم يكتــب التــاريخ البشــرى ، ثمــرة لأى فــتح مثلمــا كتــب للفــتح الاســلامى ، الــذى أعــلا الله بــه كلمــة الحــق فــى الأرض ، ونشــر بــه الهــدى والنــور ، والعــدل الاجتمــاعى ، بــين الأغنيــاء والفقــراء ، والضــعفاء والأقويــاء والعلمــاء والجهــلاء ولــم يعهــد التــاريخ امبراطوريــة قامــت علــى عجــل كالامبراطوريــة الاســلامية ، وقــد ســاعد علــى ســرعة قيامهــا تمســك المســلمين بالــدين ، فلــم يظلــم قــويهم ضــعيفهم ، ولــم يبخــل غنــيهم علــى فقيــرهم ، ولــم يكــتم عــالمهم علمــه عــن جــاهلهم ، ولــم يميــز حــاكمهم بــين الشــريف والوضــيع ، فالكــل أمــام حكــم الله سواســية كأســنان المشــط ، فهــل تــرى ايجابيــة فــوق ذلــك . وورع الحــاكم ، لــم يكــن معنــاه ضــعف ادارتــه أو تهــاون فــى حقــوق الأمــة ، بــل كــان ورعــه يقــوم علــى اعطــاء كــل ذى حــق حقــه ، فقــد قــال أبــو بكــر رضى الله عنه فى اول خطبه خطبها بعد مبايعته : ألا وان قويكم عندى

ضعيف حتى آخذ منه الحق ، وان ضعيفكم عندى قوى حتى آخذ له الحق ، وقد ضرب عمر رضى الله عنه بدرته حتى أوجع ، وقالوا كانت درة عمر أهيب من سيف الحجاج ، وقال عثمان رضى الله عنه ، ان الله يزع بالسلطان والا يزع بالقرآن ، وجرد أمامنا على كرم الله وجهه السيف فى أعناق الخوارج ، بعد أن بصرهم فلم يسمعوا أو يطيعوا ، وهؤلاء الأئمة الأربعة هم صفوة الصفوة من هذه الأمة .

فالتصوف الحق ، لا يعرف الضعف ، أو الخمول ، أو الجهل ، أو الذلة ، بل جهاد للنفس يقهر غرائزها المركوزة فى الطبع ، حتى تصفو من كدوراتها ورعوناتها ، فتسمو عن الحيوانية ، الى المثل الأعلى ، الذى أراده الله تعالى ، للانسان فى كماله ، واهله به ليكون له شرف خلافته فى الأرض ، فتعلوا كلمة الحق على كلمة الباطل ، وتشبع بين الناس الفضيلة وتختفى الرذيلة ، فيسعد فى دنياهم وأخراهم .

والتصوف هو طهارة القلب واليد واللسان والجوارح ، والصوفى كله رحمة بالخلق ، وكله حب لله تعالى الذى خلق الخلق ، ويقول الامام الغزالى رضى الله عنه ، ((ان الحب الذى استحوذ على قلب الصوفى ، ليس هو حب الانسان لله فحسب ، بل هو حب الله لجميع البشر ، فمن خلال هذه العقيدة فهو يحب الانسانية كلها حبا تعبديا ، وليس هذا الحب هو الأخوة التى يوصى بها الفلاسفة باسم العقل ، انه لشىء أكبر مما تفهم الفلاسفة . وقد فاض علم الغزالى فأثار به طريق الحق ، للتابع والمتبوع ، والحاكم والمحكوم ، وأبرز به فضل الاسلام على الفلسفة العقلية التى فتنت أهلها ، ودافع به عن حق الامة ، فقد كتب ليوسف بن تاشقين ملك المغرب يقول له ان لم تنهض لنجدة أخونك المسلمين بالأندلس برىء منك الاسلام . ونيفت مؤلفات الامام محيى الدين بن عربى على أربعمائة كتاب ، وقد أسهم فى الحروب الصليبية بيده وبيانه وقد كتب للملك الكامل الأيوبى يقول له : ان لم تنهض لقتال الصليبيين فاننا سنقاتلك كما نقاتلهم .

وقد استمع شيخ الاسلام العز بن عبد السلام الى الامام الشاذلى وهو يدرس لاتباعه فى ساحة الحروب الصليبية فخرج صائحا يقول هذا قريب العهد من الله ، هذا من الهام الله وهداه .

وقالوا ان فكرة كتمان موت الملك نجم الدين كانت بايعاز من سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه ، فنفذت الفكرة شجرة الدر ، وكتمت موت الملك ، الى أن يأتى ابنه توران شاه من الشام .

واستمع بعد ذلك الى التعريف الذى قدم به الصوفية الامام السراج الطوسى فى كتابه اللمع حيث قال رضى الله عنه :

((فاذا قيل لك الصوفية من هم فى الحقيقة صفهم لنا فقل : هم العلماء بالله وبأحكام الله العاملون بما علمهم الله تعالى ، المتحققون بما استعملهم الله عز وجل ، الواجدون بما تحققوا الفانون بما وجدوا .

((هم أمناء الله عز وجل فى أرضه ، وخزانة أسراره وعلمه ، وصفوته من خلقه ، فهم عباده المخلصون ، وأولياؤه المتقون ، واحباؤه الصادقون الصالحون ، منهم الأخيار ، والسابقون الأبرار ، والمقربون والبدلاء والصديقون .

((هم الذين أحيا الله بمعرفته قلوبهم ، وزين بخدمته جوارحهم ، والهج بذكره ألسنتهم ، وطهر بمراقبته أسرارهم ، سبقت لهم منه الحسنى بحسن الرعاية ، ودوام العناية ، فتوجهم بتاج الولاية ، وألبسهم حلل الهداية ، وأقبل بقلوبهم علية تعطفا ، وجمعهم بين يديه تلطفا ، فاستغنوا به عما سواه ، وآثروه على ما دونه ، وانقطعوا اليه ، ونوكلوا عليه ، وعكفوا ببابه ، ورضوا بقضائه ، وصبروا على بلائه ، وفارقوا فيه الأوطان ، وهجروا له الاخوان ، وتركوا من أجله الأنساب والأسباب ، وقطعوا فيه العلائق ، وهربوا من الخلائق ، مستأنسين به ، مستوحشين مما سواه ((ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم)) .

أقــول وقــد فــارق المهــاجرون مكــة فــرارا بــدينهم الــى الحبشــة والمدينــة ، وقطـــع الأنصـــار صـــلاتهم بأهـــل مكـــة ، ايثـــارا لله علـــى الأنســـاب ، وحرصــوا علــى أن يبقــى فــيهم مولانــا رســول الله صــلى الله عليــه وسـلم ، وهانــت علـيهم كـل تضـحية فـى سـبيل الله ، حتـى لقـد قـال ابـو الهيـثم بـن الثيهـان فـى بيعــة العقبــة الثانيــة ، يــا رســول الله ، ان بيننــا وبــين النــاس ((أى اهــل مكــة)) صــلات وانــا قاطعوهــا ، فهــل عســيت ان أظهــرك الله علــيهم ان تــدعنا وترجــع الــيهم ، فأجابــه صــلوات الله عليــه وآلــه ، معــاذ الله المحيــا محيــاكم ، والممــات مماتكم ، فقال ابو الهيثم ، هذه يدى فخذ لربك ولنفسك ما أحببت .

وقـــد مـــدح الله المهـــاجرين والأنصـــار بتضـــحياتهم فـــى آيـــات كثيـــرة مـــن كتابــه الكــريم ونستشــهد علــى ســبيل المثــال بقولــه تعــالى ((والــذين آمنــوا وهــاجروا وجاهــدوا فــى ســبيل الله والــذين آووا ونصــروا أولئــك المؤمنــون حقــا لهـم مغفـرة ورزق كـريم)) وقـد قهـروا بجهـادهم غرائـز النفـوس وطرحـوا هواهـا وهـى تميــل بطبعهــا للاخــلاد الــى الراحــة وامســاك المــال ، وتأســوا فــى جهــاد أنفســهم بمولانــا رســول الله صــلى الله عليــه وســلم ، وقــد فــاق فــى جهــاد نفســه كــل المجاهــدين ، فــآثر ربــه علــى كــل مــا أغــروه بــه مــن ملــك أو مــال ، وقــال قولتــه المشــهورة لعمــه أبــى طالــب حــين عــرض عليــه كفــار مكــة ملــك الــدنيا ((يــا عــم والله لــو وضــعوا الشــمس فــى يمينــى والقمــر فــى يســارى علــى أن أتــرك هــذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه)) .

وقـــد ورثهـــم رســـول الله صـــلى الله عليـــه وســـلم العلـــم والعمـــل والجهـــاد ، وأخــذ التــابعون عــن الصــحابة ، والتــابعون عــن التــابعين وهكــذا أخــذ الخلــف عــن الســلف جــيلا بعــد جيــل ، ويعبــر أنــس بــن مالــك رضــى الله عنــه عــن الفــراغ الكبيـــر الـــذى أحســـوه بانتقـــال رســـول الله صـــلى الله عليـــه وســـلم الـــى الرفيـــق الأعلــى فيقــول : مــا نفضــنا التــراب عــن أيــدينا مــن دفنــه عليــه الســلام حتــى أنكرنــا قلوبنــا ، وذلــك يــدلنا علــى أن رؤيــة شخصــه الكــريم كانــت نافعــة لقلــوبهم التــى تأثرت بوحشه فراقه ، وأن بقيت فيهم مثله العليا وسنته الطاهرة الزكية .

والشيوخ العارفون ، وهم العلماء الربانيون نواب عنه ، صلى الله عليه وسلم ، فى دعوة الخلق الى الحق ، لذلك كان الأخذ عنهم غنيمة ، والاجتماع بهم ، والاستماع اليهم رحمة ، ولنفع الاجتماع فى سبيل الله ، شدد الله على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التزامه ، ونهاهم عن تركه الا باذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفوضه صلى الله عليه وسلم فى أن ياذن بتركه أو لا يأذن ، وذلك فى قوله تعالى ((انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على أمر جامه لم يذهبوا حتى يستأذنوه ان الذين يستأذنوك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فاذا أستأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله ان الله غفور رحيم)) .

ويقول الامام النسفى . رضى الله عنه . فى تفسيره لهذه الأية : لما أراد الله عو وجل أن يريهم عظم الجناية فى ذهاب الذاهب عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير اذنه اذا كانوا معه على أمر جامع ((كل اجتماع فى الله كالتدبير للحرب والجمعة والعيدين)) جعل ترك ذهابهم حتى يستأذنوه ثالث الايمان بالله والايمان برسوله ، ثم عقبه بما يزيده توكيدا وتشديدا حيث أعاده على أسلوب آخر وهو أنه جعل الاستئذان كالصدق لصحة الايمانين وعرض بحال المنافقين ، وتسللهم لو اذا ((يستتر بعضهم ببعض)) ، وفى قوله تعالى ((فأذن لمن شئت منهم ، واستغفر لهم الله)) رفع شأنه عليه الصلاة والسلام ، وذكر الاستغفار للمستأذنين دليل على أن الأفضل ألا يستأذن ، ثم يستطرد الامام قائلا : قالوا وينبغى أن يكون الناس كذلك مع أئمتهم ومقدميهم فى الدين والعلم يظاهرونهم ولا يتفرقون عنهم الا باذن .

ولئن أمكن أخذ العلم من الكتب بدون معلم ، فان آداب القلوب متعذرة وبدون مؤدب ، لأن النفس أمارة بالسوء ، وآفاتها أخفى من دبيب النمل ، وكفى شرفا لعلم التصوف ، وهو علم تربية القلوب ، ان يطلبه سيدنا موسى عليه السلام فيسعى للخضر عليه السلام ليأخذه عنه ، حين

أعلمه الله ، أنه على علم من علم الله لا يعلمه موسى عليه السلام ، وان كان من المرسلين أولى العزم ، فحرص على طلبه من مصدره ، وقال فى أدب رفيع للخضر عليه السلام : ((هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا)) وبقية القصة معروفة ، واذا كان كليم الله وصاحب التوراة ، سعى لرجال الله ، فنحن أحوج منه الى ذلك السعى .

وها هو أمامنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه يذكرنا بأمر آخرتنا فى بلاغته السامقة فيقول :

((الا ان الدنيا دار لا يسلم فيها ، ولا ينجى بشىء كان لها ، ابتلى الناس بها فتنة ، فما أخذوه منها لها ، أخرجوا منه وحوسبوا عليه ، وما أخذوه منها لغيرها قدموا عليه ، وأقاموا فيه ، فانها عند ذوى العقول كفىء الظل ، بينا تراه سابغا حتى قلص ، وزائدا حتى نقص)) .

ويصف كرم الله وجهه التقى من أهل اليقين بالله فيقول فى روعة وصفه : ((قد خلع سرابيل الشهوات ، وتخلى عن الهموم ، الا هما واحدا انفرد به ، فخرج من ضعة العمى ، ومشاركة أهل الهوى ، وصار من مفاتيح أبواب الهدى ومغالق أبواب الردى .

((قد أخلص لله فاستخلصه فهو من معادن دينه ، واوتاد أرضه ، قد ألزم نفسه العدل ، فكان أول عدله نفى الهوى عن نفسه .

((يصف الحق ويعمل به ، لا يدع للخير غاية الا أمها ، ولا مظنة الا قصدها ، قد أمكن الكتاب من زمامه ، فهو قائده وامامه ، يحل حيث حل ثقله ، وينزل حيث كان منزله)) .

وذلك الوصف يفسر لك كيف وقف السادة الصحابة فى الصف الأول بقلوبهم مع الله ، لأخذهم الدين بقوة العزائم ، فورثوا الدنيا بقوة الدين ، حيث أهمهم أن ينشروا أنوار الاسلام فى الخافقين ، فكان لهم من اخلاص نواياهم ، وقوة عزائمهم ، ما أرادوا ، مصداقا لوعده سبحانه ((ولينصرن الله من ينصره)) ونصرة الله انما تكون باقامة دينه والعمل على نشره لتكون كلمة الله هى العليا ، وقد أيدهم الله فى جهادهم بجنود لا تراها العيون .

ويشيد المغفور له الدكتور محمد اقبال فيلسوف المسلمين فى العصر الأخير ، بآثار أسلافنا الصالحين فيقول فى قصيدته الرائعة المسماة ((شكوى)) التى نقلها الى العربية صديقى العلامة الشيخ الصاوى شعلان فيما قال طويلا رحمه الله فى نجواه لرب العالمين :

بلغت نهاية كل أرض خلينا   وكأن ابحرها رمال البيد
فى محفل الاكوان هلالنا   بالنصر اوضح من هلال العيد
فى كل موقعة رفعنا راية   للمجد تعلن آية التوحيد
أمم البرايا لم تكن من قبلنا   الا عبيدا فى أسار عبيد
بلغت بنا الأجيال حرياتها   من بعد أصفاد وذل قيود

ويحن الى حماة الاسلام وأبطاله الأوائل ، ويذكر عهدهم السعيد فيقول :

كيف انطوت أيامهم وهم الألى   نشروا الهدى وعلوا مكان الفرقد
هجروا الديار فأين أزمع ركبهم   من يهتدى للقوم أو من يقتدى
يا قلب حسبك لن تلم بطيفهم   الا على مصباح وجه محمد
فازوا من الدنيا بمجد خالد   ولهم خلود الفوز يوم الموعد
يارب ألهمنا الرشاد فما لنا   فى الكون غيرك من ولى مرشد

ثم يبين ، طيب الله ثراه ، اننا ان مللنا حب الله ، ضللنا سواء السبيل فيقولون :

لم يبق فى الأرواح غير بقية   رحماك يا مرآه كل جمال
لو قد مللنا العشق كان سبيلنا   ان نستكن الى هوى وضلال
أيام سلمان بنا موصولة   وتقى أويس فى أذان بلال

ويقول :

النمل لا يخشى سليمان اذا   حرست قراه عناية الرحمن
ياليت قومى يسمعون شكاية   هى فى ضميرى صرخة الوجدان
اسمعهموا يارب ما ألهمتنى   وأعد اليهم يقظة الايمان

وأذقهم الخمر القديمة انها عين اليقين وكوثر الرضوان
أنا أعجمى الدن لكن خمرتى صنع الحجاز وكرمها الفيشان
ان كان لى نغم الهنود ولحنهم لكن هذا الصوت من عدنان

وهكذا ترى أن هذا العبقرى ، جال فى الملكوت بيقينه ، ولم تحجبه دراسته الغربية عن الاعتزاز بدينه وأسلافه ، وقد نال اقبال أعلى الأجازات العلمية من انجلترا وألمانيا فى الفلسفة والآداب والقانون . . وتولى التدريس بعد عودته فى جامعات بلاده . . كما تولى المحاماة ، لكنه عزف على قيثارة ايمانه . . أنغاما شجية ترددت فى مسامع الشرق والغرب . . وسجلت لهذا المسلم الصوفى الغيور أثرا . يذكره له الخلف . وقد كتبه الله له فى ديوان حسناته ، وسيجزيه به جنات الخلد ان شاء الله . . ولعل شبابنا من أصحاب المواهب يحتذون هذا المثل العالى . . فلا تلهيهم دنياهم عن أخراهم . . وما أحسن الدين والدنيا اذا اجتمعنا .

وهؤلاء الصوفية يصلون الى الله تعالى بأرواحهم لا بأبدانهم . . ويملأ حب الله قلوبهم ، كما يملأ المعشوق قلب العاشق فلا يترك فراغا لغيره ((ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله)) جعلنا الله من الموصولين الواصلين ((والسابقون السابقون ، أولئك المقربون . فى جنات النعيم . ثلة من الأولين . وقليل من الآخرين .))

- ٢٥ -

((وكن مع أهل الحقيقة ، وابحث عنهم بحث الباحث عن حق يرجع اليه لنفسه فقط)) .

جاءتنى هذه العبارة فى احدى رسائل شيخى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى ، قدس الله سره ، وحاولت أن أفهمها ، بشىء من السعة ، فسألته حين جاء الى القاهرة فى معناها فقال لى : اتركها حتى يفسرها الزمن .

وعاشرته رضى الله عنه ، خمسة عشر عاما ، مرت كحلم النائم وفقدت بموته ، اماما فريدا ، نسيج وحده ، شعرت بفراغه ، ويزداد شعورى بالفراغ كلما مرت الأيام ، وفقد الأدلاء الأتقياء غربة ، لأن الانس بالله تعالى وطن المحبين ، والشيوخ العارفون هم أدرى الناس ببقاع ذلك الوطن ، فقد أنابوا الى الله فعرفهم قصد السبيل ، ونصح سبحانه المؤمن باتباعه فى قوله الكريم ((واتبع سبيل من أناب الى ثم الى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعلمون .

وتقدمت بى السن ، وخبرت الناس وبلوتهم ، وأكسبتنى التجارب معرفة بأحوالهم وأهوالهم ، فلم يزدنى كل ذلك الا وثوقا فى نصيحة شيخى رضى الله عنه ، بل لقد ساعدتنى التجارب الطويلة على كشف ما كان مخبوءا ، فظهر لى أمره ، وبان لى سره ، فلم أجد الحق الا عند أهل الحقيقة ، ولم أجد الحقيقة الا عند رجال الله الذين شرفهم بالانتساب اليه فسماهم عباد الرحمن ، ووصفهم بأنهم حزب الله ، وشهد لهم بالفلاح فى قوله الكريم ((أولئك حزب الله الا ان حزب الله هم المفلحون)) .

لكننـــى وجـــدت كـــذلك ، مـــع وضـــوح الطريـــق اذ تحـــف بـــه أنـــوار الكتـــاب والســـنة مـــن كـــل جانـــب ، فانـــه دقيـــق المســـلك ، حيـــث نصـــحب ســـالكه آفـــات الـــنفس ومكايـــد الشـــيطان ، والـــنفس تـــركن الـــى الراحـــة ، والســـلوك يحتـــاج لهمـــة الســـالك ، والشـــيطان يقعـــد بطريقـــه ، يصـــده عـــن ذكـــر الله وطاعتـــه ، ويـــزين لـــه حـــب الشـــهوات ، والقنـــاطير المقنطـــرة مـــن الـــذهب والفضـــة والخيـــل المســـومة والانعـــام والحـــرث ، والامـــام المتبـــوع مـــن أهـــل الهـــدى ، لازم فـــى عونـــه علـــى اجتيـــاز هـــذه المفـــاوز المرديـــة ، فـــان اجتازهـــا جـــاءه الشـــيطان مـــن طريـــق آخـــر ، فـــأكبر لـــه جهـــاده ، وصـــغر لـــه جهـــاد غيـــره ، فزهـــا بنفســـه فـــى قرارتهـــا ، واحتقـــر غيـــره ، فكـــان ذلـــك عـــين الحجـــاب عـــن طلـــب الحـــق ، لأن طالـــب الحـــق لا يرضـــى عـــن نفســـه حتـــى يردهـــا الـــى الله طـــاهرة ، كمـــا تلقاهـــا عنـــه طـــاهرة ، كمـــا يقـــول الســـادة الصـــوفية . ويفنـــى عمـــر الســـالك دون هـــذه الغايـــة ، الا أن يشـــاء ربـــى شـــيئا ، لأن الـــدرب طويـــل ، والغايـــة بعيـــدة الا أن يقربهـــا الله تعـــالى هبة واحسانا .

ثـــم ان العمـــل الصـــالح ، أساســـه الايمـــان بـــالله تعـــالى ، والايمـــان هبـــة الله تعـــالى لعبـــده فـــى ســـوابق أزلـــة ، وكـــذلك يتجلـــى فضـــل الله فـــى ارســـال رســـوله الينـــا صـــلى الله عليـــه وســـلم ، وفـــى ابقـــاء معجـــزة القـــرآن بـــين أيـــدينا ، متحديـــة علـــى الـــدوام باعجازهـــا المفحـــم الانـــس والجـــن ، وهـــو مـــا يزيـــدنا اطمئنانـــا الـــى صـــحة ديننـــا ، كمـــا يزيـــدنا وثوقـــا فـــى ثمـــرة العمـــل بـــه ، والنظـــر فـــى كـــل ذلـــك الـــى فضل الله تعالى ، وشكره على ما أولى وأنعم .

ويقول الامام أبو طالب المكى رضى الله عنه ، فى قوت القلوب .

((أكثـــر عقوبـــات الخلـــق مـــن قلـــة الشـــكر علـــى الـــنعم ، وأصـــل قلـــة الشـــكر الجهـــل بالنعمـــة ، وســـبب الجهـــل بالنعمـــة قصـــور العلـــم بـــالله تعـــالى ، وطـــول الغفلـــة عـــن الـــنعم ، وتـــرك التفكيـــر فـــى نعمـــه ، والتـــذكير لآلائـــه ومننـــه ســـبحانه وتعـــالى فقـــد أمـــر بـــذلك فـــى قولـــه تعـــالى ((فـــاذكروا آلاء الله لعلكـــم تفلحـــون)) قبـــل نعمـــه ، وقـــال المفســـرون ((واذكـــروا نعمـــة الله علـــيكم ومـــا أنـــزل علـــيكم مـــن الكتاب والحكمة يعظكم به)) وبمعناه قوله تعالى ((ولتكملوا العدة

ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون)) يعنى على نعمة الهداية وتوفيق الطاعة .

ويقول رضى الله عنه فى موضع آخر . .

((ولا يستطيع العبد شكر نعمة الايمان ، ومعرفة بداية التفضيل به ، وقديم الاحسان ، من غير قدم من العبد ولا استحقاق ، بل بفضل الله وبرحمته ، وهذا أحد الوجوه فى قوله تعالى ((كلا لما يقض ما أمره)) أى لا يقضى العبد أبدا شكر ما أمره الله تعالى من نعمة الاسلام التى هى أصول النعم فى الدنيا والآخرة ، وهى سبب النجاة من النار ، ومفتاح دخوله الجنة ، ولا أدل للعبد فيها ولا شفيع كان له الى الله تعالى بها .

((ثم دوام ذلك وثباته مع الطرف والانفاس بمدد منه نعم مترادفة ومن هذا قوله تعالى :

((كتب فى قلوبهم الايمان وايدهم بروح منه)) أى قواهم بمدد يثبته ويقويه وهو معنى قوله تعالى :

((يثبت الله الذين آمنو بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة)) .

ثم يقول : ((فلو قلب قلوبنا عن التوحيد كما يقلب جوارحنا فى الذنوب ، ولو قلب قلوبنا فى الشك والضلال كما يقلب نياتنا فى الأعمال أى شىء كنا نصنعوعلى أى شئ كنا نعول ، وبأى شئ كنا نطمئن ونرجوا فهذا من كبائر النعم ، ومعرفته هو من شكر نعمة الايمان ، والجهل بهذا غفلة عن نعمة الايمان يوجب العقوبة .

واستطرد قائلا : ((وقد جعل الله تعالى الخيرات من كسب الايمان ، وليس لنا فيما يكسبنا الخيرات مكان ، بل الله تعالى من علينا ان هدانا للايمان ، وجعله سببا يكسب لنا باحسانه الاحسان ، كما قال تعالى ((أو كسبت فى ايمانها خيرا)) قيل التوبة ، وقيل الصالحات كلها كسب الايمان ((ومن النعم بعد الايمان ، توفيقنا للحسنى ، وتيسيرنا لليسرى ، ثم صرف الكفر وأخلاق الكفرة وأعمالهم ، ثم تزيين الايمان وتحبيبه الينا ، وتكريه الفسوق والعصيان فضلا منه ونعمة ، الى مالا يحصى من نعمه ،

فشكر ذلك لا يقام الا بما وهب أيضا ، وأنعم به من المعرفة بذلك والمعونة عليه .

وأبدع فقال : ((والحياء من تتابع النعم هو من الشكر ، والمعرفة بالتقصير عن الشكر شكر ، والاعتذار من قلة الشكر شكر ، والمعرفة بعظيم الحلم وكثيف الشكر ، وحق التواضع بالنعم والتذلل فيها شكر ، وشكر الخلق بالدعاء لهم وحسن الثناء عليهم لأنهم ظروف العطاء وأسباب المعطى تخلقا بأخلاق المولى جل وعلا هو من الشكر ، وقلة الاعتراض وحسن الأدب بين يدى المنعم شكر ، ونلقى النعم بحسن القبول ، وتكثير صغيرها ، وتعظيم حقيرها هو من الشكر)) .

وأنت ترى فى السطور المتقدمة ، شعاعا قويا يهدى الى الرشد والتبصرة ، وليس كل عالم مشعا بمثل هذا الاشعاع القوى وهو اشعاع أهل الحقيقة الذين أرشدنى شيخى رحمه الله أن أكون معهم ، وأن أبحث عنهم ، بحث الباحث يرجع اليه لنفسه ليربيها فى جنب الله ، على يد هؤلاء السابقين بالخيرات باذن الله ، وقليل ما هم .

وما استضأت مرة بنورهم ، ولا غرفت شربة من بحارهم ، الا دعوت الله ، أن يجزى عنى شيخى خيرا كثيرا . فقد عرفنى بهم ، وورثنى محبتهم والتزامهم ، وحقا ما يقوله الامام سهل التسترى ((وهو شيخ الامام أبى طالب المكى)) : ان الدين الحى هو ما صبته الصوفية حارا فى النفس الانسانية . ويعرف رضى الله عنه التصوف فيقول : التصوف ليس رسما ولا علما ، ولكنه خلق ، لأنه لو كان رسما لحصل بالمجاهدة ، ولو كان علما لحصل بالتعليم ، ولكنه تخلق بأخلاق الله ((أى الأخلاق التى ترضى الله تعالى)) ولن تستطيع أن تقبل على الأخلاق الالهية بعلم ورسم .

ويدلك الامام سهل على طريق الخير فيقول : لا تفتش عن مساوىء الناس ومعرفة أخلاقهم ، ولكن عن اخلاق الاسلام ، وحالك فيه حتى يعظم قدره فى نفسك وتجتهد فى التلبس بتلك الأخلاق .

ويقول الامام الطوسى فى كتاب اللمع ، ذكر عند سهل ابن عبد الله رحمه الله الكرامات فقال : وما الآيات وما الكرامات ، شىء ينقضى

لوقته ، ولكن أكبر الكرامات أن تبدل خلقا مذموما من أخلاق نفسك بخلق محمود .

ومما تقدم تدرك ان التصوف خلق ، فمن زاد عليك فى الخلق فقد زاد عليك فى التصوف ولا تظن أن كرم الخلق ان تكون طيب الخلق مع الناس ، وتهمل واجباتك الدينية ، التى تعبدك بها ربك لمصلحة تعود عليك فى آخرتك فقد قال تعالى ((ولكن أكثر الناس لا يعلمون * يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون)) .

وإذا كان المؤمن يتحلى بالخلق الكريم مع عباد الله الذين لا يملكون له نفعا ولا ضرا من دون الله ، فكيف به يهمل الخلق الكريم مع ربه ، الذى غمره باحسانه وقد جبلت النفوس على حب من أحسن اليها فوجبت محبة الله باحسانه الينا ، فان أحببناه أطعناه ، والا كانت محبتنا دعوى كاذبة ، وفرية باطلة .

ويرى الامام سهل رضى الله عنه ان الحياة الروحية فى الاسلام ترتكز على دعامتين كبيرتين ، معرفة الله سبحانه ، والتخلق بالمثالية الرفيعة ، ويرى أيضا ان المعرفة تقتضى الطاعة ، والطاعة تقتضى الاقتداء الكامل بالرسول الكامل صلوات الله وسلامه عليه ، لذلك يقول الامام فى نصائحه : لا معين الا الله ، ولا دليل الا رسول الله ، ولا زاد الا التقوى ، ولا عمل الا الصبر ، وقد قيل له ما أغرب الأشياء قال قلب عرف الله ثم عصاه .

ويقول رضى الله عنه فى قواعد الصوفية : أصولنا سبعة أشياء : التمسك بكتاب الله تعالى ، والاقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، واجتناب الآثام ، والتوبة ، وأداء الحقوق .

ويعرف رضى الله عنه الولى فيقول : الولى من توالت أعماله على الموافقة .

ولا عجب لما يقوله الامام سهل ، فقد أوتى الحكمة صغيرا ، بعناية ربانية ، وهبة احسانية ، حتى قال : وكان حالى فى الصلاة ، وقبل الدخول فى الصلاة شىء واحد ، وحين وصف حاله لشيخه حمزة بن عبد الله قال له بشراك يا سهل ، وطوبى لك ، لقد بلغت الذروة العليا ، وانتقلت الى المقام

الأسـمى ، لقـد سـجد قلبـك ، وهـو أعلـى مراتـب اليقـين ، ومـا أحسـب اليـوم أن فى الأرض سواك فى هذا المقام .

ويقـول سـيدى محيـى الـدين بـن عربـى ، وهـو شـيخ التصـوف الأكبـر ، فـى كتـاب الفتوحـات ، كـان بـدء سـهل فـى هـذا الطريـق سـجود القلـب ، وكـم مـن ولـى كبيـر الشـأن ، طويـل العمـر ، مـات ومـا حصـل لـه سـجود القلـب ، ولا يعلـم ان للقلـب سـجودا مـع تحققـه بالولايـة ، ورسـوخ قدمـه فيهـا ، فـان سـجوده اذا حصـل ، لا يرفـع رأسـه أبـدا مـن سـجدته ، فهـو ثابـت علـى تلـك القدم الواحدة التى تتفرع منها أقدام كثيرة .

وقـد سـئل الامـام سـهل عـن ذات الله فقـال ذات الله موصـوفة بـالعلم ، غيـر مدركـة بالاحاطـة ولا مرئيـة بالأبصـار فـى دار الـدنيا ، وهـى موجـودة بحقـائق الايمـان مـن غيـر حـد ولا احاطـة ولا طـول ، وتـراه العيـون فـى العقبـى ظـاهرا فـى ملكـه وقدرتـه ، وقـد حجـب الخلـق عـن معرفـة كنـة ذاتـه ، ودلهـم عليـه بآياتـه ، فـالقلوب نعرفـه والعقـول لا تدركـه ، ينظـر اليـه المؤمنـون بالأبصار ، من غير احاطة ولا ادراك نهاية .

ولـم يحـرم الله عصـرنا الحاضـر مـن فـيض رحمتـه واحسـانه ، فجـرت ينـابيع الحكمـة علـى ألسـنة شـيوخنا ، عذبـة صـافية ، كمـا كانـت تجـرى علـى ألسـنة أوائلنـا الصـالحين وذلـك مـن فضـل الله علينـا وعلـى النـاس . واليـك بعـض مـا نقلنـاه عـن أسـتاذى العـارف بـالله الشـيخ علـى عقـل ، طيـب الله ثـراه ، فـى المقامـات التى مرت عليك فى هذا المقال وهو من الهامه الفورى :

انى أحب الها لا شريك لـه ... وذاك روحى وريحانى وتبتيلى
أمسك لسانى عن قال وعن قيل ... ان التشدق عنوان الأباطيل
طوقت بالشرع جيدى واكتسبت به ... وما جنحت لتبديل وتـأويل
ان المحبة للرحمن خالصـة ... اغنت فؤادى عن كسب الأقاويل
ولو تساوى عطاء الله ما اختلفت ... تلك البرية فى فهم وتعليل
لو لم تكن رحمة الرحمن قد سبقت ... ماصين حكم ولم يعمل بتنزيل
رشفت من فيضه مورا فهمت به ... وما يدانيه فيض السحب والنيل
نورا يطهر نفسى من هواجسـها ... فللحقيقة تشبيهى وتمثيـلى

ليلى نهارى اناديه ويسمعنى   واذ ينادى فكل السمع يزهولى
وان منحت بفيض من سماحته   يرق فى كلام الله ترتيلى

وفى مقام أخر نقلنا عنه من الهامه الفورى قوله رضى الله عنه :

القلب من قوة الايمان مشهده   وفى بحارالتجلى طاب مورده
ألوذ بالله لا أبغى به بدلا   ومن يلوذ بباب الله يسعده
وان لى بحبيبى وصلة وهدى   وصادق القلب لا ينفك يشهده
أرضى به وهو يرضينى ويغمرنى   بفضله وبهذا العلم أعبده
أخلى فؤادى له من كل شائبة   ان عشت أو مت أعضائى توحده
وكيف أرضى بغير الله متجها   والكل والجزء والاحشاء تحمده
اذا سهرت فما أسهرت عن ملل   لكنه الحب يدعونى وأشهده
ومذ تغزلت فى ربى وما ألفت   روحى سواه تجافى الجفن مرقده
اذا مددت يدى لله أسأله   مدت الى بمعنى فضله يده

ويقول كذلك رضى الله عنه الهاما لوقته :

خليانى أبكى من الأجفان   فحبيبى وحقه ما جفانى
وفؤادى لما تعلق بالله   ترقى الى أعز بيان
لازم الله باليقين ترقى   وتلقى موارد الاحسان
لو تراه والحب فيه كمين   فيه عينان بالهدى تجريان
ان تكلمت فالاله مرادى   أو تحدثت فالهدى فى لسانى
وأمد اليد الذليلة لله   بصدق وذلة وهوان
واذا ما اليه مدت يمينى   فالينا مدت لربى يدان
كلما قلت يا الهى شربا   أجد البحر زائد الفيضان
واذا ما طلبت منه مرادا   أشهد العلم فيه كالطوفان
ان للحب بهجة وجمالا   وكمالا فى كل قلب دان
لا تظنوا قلبى ينام من الحب   ولكن تنام لى عينان
جرب العشق مهجتى فرآها   سكرت فى الهدى وحسن المعانى
لم أكن أظهر الغرام ولكن   قد أذاعت خافى الهوى أجفانى

وما أروع ما يقول الهاما على البديهة :

تخل ولا تحفل بجن ولا أنس وعش فى هوى الرحمن تسعد بالأنس
وأقبل على مولاك بالقلب مخلصا وأسلم وسلم واتجه طالب القدس
وخذلك بالايمان على مولاك بالقلب مخلصا وطهر بها نفسا عن الغى والرجس
تجرد تجد مولاك أكبر ناصر وفوض له ما كان فى الغد والامس
حياة الورى حلو ومر وانما حلا المر بالتوحيد من رقة الحس
ومن لا يرى الا الاله مراده حرام عليه الخوض فى العرش والكرسى
وانك لو عظمت دينك عالما وعاملت بالحسنى وأدبت للنفس
وكنت على الأحداث بالله راضيا سواء عليك الموت أو ساعة العرس
سعدت من الدنيا بربك محسنا ونلت من الأخرى العطاء بلا بخس
يقولون لى من أنت قلت موحد الى ربه يسعى ولم ير من بأس
اذا قيل لى اطلب قلت ربى مطلبى وان قيل لى اشرب قلت أنواره كأسى
وحلو الهوى عند لقاء أحبتى ومر الهوى بعدى وفى هجرهم تعبى
وان حبال الوجد تربط مهجتى وقلبى بحب الله يعبق كالورس
وان كنت فى سعد فذلك فضله وان لم اكن من سادة العرب والفرس
حسبت الهوى سهلا فخضت عبابه فطورا به أطفوا وطورا به غطى
الى أن أتتنى من لدنه عناية وصلت بها بر السلامة والأنس

((وانهج منهج أهل اليقين ، فسيكون لك شأن كبير ، وتستفيد فى الصحة اذا ذهبت فاستفد بالتقوى اذا أقمت)) .

بهذه الكلمات نصحنى من نشأتى شيخى العرف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى ، طيب الله ثراه ، وقد رأيت فى التزامها واتباعها الخير كله فى أمر دينى ودنياى ، وكان هو رضى الله عنه ، من أعلام أهل اليقين ، فسهلت لى صحبته ، ان أنهج منهجه ، وأن أتخلق بأخلاقهم ما استطعت ، وانى ان لم أبلغ ما بلغوا ، فأرجوا أن أكون سالكا دربهم ، لا ألتوى عنه يمنة أو يسرى ، ومن سار على الدرب وصل .

أما شأنى فى الدنيا فقد بلغت فيه بعون الله فوق ما كنت أرجو أتوقع ، وقد التحقت بسلم الوظائف من أدنى درجة ، فرقيته درجة درجة الى أن بلغت منتهاه حتى صرت وكيلا لوزارة الخزانة ، وكنت بفضل الله فى كل ما وليته من الأعمال محل ثقة تامة من كبار رجال الدولة ، وقد تفضل السيد رئيس الجمهورية فمنحنى وسامى الاستحقاق والجمهورية وهو ما أعتز به وأشكره لسيادته على الدوام . كما تفضل حفظه الله فأذن لى بقبول ما منحه لى من الأوسمة بعض الدول الأجنبية .

أما فى أمر الدين ، فقد رزقت بعناية ربانية ، صحبة شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى ، وصحبة تلميذه العالم الربانى سيدى الشيخ على عقل نور الله ضريحه ، وقد أوتيت خيرا كثيرا من صحبتهما ، تلك الصحبة المباركة التى اعتبرها فوزا عظيما فى حياتى ، لأن درجات الدنيا وان حسنت ، لا تغنى عن درجات الآخرة ، وكيف تغنى عنها ، والله تعالى يقول ((وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا)) كما يقول عز وجل (لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس

المهاد)) ويقول منوها الآخرة ((وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون)) .

ولقد تبين لى من صحبة هذين العارفين ، أن طريق الآخرة ، وان كان ميسرا لسالكه ، الا أنه دقيق المسلك ، طويل الدرب ، ويحتاج سالكه الى دليل من العارفين بالله ، يسرع به الخطأ فى مأمن من التيه أو الانزلاق ، ذلك بأن النفس البشرية تنازع بشهواتها وهواها صاحبها ، ولا تكاد تنصرف عن شهوة الى شهوة أخرى ، وليس حتما أن تكون شهواتها جسدية فقد تكون شهواتها لصاحبها معنوية غير حسية ، كطلب الجاه والشهرة فى العلم أو الدين ، أو ثناء من الملتفين حوله ، أو كرامات تظهر على يديه من خوارق العادات ، أو نيل مقام من مقامات الولاية الى غير ذلك مما تنطوى عليه الصدور ولا تبديه الجوارح .

والتصوف انما يقوم على مغالبة هوى النفس فى جميع شهواتها ، حتى يعتدل مسلكها وتدور فى الفلك الصحيح ، وهو فلك محبة الله ، وايثاره تعالى على ما سواه ، ولما كان السير فى هذا الفلك ، له آداب ظاهرة ، وآداب باطنة ، وكانت الآداب الباطنة أخفى من دبيب النمل ، فقد وجب على المؤمن أن يستعين فى سلوكها ، باهل اليقين ، الذين أنار الله بصائرهم ، فصاروا أئمة فى الارشاد ، يذللون كل صعب فى طريق السالك لربه ، أكثر مما يفعل الفقهاء فى تذليل الصعوبة فى فهم أحكام العبادات والمعاملات أو غيرها من سائر العلوم .

والعلماء الربانيون من أهل اليقين بالله ، هم الذين اصطلح على تسميتهم بلقب ((الصوفية)) ، وهم مقيدون بالشريعة ، ومؤيدون بالحقيقة ، لأنهم لا يبلغون حقيقة الايمان ، الا باتباع أحكام الشريعة ، فالحقيقة هى ثمرة العمل بالشريعة وهم يأخذون فى الدين بالأحوط ، فيأخذون بالعزائم والمجاهدات ، لا بالرخص والتاويلات ، وبذلك تصفو عبوديتهم لله ، فلا تستعبدهم شهوة ظاهرة أو خفية ، وهذا ما يفسر لنا قولهم فى تعريف الصوفى : هو ذلك الانسان الكبير الذى يتخطى الحدود التى رسمتها للنوع البشرى ماديته .

وفـــى التعريـــف المتقـــدم تكليـــف ضـــد الطبـــاع ، وهـــو أمـــر لا يتســـنى الا لمـــن كبـــرت همتـــه فصـــارت أقـــوى مـــن هـــوى نفســـه ، فتســـامى بروحـــه فـــوق ماديات الأرض ، ولا يتأتى له ذلك الا بعد التخلى عن أمراض قلوب العوام ، من الأخلاق الشيطانية ، كالحقد والحسد ، والكبر ، والحرص ، والفخر والرياء ، والخداع ، والسخط على المقدور والشماته بالأعداء ، الخ . . الخ .

ويحكـــى الســـادة الصـــوفية لنـــا فـــى هـــذا المجـــال أن الشـــيخ عبـــادة المـــالكى رضـــى الله عنـــه ، اجتمـــع بســـيدى الشـــيخ مـــدين رضـــى الله عنـــه ، فلـــم يعظمـــه ولـــن يلتفـــت اليـــه ، فقـــال يـــا ســـيدى ، مـــا منعـــك أن تعطينـــى حقـــى فـــى الاكـــرام ، فقـــال كيـــف وأنـــت مشـــرك ، فقـــال ومـــا وجـــه اشـــراكى ، قـــال حالـــك الـــذى أنـــت فيـــه الآن ، وطلبـــك التعظـــيم والخضـــوع لـــك ، ولـــيس ذلـــك الا لله تعـــالى ، فمـــن ينـــازع الله فيمـــا يســـتحقه ، ويطلـــب ان يكـــون لـــه مثلـــه ، كيـــف يكـــرم ، وانمـــا يســـتحق الاهانـــة والاحتقـــار ، فســـكت الشـــيخ عبـــادة ســـاعة ، ثـــم قـــال أشـــهد الا الـــه الا الله وأشـــهد أن محمـــدا رســـول الله ، تبـــت الـــى الله تعـــالى ، وهـــذا أوان دخولى فى الاسلام أى كمال الاسلام .

وجهـــاد الســـادة الصـــوفية لأنفســـهم ، جهـــاد متواصـــل لا ينقطـــع ، ولـــذلك تـــرى أرواحهـــم تتصـــاعد فـــى مراقيهـــا ويلبســـهم الله مهابـــة تغشـــى نفـــوس المريـــدين ، فهـــم ســـلاطين التقـــوى ، وان لـــم تخفـــق علـــيهم البنـــود ، والأمـــراء ، وان لـــم تســـر أمـــامهم الجنـــود ، وكلمـــا نزلـــوا فـــى معاملـــة خـــالقهم الـــى تواضـــع العبوديـــة أرضـــا أرضا ، كلما رفعهم الى مقامات الخصوصية سماء سماء .

وقـــد قـــال القائـــل فـــى وصـــف الهيبـــة التـــى خلعهـــا الله تعـــالى علـــى امامنـــا مالك بن أنس رضى الله عنه :

يأبى الجواب فما يراجع هيبة   والسائلون نواكس الأذقان

أدب الوقار وعز سلطان التقى   فهو المطاع وليس ذا سلطان

وقـــد فهـــم أئمـــة الفقـــه الأوائـــل ، أن الفقـــه وســـيلة للتفقـــه ، والتفقـــه لا يكـــون الا بـــالاخلاص فـــى تطبيـــق أحكـــام الفقـــه ، والاخـــلاص يقتضـــى أن يعامـــل الفقيـــه ربه فى أحكامه ، فلا يلتوى به القصد ، ولا يؤول الأحكام بهوى النفس ،

حتى يتخلق بالأخلاق النبوية ، التى بلغ مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم قمة الخلق العظيم فى قوله تعالى ((وانك لعلى خلق عظيم)) وهى آية عظيمة تفيد أنه صلوات الله وسلامه عليه بلغ فى خلقه الأفق الأعلى الذى أحبه الله وارتضاه .

وقد سئلت السيدة عائشة رضى الله عنها ، كيف كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت فى ابداع رائع ، وفقه عميق ، كان خلقه القرآن ، اى أنه صلى الله عليه وسلم تخلق بكل خلق سنى دعا اليه الله تعالى فى كتابه الكريم ، وتجنب كل خلق دنى نهى عنه سبحانه ، فكان فى كماله الانسانى ، كما أحب الله أن يكون ، وصار صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا .

ولو كان المسلمون الأواخر قد التزموا نهج السابقين الأولين ما تفرقت بهم السبل ، ولا تشعبت بهم الأهواء ، ولكن حدث أن نرجمت فى الدولة العباسية كتب اليونان ، وكتب فلاسفتهم ، وأخذ بعض أهل العلم عنها للجدل ، وظهر علم الكلام ، وانتصر كل فريق لآرائه ، وتعصبت كل طائفة لمشربها ، وقدحت فى مشرب غيرها ، وجاء نشاط الجدل والسفسطة على حساب العمل الخالص لوجه الله ، وتعدى الجدل الى الفقهاء ، فعمدوا الى التخريجات ، والتأويلات ، وجعلوا من الفقه صناعة ، كصناعة شراح القانون ، وفترت الهمم فى طلب الله ، حيث أخذ الناس فى دينهم بالأخف الأيسر ، وبالقليل الذى يسقطون به الحرج عن نفوسهم ، وانضاف الى ذلك ظهور كثير من البدع نتيجة لاتساع الفتوحات واختلاط المسلمين بغيرهم ، كما تلبس المسلمون بشهوات فشت فيهم ، ولم تكن فاشية فى أسلافهم .

وعندئذ غار أهل الحق من السادة الصوفية على فضيلة الاسلام أن تضيع ، فجدوا السير فى نشرها علما وعملا وحالا ، وجعلوا من أنفسهم مثلا عليا يحتذيها الخواص الذين يريدون وجه الله ، ويأخذون فى دينهم بالعزائم والمجاهدات ، ولا ينزلون الى الرخص والتأويلات ، فصانوا تراثا عزيزا كاد أن يندثر باشتغال الناس بالجدل دون العمل ، وبحظوة الدنيا دون

حظـــوة الآخـــرو، ويقـــول امامنـــا علـــى بـــن أبـــى طالـــب فـــى وصـــف أهـــل الحـــق : عقلـــوا الـــدين عقـــل وعايـــة ورعايـــة لا عقـــل ســـماع وروايـــة فـــان رواة العلـــم كثيـــر ورعاته قليل .

ويقـــول الســـادة الصـــوفية انـــه اذا كـــان الايمـــان فـــى ظـــاهر القلـــب أحـــب الانســـان الـــدنيا والآخـــرة ، فتـــارة لـــه وتـــارة عليـــه ، واذا دخـــل الايمـــان بـــاطن القلـــب أحـــب العبـــد الآخـــرة وهجـــر هـــواه ، واذا باشـــر الايمـــان ســـويداء القلـــب أعـــرض عمـــا ســـوى الله ، كمـــا يقولـــون ان التوحيـــد هـــو العلـــم ، والعمـــل اصـــل الايمـــان ، والايمـــان هـــو التصـــديق ، وكـــل تصـــديق بالقلـــب فهـــو علـــم ، فـــاذا ثبـــت ســـمى يقينـــا ، فـــاذا قـــوى ســـمى توحيـــدا ، فـــاذا رســـخ ســـمى معرفـــة ، فمـــن عـــرف ربـــه راقبـــه ، وحاســـب نفســـه ، وعلـــم أنـــه يـــراه مـــن حيـــث لا يـــراه ، فهـــو يستحى منه .

وأنـــت تـــرى ممـــا تقـــدم أنـــه حـــين انحـــدر الفقهـــاء وجعلـــوا مـــن الفقـــه صـــناعة تـــؤدى الـــى كســـب الحظـــوة عنـــد الســـلاطين والأمـــراء ، ثبـــت الصـــوفية عنـــد تربيـــة النفـــوس فـــى جنـــب الله ، وتقويـــة يقينهـــا بـــالله علمـــا وعمـــلا ، وحســـبة لوجـــه الله ، تنفيـــذا لأمـــر الله الكـــريم (ولـــتكن مـــنكم أمـــة يـــدعون الـــى الخيـــر ، ويـــأمرون بـــالمعروف وينهـــون عـــن المنكـــر وأولئـــك هـــم المفلحـــون) ولا بـــد للآمـــر بـــالمعروف والناهى عن المنكر أن يبدأ بنفسه أولا .

وقـــد ســـأل رجـــل الامـــام الحســـن البصـــرى عـــن مســـألة فأفتـــاه فيهـــا ، فقـــال الرجـــل للامـــام الحســـن قـــد خالفـــك الفقهـــاء فيهـــا ، فزجـــره الامـــام الحســـن وقـــال لـــه ويحـــك وهـــل رأيـــت فقيهـــا بعينيـــك ، انمـــا الفقيـــه الزاهـــد فـــى الـــدنيا ، البصـــير بدينـــه ، المـــداوم علـــى عبـــادة الله عـــز وجـــل ، وقـــال ســـيدى أبـــو العبـــاس المرســـى رضى الله عنه : الفقيه من انفقأ الحجاب عن عينى قلبه .

ولـــم يتجـــه الصـــوفية الأوائـــل الـــى تـــأليف الكتـــب بـــل ألفـــوا القلـــوب علـــى محبـــة الله وايثـــاره ســـبحانه عمـــا ســـواه ، وآتـــاهم الله الحكمـــة الصـــافية مـــن الهـــامهم العـــالى فنطقـــوا بهـــا ، وتناقلهـــا عـــنهم تلاميـــذهم ، وأســـمعوها مـــن يســـتحقها ، ممـــن يفهم مصطلحاتهم ، ويذوق مذاقاتهم ، ثم بدا للمتأخرين منهم ، أن يدونوا

علومهم ، ويثبتوا مصطلحاتهم ، خشية أن تضيع علومهم النافعة بموت أهلها ، فصانوا تراثنا عزيزا أخذه الخلف عن السلف ، نورا مشعا يهدى الى الحق والى طريق مستقيم ، وخاصة فى آفات النفس وعلاجها بالمجاهدات الظاهرة والباطنة ، وهى أمارة بالسوء الا ما رحم ربى . وعلم التصوف انما قام على التجربة والعيان ، أكثر مما قام على الدليل والبرهان ، وان استندت آدابه الى الكتاب والسنة ونهج السلف الصالح فى الفهم والتطبيق . وقد منى السادة الصوفية ، بادعياء يدعون التصوف ، وهم منهم براء فظن الناس بالتصوف سوءا حين نظروا الى جهل هؤلاء الأدعياء وتصرفاتهم المخزية ، فظنوا أن التصوف طبول ومزامير وطراطير وبطالة واحتيال ، وما هو الا العلم والعمل والجد الذى لا هزل فيه ، فما التصوف الا قلب عامر بالمحبة (قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) ووسائل التصوف علم صحيح ، وذوق صريح ، وهمة عالية ، وبصيرة نافذة ، وحالة مرضية . لا يتصور اذن أن يبلغ مستوى التصوف العالى عوام المسلمين بل هو لخواص أهل اليقين ، والله تعالى جعل أهل الاسلام فى مراتب ثلاث فى قوله الكريم (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضل الكبير) ومعلوم أن المؤمنين منهم أهل اليمين ومنهم السابقون المقربون ، وعلى قدر جهاد النفس ، وما قدره الله للعبد . فى سوابق الأزل يتفاضل مؤمن عن مؤمن وأهل اليمين فى الأمة المحمدية كثيرون بحمد الله ، أما السابقون فقليل ، لأن الجوهر النفيس يكون عزيز المنال عادة ، ولقلتهم فى المجتمع يظن الناس أنهم غير موجودين ، ولكنهم بفضل الله موجودون ولا يعرفهم بخصوصيتهم الا من أراد الله له السعادة بصحبتهم والأخذ عنهم ، وهم أهل همة لا تعرف الكلل ، وأهل عزم مؤكد لا يهزم .

ويقـــول فـــيهم أســـتاذى العـــارف بـــالله ســـيدى الشـــيخ علـــى عقـــل ، نـــور الله ضريحه ، من الهامه الفورى الذى قاله ارتجالا ونقلته عنه :

رجال ولكن علا قدرهم تبارك من لهم قد خلق
لهم همم كالجبال الرواسى وهم عند ربك نور الغسق
ونارهم فى النعيم المقيم فيا عجبا جنة فى حرق

وقـــد كـــان رضـــى الله عنـــه مـــن أئمـــة أهـــل اليقـــين فـــى عصـــرنا الحاضـــر ، وقـــد أســـعدنى الحـــظ فعرفتـــه ، وعرفـــت شـــيخه وشـــيخى العـــارف بـــالله ســـيدى الشـــيخ عبـــد الســـلام الحلـــوانى ، وأخـــذت عنهمـــا التربيـــة الدينيـــة الصـــوفية وفضـــلها فـــى عنقـــى لا يكافئهمـــا عليـــه الا الله تعـــالى ، وقـــد رأينـــا منهمـــا أمثلـــة حيـــة مـــن الســـادة الصـــوفية الصـــادقين دلـــت علـــى علمهـــم وعملهـــم ، وذوقهـــم وشـــوقهم ، وصـــدقهم وصـــفائهم رضـــى الله عـــنهم ، وقـــد نقلـــت عنـــه مـــن الهامـــة الفـــورى قولـــه فى وصف حاله :

أنا صب ثابت القدم مستهام القلب من قدم
أملى فى الله يقبلنى فسوى الرحمن لم أرم
لم يثرنى الناس فى كلم انا الله مدى كلمنى
ان أرادونى لمدح فتى لم تفه بالمدح بنت فمى
لست هجاء لأى فتى اننى عن كل ذاك عمى
وشرابى حب حضرته فهو مأمولى ومغتنمى
عزتى بالله واصلتى وقوى الايمان معتصمى
ان قلبى فى محبته قلب صب غير منفصم
أنا من حبى لحضرته لم أفق من لذة النغم
أنا من شوقى لحضرته تارك للناس كلهم
ليس يغنينى سواه هوى وهواء منتهى هممى
لم أزل فى حى حضرته مرتعا للعلم والحكم
وفؤادى من هدايته يرتوى من مورد الكرم
هاجنى وجدى وبه حرق لم تكن من سدة الضرم
بل هى الأنوار يقذفها فمرت فى مهجتى ودمى

ولعل القارىء الكريم ، يرى من خلال هذه الصورة التى أرانا أياها أستاذنا طيب الله ثراه ، كيف يكون الرجل من أهل اليقين ، فى حبه لله ، وكيف يشحذ همته فى طلب رضاه ، ولا عجب أن تبلغ همته ذلك المستوى الرفيع فقد سمع شيخنا الأكبر سيدى الحاج محمد أبو خليل رضى الله عنه قائلا يقول :

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

فقال ولم ينام ؟ بل . قم فالمخاوف كلهن أمان ؟ وهذا ذوق عال لا يدركه الا أهله وذووه ممن عظم الخالق فى أنفسهم ، فحيت قلوبهم بمعرفته ، وازينت جوارحهم فى خدمته ، وعلت بمراقبته أسرارهم ، فمزقت الحجب أنوارهم ، وصفا شربهم من كأس وده ، وما أطهره من شراب ، وترك لنا شيخنا الأكبر أئمة أعلاما ، أخذنا عنهم ، بعض ما أخذوه منه ، وجزاه الله عنا وعنهم كل خير .

وقد كان الناس ، يفدون الى محافل شيخنا الأكبر قطب عصره ، ومجدد قرنه سيدى الغوث الحاج محمد أبو خليل ساكن صريحه المبارك بالزقازيق ، وهو مربى شيوخى الأجلاء الأفذاذ ، فيطلبون اليه أن يأذن لتلميذه الملهم الشيخ على عقل أن يخمس لهم أبياتا من الشعر أو يشطرها ، أو يسمعهم قصيدة كاملة على وزنها ، أو يفسر لهم آية يختارونها من كتاب الله ، فكان الشيخ الأكبر يقول له ، سمعت يا على ، فيقول نعم سمعت يا سيدى ، فيأمره بالاجابة ، فيطرب السامعون لما يفيضه الله عليه من الهامه ، وكان سيدى الشيخ الأكبر يمزح معه أحيانا ، ويقول له : قل ، انك لا تأتينا بشىء من بيت أبيك ، وكان سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى يمتدح لى سيدى الشيخ على عقل وقال لى يا فلان (الشيخ على من أساطين الطريق) .

ومع الهامه الذى آتاه الله من فضله ، فقد رأينا من أستاذنا العارف بالله سيدى الشيخ على عقل ، حرصا على متابعة كتب السنة ، وكان رضى

الله عنه يحب صحيح الترمذى ، ويحفظه عن ظهر قلب ، وكان يقول لى ، لو كان الأمر بيدى لحملت الأزهر على تدريسه ، كما يدرس صحيح البخارى ، وكان يعلل حرصه على قراءة كتب السنة بقوله لا أحب أن يعاتبنى النبى صلى الله عليه وسلم فى ترك الاطلاع على سنته يوم القيامة .

وكنت اذا ذهبت الى الاسكندرية ، أحضر له درسه العام الذى يلقيه على المصلين بين المغرب والعشاء ، وأحضر له درسه الخاص ، الذى يلقيه على بعض الخواص من أحبابه بعد انصراف المصلين ، فكنت اقرأ له (لأنه رضى اله عنه كان كفيف البصر) ويتولى هو الشرح فيأتى لنا بالعجب العاجب فى شروحه ، من فيض الهامه ، ثم نمضى معه بعد هذا الدرس الخاص ، الى مجالس المريدين ، فينشدنا من حكمه ، ما ترق به قلوبنا ، وما تشتد به أشواقنا ، ثم تبدأ أسئلة العلم ، فيسأل من يريد فيما يريد ، وينساب الشيخ انسياب البحر اذا فاض ، وكان يحب اسئلتى ، وكنت أطرب لأجابته ، وأناقشه فيها لأزداد طربا .

وأذكر على سبيل المثال ، ما دار بينى وبينه رفع الله قدره فى الأولياء فى أمر التشهد فى الصلاة ، فقلت له أنى أحب أن أذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيادة فى التشهد وبعض العلماء يذكرون أنه صلى الله عليه وسلم قال لا تسيدونى فى الصلاة ، فأجابنى رضى الله عنه ، بأن هذا القول ليس بحديث واللغة العربية تقول سود ولا سيد ، ثم قال : اذكره صلى الله عليه وسلم بغير سيادة فى التشهد عند قولك اشهد ألا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، واذكره بالسيادة كما تحب بعد ذلك ، فقلت له وما السبب ؟ فسكت قلبلا ثم قال هكذا علمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقلت له ، وكيف كان ذلك ، فقال : رأيتنى فى المنام أصلى ومولانا رسول الله يراقبنى فى الصلاة ، فلما جلست للتشهد قلت على مسمع منه صلى الله عليه وسلم : أشهد ألا اله الا الله وأن سيدنا محمدا عبده ورسوله ، فراجعنى صلى الله عليه وسلم وقال أشهد ألا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، فقلتها كما علمنيها صلى الله عليه وسلم ، ثم

استطردت قائلا على مسمع منه صلى الله عليه وسلم . اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد فسكت ولم يراجعنى .

فسألت ، وماذا فهمت من مراجعته لك فى الأولى ، وسكوته فى الأخرى ، فقال فهمت أنه حين يقرن فى التشهد بربه ، لا يود أن يذكر بالسيادة أدبا مع الله ربه ، وحيث انفرد فلا يمنع أحد من أبنائه المؤمنين من تكريمه ، لأنها قربة الى الله تعالى .

فانظر أيها القارىء كيف يلحظ مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بروحه الشريفة أهل التقوى ، ويعنى بتوجيههم ، وهذا ما يكشف لك السر فى سبق السادة الصوفية ، فانهم على صلة خاصة بالله وبرسوله ، وأن كانوا بيننا فى ظواهرهم البشرية يأكلون مما نأكل ويشربون مما نشرب ، لكنهم يختلفون عنا فى البواطن ، ويا سعادة من صحبهم ، ونهج منهجهم ، وثبت على قدمهم ، حتى نشرب مشربهم ، وننال منالهم ، ونحيا حياتهم ، وهى حياة الرضا ، التى يصح بها البدن من تعب أعصابه ، والقلب من قلقه واضطرابه ((الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب * الذين أمنو وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب)) ومعلوم أن الجسد يمرض باضطراب النفس ، والدين يضعف بترك الطاعات واتيان الشهوات ، وليس لله حاجة فى طاعتنا ، وانما فرضها الله علينا لنفعنا العاجل والآجل ، وهو غنى عنا وعنها (والله الغنى وأنتم الفقراء) ولهذا كان القطب الذى دار عليه القرآن الكريم كله هو قوله تعالى (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم واياكم أن اتقوا الله) وهذا ما يفسر لنا قول سيدى الشيخ رضى الله عنه فى آخر عبارته ، وتستفيد فى الصحة اذا ذهبت فاستفد بالتقوى اذا أقمت ، والاقامة فى التقوى هى الثبات عليها والعمل بالحديث الشريف (اتق الله حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن) .

ويقـــول العـــارفون ان الأنـــوار الظـــاهرة فـــى أوليـــاء الله انمـــا هـــى مـــن اشـــراق أنـــوار النبـــوة علـــيهم ، ويوضـــح لنـــا ســـيدنا العـــارف بـــالله ابـــن عطـــاء الله الســـكندرى ذلـــك ، فيقـــول رضـــى الله عنـــه ان مثـــل الحقيقـــة المحمديـــة كالشـــمس ، وأنـــوار قلـــوب الأوليـــاء كالأقمـــار ، وانمـــا أضـــاء القمـــر لظهـــور نـــور الشـــمس فيـــه ومقابلتـــه اياهـــا فـــاذا الشـــمس منيـــرة نهـــارا ومضـــيئة أيضـــا لـــيلا لظهـــور نورهـــا فـــى القمـــر الممـــدود منهـــا ، فـــاذا هـــى لا غـــروب لهـــا ، ويعقـــب ســـيدى ابـــن عطـــاء الله قـــائلا : وأيـــن أنـــوار الكواكـــب مـــن أنـــوار قلـــوب أوليائـــه ، أنـــوار الكواكـــب تتكـــدر وأنـــوار قلـــوب أوليـــاءه لا انكـــدار لهـــا ، ويقـــول رضـــى الله عنـــه فـــى هـــذا المعنـــى شعرا :

أمرتقب النهجوم من السماء نجوم الأرض أبهى فى الضياء

فتلك تبين وقتا ثم تخفى وهذى لا تكدر بالخفاء

هداية تلك فى ظلم الليالى هداية هذه كشف الغطاء

ومـــن فضـــل الله علـــى الأمـــة المحمديـــة ، أن يقـــوم فيهـــا دعـــاة الحـــق جـــيلا بعـــد جيـــل ، فيهـــدون النـــاس بـــأمر الله الـــى طريـــق الحـــق علـــى أســـاس الكتـــاب والســـنة والجماعـــة ، وذلـــك مصـــداق لقـــوا مولانـــا رســـول الله صـــلى الله عليـــه وســـلم (فـــى كـــل قـــرن مـــن أمتـــى ســـابقون) ولقولـــه تعـــالى (ثلـــة مـــن الأولـــين وقليـــل مـــن الآخرين) رضى الله عنهم أجمعين .

أثر اجتماع الأشباح في الأرواح اهلا

ـ ٢٧ ـ

((أهــــلا وســـــهلا بكتابــــك القــــيم ، الـــــذى أزال وحشــــة البعــــد ، خصوصـــا وأنـــى لـــم أحــظ هـــذا الأســبوع بلقــائكم ، وقـــد أصـــبح القلـــب يحـــن الـــى اللقـــاء دائمـــا ، لتتمتـــع الأرواح بلقـــاء الأشـــباح وان كانـــت مجتمعـــة ، فللــــه درك ، ولله كتابـــك هـــذا ، وأســـأل الله أن يمنحـــك التقـــوى الثابتـــة والقـــوة وســـعادة الدارين)) .

بهـــذه الكلمـــات الرقيقـــة ، وجهنـــى شـــيخى العـــارف بـــالله ، ســـيدى عبـد الســلام الحلــوانى ، رضـــى الله عنـــه ، الـــى أهميـــة اجتمـــاع المريـــدين بشـــيخهم ، لتتمتـــع الأرواح بلقـــاء الأشـــباح وان كانـــت مجتمعـــة علـــى محبـــة الله فـــى عـــالم الروح .

وقـــد كـــان الســـادة الصـــحابة ، رضـــوان الله علـــيهم ، يحرصـــون علـــى الاجتمـــاع بمولانـــا رســـول الله صـــلى الله عليـــه وســـلم ، واذا كـــانوا معـــه علـــى أمـــر جـــامع ، لـــم يـــذهبوا حتـــى يســـتأذنوه ، وخيـــره الله تعـــالى فـــى أن يـــأذن أو لا يـــأذن لمـــن شـــاء مـــنهم ، ((فـــأذن لمـــن شـــئت مـــنهم واســـتغفر لهـــم الله)) وفـــى قولـــه تعـــالى ((واســـتغفر لهـــم الله)) اشـــارة الـــى أن الأولـــى بهـــم ألا يتركـــوا الاجتمـــاع بـــه صلوات الله عليه ما استطاعوا الى ذلك سبيلا .

وقـــد نهـــج الســـادة الصـــوفية ذلـــك الـــنهج ، فـــلا يتركـــون الاجتمـــاع بشـــيخهم الا بـــاذن ، وهـــو مخيـــر فـــى ان يـــأذن أو لا يـــأذن لمـــن يشـــاء مـــن المريـــدين ، واننـــا الآن نعـــيش فـــى ذكـــرى الاجتمـــاع بشـــيخنا ، وكأنهـــا كانـــت أحـــلام نـــائم ، وحـــدث عـــن الصـــفاء الـــذى كنـــا نلقـــاه فيهـــا ، وعـــن الفـــيض الـــذى كـــان يغمرنـــا ، والجماعـــة رحمـــة ، والفرقـــة عـــذاب ، ويـــد الله مـــع الجماعـــة ((ان الله مـــع الـــذين اتقوا والذين هم محسنون)) .

ويدلنا على أثر اجتماع الأشباح فى الأرواح ، ما قاله سيدنا أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، بعد أن دفنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد قال : والله ما كدنا ننفض أيدينا من دفنه صلى الله عليه وسلم ، حتى أنكرنا قلوبنا . فقد أحسوا بالفراغ الكبير ، والوحشة الشديدة ، بفراقه صلوات الله وسلامه عليه ، وان كانت أرواحهم ملزمة لروحه ، وقلوبهم مملوءة

ويقول الامام الشعرانى رضى الله عنه ، ان تعظيم كل واحد ، انما يكون على قدر معرفته به سبحانه وتعالى ، ولولا تمايز الرتب لكان كل من صلى وصام كأبى بكر الصديق رضى الله عنه لأنه فعل كفعله .

وأنت ترى من ذلك ان درجات الكرامة عند الله ، تتفاوت بتفاوت الفهم عن الله ، فليس فهم الأنبياء صلوات الله عليهم ، كفهم الأولياء رضى الله عنهم ، ولا فهم الآولياء ، كفهم آحاد الناس ، وقد روى الحاكم مرفوعا ((من كان لا يعلم منزلته عند الله ، فلينظر كيف منزلة الله عنده ، فان الله ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه)) .

والشيوخ العارفون بالله ، ميسرون لما خلقوا له من دعوة الناس الى الله بالمقال والحال ، وأعلمنا سبحانه انه يدعو يوم القيامة كل أناس بأمامهم ((يوم ندعو كل أناس بأمامهم ، فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم ولا يظلمون فتيلا)) ويقول امامنا الأكبر على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى هؤلاء الشيوخ العارفين : لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة ، اما ظاهرا مشهورا أو خائفا مغمورا ، لئلا تبطل حجج الله وبيناته ، وكم هم ، وأين أولئك ، والله انهم الأقلون عددا ، والأعظمون عند الله قدرا .

ويقول فيهم عبقرى الصوفية ، جلال الدين الرومى ، فيما ترجمه عنه من الفارسية الى العربية ، صديقى العلامة الشيخ الصاوى شعلان :

سبحان من قدر فهدى ، ووفق كل كائن للغاية من فطرته ، ان الهام النحل هو الشهد ، والهتن حشرة القز نسج الحرير ، والهام البلبل أغانى السحر ، والهام رجال الله ، نور يشهدون به ملكوت السموات والأرض

صدقوهم هم مصابيح الدجى   أكرموهم هم مفاتيح الرجا

((اتبعو من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون)) .

والنفس مجبولة بطبعها البشرى ، على الحركة فى طلب الشهوات ، والله تعالى أمر المؤمن بالكف عنها ، وفى ذلك ابتلاؤه فى الدنيا ، فنفسه تتحرك فى ميدان المخالفة ، والله تعالى يأمرها بالسكوت والطاعة ، ويحذرها من عواقب الحركة فى معصيته . ولما كان المؤمن لا يقوى وحده على مغالبة نفسه وهواه ، لزمه أن يستعين فى تربية نفسه ، بامام من رجال الله أتقى منه ، يعاونه فى جهاد نفسه وقتل هواها ، حتى تستقيم وتسلك سبيل الرشاد ، والتعاون على البر والتقوى من قواعد الدين الأساسية ((وتعاونوا على البر والتقوى)) .

ويقول سيدى محيى الدين بن عربى فى لزوم الشيخ فى تربية المريد : من لم يأخذ الطريق من الرجال فهو ينتقل من محال الى محال ، كما يقول الشيخ من أخذ منك وكشف عنك ، الشيخ من حمل عنك المشقات وأشهدك منازل القربات ، الشيخ من أمات نفسك قبل أن تموت ، وجال بروحك فى عالم الملكوت ، الشيخ من نقل اسمك ومحا رسمك ، الشيخ من أطلعك على حالك لا من أخذ من مالك .

وروح المريدين تسقى من اجتماعهم بشيخهم ، بسر الهى يعطيه الله تعالى للشيوخ العارفين فى أرواحهم ، نورعلى نور ، يهدى الله لنوره من يشاء ويقول تعالى ((أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون)) كما يقول سبحانه ((قل هذه سبيلى أدعوا الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين)) .

ويعبر السادة الصوفية عن هؤلاء الشيوخ العارفين أحيانا بالفقراء ، ويقصدون بذلك أنهم فقراء الى الله أغنياء من غيره ، واليهم يشير سيدى أبو مدين التلمسانى فى قوله :

ما لذة العيش الا صحبه الفقرا ... هم السلاطين والسادات والأمرا
فاصحبهموا وتأدب فى مجالسهم ... وخل حظك مهما قدموك ورا
متى أراهم وأنى لى برؤيتهم ... أو تسمع الأذن منى عنهمو خبرا

قوم كرام السجايا حيثما جلسوا يبقى المكان على آثارهم عطرا
يهدى التصوف من أخلاقهم طرفا حسن التآلف منهم راقنى نظرا
لا زال شملى بهم فى الله مجتمعا وذنبنا فيه مغفورا ومغتفرا

وقد بين لنا رضى الله عنه ان الاحتماع بهؤلاء الشيوخ يجمع شمل المريدين على الله سبحانه ، وهذا أمر طبيعى ، لأن الاجتماع بهم يحقق وحده الهدف ، ووحدة الفكر فى ميدان التوحيد ، ويقول سيدى أبو القاسم الجنيد ، وهو سيد الصوفية فى القرن الثالث الهجرى : أشرف المجالس وأعلاها ، الجلوس مع الفكرة فى ميدان التوحيد .

ولأثر تلك المجالس فى التربية الصوفية ، يحاسب الشيوخ المريدين عند التخلف عنها ، وقد انقطع أحد اتباع سيدى المرسى أبى العباس عن الاجتماع به فقال له رضى الله عنه : لم تنقطع عنى ، فقال المريد ، ياسيدى استغنيت بك ، فقال له معلما : ما استغنى أحد بأحد ، وما استغنى أبو بكر الصديق رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم ينقطع عنه يوما واحدا .

وقد قيل لابن السماك رضى الله عنه : ما الكمال ؟ فقال الكمال ألا يعيب الرجل أحدا بعيب فيه مثله ، حتى يصحح ذلك العيب من نفسه ، فانه لا يفرغ من اصلاح عيب حتى يهجم على آخر ، فتشغله عيوبه عن عيوب الناس ، وألا يطلق لسانه ويده ، حتى يعلم أفى طاعة أو معصية ، وألا يلتمس من الناس الا ما يعلم أنه يعطيهم من نفسه مثله ، وأن يسلم من الناس باستشعار مواراتهم ، وتوفية حقوقهم ، وأن ينفق الفضل من ماله ، ويمسك الفضل من قوله .

وبهذا المسلك الذى بينه أبن السماك رضى الله عنه ، بلغ السادة الصوفية قمة الأخلاق العالية ، واخذوا بيد الناس فى الصعود اليها ، وقد رأيت صورة ذلك الكمال فى شيخى رضى الله عنه ، وقد نفعنا الله بصحبته فى ديننا كثيرا ، وان لم يبلغ ما بلغ ، فنرجو أن نكون من السالكين على الدرب ، وقد تحققنا بصحبته من صدق ما قاله الامام الصوفى الكبير سيدى

سهل بن عبد الله التسترى رضى الله عنه : ان الدين الحى هو ما صبته الصوفية حارا فى النفس الانسانية .

على أن المريدين فى اجتماعهم بشيخهم ، يتفاوتون فى انتفاعهم من صحبته ، بتفاوت صفاء الفطرة ، وحسن الاستعداد فى الأخذ عنه ، دون الاكتفاء بالسماع منه ، وذلك مرهون بتقدير العزيز العليم ، ولكنه سبحانه ربط الأسباب بآثارها ، ومن جد وجد ، وينصحنا سيدى ابن عطاء الله السكندرى فيقول :

((ليس شيخك من واجهتك عبارته ، انما شيخك من سرت فيك اشارته ، وليس شيخك من سمعت منه ، انما شيخك من أخذت عنه ، وشيخك هو الذى يجلو مرآة قلبك ، حتى تجلت فيه أنوار ربك حتى وصلت اليه ، ولا زال محاذيا لك حتى ألقاك بين يديه ، وزج بك فى نور الحضرة وقال لك ها أنت وربك)) .

ويشير أستاذى العرف بالله سيدى الشيخ على عقل الى فضل شيوخنا رضى الله عنهم فيقول فى كلام طويل من الهامه الفورى الذى نقله عنه :

أبو خليل أعز الله سيرته ... محمد من لوجه الله داعينا
شهم أشم قوى الجأش ذو همم ... مصرف سيد بالحق ينجينا
أعطاه مولاه نورا لا حدود له ... فبين العلم والايمان والدنيا
فكان بالفيض والالهام آيتنا ... للسالكين وكم أحيا مريدينا
وكم له خلفاء قال قائلهم ... الى هنا تنتهى روح المجدينا
أجلهم منزلا أعلاهم ثقة ... أرضاهم خلقا أزكاهم دينا
مؤدب ما رأينا فى مجالسه ... الا الكمال وسهل اذ يناجينا
عبد السلام وزكى الله تربته ... بالطيب والمسك وازدانت رياحينا

اللهم أجزهم عنا خيرا كثيرا ، واحشرنا فى زمرتهم مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيق .

- ٢٨ -

((وصـلنا بعـون الله وفضـله وكرمـه الـى مكـة المكرمـة ، وطفنـا وسـعينا ـ نسـأل الله ان يتقبـل أعمالنـا . وقرأنـا لكـم الفاتحـة ، ودعونـا لكـم بخيـر عنـد الملتـزم ومقـام ابـراهيم ، ودخلنـا الكعبـة ، وصـعدنا مـن بـاب التوبـة الـى ظهـر الكعبـة ، ولكننـا لـم نبلـغ الظهـر ، لأننـى مـن الخشـية لـم أسـتطع أن أبلغه)) .

جـاءت تلـك الكلمـات الطيبـة ، فـى رسـالة كريمـة ، بعـث بهـا مـن مكـة مـن نحـو ثلاثـين عامـا ، شـيخى العـارف بـالله ، سـيدى عبـد السـلام الحلـوانى ، طيـب الله ثـراه ، الـى نجلـه العـارف بـالله ، السـيد عبـد المـنعم الحلـوانى ، مـد الله فـى عمره .

ويعلمنـا سـيدى الشـيخ فـى كلماتـه تلـك ، ان تـرد الفضـل لله تعـالى ، فـى كـل نعمـة تتقلـب فيهـا أو ديننـا أو دنيانـا ، مصـداقا لقولـه تعـالى ((ومـا بكـم مـن نعمـة فمـن الله)) ويـزداد يقـين الصـالحين مـن عبـاد الله المخلصـين ، فيـرون فضـل الله العظـيم فـى الحرمـان ، كمـا يرونـه فـى العطـاء ويقولـون اذا منعـك لـم يمنعـك مـن بخـل ، انمـا يمنعـك مـن عطـاء ، ولكـن لا يفهـم العطـاء فـى المنـع ، الا صـديق يتـذوق معنـى قولـه تعـالى ((قـل كـل مـن عنـد الله)) والله تعـالى يـرى لعبـده مـن الخيـر مـالا يـراه العبـد لنفسـه ، ذلـك بـأن الغيـب لله يشـهده سـبحانه وتعـالى بعلمـه ، بينمـا ينحجـب عـن العبـد فـلا يـراه ، وهـذا مـا يفسـر لنـا قولـه تعالى ((وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون)) .

والملتــزم واقـــع بـــين الحجـــر الأســـود وبـــاب الكعبـــة ، ويلتصـــق الطـــائفون بـــه ، رافعـــين أكـــف الضـــراعة لـــرب البيـــت العتيـــق ، الـــذى جعلـــه الله مثابـــة للنـــاس وأمنـــا ، فيســـألونه تعـــالى ، بعـــد أن طـــافوا بالبيـــت منبيـــين ، مـــا يحتاجونـــه فـــى ديـــنهم أو دنيـــاهم ، لأنـــه تعـــالى لـــه الأولـــى والآخـــرة وبيـــده كـــل الجـــود فـــى هـــذا الوجود ، وهو أقرب الى عبده من حبل الوريد .

ومـــع أنـــه تعـــالى يعلـــم حاجـــة العبـــد قبـــل الســـؤال ، لكنـــه جعـــل الـــدعاء مظهـــرا مشـــروعا مـــن مظـــاهر العبوديـــة ، ليشـــعر العبـــد بافتقـــاره الـــى ربـــه ، فـــى كـــل أمـــره ويخـــرج مـــن حولـــه وقوتـــه ، الـــى حـــول الله وقوتـــه ، ويـــدرك أنـــه لاحـــول لـــه ولا قـــوة الا بـــالله ربـــه ، ولقـــد علـــم ســـبحانه ســـيدنا موســـى عليـــه الســـلام ، ان يســـأله حتى فى ملح عجينه ، أو شسع نعله .

ودعاء المؤمن لأخيه المؤمن مسنون شرعا بدليل قوله تعالى :

((والـــذين جـــاءوا مـــن بعـــدهم يقولـــون ربنـــا اغفـــر لنـــا ولاخواننـــا الـــذين سبقونا بالايمان)) .

وقـــد اســـتأذن ســـيدنا عمـــر رضـــى الله عنـــه مولانـــا رســـول الله صـــلى الله عليـــه وســـلم فـــى ان يـــذهب الـــى مكـــة معتمـــرا ، فقـــال صـــلى الله عليـــه وســـلم ((لا تتســـنى يـــا أخـــى مـــن دعائـــك)) فكمـــا يـــدعو الأعلـــى للأدنـــى ، يطلـــب الأعلـــى أن يـــدعو لـــه الأدنـــى ، اظهـــار للعبوديـــة والفتقـــار بـــين يديـــه ســـبحانه ((يـــا أيهـــا الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد))

وقـــد التصـــقت مـــرة بـــالملتزم ، وتعلقـــت بأســـتار الكعبـــة ، وهممـــت بالـــدعاء بمـــا يفـــتح الله بـــه علـــى ، فوقـــع فـــى قلبـــى عندئـــذ قـــول أســـتاذى العـــرف بـــالله سيدى الشيخ على عقل فى الهامه الارتجالى الذى تلقيناه عنه :

انى على أعتابكم — لم أرض غير الحب مشرب
حريتى رق لكم — وهى المقام وذلك أقرب
وأدلتى أنى ضعيف — والضعف عليك يحسب
قالوا بأنك لم تكن — فيما تقرره منسب
فأجبتهم أنا نسبتى — عبد على الأبواب أحسب

ومرة أخرى تذكرت قول المرحوم السيد اسماعيل صبرى :

أنا يا الهى عند بابك واقف لا أبتغى عنه الزمان عدولا
ما جئت أطلب أجر ما قدمته حاشا لجودك أن يكون قليلا

والحق الذى لا شبهة فيه ، ان النفس البشرية ، تصفو من كدوراتها ورعوناتها ، فى بلاد الحجاز ، التى أشرقت بنور ربها حين ولد فيها أعظم المرسلين شأنا ، وأعمهم رسالة ، صلوات الله وسلامه عليه وآله وأيده الله فى نشر رسالته الكبرى ، بالمعجزات الباهرات ، والآيات البينات ، وجعل فى قمتها القرآن الكريم الناطق بقوله الخالد :

((قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا الذى له ملك السموات والارض لا اله الا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون))

ومن ثم كان البيت الحرام ملتقى المؤمنين من كل فج عميق ، لا يفرق بينهم لون أو جنس أو لغة أو مقام دنيوى ، وما أروعه من اجتماع على الوحدة والأخاء والمساواة .

وقد بلغ مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أنزل اليه من ربه ، ومنه آيات الحج الدالة على مزيته وفضله ، حيث هو آخر القواعد الخمس التى بنى عليها الاسلام ، وتم به البناء ((اليوم اكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا)) وهو فرضة على من استطاع اليه سبيلا أراد الله ان يكرم عباده الساعين الى مرضاته ، والحاجين البيت الذى شرفه فنسبه اليه دون بقاع الأرض ، وان كانت كلها له سبحانه ، وفى قبضته ، وقال مشجعا على تأدية الفريضة فى خطابه لسيدنا ابراهيم خليله عليه السلام ((وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجال وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق * ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى ايام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير * ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق * ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه)) .

وقد كان الأولون من أسلافنا الصالحين يكررون الحج مرات لمنافعه ، وان كان مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم حج مرة واحدة ، واعتمر أربعا ، حتى لا تلزمنا فريضة أكثر من مرة واحدة ، وكانوا كذلك يمشون الى بيت الله على الأقدام ، وان كانت معهم دوابهم ، جهادا منهم فى سبيل الله وتعظيما للبيت ورب البيت ، وسبحان من أدبهم فأحسن تأديبهم .

أما الخشية التى أشار اليها سيدى الشيخ ، التى حالت بينه وبين الصعود الى ظهر الكعبة ، فهى من علامة تقواه الراسخة فى قلبه وروحه ، ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب ، وقد قال الشهيد الحلاج حججت مرة فرأيت الكعبة ولم أر رب الكعبة ، وحججت الثانية فرأيت الكعبة ورب الكعبة ، وحججت الثالثة فرأيت رب الكعبة ولم أر الكعبة . والحاج انما يمتثل أمر الله فى حج البيت الحرام ، وتأدية المناسك هنالك كما رسمها الله فى شرعه ، وأخذناها عن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والسعى اذن هو سعى خالص لله تعالى وحده ، وان بدا فى ظاهره أنه سعى للبيت الحرام ، لكن البيت لم يدعنا لحجه ، وانما الله هو الداعى بل الآمر ، ومن هنا نعلم ان الدين له ظاهر وباطن ، وان شئت قلت له شريعة وحقيقة ، وهما معا علم الدين الصحيح ، فالشريعة هى تنفيذ الأوامر ، والحقيقة هى مشاهدة الآمر ، ولا يتم الدين للمؤمن الا بهما معا ، بحيث يكون مقيدا بالشريعة ومحسا بالحقيقة ، ولهذا قال بعض العارفين .

اليك حجى لا للبيت والحرم ولا طوافى بالأركان والجدر

لأنه كان يشهد ربه ويراقبه ، وهو يؤدى مناسك الحج ، وقد جاء الجمع بين الشريهة والحقيقة فى قوله تعالى ((اياك نعبد واياك نستعين)) .

وخشية القلوب تلازم العلماء بالله تعالى ، لذلك قال سبحانه وتعالى ((انما القلوب تلازم العلماء بالله تعالى)) ، أى العلماء الربانيون : لأنهم أولياؤه المتقون ((ان أكرمكم عند الله أتقاكم)) أى أخشاكم لله وأخوفكم منه ،

وهو خوف اجلال وهيبة ، لا خوف من عذاب وقسوة لأنهم واثقون من رأفته ورحمته سبحانه ، ولكنهم يخافون مقامه ، ويحذرون حجابه ، لأن حجاب الحبيب ذل ما بعده ذل ووصله عز ما بعده عز ، وهذا يفسر لنا ما قاله سيدنا عبد الله بن مسعود حين مات سيدنا عمر بن الخطاب : لقد ذهب تسعة أعشار العلم ، قالوا ذلك وفينا جلة الصحابة ، قال : ليس العلم الذى تعنون انما أقصد العلم بالله .

والخشية من هذا الوجه ولاية لله لأن الولى عبد تحقق فى العبودية ، فكان على القدم المحمدية الذى شرفه الله تعالى فى قوله : ((سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير)) .

ويقول سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : ((اعلم ، رحمك الله تعالى باقباله عليك وجعل أنواره واصلة اليك أنهما هما ولايتان ، ولى يتولى الله وولى يتولاه الله ، قال الله عز وجل فى الولاية الأولى ((ومن يتول الله ورسوله والذين آمنو فان حزب الله هم الغالبون)) ، وقال تعالى فى الولاية الثانية ((وهو يتولى الصالحين)) ، وهى التى خرجت للعبد من خزائن المنن على بساط المحبة ، واما الولاية الأولى فولايتك الله تعالى خرجت من المجاهدات وولايتك لرسوله خرجت من متابعة سنته ، وولايتك للمؤمنين خرجت من الاقتداء بالائمة . . فافهم ذلك .

يقول سيدى ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه : ((هما ولايتان ولاية الصادقين باخلاص العمل لله تعالى والقيام بالوفاء مع الله تعالى طلبا للجزاء من الله تعالى ، وولاية الصديقين بالفناء عما سوى الله تعالى والبقاء فى كل شىء بالله تعالى ، ويقول أيضا رضى الله عنه : ((مبنى أمر الولى على الاكتفاء بالله ، والقناعة بعلمه ، والاعتناء بشهوده ، وعلى الفرار من الخلق ، والانفراد بالملك الحق ، واخفاء الأعمال ، وكتم الأحوال تحقيقا لفنائهم وتثبيتا لزهدهم وعملا على سلامة قلوبهم ، حبا فى اخلاص أعمالهم لسيدهم ، حتى اذا تمكن اليقين ، وأيدوا بالرسوخ والتمكين ، وتحققوا بحقيقة الفناء ، وردوا الى وجود البقاء ، فهناك ان شاء أظهرهم هادين اليه ، وان شاء سترهم

باقتطاعهم عن كل شيء اليه ، وظهور الولى ليس بارادته لنفسه لكن بارادة الله له)) .

وقد كان تلاميذ سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى يلمسون خشيته لله ووصفوه بانه كان من المخبتين ، وقد قال الله تعالى فى وصف عباده المخبتين :

((وبشر المخبتين الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمى الصلاة ومما رزقناهم ينفقون)) .

وكل هذه الصفات كانت بارزة فيه رضى الله عنه ، وقد قال لى مرة فى معرض الصبر على البلاء : أن والشيخ على تأتينا المصائب فلا تتزحزح ، وهذا الثبات فى الصدمات لا يكون الا لأهل التمكن الذى أشار اليه كلام سيدى ابن عطاء فيما تقدم .

ويقول الامام القرطبى فى تفسيره للآية المتقدمة : هذه الآية نظير قوله تعالى : ((انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون)) وقوله تعالى : ((الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله)) .

هذه حالة العرفين بالله ، الخائفين من سطوته وعقوبته ، لا كما يفعله الجهال العوام والمبتدعة الطغام من الزعيق والزئير ، ومن النهاق الذى يشبه نهاق الحمير ، فقال لمن تعاطى ذلك وزعم ان ذلك جد وخشوع انك لم تبلغ ان تساوى حال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا حال أصحابه فى المعرفة بالله تعالى والخوف منه والتعظيم لجلاله ، ومع ذلك فكانت حالهم عند المواعظ الفهم عن الله والبكاء خوفا من الله ، وكذلك وصف الله تعالى أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه ، ومن لم يكن كذلك فليس على هديهم ولا على طريقتهم ، قال تعالى :

((واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مه الشاهدين)) .

فهــذا وصـــف حـــالهم وحكايـــة مقـــالهم ، فمـــن كـــان مســـتنا فليســـتن ، ومـــن تعـــاطى أحـــوال المجـــانين والجنـــون ، فهـــو أحســـنهم حـــالا ، والجنـــون فنـــون ٠

أقـــول ومـــن هـــذا نعلـــم ان الايمـــان درجـــات ، ويزيـــد ويـــنقص ، لا مـــن حيـــث جـــوهره الفـــرد ، ولكـــن مـــن حيـــث متعلقاتـــه ، التـــى تـــرتبط بهـــا مواجيـــد القلـــوب وأحاسيســـها ، وقـــد ســـئل الامـــام الحســـن البصـــرى رضـــى الله عنـــه فقيـــل لـــه ، يـــا أبـــا ســـعيد ، أمـــؤمن أنـــت ، فأجـــاب الايمـــان ايمانـــان ، فـــان كنـــت تســـألنى عـــن الايمـــان بـــالله وملائكتـــه وكتبـــه ورســـله والجنـــة والنـــار والبعـــث والحســـاب ، فأنـــا بـــه مـــؤمن ، وان كنـــت تســـألنى عـــن قـــول الله تبـــارك وتعـــالى ((انمـــا المؤمنـــون الـــذين اذا ذكـــر الله وجلـــت قلـــوبهم)) الـــى قولـــه ((أولئـــك هـــم المؤمنـــون حقـــا)) فوالله ما أدرى انا منهم أو لا٠

وقـــال أبـــو بكـــر الواســـطى رضـــى الله عنـــه : مـــن قـــال أنـــا مـــؤمن بـــالله حقـــا ، قيـــل لـــه الحقيقـــة تشـــير الـــى اشـــراف واطـــلاع واحاطـــة ، فمـــن فقـــده بطـــل دعـــواه فيهـــا ، ويعقـــب علـــى قولـــه الامـــام القرطبـــى رضـــى الله عنـــه فيقـــول ، يريـــد بـــذلك مـــا قالـــه أهـــل الســـنة : ان المـــؤمن الحقيقـــى مـــن كـــان محكومـــا لـــه بالجنـــة ، فمـــن لم يعلم ذلك من سر حكمته تعالى فدعواه بأنه مؤمن حقا غير صحيح ٠

ويحـــدثنا الامـــام الحـــارث المحاســـبى رضـــى الله عنـــه عـــن أوليـــاء الله المتقـــين فيقول :

((٠٠ ثـــم رأيـــت النـــاس أصـــنافا ، فمـــنهم العـــالم بـــأمر الآخـــرة ، لقـــاؤه عســـير ، ووجـــوده عزيـــز ، ومـــنهم الجاهـــل فالبعـــد عنـــه غنيمـــة ، ومـــنهم المتشـــبه بالعلمـــاء ، مشـــغوف بـــدنياه مـــؤثر لهـــا ، ومـــنهم عـــالم منســـوب الـــى الـــدين ملـــتمس بعلمـــه التعظـــيم والعلـــو ، ينـــال بالـــدين مـــن عـــرض الـــدنيا ، ومـــنهم حامـــل علـــم لا يعلـــم تأويـــل مـــا حمـــل ، ومـــنهم متشـــبه بالنســـاك ، متجـــر بـــالخير ، لاغنـــاء عنـــه ، ولا بقـــاء لعلمـــه ، ولا معتمـــد علـــى رأيـــه ، ومـــنهم منســـوب الـــى العقـــل الـــدهاء ، مفقـــود الـــورع والتقـــوى ، ومـــنهم متـــوادون علـــى الهـــوى متفقـــون ، وللـــدنيا يتبـــادلون ورياســـتها يطلبـــون ، ومـــنهم شـــياطين انـــس عـــن الآخـــرة يصـــدون ، وعلى الدنيا يتكالبون ٠

فطلبت معرفة الفرائض والسنن عند العلماء بالله ، العاملين برضوانه ، الورعين عن محارمه المتأسين برسول الله صلى الله عليه وسلم ، المؤثرين الآخرة على الأولى ، فرأيتهم أقل من القليل ، ورأيت علمهم مندرسا ، كما قال صلى الله عليه وسلم : ((بدأ الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء)) ٠

فقيض لى الرءوف بعباده قوما وجدت فيهم دلائل التقوى ، وأعلام الورع ، وايثار الآخرة على الدنيا ، ووجدت ارشادهم ووصاياهم موافقة لأفاعيل أئمة الهدى ، مجتمعين على نصح الأمة ، لا يرجون أحد فى معصيته ، ولا يقطنون أحدا فى رحمته ، يرضون أبدا بالصبر على البأساء والضراء والرضا بالقضاء ، والشكر على النعماء ، يحببون الله تعالى الى العباد ، بذكرهم أياديه واحسانه ، ويحثون العباد على الانابة الى الله تعالى ، علما بعظمة الله تعالى وعظيم قدرته ، وعلما بكتابه وسنته ، فقهاء فى دينه ، علماء بما يحب ويكره ، ورعين فى البدع والأهواء ، تاركين التعمق والاغلاء ، مبغضين للجدل والمراء ، متورعين عن الاغتباب والظلم والأذى ، مخالفين لأهوائهم ، محاسبين لأنفسهم ، مالكين لجوارحهم ، ورعين في مطامعهم وملابسهم وجميع أحوالهم ، مجانبين للشبهات ، تاركين للشهوات ٠

فأصبحت راغبا فى مذهبهم ، مقتبسا من عوائدهم ، قابلا لآدابهم ، محبا لطاعتهم ، لاأعدل بهم شيئا ، ولاأوثر عليهم أحدا ، ففتح الله لى علما ، انفتح لى برهانه ، وأنار لى فضله ، ورجوت النجاة لمن أقر به أو انتحله ، وأيقنت بالغوث لمن عمل به ، ورأيت الاعوجاج فيمن خالفه ، وسألت الله عز وجل أن يوزعنى شكر ما أنعم به على ، وأن يقوينى على القيام بحدود ما عرفنى به ، مع معرفتى بتقصيري فى ذلك انى لا أدرك شكره أبدا ٠))

ألا رضى الله عن أسلافنا الصالحين ، وعن شيوخنا المباركين ، الذين رأينا فيهم أمثلة السابقين الأولين ((أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب)) ٠

((تحيتى لروحك ، أكبر من تحيتى لشبحك ، تحية الجسم تحية ظاهرة ، أما تحية الروح فتحية باطنة ، وتشعر بها الأرواح التى من جنسها ، والتى شربت من مشربها ، تجدها وان تفرقت مساكنها فى الدنيا ، فانها أسراب ظاهرة فى عالمها فى الحياة ويوم القيامة ، تعرف ربها ولا تعرف سواه)) ٠٠

بهذه السطور صدر سيدى وشيخى العارف بالله الشيخ عبد السلام الحلوانى ، قدس الله سره ، رسالة بعث بها الى تلميذه الصالح المبارك ، الصديق المفضال ، السيد سالم جمعة ، مد الله فى عمره ، وزاده من فضله ، وكان أثيرا عند الشيخ ، وقد كاتبه الشيخ كثيرا من القاهرة ، بعد أن انتقل الشيخ اليها ، وهو يحتفظ برسائل الشيخ فى عناية تامة ٠

وقد تفضل فأعارنى تلك الرسائل ، لأمتع السادة القراء بنشر بعض روائعها ، كما فعلت بالرسائل التى حظيت أنا بها فى القاهرة حين كان عمل الشيخ بالاسكندرية ٠

وعبارة الشيخ المتقدمة تفيد أن تحية الجسد ، قد لاتكون صادقة ، أما تحية الروح فتكون صادقة بيقين ، لأن الروح تنجذب لأهل مودتها انجذاب لا غل فيه ولاغش ، اذا ترابطت الأرواح فى محبة الله سبحانه وهو الذي يعلم السر وأخفى ٠

وقد بين القرآن الكريم ، الفرق بين تحية الجسد ، وتحية الروح ، فقال تعالى في تحية الجسد مثلا (اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله ، والله يعلم انك لرسوله ، والله يشهد ان المنافقون لكاذبون) ٠

وقال فى تحية الروح مثلا :

ان الــــذين يغضـــــون أصـــــواتهم عنــــــد رســــول الله أولئــــك الــــذين امـــــتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم) ٠

ولمـــا كـــان التصـــوف قائمـــا علـــى تربيـــة البـــواطن ، فـــان ســـيدى الشـــيخ يوجهنـــا الـــى العنايـــة بـــالروح ، وتهـــذيبها فـــى جنـــب الله ، حتـــى تكـــون رابطـــة المؤمنين ، رابطة روحية ، لا نفاق فيها ، ولا مداهنة ، فاذا ذاق المؤمن معرفة ربه ، عامل ربه سبحانه فى عباده ، فأخلص فى صلته بهم ، ارضاء لمولاه جل جلاله ، ولذلك قال الشيخ رحمه الله فى ختام عبارته : تعرف ربها ، ولا تعرف سواه ٠

ولســـيدى ابـــن عطـــاء الله الســـكندرى ، رضـــى الله عنـــه ، كـــلام نفـــيس فى معرفة الله يقول فيه :

((ان معرفة الله فطرية فى النفس ، ويستند فى ذلك الى قوله تعالى: ((واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين)) ٠

((فـــالله تعـــالى قـــد عـــرف الانســـان بـــه ، وتجلـــى لـــه ، كمـــا اســـتنطقه وألهمـــه الاقـــرار بربوبيتـــه ، فشـــهده الانســـان ووحـــده ، وأخـــذ الله عليـــه عهـــدا بـــذلك ، وذلـــك كلـــه فـــى عـــالم آخـــر غيـــر هـــذا العـــالم ، هـــو عـــالم الـــذر قبـــل وجـــود الأرواح البشرية فى الأبدان ٠

((فلمـــا هبطـــت الأرواح فـــى الأبـــدان ، احتجبـــت المعرفـــة الفطريـــة بـــالله ، بحجـــاب البشـــرية الكثيـــف ، فســـتر الله بـــذلك ســـر خصوصـــيته ، مـــن هنـــا كانـــت المعرفة بالله أعسر المعارف ٠

فانه لا مثل لله (ليس كمثله شئ وهو السميع البصير) ، ومع هذا فرض على عباده جميعا معرفة ذاته وأسمائه وصفاته ٠

ويفضل ذلك فيقول رضى الله عنه :

((والمعرفة بالله ، قد تكون اثبات وجوده ، وتقديسه عما لا يليق به ، ووصفه على ما هو عليه ، وبما وصف به نفسه ، وهذه معرفة عامة المكلفين وتسمى بالمعرفة العامة)) ٠

((وقد تكون حالا يحدث عن شهود ذوقى ، ويكون العارف هو من أشهده الله ذاته وصفاته وأسماءه وأفعاله ، وتسمى هذه المعرفة بالمعرة الخاصة ، وهى معرفة الصوفية ، التى لا تستند الى العقل ، وانما الى الذوق)) ٠

ويرى سيدى ابن عطاء الله ، رضى الله عنه ، أن القلب كما زهد فى زخرف الدنيا الفانى ، ونهى المؤمن النفس عن هواها ، وزداد ايمانه ثم توحيده ، أمتلأ القلب بالتوحيد تماما ، وشرفت فى الملأ الأعلى صفاته ، وعلت وسمت فى الملأ الأسفل معرفته ، واكتملت بنور اسم الذات بصيرته ، وتخلق بأخلاق الله ، وصارت الأسماء الحسنى وصفه ونعته ، وصار محققا مستبصرا ، فانيا فى شهود المذكور عن ذكره ٠

ثم يقول رضى الله عنه : وفى هذا القلب ورد الحديث القدسى ((لا يسعنى عرشى ولا كرسى ولا سمائى ووسعنى قلب عبدى)) وقلب الانسان لا يسع الله مساحة ولا خيالا وحلولا ولا حسا ولا حكما وانما يسعه توحيدا وايمانا وعلما ومعرفة وايقانا ومحبة واخلاصا ، فضلا من الله وتخصيصا ٠

وأنت ترى من كلامه المتقدم أن معرفة الله مذاقا وشهودا ، لا تكون الا بعد قطع عقبات النفس أو كما يقول السادة الصوفية قطع العلائق والعوائق ، وهى لا تنقطع الا بنهى النفس عن هواها ، وعندئذ تصفو من كدوراتها ورعوناتها ، وتتخلى عن الرذائل ، فان تم لها ذلك فقد تحلت بالفضائل ، لأن التحلية لا تكون الا بعد التخلية ، فان زالت نقطة الخاء المعوقة جاءت الحاء فكانت حياة المؤمن حسنة فى الدنيا وحسنة في الآخرة ٠

((فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وما له فى الآخرة من خلاق ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنياحسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب)) .

والشيطان خبيث الطوية ، وهو يجر الناس الى المهالك ويوهم أنها طريق الخير والسعادة ، وكم زلت معه أقدام علماء ، فاساءوا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، مثل هؤلاء الذين قلدوا الفلاسفة فى اثبات وجود الله عن طريق العقل المجرد ، وجادلوا فى عقيدة التوحيد فى الكليات . والجزئيات ، وبحثوا فى قضاء الله وقدره ، فشغلهم الجدل عن العمل ، وشغلوا غيرهم بالرد على مفترياتهم ، وترهاتهم ، ولو أنهم سلكوا سبيل الصحابة الأكرمين ، وما ضيعوا أوقاتهم وأوقات غيرهم فيما لا ينفع ، بل فيما يضر ، فقد أقحموا أنفسهم فى بحر لجى ، يغشاه موج من فوقه موج ، من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض .

وقد قطع الله على عباده سبل البحث فيما لا تدركه العقول ، فقال تعالى :

((ليس كمثله شىء وهو السميع البصير))

وفتح لهم التفكر فى آفاق قدرته وشهوده فى خلقه وآياته :

((قل انظروا ماذا فى السموات والأرض)) .

ومن هنا قال السادة الصوفية : ما خلق الكائنات لتراها بل لترى فيها مولاها .

وقد رأى فى المنام سيدى الامام جعفر الصادق رضى الله عنه سيدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله عن حقيقة التوحيد فأجابه صلوات الله وسلامه عليه وآله :

((كل ما خطر ببالك فهو هالك والله بخلاف ذلك)) .

وهو القول الفصل فى الموضوع .

وقد سئل مولانا الامام على كرم الله وجهه عن القدر مرة فقال : ((طريق مظلم فلا تسلكوه)) ، وسئل ثانية فقال : ((بحر عظيم فلا تلجوه)) ثم سئل ثالثة فقال ((سر الله فلا تتكلفوه)) .

ويقول حفيده سيدى جعفر الصادق رضى الله عنه : ((ان الله تعالى أراد بنا شيئا ، واراد منا شئا ، فما أراده بنا طواه عنا ، وما أراده منا أظهره لنا ، فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا)) . وهو كلام نفيس كما ترى فتعلمه وعلمه .

وقال رضى الله عنه لزرارة بن أعين ، يا زرارة أعطيك جملة فى القضاء والقدر ، قال نعم جعلت فداك ، قال : ((اذا كان يوم القيامة ، وجمع الله الخلائق ، سألهم عما عهد اليهم ، ولم يسألهم عما قضى عليهم)) .

ويقول جده الامام علىكرم الله وجهه معلما لنا فى ترك القول بالرأى فى أمور الدين الذى شرعه الله تعالى : لو كان الدين بالرأى لكان أسفل الخف أولى بمسحه من أعلاه ، ولكنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح أعلاه .

وما أروع كلمة أمامنا مالك بن أنس رضى الله عنه ((لا أحب من الكلام الا ما كان تحته عمل)) . وما أصدق السادة الصوفية حين قالوا : العقل آلة للعبودية يعرف به العبد ما عرف ، وليس بآله للاشراف على الربوبية .

وقد كان ابن بشار الفقيه ، فى بادىء أمره من المعترضين على السادة الصوفية ، فلما التقى بالامام الشبلى (تلميذ الامام الجنيد) واقتنع بعد مناقشته بأنه نور على نور من ربه ، ذهب الى الفقهاء متغير الوجه وقال لهم ، ذهب الصوفية بالخير كله وأضعنا عمرنا فى المجادلات .

ويقول أبو الوفا بن عقيل رضى الله عنه : أنا أقطع أن الصحابة ماتوا وما عرفوا الجوهر والعرض ، فان رضيت أن تكون مثلهم فكن ، وان رأيت أن طريقة المتكلمين أولى من طريقة أبى بكر وعمر فبئس ما رأيت .

ويقـــول ســـيدى محيـــى الـــدين بـــن عربـــى ، وهـــو شـــيخ التصـــوف الأكبـــر ، فـــى الفتوحـــات الملكيـــه : ومـــن العجـــب ان الله تعـــالى يخبـــر بشـــىء عـــن نفســـه فـــى كتابـــه المحكـــم ، فيـــاتى الانســـنان بعقلـــه القاصـــر فيقـــول ان عقلـــى يـــرد ذلـــك ، وفكـــرى لا يحتمـــل ذلـــك ، وانمـــا يجـــب التاويـــل ، الـــيس عاقبـــه هـــذا التاويـــل ان يصوغوا من خيالهم وتفكيرهم خالقا غير ما فى كتابه الله.

يقـــول العـــالم العـــارف الحجـــه ســـيدى عبـــد الوهـــاب الشـــعرانى رضـــى الله عنـــه : تـــرى احـــدهم يخـــوض فـــى الكـــلام علـــى الـــذات ، وينســـى مـــا كلـــف بـــه مـــن الزهـــد والـــورع وجهـــاد النهـــار ، والخـــوف مـــن الله تعـــالى ونحـــو ذلك ، حتى كان الاسلام لديهم محض كلام من غير عمل .

هـــذا، ويعلمنـــا ســـيدى عبـــد الســـلام الحلـــوانى رضـــى الله عنـــه ، فـــى كلماتـــه المتقـــدم ،ان محبـــى الله ، يشـــربون مـــن المشـــرب الاصـــفى ، فتتجـــانس أرواحهـــم وتتلاقـــى علـــى بســـاط واحـــد ، هـــو بســـاط المحبـــة ، الـــذى يجمعهـــم اســـرابا فـــى الـــدنيا علـــى حبيـــب واحـــد ، وان تباعـــدت ديـــارهم واشـــباحهم ، كمـــا يجمعهـــم فـــى الآخـــرة وان اختلفـــت ألســـنتهم وألـــوانهم حـــين يـــدخلهم ســـبحانه الجنـــة ويخاطبهم :

((ادخلوها بسلام آمنين))

عرفـــوه ســـبحانه فـــى دنيـــاهم بـــان لا الـــه الا هـــو ، فلـــم يعبـــدوا الا ايـــاه ، ولـــم يعرفـــو ســـواه ، فـــآثروه غلـــى مـــا تهـــوى الـــنفس ، وقهـــروا فـــى ســـبيله عقبـــات الـــنفس والشـــيطان ، وعلـــم ســـبحانه مـــا فـــى قلـــوبهم مـــن المـــوده الخالصـــه ، فـــآثرهم بحبـــه ، واختصـــهم برحمتـــه ، فنـــالو الســـعاده الابديـــه التـــى قـــدرها لهـــم فـــى ســـوبق ازلـــه ، فكانـــت لهـــم جنتـــان : جنـــة فـــى الـــدنيا هـــى جنـــة المعرفـــة وجنـــة فـــى الآخرة هى جنة الزخرفة :

(ولمن خاف مقام ربه جنتان)) .

وقـــد جـــاء فـــى الحـــديث الشـــريف : ((الأرواح جنـــود مجنـــدة ، مـــا تعـــارف منهـــا ائتلـــف ، ومـــا تنـــاكر منهـــا اختلـــف)) . فـــالأرواح فـــى هـــذا الائـــتلاف أشـــبه بالطيور التى تطير مع جنسها أسرابا ، كما تدل عبارة سيدى الشيخ ، ويؤيد

صحة ذلك قوله تعالى : ((وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا حتى اذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين)) .

وبين الشيخ وتلميذه ، تجاوب روحى ، منشئوه تجانس الروحين فالشيخ يربى فى طريق الله ، والتلميذ يتربى على يديه فى جنب الله ، ولما كانت روح الشيخ أقوى فى اليقين بالله ، فان روح التلميذ تنجذب اليها بدافع رغبتها فى طلب الله ، وذلك أشبه بانجذاب الظمآن الى مورد الماء الفرات ليروى ظمأه .

ولهذه الجاذبية القائمة بين الشيخ وتلميذه أثر كبير فى التربية القلبية ، لأن الشيخ يخلص فى تربية التلميذ اخلاص الأب لابنه بل وزيادة والتلميذ يأخذ عن شيخه باعتقاد وانقياد ، فيتقدم التلميذ فى ايمانه ويقينه شيئا فشيئا ، ويرفعه الله درجات بعد درجات ، وربما الى نهاية المقامات ، ان كان مرادا من الله لذلك الميراث . وهذا كله قائم على أن التلميذ وفق فى اختيار شيخه ، فراعى أن يكون من العارفين بالله وأن يكون التلميذ من المخلصين والراغبين الجادين فى طلب الله ، لانه لابد للمريض من طبيب حاذق يدرى العلة وعلاجها ، ولابد للعليل من طاعته فى علاجه ان أراد الشفاء من دائه .

وقد قال سيدى الامام أبو الحسن الشاذلى لتلميذه القطب المبارك سيدى المرسى أبى العباس رضى الله عنهما : يا أبا العباس ما صحبتك الا لتكون أنت أنا ، وأنا أنت ، فانظر رعاك الله ، كيف يكون الامتزاج بين الروحين المتجانسين ، ويحدث سيدى المرسى عن شيخه رضى الله عنهما فيقول :

((وقد صحبت رأسا من رءوس الصديقين ، وأخذت منه سندا ، لا يكون الا لواحد بعد واحد ، والشرح يطول ، وبه أفتخر ، واليه أنتسب ، وهو أبو الحسن الشاذلى ، وكان لا يصحبه أحد الا فتح عليه فى يومين أو ثلاثه ، فان لم يجد شيئا بعد ثلاثة أيام فهو كذاب ، أو يكون صادقا وقد

أخطـأ الطريـق ، ودليلـه مـن كتـاب الله عـز وجـل ((قـال رب اجعـل لـى آيـة قـال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام الا رمزا)) .

وبيـين سـيدى واسـتاذى علـى عقـل رضـى الله عنـه ضـرورة الشـيخ فى تربية القلوب بقوله فى الهامه الفورى الذى نقلناه عنه :

وعندى ان الأمر ليس بهين فلا بد من سوق القلوب لمن يدرى
اذا لم يكن للنفس شيخ له هدى يؤديها بالروح زاغت عن السير
ولا يعبر البحر الخضم ونوأه سوى ماهر يدرى الملاحة فى البحر
ولولا اتصال الكهرباء بأصلها على موجة التيار ما نورها يسرى

ونستشف من كلمة سيدى وشيخى عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه ، ان ائتلاف الأرواح الصافية ، لا يكون فى الدنيا فحسب ، بل هو كذلك فى الآخرة ، ويؤيد ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى :

((واذا النفوس زوجت))

أى اقترن كل جنس منها بما يشاكله ولذلك يتعاون الاتقياء يوم القيامة ، ويشفع بعضهم لبعض ، بدليل قوله تعالى :

((الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين)) .

ويتحسر أهل الكفر حين يرون تلك الشفاعة النافعة بين المؤمنين فيقولون فى حسرتهم :

((فما لنا من شافعين ولا صديق حميم)) ٠

وستنقطع رابطة الكفار فى الآخرة ، لأنها قامت فى الدنيا على شفا جرف هار ، ارضاء للشيطان ، واغضابا للرحمن ، وسوف لا تنقطع بينهم الروابط فحسب ، بل ان العداوة ستعلن بينهم ، وهو ما تحكيه الآية الكريمة :

((وقال انما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين)) ٠

أما يقوله سيدى الشيخ رضى الله عنه : تعرف ربها ولا تعرف سواه ، فيوجهنا الى أن ما سوى الله فى حكم العدم ، لأنه سينتهى بالفناء الذى كتبه الله عليه ، ووجوده فى الدنيا انما هو حكما ، وفناؤه عند قيام الساعة عدم فعلا :

((كل شئ هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون)) ٠

لذلك فنيت نفوس السادة الصوفية عن المحسوسات التى غفل بها غيرهم ، لأنهم أهل الله وخاصته ، واستمع بعد ذلك الى ما يقوله فيهم امام جليل من أئمتهم ، وهو سيدى أبو الحسن الشاذلى ، فهو يقول فى وصفهم رضى الله عنه وعنهم :

((أما أهل الله وخاصته ، فهم قوم جذبهم عن الشر وأصوله ، واستعملهم بالخير وفروعه ، وحبب اليهم الخلوات ، وفتح لهم سبيل المناجاة فتعرف اليهم فعرفوه ، وتحبب اليهم فأحبوه ، وهداهم السبيل اليه فسلكوه ، فهم به وله ، لا يدعهم لغيره ، ولا يحبون عنه ، بل هم محجوبون به من غيره ، لا يعرفون سواه ، ولا يحبون الا اياه ((أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب))٠

الا رضى الله عن شيوخى العارفين ، الذين أوردونى مواردهم ، وأذاقونى مشاربهم ، وما أعذبها من موارد ، وما أصفاها من مشارب ٠

((أولئك حزب الله الا ان حزب الله هم المفلحون)) ٠

- ٣٠ -

كتب الشيخ العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى الى تلميذه المبارك اليسد سالم عمر جمعة رسالة من القاهرة محررة فى ٢٩ يونية ١٩٤٠ وكانت رحى الحرب العالمية الثانية دائرة و استهدفت بلادنا العزيزة الى غارات الطائرات الألمانية التى كانت تقصد القوات البريطانية فى مصر وجاء فى تلك الرسالة الدعاء الطريف الآتى :

.. أما أنا فمتوكل على الله ، و هو المسلم اللهم انى اسألك الثبات على الايمان ، حتى يكون قلبى فى أمان ، اللهم املأه حبا فيك حتى يكون راضيا بقضائك ، موقنا أنه لا حركة ولا سكون الا بأمرك و قدرك ، سبحانك لا شريك لك ، لك الأمر من قبل ومن بعد .

((اللهم انى أسألك بحبيبك المصطفى ، صلى الله عليه و سلم ، أن تبث الايمان فى قلبى بثا ، فتجعله فى أعضائى و أحشائى و فؤادى و روحى منبثا)) .

((اللهم جنبنى الهموم ، و ادفع عنى جيش الشيطان ، فلا تجعل له على سبيلا ، و اجعل قلبى شديد الايمان بك ، فلا يعبأ بحرب الشيطان و معداته ، و لا بندقياته ولا رصاصاته فلا يتعتعه تعتيعة ، و لا يخوفه بعبيعة ، لا طبنجة تزعجه ، ولا مدفع يفجعه ، ولا يهمه الفرقعات ، و لا تدهشه المترليوزات ، لا رشاشة ترشه ، و لا دبابة تفشه ، لا بارجة ترجه ، ولا لغم يزجه ، و لا مغناطيس يجدبه ، ولا غواصة تضربه ، و لا نسافة تنسفه ، ولا قاذفة تقذفه ولا طرادة تطرده ، ولا مدمرة تفسده ، و لا غارة تكربه ، ولا صفارة ترعبه ،

لا كمامـــة تخنقـــه ، و لا غـــاز يحرقـــه ، لا طيـــارة تناوئـــه ، ولا مظلـــة تفاجئـــه ، لا قنبلـــة تفزعـــه ، و لا شـــظايا تفجعـــه ، لا طابيـــة تقـــوى عليـــه ، و لا حصـــن يقـــوى لديـــه ، و لا خـــط مـــن الاســـتحكامات يعوقـــه ، و لا ربـــاط مـــن ربـــاط الخيـــل يفوقـــه ، و لا ســـيف عليـــه يصـــول ، و لا عـــدو عليـــه يجـــول ، بـــل هـــو بقـــوة الله يصـــول و يجـــول ، فقـــوة الله هـــى الحصـــن الحصـــين ، و الـــراكن المكـــين ، و هـــى القـــوة و العـــدة ، وهـــى الحبـــل التـــين ، فاجعلنـــا يـــا مولانـــا بهـــا نتمســـك و تفـــوز ومن جميع المصاعب نجوز)) .

((قـــل لـــن يصـــيبنا الا مـــا كتـــب الله لنـــا)) .. و لا حـــول و لا قـــوة الا بـــالله العلى العظيم .

((أســـأل الله لـــى و لكـــم العافيـــة ، و الوثـــوق نـــالله ، و أن يجعلنـــا و ايـــاكم مـــن المطمئنـــين بـــه ، المتمســـكين بحبـــه و حـــب نبيـــه صـــلى الله عليـــه و ســـلم وأن يهـــدينا و اياكم سواء السبيل)) .

أرأيـــت أيهـــا القـــارىء العزيـــز ، كيـــف ينســـاب الالهـــام فـــى رســـالة مـــن الشـــيخ لتلميـــذه ، يعلمـــه فيهـــا الثقـــة بـــالله ســـبحانه ، و التوكـــل عليـــه ، و اللجـــوء اليـــه ، و الاســـتعانة بـــه ، و الاعتصـــام بكهفـــه والاحتمـــاء فـــى حصـــنه ، و الانحيـــاز لحـــرزه الحريـــز و ركنـــه الـــركين ، و كيـــف لا و هـــو القائـــل الكـــريم ((أمـــن يجيـــب المضـــطر اذا دعـــاه ، و كشـــف الســـوء ، و يجعلكـــم خلفـــاء الأرض ، أالـــه مـــع الله ، قليلا ما تذكرون)) .

وقـــد يشـــتبة الامـــر علـــي الـــبعض فـــي معنـــى قولـــة تعـــالى (المضـــطر) فيقـــول فـــى نفســـه الا يســـتجيب ســـبحانه لغيـــر المضـــطر دعـــاءه والجـــواب : كـــل العبـــاد مضـــطرون اليـــه ســـبحانه فـــى جميـــع الاحـــوال ، فـــى الشـــدة أو الرخـــاء أو الحـــرب أو المســـلم ، أو الخـــوف ، أو الامـــن ، لكـــن عـــوام المـــؤمنين لايحســـون بالاضـــطرار الاعنـــد الشـــدة أو الخـــوف أو المـــرض ، أو الفقـــر الـــخ ، أمـــا خـــواص المـــؤمنين فيحســـون أنهـــم مفتقـــرون اليـــه أبـــد الآبـــدين ، وفـــى كـــل حـــال وحـــين ، ذلـــك بـــأن الرخـــاء قـــد يتبـــدل ولا يـــدوم ، والأمـــن قـــد يـــزول ، بـــل ان الايمـــان قـــد يســـلب ، لانهم يقولون انه قد يكون هبة من الله ، وللواهب أن يسترد ما وهبه ، ولا

يقطع الخواص أن ايمانهم بالله عطية منه لاتسلب ، لأن صفة العطية مطوية عنهم فى حجب الغيب ، ولايعلم الغيب الا سبحانه وتعالى ، وهذا هو وجه الخوف عند العارفين .

وذلك ما يفسر بنا وجه الخوف من الله ، الذى خافه سادتنا المبشرون بالجنة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما هو الا من سمو معرفته بالله تعالى ، وعلى قدر معرفته سبحانه يكون الخوف ، كما تكون المحبة الخالصة .

وقد ورد فى الحديث الصحيح فيما رواه الامام البخارى : ((الدعاء مخ العبادة)) وانما كان مخ العبادة ، لأنه مظهر من مظاهر العبودية لأن العبد الداعى يخرج بالدعاء من حوله وقوته الى حول الله وقوته ومع أن الله تعالى يعلم من العبد سره وجهره ويعلم حاجته قبل أن يدعو بها ، لكنه يحب أن يساله عبده حاجته ليعود العبودية ، مذاقا ، وشهودا ، كما يعتقدها العبد ايمانا واعترافا ، وعندئذ يكون عبدا ذائقا مطيعا ، اذا قال له ربه ياعبدى قال له لبيك ياربى ، فصدق فى الامتثال ، وأخلص فى الطاعة بالمقال والحال .

ولهذا كان الامتناع عن الدعاء استكبارا يعاقب الله عليه الممتعنين عن دعائه حيث يقول جل شأنه ((.. ادعونى أستجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين)) .

وقد روى ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : ((من فتح له باب الدعاء ، فتحت له أبواب الرحمة ، وما سئل الله تعالى شيئا أحب اليه من أن يسأل العافية ، وان الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل ، ولايرد القضاء الا الدعاء ، فعليكم بالدعاء)) والى هذا الحديث الشريف يشير سيدى العارف بالله الشيخ أحمد الحلوانى الخليجى ((والد شيخى رضى الله عنهما)) وكاونوا قد عينوه قاضيا ، ولم يرد أن يتولى وظيفة القضاء ، فدعا ربه ملحا أن يصرفها عنه ، فاستجاب الله له ، فقال رضى الله عنه فى ذلك :

قلدونى القضاء وهو شهير　　　فى الورى أنه أبو التبعات
فلزمت الدعاء حتى تلاشت　　　والقضا قد يرد بالدعوات

وعند العارفين ، أن كل دعاء مجاب ، لكن الاجابة ، تكون بالشكل الذى يرى الله فيه مصلحة عبده ، فقد يصرفه عما طلبه ، ليعطيه خيرا منه ، وقد يدخر له ثوابا أخرويا ، خيرا من طلبه الدنيوى ، وقد يجيبه الى ما طلب بالذات ، فان لم يجبه فليعتقد أن ذلك لخير علمه الله وأراده ، وهم يقولون اذا منعك لم يمنعك من بخل ، انما يمنعك ليعطيك ، ولكن لايفهم العطاء فى المنع الا صديق من الصديقين وخير الدعاء المأثور ، وما ورد فى الكتاب أو السنة ، آثار الصحابة ، أو عباد الله الصالحين ، الذين استناروا بنور الحق ، فألهمهم الله كلمات التقوى فى مناجاتهم ودعواتهم ((واتقوا الله ويعلمكم الله)) والهام الصالحين هؤلاء انما هو من كلمات الله التى لاتنفد ، والعلم نور يقذفه الله فى القلوب .

وانك لتلمس الالهام العالى فى دعاء سيدى الشيخ ، وان كساه ثوب الفكاهة بأدوات الحرب المدمرة ، ولعله أراد أن يؤنس تلميذه فى خوفه ، وينقله على جناح الدعابة الى الجد فى الثقة بالله والاعتماد عليه سبحانه فى حفظه من الضرر ، كما قال سيدنا يعقوب عليه الصلاة والسلام ((فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين)) ، ومزاح العارفين جد كما هو معروف .

ومن المناجاة الرائعة لسيدى الامام على زين العابدين رضى الله عنه قوله :

((اللهم لك قلبى ولسانى ، وبك نجاتى وأمانى ، وأنت العالم بسرى واعلانى ، فأمت قلبى عن البغضاء ، وأصمت لسانى عن الفحشاء ، وأخلص سريرتى وعلانيتى من علائق الأهواء ، واكفنى بأمانك عواقب الضراء ، واجعل سرى معقودا على مراقبتك ، واعلانى موافقا لطاعتك ، وهب لى جسما روحانيا ، وقلبا سماويا ، وهمة متصلة بك ، ويقينا صادقا فى حبك))

ومن دعوات سيدى على اخواص رضى الله عنه :

((الهم انى استغفرك من كل ذنب قوى عليه بدنى بعافيتك ، ونالته يدى بفضل نعمتك ، وانبسطت اليه بسعة رزقك ، واحتجبت فيه عن الناس بسترك ، واتكلت فيه على أناتك و حلمك ، وعولت فيه على كريم عفوك)) .

((اللهم انى أعوذ بك أن أقول حقا فيه رضاك والتمس به أحدا سواك وأعوذ بك أن أتزين للناس بشىء يشيننى عندك ، وأعوذ بك أن أكون عبرة لأحد من خلقك ، أعوذ بك أن يكون أحد من خلقك أسعد منى فيما علمتنى)).

وقد يتملك بعض السادة القراء العجب اذا علموا أن سيدى عليا الخواص صاحب ذلك الدعاء كان أميا لا يقرأ و لا يكتب ، ولكن الله تعالى اذا اتخذ من عباده وليا ، علمه ما لم يكن يعلم ، بل جعله للناس اماما بعلمه من فضله و قد تتلمذ عليه الامام الجليل سيدى عبد الوهاب الشعرانى ، الذى كان عالم زمانه ، ووحيد نسجه ، ولقبه بشيخ الخواص سيدى على الخواص ، وسبحان من يؤتى ملكه من يشاء ، فقد علم آدم الأسماء كلها ، و جلعه معلما للملائكه فى السماء وشتان بين علم الرواية وعلم الدراية ، صلوات الله وسلامه على مولانا رسول الله الذى أوتى العلم عطاء من ربه ، وهو النبى الأمى ، فصار يقاس علم العلماء بما علموه من علمه ، و ما يؤتاه الأولياء الأميون فى أمته من العلم انما هو معجزة له صلوات الله و سلامه عليه قبل أن يكون كرامة لهم ، لأنهم انما هو يكرمون بالخوارق جزاء لمتابعته فى حسن نية ، و قوة عزيمة ، فقد سبقت لهم من الله الحسنى و ألزمهم كلمة التقوى ، و جعلهم حجة للناس فيما بينهم و بين الله تعالى .

و فى هذه المناسبة نود أن ننبه الى أنه ليس من لازم الولى الكرامة و لا الاخبار بالغيب ، و العارفون يقولون ما ثم كرامة أعظم من الاستقامة و يقول سيدى المرسى أبو العباس رضى الله عنه : ليس الشأن أن تطوى لك الأرض فتصير فى مكة أو غيرها من البلدان ، و لكن الشأن أن تطوى لك ، أوصاف نفسك فتكون مع الله ، غير اننا تقول انه ليس من الانصاف انكار و قوع الكرامات ، لأن ذلك الانكار يعارض نصوصا صريحة فى كتاب الله

عــز وجــل ، فقــد أكــرم الله الســيدة مــريم عليهــا الســلام بــرزق كــان يأتيهــا مــن عنــد الله ، و أكــرم أهــل الكهــف بــالنوم قرونــا فــى رحمــة الله ثــم قــاموا فقــالوا لبثنــا يومــا أو بعــض يــوم الــخ ، و لا حــرج علــى فضــل الله ، و قدرتــه تعــالى لا تقبــل الشــك ، كمـــا أن الأســـباب تقيـــدنا و لا تقيـــده أنـــه ســـبحانه خـــالق الأســـباب والمســـببات ، ومـــا أراده كـــان باســـباب وبغيـــر أســـباب وفـــق مـــا شـــاء وقـــدر ، وان و قعـــت للـــولى كرامـــة فانمـــا تقـــع عطـــاء مـــن الله لتأييـــده فـــى الـــدعوة الـــى الله ، و قـــد يســـتحى منهـــا الـــولى ، و يقـــول ســـيدى احمـــد البـــدوى : ان الـــولى يســـتر كرامتـــه كمـــا تســـتر المـــرأة خرقـــة الحـــيض ، و قـــد قـــال ســـيدى الشـــيخ عـــز الـــدين بـــن عبـــد اســـلام و كـــان شـــيخ الاســـلام فـــى زمنـــه . بعـــد أن اجتمـــع بالامـــام ســـيدى أبـــى الحســـن الشـــاذلى رضـــى الله عنـــه . مـــن عظـــم الـــدليل علـــى أن طائفـــة الصـــوفية قعـــدوا علـــى أعظـــم أســـاس مـــا يقـــع علـــى أيـــديهم مـــن الكرامـــات ، و لا يقـــع شـــىء مـــن ذلـــك لفقيـــه ، الا أن ســـلك مســـلكهم كمـــا هـــو مشـــاهد . وأقـــول بعـــد ذلـــك كـــم و كـــم شـــاهدنا مـــن كرامـــات لشـــيخنا ســـيدى عبـــد الســـلام الحلـــوانى رضـــى الله عنـــه وكـــان هـــو لا يبـــالى بهـــا وكأنهـــا لـــم تكـــن ، لا بـــل اننـــا شـــاهدنا و نشـــاهد كثيـــرا ممـــا يقـــع منهـــا لبعض المريدين الصادقين ، وانكار المستفيض عناد أو سذاجة .

هـــذا وقـــد ســـأل ســـيدى الشـــيخ ربـــه فـــى صـــدر دعائـــه الثبـــات علـــى الايمـــان ، حتـــى يكـــون قلبـــه فـــى أمـــان ، كمـــا ســـأله أن يمـــلأ قلبـــه حبـــا فيـــه ســـبحانه حتـــى يكـــون راضـــيا بقضـــائه موقنـــا أنـــه لا حركـــة ولا ســـكون الا بـــأمره و قـــدره ، وذلـــك شـــأن العـــارفين الـــذين آمنـــوا وتطمـــئن قلـــوبهم بـــذكر الله ، و قـــد قـــال تعـــالى فـــيهم ((طـــوبى لهـــم و حســـن مـــآب)) و لا عجـــب ان يكـــون ذلـــك مشـــرب الشـــيخ فقـــد هيأتـــه العنايـــة ليكـــون للنـــاس مربيـــا مـــن الطـــراز الأول ، فنشـــأ فـــى بيـــت علـــم وعمـــل ، فـــدرج عليهـــا منـــذ الصـــبا البـــاكر ، و قـــد فقهـــه أبـــوه العـــالم العـــارف ســـيدى الشـــيخ الحلـــوانى الخليجـــى الـــذى كـــان يلقـــب بالشـــهاب ، و لقنـــه طريـــق الصـــوفية ، و تكمـــل بعـــد ذلـــك علـــى يـــد القطـــب الكبيـــر ســـيدى الحـــاج محمـــد أبـــى خليـــل صـــاحب الطريقـــة الخليليـــة المباركـــة وقـــد عنـــى بـــه عنايـــة خاصـــة لمـــا رآه فيـــه مـــن المواهـــب العاليـــة حتـــى كـــان يرحـــب بـــه قـــائلا ((أهـــلا بـــالوالى الكامل)) .

واذا رسخ الايمان فى القلب ، رضى بماجرى به القضاء ، وذاق برد الرضا والتسليم ، فلا يتزعزع بالحوادث ، ولا يتزحزح بهاعن يقينه الثابت فى الله بأنه لا حركة ولا سكون الا بأمره سبحانه و قدره ، وهذا السكون لمجارى الاقدار انما هو عطاء الله لأصفيائه وأوليائه ، وهم يتخطون به الحدود المركوزة فى الطباع البشرية وتلك فبهم قوة خارقة ، ويجب علينا نحن عوام المؤمنين أن تتشبه بهم ، وقد اخذ هؤلاء الخواص هذا النهج عن سيد المرسلين صلوات الله عليه وأله وسلم ، فقد قال مثلا عند الشدة التى لقيها فى الطائف حين ذهب الى ثقيف يستنصر بهم على أهل مكة ، فلم ينصروه ، بل آذوه وضربوه بالحجارة حتى أدموا قدميه ، فقال فيما قال صلوات الله عليه وآله وسلم .. ان لم يكن بك على غضب فلا أبالى ... وفى ذلك الرضاء المطلق بالقضاء وان كان مرا .

ولسيدى الشيخ أحمد الحلوانى رضى الله عنه كلام نفيس فى القضاء يقول فيه :

على كل الورى يجرى القضاء ... و ليس خلاف ما حتم القضاء
فليس يسوقنا الا القضاء ... و ليس يعوقنا الا القضاء
يحركنا يسكننا القضاء ... يجمعنا يفرقنا القضاء
يقربنا يبعدنا القضاء ... يقدمنا يؤخرنا القضاء
يحلينا و يخلينا القضاء ... و يعطينا و يمنعنا القضاء
و ينطقنا و يسكتنا القضاء ... و يطوينا و ينشرنا القضاء
و يخفضنا و يرفعنا القضاء ... و يقبضنا و يبسطنا القضاء
و يحزنا و يبهجنا القضاء ... و يبكينا و يضحكن القضاء
و يفقرنا و يغنينا القضاء ... ويسقمنا ويشفينا القضاء
و يلهمنا و يذهلنا القضاء ... و يسلمنا و ينصرنا القضاء
و ينشرنا و يحشرنا القضاء ... و يفصل بالقضا فينا القضاء
فان وقع الجفا فهو القضاء ... و ان حصل الرضا فهو القضاء
فأنت الله منك لنا القضاء ... و ما لسواك ينتسب القضاء
الهى الطف بنا فيما القضاء ... به يجرى اذا انحتم القضاء

وهــاكم نفحــة مــن نفحــات ســيدى الامـــام أبـــى الحســـن الشـــاذلى ، و هـــى بعــض مــا جــاء فــى حــزب البــر المعــروف بــالحزب الكبيــر ، فقــد قــال فــى مناجاتــه رضى الله عنه :

((اللهـــم فـــاطر الســـموات و الأرض ، عـــالم اغيـــب والشـــهادة ، أنـــت تحكــم بــين عنــادك ، فهنيئــا لمــن عرفــك فرضــى بقضــائك ، والويــل لمــن لــم يعرفــك ، بــل الويل لمن لم يعرفك ثم الويل لمن أقر بوحدانيتك ولم يرضى بأحكامك ..

((و لقــد شــكا اليــك يعقــوب ، فخلصــته مــن حزنــه ، ورددت عليــه مــا ذهــب مــن بصــره ، وجمعــت بينــه وبــين ولــده ، ولقــد نــاداك نــوح مــن قبــل فنجيتــه مــن كربــه ، ولقــد نــاداك أيــوب مــن بعــد فكشــفت مــا بــه مــن ضــره ، و لقــد نــاداك يــونس فنجيتــه مــن غمــه ، و لقــد نــاداك زكريــا فوهبــت لــه ولــدا مــن صــلبه بعــد يــأس أهلــه وكبــر ســنه ولقــد علمــت مــا نــزل بــابراهيم فأنقذتــه مــن نــار عــدوه ، وأنجيت لوطا وأهله من العذاب النازل بقومه)) .

((فهــا أنــا ذا عبــدك ، ان تعــذبنى بجميــع مــا علمــت مــن عــذابك فأنــا حقيــق بــه ، وان ترحمنــى كمــا رحمــتهم ، مــع عظــيم أجرامــى فأنــت أولــى بــذلك وأحــق مــن أكــرم بــه ، فلــيس كرمــك مخصوصــا بمــن أطاعــك وأقبــل عليــك ، بــل هو مبذول بالسبق لم شئت من خلفك . .)

اللهم اجز عنا سلفنا الصالح خيرا كثيرا ، واحشرنا معهم ، عطاء من عندك ، وتحت لواء خاتم المرسلين سيدنا ومولانا محمد سيد الأولين والآخرين ، صلى الله عليه وسلم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، آمين .

- ٣١ -

أرسل شيخى العارف بالله ، سيدى عبد السلام الحلوانى - رضى الله عنه - الى تلميذه الصديق الوفى المبارك الصالح السيد سالم عمر جمعة رسالة كريمة جاء فيها :

((. . ولما لم أجد فى ذهنى كلاما ، أمسكت بكتاب أمامى ، عسى الله أن يفتح على بالمطالعة ، فاذا به مختار الصحاح ، فقلت يا للعجب ، هذا مختار الصحاح وهو لا يصلح لمثلى المكسر ، لكن على الله الجبر . . افتحه عسى أن تجد فيه شيئا ينفعك .

ففتحته فوقع نظرى على مادة ((مدد)) فقلت لنفسى عال ، هذا ارشاد لطلب المدد من الشيخ ومن الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومن الله ـ سبحانه وتعالى - فمددت يدى عسى أن أجد المادة ، وهى الزيادة المتصلة ،

((وفى الحقيقة ، مد الله فى عمرك ، وزاد فى نعمتك ، ان التوفيق فى الذكر والعمل الصالح ، لا يكون الا اذا أخلى الانسان قليه ، ولو بعد صلاة المغرب ، واستجمع نفسه بالحضور فى حضرة الشيخ ، واستأذنه فى عمل الآخرة الذى يريده ، سواء كان ذكرا أو وردا أو قرآنا ، وطلب منه المدد ، ثم استأذنه خاشعا فى حضرة الله وطلب منه المدد والاذن فى الجلوس فى حضرته لأداء الطاعة ، ثم يبتدىء بطاعته الى أن ينتهى فيقول : ((اللهم ان ذكرك لا يمل ، فارحمنا يا الله ، دستورك يا الله ، ثم يلتفت الى النبى - صلى الله عليه وسلم - ويقول : دستور يا رسول الله ، ثم يلتفت ويقول ، دستور يا شيخى ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

((فــى هــذه الحالــة يــرى انــه حصــل لــه مــدد ، أى مــن النهــر أو أنهــر ، وشــعر بســرور لا يقــدر ، وانفتحــت لــه البصــيرة ، وصــار يــرى ببصــيرته ، وامتــد بصــره الــى بعيــد ، فأنــت رجــل مديــد القامــة والبــاع ، ســريع الاتبــاع ، للنبــى المطــاع ، حفظــك الله وجعلــك لــه مــن الاتبــاع ، فــى الــدنيا ويــوم الأســماع)) .
والقــارئ العزيــز يــرى أن كــلام ســيدى الشــيخ لتلميــذه ، وان لابســته دعابــة طريفــة ، الا أنــه هــو الجــد كــل الجــد ، وان يعجــب القــارىء فليعجــب مــن التوفيــق الــذى حالفــه ، فانــه مــا كــاد يفــتح مختــار الصــحاح حتــى وقــع نظــره علــى مــادة ((مــدد)) التــى فتحــت لــه البــاب الــذى اقامــه الله فيــه ، ومــن تعلــيم المريــدين وتفقــيههم وارشــادهم ، وكــل ميســر لمــا خلــق لــه ((فأمــا مــن أعطــى واتقــى ، وصدق بالحسنى . فسنيسره لليسرى)) .
وطالمــا اعتــرض المعترضــون علــى كلمــة ((مــدد)) التــى يتمســك بهــا الســادة الصــوفية ، مــن بــاب الأخــذ فــى أســباب الهــدى ، ويظــن المعترضــون علــيهم جهــلا أو تعنتــا ، أنهــا ســؤال لغيــر الله مــن عبــاده ، ولــيس الســادة الصــوفية ، بالــذين يجهلــون الــى هــذا الحــد ، فهــم الــذين أذاقــوا النــاس منهــل التوحيــد العــذب الفــرات ، وآثــروا الله تعــالى علــى مــا ســواء . . وقــالوا فيمــا قــرروا مــن مبــادئهم التــى لقنوهــا لمريــدهم جــيلا بعــد جيــل : مــن أنــس بســواه فهــو مســتوحش منــه ، ومــن ذكــر غيــره فقــد غفــل عنــه ، ومــن عــول علــى ســواه فقــد أشرك به ،
وهــم ولا شــك أســاتذة التوحيــد المــذاقى ، وان لــم يتوســعوا بالجــدل العقــيم فــى التوحيــد الكلامــى ، الــذى جــارى فيــه أهــل الكــلام فلاســفة اليونــان وغيرهم دون جدوى .
ولدقــة الموضــوع ، والتباســة علــى كثيــر مــن النــاس ولأن بعــض المعترضــين انمــا يــدفعهم للأعتــراض علــى الصــوفية ، غيــرتهم علــى توحيــد الله تعــالى وهــو أعــز مــا تــنعم بــه فــى الــدنيا والآخــرة ، نقــدم بعــض الشــرح فــى بســاطة ، حتــى يــزول ان شــاء الله الالتبــاس ، وتطمــئن القلــوب الــى الحــق الــذى لا مريــة فيــه . هنــاك معرضــان ، معــرض توحيــد الله ســبحانه ، ومعــرض الأســباب التى أثبتها الله بحكمته حيث جعل لكل شىء سبب ، أما المعرض الأول فهو

معـــرض التوحيـــد والله ســـبحانه ينفـــرد بـــه ، ولا يجـــوز أن يشـــرك العبـــد معـــه أحـــدا مـــن خلقـــه مهمـــا قـــدره وســـما فضـــله ، وأمـــا المعـــرض الثـــانى فهـــو معـــرض الأســـباب التـــى تـــؤتى ثمرتهـــا بـــاذن مســـببها ســـبحانه وتعـــالى ، وهـــذه لا يجـــوز الانكـــار علـــى اتخاذهـــا ، كمـــا لا يجـــوز الخلـــط بينهـــا وبـــين مســـببها ، واذ انخـــذ العبـــد الأســـباب فيجـــب أن يشـــهد ربـــه مـــع اتخاذهـــا ويعلـــم أنهـــا لا تـــؤتى ثمارهـــا الا باذنه وارادته .

وتوضـــح ذلـــك بجـــلاء الامثلـــة الآتيـــة : ففـــى معـــرض التوحيـــد نقـــول الله خـــالق كـــل شـــىء ، ولا أحـــد معـــه ، ونقـــول ((أفمـــن يخلـــق كمـــن لا يخلـــق)) وكـــذلك تقول ان الله هو المميت ومالك الموت هو مالك الحياه ، ولا شريك له فيهما .

لكننـــا فـــى معـــرض الاســـباب نقـــول ان الله يخلـــق باســـباب ، فيلتقـــى الـــذكر بـــالأنثى ويتخلـــق الجنـــين فـــى اطـــواره الـــى أن يخـــرج مـــن الـــرحم بشـــرا ســـويا ٠٠ فـــان انكـــرت ان ابـــوى ســـبب خلقتـــى فقـــد أنكـــرت أمـــرا واقعـــا لا شـــبهه فيـــه ، ومـــع انـــى اعتـــرف بأنهمـــا ســـبب خلقتـــى ومـــيلادى ، فـــانى اقـــول واعتقـــد أن الله هـــو الـــذى خلقنـــى ولا اقـــول خلقنـــى أبـــى وأمـــى ، وانمـــا أقـــول ولـــدنى أبـــى وأمـــى ، وبهـــذا اشـــهد ربـــى فـــى اســـباب الخلقـــه ولا انظـــر الأســـباب وحـــدها .

كـــذلك نقـــول الله يتـــوفى الأنفـــس ، لكنـــه حـــين يتوفاهـــا . ســـبحانه . يقـــيم لوفاتهـــا ســـببا هـــو ملـــك المـــوت فيقبضـــها عنـــد انتهـــاء أجلهـــا بـــأمر الله ، فـــاذا قلـــت فـــى معـــرض التوحيـــد ان الله تـــوفى فلانـــا فقـــد صـــدقت ، واذا قلـــت فـــى معـــرض الأســـباب أن ملـــك المـــوت قـــبض روح فـــلان فقـــد صـــدقت ، ولـــيس فـــى نسـبة الأمانـــة لعزرائيـــل . عليـــه الســـلام . خـــروج عـــن التوحيـــد لأنـــه انمـــا يميـــت الأحياء بأمر ربهم عندما يأذن الله له :

((قـــل يتوفـــاكم ملـــك المـــوت الـــذى وكـــل بكـــم ثـــم الـــى ربكـــم ترجعـــون)) .

وفـــى معـــرض التوحيـــد يقـــول الحـــق . جـــلا وعـــلا . لرســـوله الكـــريم ـــ صـــلى الله عليـــه وســـلم . : ((انـــك لا تهـــدى مـــن أحببـــت ولكـــن الله يهـــدى مـــن يشـــاء)) . وفـــى معـــرض الأســـباب يقـــول لـــه . صـــلوات الله وســـلامه عليـــه وآله ((وانك لتهدى الى صراط مستقيم)) . . أى تهدى من أراد الله

هدايتــه . . وفــى الجمــع بــين عطـــاء الله وأســبابه علـــى يـــده . صـــلى الله عليـــه وســـلم . يقـــول الله ســـبحانه وتعـــالى : ((واذ تقـــول للـــذى أنعـــم الله عليـــه وأنعمـــت عليـــه أمســـك عليـــك زوجـــك واتـــق الله)) . . فلـــيس الرســـول – صـــلى الله عليـــه وســـلم – شـــريكا الله فـــى عطائـــه وانمـــا ســـيقت الـــنعم مـــن الله تعـــالى بســـببه وعلـــى يـــده – صـــلى الله عليـــه وآلـــه وســـلم – لســـيدنا زيـــد بـــن حارثـــه ، فقـــد أســـلم علـــى يـــده ، واعتنـــق بفضـــله ، وتـــزوج باختيـــاره . صـــلوات الله وســـلامه عليـــه وآلـــه وســـلم . فكـــان منعمـــا عليـــه مـــن بـــاب الســـببية التـــى أرادهـــا الله ســـبحانه بحكمتـــه ، فهـــو يخلـــق الـــبعض بـــالبعض ويـــرزق الـــبعض بـــالبعض . . ويعـــين الـــبعض بـــالبعض ويعلم البعض بالبعض الخ .

والشـــيوخ العـــارفون بـــالله ، نـــواب عنـــه . صـــلى الله عليـــه وســـلم . فـــى هدايـــــه الخلـــــق وارشـــــادهم فـــــى جنـــــب الله ، ســـــبحانه – خـــــتم الرســـــالات بالرســـاله المحمديـــه فكانـــت مســـك الختـــام ، فصـــار العلمـــاء الربنيـــون فـــى هـــذه الأمـــه يقومـــون مقـــام مقـــام الأنبيـــاء فـــى الأمـــم الســـابقة فـــى تفقيـــه المـــؤمنين وتبصـــيرهم فـــى أمـــور ديـــنهم بـــالأقوال والافعـــال والاحـــوال علـــى مـــنهج الشـــرع الشريف .

فـــاذا استرشـــد مريـــد بشـــيخ مـــن هـــؤلاء ، فقـــد أخـــذ فـــى ســـبب مـــن أســـباب الطاعـــه التـــى أمـــر الله بهـــا .. وجعـــل لهـــا أئمـــه يـــدلون عليهـــا : ((ولـــتكن مـــنكم أمـــة يـــدعون الـــى الخيـــر ويـــأمرون بـــالمعروف وينهـــون عـــن المنكـــر وأولئـــك هـــم المفلحـــون)) .. كمـــا قـــال تعـــالى .. ((وجعلنـــا مـــنهم أئمـــه يهـــدون بأمرنـــا لمـــا صـــبروا وكانوا بآياتنا يو قنون)) .

واتصـــال المريـــد بشـــيخه اتصـــال روحـــى ، لا تفصـــله الجـــدر ولا المســـافات ، وأذا كانـــت الجـــدر والمســـافات لا تفصـــل أصـــوات الآثيـــر الماديـــه فكيـــف تفصـــل بـــين الارواح المتعاونـــه فـــى ســـاحة الملكـــوت وهـــى ســـاحة الانـــوار ، نـــور علـــى نور يهدى الله لنوره من يشاء .

وطريقـــة الزكـــر التـــى أرشـــد اليهـــا ســـيدى الشـــيخ انمـــا هـــى لآهـــل الجـــد من رجال الطريق ، لآن بعض الناس يذكرون ذكر العادة دون استجماع

كاف أو حضور كامل و هو ذكر حسنات ، أما الخواص فيذكرون ذكر درجات ، فيجمعون القلب على الله بأسباب الجمع ، فيأتنسون بروح شيخهم لأنه بابهم الى مولانا رسول الله . صلى اله عليه وسلم . ويأتنسون بروحه صلى الله عليه وسلم . لأنه بابهم الى الله تعالى ، وبهذا الاستئناس يقوى مددهم من الله بأسبابه ولا يستطيع الشيطان أن يقطع عليهم الطريق ، لأنه لعين يقعد بكل صراط مستقيم ليصد عن سبيل الله ، والطريق تحتاج لرد كيده الى الرفيق ، والشيخ انما أقامة الله حيث اراده لدعوة الناس الى الحق ، فهو معان منه سبحانه فيما أقامة فيه ، ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم . انما هو البحر الزاخر الذى يستمد منه هؤلاء الشيوخ وعنه يصدرون ، قد علم كل أناس مشربهم .. فاذا أنس المريد بروح شيخه وبروح النبى . صلى الله عليه وسلم . فانما يقصد الفتح من بابه وهو يشهد ربه ويذكره ، ويستعين بالمدد العالى على النفس والشيطان ، واعداد السلاح لقتال الأعداء لايتنافى مع اعتقاد أن النصر من عند الله ، فقد قال تعالى : ((وأعدوا لهم ماستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم)).

وفى حين يقول تعالى ذلك فى معرض الأسباب ، يقول فى معرض التوحيد ((فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم)) ولكنه . تعالى يقتلهم بأيدينا من باب السببية ((قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم)) .. وأثر الروح فى الروح أشد من أثر السلاح فى الأعداء ، فان الروح تتعدى بأثرها لا فى الأرواح بل قد تتعدى باذن الله الى الجماد والحيوان ومن ذلك تسبيح الجبال والطير كأثر لتسبيح سيدنا داود . عليه السلام . قال تعالى : ((وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين)) .. وسبحان الفعال لما يشاء .

وقد كان سيدى الشيخ يجمع لفيفا من المريدين بين المغرب والعشاء ويعلمهم الذكر بالكيفية السابقة ، وكان لى شرف حضور تلك الجلسة ، وعندما تحين صلاة العشاء يأمر الشيخ باقامة الصلاة ، وكان يبارك لنا فى هذه الجلسة فنذكر فى حضور واستجماع أضعاف ما كنا نذكره فرادى

ويد الله مع الجماعة ، والأرواح القوية تسقى بمددها الأرواح الضعيفة ، كما ينساب الماء من الأرض المرتفعة الى الأرض الواطئة ويرويها .

وكان سادتنا الصحابة يجلسون بين يديه . صلى الله عليه وسلم . كأنما على روءسهم الطير وكانوا بعد تفرقهم يحسون بالفارق فى وجدانهم وهم بين يديه وحين ينصرفون ، لأن اجتماع الأشباح له أثر فى مد الأرواح وان كانت متصلة بغير الأشباح ، وسبحان من ربط بين الظاهر والباطن وبين القلب والقالب .

ولقد حدث حنظلة بن الربيع . كما جاء فى الصحاح . فقال : تكون عند رسول الله يذكرنا بالجنة والنار حتى كانا رأى عين ، فاذا خرجنا من عنده عافسنا . أى لاعبنا وعالجنا . الأولاد والزوجات والضيعات ونسينا كثيرا .

وقد بلغ من حرص سيدنا حنظلة . رضى الله عنه . على أن تدوم عليه الحالة الروحية السنية ، ان اتهم نفسه بالنفاق حين فارقته بفراق رسول الله – صلى الله عليه وسلم . فقد لقيه سيدنا أبو بكر . رضى الله عنه . فقال له : كيف أنت ياحنظلة ، فقال نافق حنظلة ، قال : سبحان الله ماتقول ؟ قال نكون عند رسول الله يذكرنا بالجنة والنار حتى كانا رأى عين ، فاذا خرجنا من عنده عافسنا الأولاد والزوجات والضيعات فنسينا كثيرا ، فقال سيدنا أبو بكر . رضى الله عنه . : انى أجد مثل ذلك .. انطلق بنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

فانطلقا .. فذكرا له ذلك فقال : ((والذى نفسى بيده لو تدومون على ماتكونون عندى وفى الذكر ، لصافحتكم الملائكة فى فرشكم وفى طرقكم ولكن ياحنظلة ساعة وساعة ولكن ياحنظلة ساعة وساعة .. ولكن ياحنظلة ساعة وساعة .. ثلاث مرات .. أخرجه مسلم والترمذى .

والحكمة ظاهرة فى قوله صلى الله عليه وسلم : ولكن ياحنظلة ساعة وساعة ، فا ننا متعبدون بالتكسب والسعى على المعاش ، ولابد من التفرغ بعض الوقت لهذا الكسب ، ولادارة شؤونه .. وشؤون الأسرة وهو سعى مشكور ومأجور .. مادام العبد يراعى فيه وجه الله ويتقيه ، ومايلقاه

المؤمن من مدد النور فى الجلسات الرحمانية يعاونه فى رعاية جانب الله فى أوقاته الأخرى .. ومع أن الأجيال التى تلت جيل الصحابة الكرام . رضى الله عنهم . لم يكن لهم شرف صحبته بشخصه الجليل ، فانهم لم يحرموا من الاتصال بروحه الشريفة . صلوات الله و سلامه عليه . وكيف لا ونحن نسلم عليه مشافهة فى كل تشهد فى الصلاة ، ونقول : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، ولا تقول : السلام على النبى :

و ينصحنا سيدى الامام أبو الحسن الشاذلى . رضى الله عنه . فيقول :

لا تؤخر طاعات وقت لوقت آخر ، فتعاقب بفواتها أو فوات غيرها أو مثلها ، جزاء لما ضيع من ذلك الوقت ، فان لكل وقت سهما ، فحق العبودية يقتضيه الحق منكم بحكم الربوبية .. ومن حكم السادة الصوفية قولهم : الوقت كالسيف ان لم تقطعه قطعك .. وقولهم : نفسك ان لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل .

و مما تقدم نرى أن الصلة الروحية أمر مقطوع به ، واذا كنا لا نؤمن الا بالمادة ، فان ذلك سينتهى بنا الى غاية خاسرة والعياذ بالله ، فقد ننكر الملائكة و الجن و الجنة و النار الخ لأننا لا نرى شيئا منها بأعيننا .. ولقد كفر بنو اسرائيل حين قالوا لسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام . : ((لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة)) .. والايمان بالغيب من قواعد الدين الصحيح ، لأنه تصديق بكلمات الله .

فان سلمنا بقيام الصلة الروحية سلمنا بقيام المدد الترتب عليها ، لأن الله يرزق البعض بالبعض فى أمر الدينا والدين ، وهذه هى القاعدة العامة ، فان شذت فجاء الرزق بلا ظاهر فالأمر لله ، و التدبير بيده ، والأسباب تقيدنا ولا تقيده سبحانه ، ولا يجوز أن يعترض بهذا الاستثناء على القاعدة العامة ، لأن الحكم للغالب كما يقولون .

ومما جرت به التجارب أن يهتدى الخلف بالسلف ، و يسترشد الضعيف بالقوى ، والجاهل بالعالم ، و الفضل كله بيد الله يؤتيه من يشاء ، وما قسمه كان وما لم يقسمه لم يكن ، وقد يؤتى عبد أقوى الأسباب

ولا ينتفع منها بشىء ، وقد تأتى السعادة لاناس عطاء من الله ، فذلك أبو جهل القرشى لم ينتفع من مولانا رسول الله . صلى الله عليه و سلم . لأن الله طبع على قلبه بكره .. بينما سبقت السعادة لسلمان الفارسى ، رضى الله عنه ، فالحقه . صلى الله عليه و سلم . بآل البيت و قال سلمان منا آل البيت ، و يرضى الله عن شيخى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل اذ يقول فى الهامه الفورى :

و كم من بعيد و لكن قريب

و كم قريب و لكن بعيد

والشيخ أداة اتصال المريد بربه ، وانما ينفح من شيخه بقدر جده وسعيه وما قدره الله له فى سوابق أزله ، فقد يتبع الشيخ عدد كثير فينتفعون منه بتفاوت ، وقد يصير بعضهم من الصديقين وهم الأقلون عددا والأعظمون عند الله قدرا ، ويقول فى وصفهم سيدى الامام أبو الحسن الشاذلى . رضى الله عنه . :

((الكاملون ، حاملون لأوصاف الحق ، و حاملون لأوصاف الخلق ، فان رأيتهم من حيث الخلق رأيت أوصاف البشر و ان رأيهتم من حيث الحق رأيت الأوصاف التى زينهم بها .

((فظاهرهم الفقر ، وباطنهم الغنى ، تخلقا بأخلاق رسول الله . صلى الله عليه وسلم . قال تعالى ((ووجدك عائلا فأغنى)) أفتراه أغناه بالمال ؟ كلا ، وقد شد الحجر على بطنه من شدة الجوع ، واطعم الجيش كله من صاع ، وخرج من مكه على قدميه ليس معه شىء يأكله ذو كبد الا شىء يواريه ابط بلال)) .

هذا ويرى السادة الصوفية أن الذاكر اذا تاب و أخلص دينه لله ، وسار على نهج الكتاب والسنة والجماعة ، فهو انما يحسن الى نفسه بكثرة ذكر الله فيترقى فى درجات اليقين ، و يقطع فى الترقى العلائق والعوائق ، ويغمره فيض الله فيكون من أهل الفتح و الالهام و الحكمة ، و يقول الامام القشيرى . رضى الله عنه . فى فضل الذكر على الذاكرين ..

((الذكر ركن قوى فى طريق الوصول الى الحق . سبحانه و تعالى . بل هو العمدة فى طريق القوم ولا يصل أحد الى الله الا بدوام الذكر)) .

والامـــــام القشـــــيرى محـــق كـــل الحـــق فـــى ذلـــك القـــول ، الـــذى أيدتـــه التجـــارب الطويلـــة ، عبـــر القـــرون الماضـــية.. والتصـــوف يقـــوم علـــى التجربـــة والعيـــان أكثـــر ممـــا يقـــوم علـــى الـــدليل والبرهـــان ، والله تبـــارك وتعـــالى يقـــول : ((فـــاذكرونى أذكـــركم)) فـــأى شـــرف للـــذاكرين فـــى هـــذا القـــول الكـــريم ، فـــاذا ذكـــرك ربـــك فقـــد نفحـــك ، واذا نفحـــك ، فقـــد آنســـك بقربـــه .. وقـــد قـــالوا مـــن آنســـه الله بقربـــه أعطـــاه أربعـــا بغيـــر أربـــع : علمـــا بغيـــر طلـــب ، وغنـــى بغيـــر مـــال ، وعز بغير عشيرة ، وأنسا بغير جماعه .

و نخـــتم هـــذا المقـــال بالحـــديث القدســـى الرائـــع وقـــد رواه الشـــيخان ، يقـــول . صلى الله عليه و سلم . عن الله تعالى :

((أنـــا عنـــد ظـــن عبـــدى بـــى وأنـــا معـــه حـــين يـــذكرنى ، فـــان ذكرنـــى فـــى نفســـه ذكرتـــه فـــى نفســـى ، و ن ذكرنـــى فـــى مـــلأ ، ذكرتـــه فـــى مـــلأ خيـــر منـــه ، وان تقـــرب الـــى شـــبرا ، تقربـــت اليـــه ذراعـــا ، وان اقتـــرب الـــى ذراعـــا ، اقتربـــت اليـــه باعـــا ، و ان أتانى يمشى أتيته هرولة)) .

و يجـــب تأويـــل هـــذه الألفـــاظ ، فـــالله . ســـبحانه . لا يحـــده مكـــان ، ولا يتحـــرك ولا يســـكن ، وانمـــا المعنـــى أن يكـــون الله ســـبحانه فـــى عـــون عبـــده المجاهـــد فـــى ســـبيله ، يضـــاعف حســـناته ويعفـــو عـــن ســـيئاته .. فيعمـــل فـــى جهـــاده القليـــل ويثـــاب عليـــه بـــالكثير .. ويـــذنب بالفعـــل ويســـتغفر بـــالقول ، فيقبـــل اســـتغفاره .. فمـــا أكـــرم ربـــى ومـــا أبـــره ، واذا نســـب الله عمـــلا صـــالحا لعبـــده فـــان ذلـــك مـــن آيـــات احســـانه ، واذا جـــد العبـــد فـــى أســـباب الطاعـــة وجـــب أن يســـتعين بـــالله ربـــه ، فانـــه هـــو الـــذى يوفقـــه ويشـــرح صـــدره ، ولله عليـــه المنـــة فـــى كـــل طاعـــة ((ومـــا بكـــم مـــن نعنـــة فمـــن الله)) فمنـــه . ســـبحانه . العطـــاء ومنـــه ســـبحانه الثنـــاء ، ومـــن هنـــا وجـــب ألا يغتـــر مـــؤمن بطاعتـــه ، أو يمـــن بهـــا علـــى الله مهمـــا جـــد واجتهـــد ، بـــل يـــرد الفضـــل لله فـــى كـــل عمـــل صـــالح ، ويســـأله دوام التوفيـــق لمـــا يحـــب و يرضـــى ((و لكـــن الله حبـــب الـــيكم الايمـــان وزينـــه فـــى قلـــوبكم و كـــره الـــيكم الكفـــر والفســـوق والعصـــيان أولئـــك هـــم الراشـــدون . فضـــلا مـــن الله ونعمـــة والله عليم حكيم)) .

- ٣٢ -

جـــاء فـــى رســـالة بعـــث بهـــا شـــيخى العـــارف بـــالله ســـيدى عبـــد الســـلام الحلـــوانى ، رضـــى الله عنـــه ، الـــى تلميـــذه الصـــديق الـــوفى المبـــارك الســـيد ســـالم عمر جمعة ما يلى :

(فكـــن معـــه و اصـــطبر لعبادتـــه ، فقـــد قـــالوا ان الاصـــطبار نهايـــة الصـــبر ، ومـــن صـــبر ظفـــر ، ومـــن لازم وصـــل ، ومـــن أدمـــن قـــرع البـــاب يوشـــك أن يفتح له .

(والشـــجرة اذا أورقـــت ازهـــرت ، فـــاذا أزهـــرت و كانـــت مـــن شـــجرة طيبة أصلها فى السماء ، أدركت ، فاذا أدركت أثمرت .

((و الثمـــرة هنـــا الاعتقـــاد الكامـــل ، ثـــم المعرفـــة ، و الوقـــوف عنـــد حـــد الأدب فـــالله ســـبحانه و تعـــالى مالـــك الملـــك ، فـــنحن فـــى ملكـــه ، وواجـــب علينـــا خدمتـــه سبحانه و تعالى .

((فـــاذا عبـــدناه فانمـــا نحـــن عبيـــد ، مفـــروض علينـــا عبادتـــه ، أى خدمتـــه ، ولا نبغـــى بـــذكرنا وعبادتنـــا الا أننـــا خـــدم وعبيـــد ، و الله يفعـــل فينـــا مايريـــد ، لانبغـــى بـــذكرنا و عبادتنـــا أى ثـــواب ، ولا نخـــاف مـــن عقـــاب ، بـــل نرضـــى بمـــا قدره و قضاه ، فليس الأمر لسواه ، جل و علا ، وهو الرحمن الرحيم)) .

أمرنـــا الله ســـبحانه و تعـــالى بالعبـــادات المختلفـــة ، وفيهـــا تكـــاليف بدنيـــة وماليـــة ، يتميـــز بهـــا المســـرع مـــن البطـــىء و المقبـــل مـــن المـــدبر ، وذلـــك مظهـــر مـــن مظـــاهر عدلـــه ســـبحانه و تعـــالى (أم حســـب الـــذين اجترحـــوا الســـيئات أن نجعلهـــم كالـــذين آمنـــوا و عملـــوا الصـــالحات ســـواء محيـــاهم ومماتـــهم ســـاء مـــا يحكمـــون) و لـــيس عدلا أن يكون المحسن و المسىء بمنزلة سواء عند ربهم .

والعبادة مدخل للعبودية ، والعبودية سبيل لمعرفته سبحانه و تعالى ، و معرفته سبحانه هى علة وجودنا فى هذه الحياة الدنيا فقد بين تعالى تلك العلة فى قوله الكريم (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون * و ما أريد منهم من رزق و ما أريد أن يطعمون * ان الله هو الرزاق ذو القوة التين) و قد قال ابن عباس رضى الله عنه فى معناها : الا ليعرفون .

و معرفة الله تتفاوت بتفاوت الفهم عن الله ، و الفهم عن الله يتفاوت بتفاوت الجهاد فى سبيله و الصدق فيه ، و ما قدره الله لعبده من عطائه فى سوابق أزله ، ولأن ما قدره سبحانه وتعالى فى سوابق ازله غيب لا يعلمه الا الله ، و جب على العبد أن يتخذ كل سبب مرسوم فى الشرع لمرضاته ، و ما شاء الله كان ، وما لم يشاء لم يكن ، و قد أمر سبحانه بالعبادة ، كما أمر بالاصطبار عليها فى مثل قوله الكريم (رب السموات و الأرض وما بينهما فاعبدوه واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا) و قوله تعالى (و أمر أهلك بالصلاة و اصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك و العاقبه للتقوى) .

و اذا كنا مع اعتقادنا فى أن الرزق بيد الله نجهد جهدنا فى أمور دنيانا الفانية لنصل فيما نبغيه لحياتنا الدنيوية الى أفضل مستوى مستطاع فكيف بنا نتوانى فى طلب الآخرة الباقية ، واذا كانت مطامعنا فى الدنيا لا تقف عند حد ، فكيف نرضى بالقليل لأخرانا مع أننا نستطيع أن نبلغ أضعافه ، أليس فى ذلك ايثار للدنيا غلى الآخرة و قد نهانا الله عنه و حذرنا منه (بل تؤثرون الحياة الدنيا . و الآخرة خير و أبقى) .

و ما ابدع ما يقوله سيدى على الخواص ، رضى الله عنه ، فيما نقله عنه سيدى عبد الوهاب الشعرانى ، فقد قال :

((من أدب العبد فى الفهم فى كلام ربه جل و علا أن يمشى حيث مشى به الشرع ، و يقف حيث وقف به ، فيعقل ما يقوله له اعقل ، و يؤمن فيما يقول له فيه آمن ، و ينظر فيما قال فيه انظر يعنى تفكر ، و يسلم فيما قال له فيه سلم .

((و ذلـــك لأن الآيـــات وردت فـــى القـــرآن متنوعـــة ، فآيـــات لقـــوم يعقلـــون ، و آيـــات لقـــوم يؤمنـــون ، و آيـــات لقـــوم يتفكـــرون ، و آيـــات لقـــوم يســـمعون ، وآيـــات للعـــالمين ، وآيـــات للمـــؤمنين ، وآيـــات للمـــوقنين ، و آيـــات لأولـــى النهـــى ، وآيـــات لأولـــى الألبـــاب ، و آيـــات لأولـــى الابصـــار ، ففصـــل يـــا أخـــى كمـــا فصـــل لـــك الحـــق تبـــارك و تعـــالى ، ولا تتعـــد الـــى غيـــر مـــا ذكـــره لـــك ، و نـــزل كـــل آيـــة و عبـــرة موضـــعها و انظـــر فـــيمن خوطـــب بهـــا ، و اجعـــل نفســـك كأنـــك المخاطـــب بهـــا ، فـــان فيـــك مجمـــوع مـــا تفـــرق فـــى اخوانـــك المســـلمين لنعتـــه تعـــالى لـــك بالعقـــل ، والايمـــان ، والتفكـــر و التقـــوى و الســـمع ، والقلـــب الـــذى هـــو اللـــب ، والأبصـــار وغيـــر ذلـــك ، فـــانظر يـــا أخـــى فـــى كـــل صـــفة نعتـــك بهـــا واظهـــر بهـــا فـــى العـــالم تكـــن ممن جمع له القرآن و أعطى الفرقان .

أمـــا أن الاصـــطبار نهايـــه الصـــبر ، فـــان الشـــيخ يوجـــه تلميـــذه الـــى مـــولاة الطاعـــات فـــى صـــبر جميـــل ، و اســـتقامة دائمـــة ، مـــع احتمـــال المشـــقات فـــى ســـبيله ســـبحانه ، و مـــا يقـــول بـــه الســـادة الصـــوفية فـــى الاصـــطبار ، مـــأخوذ مـــن كتـــاب الله تعـــالى كمـــا بينـــا آنفـــا و هـــم يستنهضـــون همتنـــا فيقولـــون انـــه ســـبحانه قـــال (لـــيس كمثلـــه شـــىء) و لمـــا كـــان تبـــارك و تعـــالى لا مثـــل لـــه ، حـــق للعابـــدين ألا بـــذروا مقـــدورا فيـــه الا بـــذلوه و لا يغـــادروا ميســـورا فـــى طلبـــه الا تحلمـــوه و انشدوا فى ذلك :

سهر العيون لغير و جهك باطل
و بكاؤهن لغير هجرك ضائع

و يقول الامام القشيرى رصى الله عنه ناصحا للمؤمن :

((لمـــن تـــدخر مجهـــودك اذا لـــم تطلـــب معبـــودك ، وهـــل تعـــرف أحـــدا يســـتحق مـــا يســـتحقه أو يوجـــد مـــا يخلقـــه ؟ ان عرفتـــه أجابـــك ، و ان أطعتـــه اثابـــك ، و ان تركتـــه أمهلـــك ، وان رجعـــت اليـــه و اصـــلك ، و ان عرفتـــه أحبـــك ، و بغيـــر شـــفيع قربـــك ، و بلطفه كاشفك ، و بفضله لا طفك)) .

و يقول الامام الدقاق ، رضى الله عنه .

((ان مجنــون بنــى عــامر ادعــى المحبــة لشــخص ، و تحقــق فيهــا حتــى هجــر الأوطــان ، و فــارق الاخــوان ، و اغتــرب عــن كــل شــىء حتــى اســمه (اســمه قيس و محبوبته ليلى كما هو معروف فلما خرج الى الصحراء رأى ظبية)

فقال :

فعيناك عيناها و جيدك جيدها

سوى أن عظم الساق منك دقيق

فقال له أهل التحصيل :

((اف لــك مــن محــب قاســيت مــا قاســيت ، و تحملــت مــا تحملــت ، و حــين خرجت الى الصحراء وجدت من أمثالها ما لا يحصى)) .

ومــن لازم وصــل ، كمــا قــال ســيدى الشــيخ رضــى الله عنــه ، و الوصــول لا يكــون الا بالمعرفــة ، لأن المعرفــة تعلمــك ، كمــا يقــول الامــام الــدقاق ، رضــى الله عنــه ، ايــه لــيس كذاتــه ســبحانه ذات ، و لا كفعلــه فعــل ، و لا كصــفته صــفة الا مــن جهــة موافقــة اللفــظ ، و جلــت الــذات القديمــة أن تكــون لهــا صــفة حديثــة ، كمــا أســتحال أن تكــون الــذات المحدثــة لهــا صــفة قديمــة ، ســبحان مــن لــيس كمثله شىء ، و جل عن الزمان و الأين .

و لــيس المقصــود أن تعــرف ذلــك اعتقــادا فحســب ، بــل المقصــود أن تشــهد ذلــك مــذاقا و احساســا ، فــذلك الاحســاس ، يهــون معــه كــل جهــاد فــى ســبيله ، و يصــغر بــه مــا ســواه جــل و عــلا ، كمــا يقــول اســتاذى العــارف بــالله ســيدى الشيخ على عقل ،رضى الله عنه .

فتشت كل الخلق عن علم فلم

أر لى سوى رب السما من وال

فتركت كل العالمين و جئته

و جعلت ذكرى ذاته منوالى

و قــد تحلــى الســادة الصــوفية بــذلك الأدب ، فعقلــوا الــدين عقــل و عايــة و رعاية ، لا عقل سماع ورواية ، لأن العلم انما هو و سيلة للعمل ، فجدوا

فـــى طلـــب الله بكليـــاتهم و جزئيـــاتهم ، و أخـــذ عنـــه أكـــابر العلمـــاء ، و اليـــك مـــا يحـــدثنا بـــه حجـــة الاســـلام الامـــام الغزالـــى رضـــى الله عنـــه عـــن التصـــوف و أثـــره فى كتابه (المنقذ من الضلال) .

بقيـــت نحـــو عشـــرين ســـنة بعـــد خروجـــى للتصـــوف ، وانكشـــف لـــى فـــى أثنائهـــا امـــور لا يمكـــن احصـــاؤها ، و القـــدر الـــذى اذكـــره لينتفـــع بـــه النـــاس أنـــى علمـــت يقينـــا أن الصـــوفيه هـــم الســـالكون لطريـــق الله تعـــالى خاصـــة ، وأن ســـيرهم أحســـن الســـير ، و طـــريقهم أصـــوب الطـــرق ، و أخلاقهـــم أزكـــى الأخـــلاق ، بـــل لـــو جمـــع عقـــل العقـــلاء ، وحكمـــة الحكمـــاء و علـــم الـــوقفين علـــى اســـرار الشـــرع مـــن العلمـــاء ليغيـــروا شـــيئا مـــن ســـيرهم و اخلاقهـــم و يبـــدلوه بمـــا هـــو خيـــر منـــه ، لـــم يجـــدوا اليـــه ســـبيلا ، و ان جميـــع حركـــاتهم و ســـكناتهم مقتبســـة مـــن نـــور مشـــكاة النبـــوة ، و بالجملـــة مـــاذا يقـــول القائـــل فـــى طريقـــة أول شـــروطها تطهيـــر القلـــب بالكلية عما سوى الله تعالى ، و آخرها الفناء بالكلية فى الله تعالى .

و معلـــوم أن الامـــام الغزالـــى . رضـــى الله عنـــه . انتهـــى الـــى ذلـــك القـــول بعـــد أن تبحـــر فـــى العلـــوم العقليـــة و النقليـــة ووقـــف علـــى آراء الفلاســـفة ، و حـــين أقبـــل رضـــى الله عنـــه علـــى التصـــوف هجـــر العـــراق و رحـــل الـــى الشـــام و تفـــرغ فـــى خلواتـــه لله مـــا وســـعه الجهـــاد و الـــذكر حتـــى وصـــل الـــى مقـــام قـــال فيـــه : يضـــيق نطـــاق المنطـــق عنه و كل ما أقوله لكم :

فكان ما كان مما لست أذكره
فظن خيرا و لا تسأل عن الخبر

ولا عجـــب أن يجمـــل و لا يفصـــل لأن مقامـــات الســـادة الصـــوفية انمـــا هـــى مـــذاقات و جدانيـــة و هـــى اذن فـــوق مـــا يصـــف الواصـــفون و صـــدق الامـــام النبهـــانى رضى الله عنه اذ يقول :

لا تسل و صف حبهم فهو سر
بسوى الذوق ماله افشاء

و صدق شيخى العارف بالله الشيخ على عقل رضى الله عنه حين يقول الهاما :

نحن فى عالم اليقين رجال　　قد غسلنا نفوسنا ثم غبنا
و شراب الرجال علم و حلم　　انما نحن فوق ذاك شربنا
فتح الباب ثم قال لجوه　　فولجنا و بعدها قد و صلنا

ومن لازم و صل ، و من أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له ، كما قال شيخى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه ، و الوصول لا يكون الا بالمعرفة ، و معرفة الله لا تكون الا بعد معرفة النفس و من عرف نفسه فقد عرف ربه فمن عرف نفسه بالحدوث ، عرف ربه بالقدم ، ومن عرف نفسه بالفناء ، عرف ربه بالبقاء ومن عرف نفسه بالجهل عرف ربه بالعلم و من عرف نفسه بالعجز عرف ربه بالقدرة ومن عرف نفسه بالفقر عرف ربه بالغنى و من عرف أنه مخلوق ، عرف أن ربه هو الخالق ، ومن عرف انه مرزوف ، عرف أن ربه هو الرازق و هكذا ، و بهذه المعرفة المذاقية يقف الؤمن من ربه موقف العبد من سيده ، فاذا قال له ربه يا عبدى قال لبيك ربى فصدق فى الامتثال بصدق العبودية المذاقية ، فلا يكسر حدود ربه بل يلتزمها ، فان كسرها أسرع بالانابة والاستغفار و لم يصر على ما فعل ، فأكرمه الله بالمغفرة .

وقد بلغ مولانا رسول الله صلى الله عليه و سلم فى تلك العبودية المذاقية الغاية القصوى التى يستطيعها البشر ، فشرفه ربه بالانتساب اليها فى آيات كثيرة فى مثل قوله تعالى (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى) و قوله تعالى (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) .

فاذا جد السادة الصوفية فى طاعة الله ، فهم يجدون عبودية لله ، غير ناظرين الى ثواب أو عقاب حتى لا تكون الطاعة معلولة بخوف أو رجاء ، بل تكون صافية و خالية من العلة لأنه سبحانه بسيادته على خلقه أهل لأن يعبد لذاته ، لأنهم صنعته ، و اليه مآلهم و بيده أمرهم ، و ما قدره كائن بهم ، فليس الأمر لسواه . كما يقول سيدى الشيخ و لم يبتدع السادة الصوفية

فى ذلك جديدا ، بل أخذوه من مثل قوله تعالى (فصل لربك وانحر) أى لذاته سبحانه ، ومن مثل قوله فى السادة أهل الصفة (و اصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة و العشى يريدون وجهه) فمن أراد أن يكون من السابقين بالخيرات باذن الله ، فليكن ذلك مشربه (و السابقون السابقون . أولئك المقربون) و معلوم أن السابقون أعلى فى درجاتهم من أصحاب اليمين .

وقد كنت أقرأ فى كتاب لطائف المنن لسيدى العارف بالله الامام الشعرانى رضى الله عنه ، فوجدت وصيه يوصيه بها شيخه القطب الكبير سيدى على الخواص رضى الله عنه ، يقول له فيها :

اياك أن تشره عينك ، فتتمنى ما ليس لك أن يكون لك ، فانه لا يخلو اما ان يكون قسمه الله لك أو لم يقسمه ، فان كان قسمه لك فهو صائر اليك لامحالة اما بمشيك اليه ، و اما بمجيئه هو اليك من غير مشى ، و أما ان لم يكن قسمه الله لك ، فلا يمكنك الوصول اليه بحيلة من الحيل ، فاشتغل عن ذلك باحسان الأدب فيما أنت بصدده من طاعة مولاك فى وقتك الحاضر ، فقد نصحتك ، و عليك ببذل طوقك و جهدك فى طاعته ، معتذرا ، مفتقرا خاشعا مطرقا ، غير ناظر الى عوض من دنيا أو أخرى ، فانك عبد ، و العبد لا يستحق على خدمة سيده شيئا لأنها من حقوق السيد .

و هذه الوصية كما تراها تتشابه فى مبناها ومعناها بوصية سيدى عبد السلام الحلوانى لتلميذه ، و سبحان من جمع الصادقين على بساط المحبة ، و علمهم من كلماته التى لا تنفد مالم يكونوا يعلمون .

و كان سيدى القطب الكبير أحمد الرفاعى رضى الله عنه يقول :

((كن طيارا الى الحضرة كلما تغيب عنها ، و لا ترضى بالقعود عنها ، ثم اذا من الله تعالى عليك بالدخول ، فأحسن الأدب ، و لا تغتر بما أنت فيه من النعيم الأوفر و العز الدائم و الكفاية الكبرى و الدلال و الغنى فى الدنيا و الأخرى ، فمن اتر بذلك قصر فى الخدمة ضرورة ، و أخلد الى الرعونة الأصيلة من الظلم و الجهل ، فأخرج (بضم المزة) من الحضرة فى أسرع من لمح البصر)) .

و الدخول هنا ليس دخولا حسيا ، بل هو اتصال روحى ، حين يشتعل القلب بربه ، و تجتمع الهمه فى مرضاته ، فلا يتشتت اللب فى أودية الدنيا و هومومها بل يكون العبد فى حضور ، ذاكرا مذكورا ، ساعيا مشكورا ، أنس قلبه بالله فاستوحش مما سواه ، أقبل على الله فأقبل الله عليه و فرح به فاختصه برحمتة وآواه و كيف لا وقد قال تعالى (ان رحمة الله قريب من المحسنين) و القرب هنا قرب منزلة و درجات لأقرب مكان و مسافات ، وهذه الرحمة الرحمانية ، هى مطمع الصادقين والصديقين من عباده الصالحين لأنه سبحانه يكبتها للذين يتقون ، لذلك ترى سيدى الامام العظيم أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه يقول فى حزبه الكبير . حزب البر . فيما قال :

((يالله ، يالله ، يالله ، ياالطيف يا رزاق ، يا عزيز لك مقاليد السموات و الأرض ، تيسط الرزق لمن تشاء و تقدر ، فابسط لنا من الرزق ما توصلنا به الى رحمتك ، و من رحمتك ما تحول به بيننا و بين نقمتك ، و من حلمك ما يسعنا فى عفوك ، و اختم لنا بالسعادة التى ختمت بها لأوليائك و اجعل خير أيامنا و أسعدها يوم لقائك ، وزحزحنا فى الدنيا عن نار الشهوة ، و ادخلنا بفضلك فى ميادين الرحمة ، و اكسنا من نورك جلابيب العصمة ، و اجعل لنا ظهيرا من عقولنا ، و مهيمنا من أرواحنا و مسخرا من أنفسنا ، كى نسبحك كثيرا و نذكرك كثيرا ، انك كنت بنا بصيرا .

((وهب لنا منك مشاهد تصحبها مكالمة ، و افتح اسماعنا و أبصارنا ، و اذكرنا اذا غفلنا عنك باحسن مما تذكرنا به اذا ذكرناك ، و ارحمنا اذا عصيناك باتم مما ترحمنا به اذا أطعناك ، وأغفر لنا ذنوبنا ما تقدم منها وما تأخر ، والطف بنا لطفا يحجبنا عن غيرك ، ولا يحجبنا عنك فانك بكل شىء عليم)) .

وفى الحديث القدسى الشريف يقول الحق تبارك وتعالى ((انا عند المنكسرة قلوبهم من أجلى)) ويفسره سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه فيقول : أى الذين كسرت ارادتهم البشرية وأزيلت شهواتهم

الطبيعية ، واستؤنفت لهم ارادات ربانية ، فهم دائما تحت قهر ارادتى طوعا منهم لا ينجبر لقلبهم كسر أبدا حتى يلقونى .

ويؤيد ذلك ما قالت السيدة رابعة العدوية ، رضى الله عنها : المحب لا يسكن أنينه وحنينه حتى يسكن مع محبوبه .

ويحذر سيدى عبد القادر الجبيلى ، رضى الله عنه ، الأغنياء من التقصير فى طاعة الله تعالى اغترارا بالمال الذى فى أيديهم فيقول :

((احذر أن تشتغل بما أعطاك الله من المال عن طاعته ، فيحجبك بذلك عنه دنيا وأخرى ، وربما سلبك ذلك المال وأفقرك وغيرك عقوبة لك ، واعلم أنك ان اشتغلت بطاعته عن ذلك المال ، فهو موهبة من الله تعالى لك ، وليس هو من المال المذموم)) .

وقد كان سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه يقول لأصحابه : ((كلوا من أطيب الطعام واشربوا من الذ الشراب وناموا على أوطأ الفراش ، والبسوا الين الثياب فان أحدكم اذا فعل ذلك ، وقال الحمد لله ، يستجيب كل عضو فيه للشكر)) .

((بخلاف ما اذا أكل خبز الشعير بالملح ، ولبس العباءة ، ونام على الأرض ، وشرب الماء المالح السخن وقال الحمد لله ، فانه يقول ذلك وعنده اشمئزاز وبعض سخط على مقدور الله تعالى ، ولو أنه نظر بعين البصيرة ، لوجد الاشمئزاز والسخط الذى عنده ، يرجح فى الاثم على من تمتع بالدنيا بيقين ، فان المتمتع بالدنيا فعل ما أباحه الحق سبحانه وتعالى ، ومن كان عنده اشمئزاز وسخط فعل ما حرمه الحق عز وجل)) .

وينصجنا سيدى ابن عطاء الله السكندرى ، رضى الله عنه ، أن ننتقل من الأكوان الى المكون فيقول :

((لا ترحـــل مـــن كـــون الـــى كـــون ، فتكـــون كحمـــار الرحـــى يســـير والـــذى ارتحـــل اليـــه هـــو الـــذى ارتحـــل منـــه ، ولكـــن ارحـــل مـــن الأكـــوان الـــى المكـــون ، وان الى ربك النتهى)) .

ومـــع أخـــذ الســـادة الصـــوفية فـــى أســـباب الطاعـــات فهـــم يســـتعينون دائمـــا بـــالله تعـــالى ، ويســـألونه العـــون والتوفيـــق والقبـــول ، ويتجلـــى ذلـــك مـــنهم فى مناجاة سيدى ابن عطاء ، رضى الله عنه ، وهو يقول فيها :

((الهـــى : أنـــا الفقيـــر فـــى غنـــاى ، فكيـــف لا أكـــون فقيـــرا فـــى فقـــرى ؟ .

الهـــى : أنـــا الجاهـــل فـــى علمـــى ، فكيـــف لا أكـــون جهـــولا فـــى جهلـــى ؟ .

((الهـــى : ان اخـــتلاف تـــدبيرك وســـرعة حلـــول مقـــاديرك ، منعـــا عبـــادك العارفين بك عن السكون الى عطاء ، واليأس منك فى بلاء .

((الهى : منى ما يليق بلؤمى ، ومنك ما يليق بكرمك .

((الهـــى : كيـــف يســـتدل عليـــك ، بمـــا هـــو فـــى وجـــوده مفتقـــر اليـــك ، أيكـــون لغيـــرك مـــن الظهـــور مـــا لـــيس لـــك حتـــى يكـــون هـــو المظهـــر لـــك ، متـــى غبـــت حتـــى تحتـــاج الـــى دليـــل يـــدل عليـــك ، ومتـــى بعـــدت حتـــى تكـــون الآثـــار وهـــى التـــى توصل اليك .

((الهـــى : هـــذا ذلـــى ظـــاهر بـــين يـــديك ، وهـــذا لا يخفـــى عليـــك ، منـــك اطلـــب الوصـــول اليـــك ، وبـــك اســـتدل عليـــك ، فاهـــدنى بنـــورك اليـــك واقمنـــى بصدق العبودية بين يديك .

((الهـــى : بـــك استنصـــر فانصـــرنى ، وعليـــك أتوكـــل فـــلا تكلنـــى ، وايـــاك أســـأل فـــلا تخيبنـــى ، وفـــى فضـــلك أرغـــب فـــلا تحرمنـــى ، ولجانبـــك أنتســـب فـــلا تبعدنى وببابك أقف فلا تطردنى .

((أنت الذى أشرقت الأنوار فى قلوب أوليائك حتى عرفوك ووحدوك وأنت الذى أزلت الأغيار من قلوب أحبابك حتى لم يجيبوا سواك ، ولم يلجأوا الى غيرك .

((أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم ، وأنت الذى هديتهم حتى استبانت لهم المعالم .

((ماذا وجد من فقدك ، وما الذى فقد من وجدك لقد خسر من بغى عنك متحولا ، وقد خاب من رضى دونك بدلا ، كيف يرجى سواك وانت ما قطعت الاحسان أم كيف يطلب غيرك وانت ما بدلت عادة الامتنان .

وقد وقع لى الاطلاع على مخطوط نفيس من مؤلفات سيدى الامام القشيرى رضى الله عنه (أعارنيه أخى العارف بالله الاستاذ عبد المنعم الحلوانى رضى الله عنه) يشرح فيه أسماء الله الحسنى ، فرأيت أن أنقل منه الى السادة القراء شيئا من كلامه القيم فى الصبر والاصطبار فقد قال جزاه الله عنا خيرا .

أما رتبة العبادات فى الصبر ، فعلى أقسام ، أولها التصبر وهو تكلف الصبر ومقاساة الشدة فيه ،

وبعد ذلك الصبر وهوسهولة تحمل ما يستثقله غيره من فنون القضاء وضروب البلاء ،

وبعد ذلك الاصطبار وهو النهاية فى الباب ويكون ذلك بان يألف الصبر فلا يجد مشقة بل يجد روحا وراحة قال الشاعر :

تعودت مس الصبر حتى ألفته
وأسلمنى حسن العزاء الى الصبر

وأنشدوا :

صابرا لصبرك فاستغاث به صبرا

فصاح المحب يا صبر صبرا

ونقل عن الامام أبى على الدقاق رضى الله عنه قوله :

((ليس الصبر ألا تذكر البلاء لفظا ونطقا ، انما الصبر ألا تعترض على قدرته استقباحا لذلك ونكرا ، وشاهده ما أخبر الله تعالى عن أيوب عليه السلام بقوله (انى مسنى الضر) ثم قال (انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب) .

ثم يقول الامام القشيرى رضى الله عنه فى ابداع :

((وأما ما يجب على العبد من الصبر فهو الصبر على ما أمر الله تعالى به من أوامره ، والصبر عما نهى عنه من محارمه ، والسكون تحت ما يجرى قضاؤه به وقدره ، وفقنا الله تعالى لذلك بمنه ورحمته انه على كل شىء قدير)) .

وأقول بعد ما تقدم : اللهم ارزقنا حبك وحب من يحبك واجعلنا من عبادك الصالحين الذين جعلتهم فى حماك المنيع وقلت فيهم (ان عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا) .

ـ ٣٣ ـ

أمـــا الشـــوق فشـــوق يـــؤدى للجمـــع ، والجمـــع لايكـــون الا بـــالجمع ، والجمـــع جمـــع القلـــب علـــى الله ، فـــاذا كـــان شـــوق فـــلا يكـــون الا لله ، فـــان تعـــدى لانســـان ، فـــلا يكـــون الا بجمعـــه علـــى الله ، فـــلا بكـــون شـــوق لانســـان الا لمحبـــة الله ، فهو بالله والى الله وفى الله وعلى الله وبالله .

((فـــاذا كـــان عنـــدى شـــوق فمظهـــره أنـــت ، ومنـــك طوقـــت جيـــده وعرفتـــك بـــالله ، فـــاذا توجهـــت الـــى الله ، وجـــدتك أنـــت مـــع الله ، فـــاذا عرفـــت انســـانا لا تعرفـــه الا لله)) .

جـــاءت هـــذه الكلمـــات فـــى رســـالة بعـــث بهـــا أســـتاذى العـــارف بـــالله ســـيدى الشـــيخ عبـــد الســـلام الحلـــوانى رضـــى الله عنـــه ، لتلميـــذه الصـــديق الـــوفى المبـــارك الســـيد ســـالم عمـــر جمعـــة ، حفظـــه الله وهـــى كمـــا تراهـــا ، كلمـــات صـــوفية صـــافية ، تأخـــذ منهـــا أن شـــوق المـــؤمن لأخيـــه المـــؤمن عبـــادة ، مـــن أســـمى العبـــادات ، لأن محبـــة الله هـــى الباعثـــة لـــذلك الشـــوق ، واذا قامـــت الاخـــوة علـــى محبـــة الله تعـــالى ، لـــم تدنســـها علـــة دنيـــة ، أو غايـــة عرضـــية ، تـــزول بزوالهـــا الرابطـــة ولا تدوم .

والاخـــوة فـــى الله ، اخوتـــان ، أخـــوة عامـــة تقـــوم علـــى أخـــوة العقيـــدة ، وأخـــوة خاصـــة ، تقـــوم علـــى محبـــة الله ، والمحبـــة فـــى الله ، أخـــص مـــن أخـــوة العقيـــدة ، ومحبـــة الشـــيخ لتلميـــذه أو التلميـــذ لشـــيخه ، هـــى مـــن المحبـــة الخاصـــة ، بـــل هـــى خاصـــة مـــن الخاصـــة ، لأتهـــا بنيـــت أساســـا علـــى محبـــة الله ، وقويـــت أركانها بالأبوة والبنوة الروحية ، التى قامت بين الشيخ وتلميذه فى الله وبالله .

والشـــيخ ينمـــى فـــى التلميـــذ محبـــة الله ، وايثـــاره تعـــالى علـــى ماســـواه ، والتلميـــذ يقـــدر لشـــيخه فـــى تنميـــة المحبـــة و تنشـــييد دعائمهـــا ، وتوثيـــق عراهـــا ، وكفالـــة الشـــيخ لتلميـــذه فـــى هـــذا الضـــوء مـــن حياتـــه الروحيـــة ، كفالـــة يـــراد بهـــا وجـــه الله وأجـــر الشـــيخ غلـــى الله ســـبحانه ، و هـــو لا يريـــد مـــن تلميـــذه جـــزاء ولا شكورا .

والأخـــذ عـــن شـــيخ عـــارف بـــالله ، مـــن المبـــادىء الصـــوفية الهامـــة ، حتـــى لقـــد قـــالوا : كـــل مـــن لـــم يكـــن لـــه أســـتاذ ، يصـــله بسلســـلة الاتبـــاع ، و يكشـــف عـــن قلبـــه القنـــاع ، فهـــو فـــى هـــذا الشـــأن لـــيقط لا أب لـــه ، دعـــى لا نســـب لـــه ، فـــان لـــم يكـــن لـــه نـــور ، فالغالـــب غلبـــة الحـــال عليـــه ، لـــم تروضـــه سياســـة التأديـــب و الهـــذيب ، و لم يقده زمام التجربة و التدريب .

و الســـادة الصـــوفية ، يقولـــون وهـــم محققـــون فيمـــا يقولـــون ، ان الطريـــق تحتـــاج للرفيـــق ، خاصـــة طريـــق الله ، التـــى يعـــالج العبـــد فيهـــا خـــوافى عللـــه القلبيـــة و لا بـــد لعلاجهـــا مـــن طبيـــب خبيـــر بالعلـــل وعلاجهـــا ، ممـــن يســـرهم الله لـــذلك ، و يقـــول ســـيدى ابـــن عطـــاء الله رضـــى الله عنـــه لـــولا ميـــادين النفـــوس ، مـــا تحقـــق ســـير الســـائرين ، اذ لا مســـافة بينـــك وبـــين الله حتـــى تطويهـــا رحلتـــك ، ولا قطيعـــة بينـــك وبينـــه حتـــى تمحوهـــا وصـــلتك ، كمـــا يقـــول رضـــى الله عنـــه حـــظ الـــنفس فـــى المعصـــية ظـــاهر جلـــى وحظهـــا فـــى الطاعـــة بـــاطن خفـــى ومـــداواة مـــا يخفـــى صـــعب علاجه .

والـــدواء فيـــه المـــرارة فـــى البدايـــة ، ولكنـــه موصـــل الـــى الشـــفاء فـــى النهايـــة ، و ان الـــذى أنـــزل الـــداء ، أنـــزل معـــه الـــدواء ، ليتـــداوى صـــاحب الـــداء مـــن الـــداء بالـــدواء الـــذى أراده الله وأذن بـــه للشـــفاء ، وينصـــحنا ســـيدى ابـــن عطـــاء الله رضـــى الله عنـــه فيقـــول : لا تكـــن كالعليـــل يقـــول لا أتـــداوى حتـــى أجـــد الشـــفاء ، فيقـــال له ، لا تجد الشفاء حتى تتداوى .

و يتـــدرج المريـــد فـــى الجهـــاد علـــى يـــد شـــيخه شـــيئا فشـــيئا ، حتـــى يـــذوق حـــلاوة الطاعـــة ، فينتقـــل مـــن ذل المعصـــية الـــى عـــز الطاعـــة ، ويرقـــى حتـــى يتحلـــى ـــــ كمـــا يقـــول ســـيدى عطـــاء الله رضـــى الله عنـــه . بســـبعة أصـــول : اســـتحقار ما سوى الله حالا ، والتعظيم لأوامر الله كشفا ، وسقوط الأكوان شهودا ،

والغناء في الجمع استغراقا ، وتعلق الهمة دأبا ، ومراقبة الأنفاس سرا ، ثم حدوث الوله بحيث لا يرى غير الله ، ولا يحسن سواه .

وبقول سيدى الامام الغزالى ، رضى الله عنه . في كتاب الاحياء ، (المحبة لله ، هي الغاية القصوى من المقامات ، والذروة العليا من الدرجات فما بعد ادراك المحبة مقام الا وهو ثمرة من ثمارها ، وتابع من توابعها ، كالشوق والأنس والرضا واخواتها ، ولا قبل المحبة مقام الا وهو مقدمة من مقدماتها كالتوبة والصبر والزهد وغيرها .

ويبين لنا السادة الصوفية ان الشيخ في التربية الروحية يجلو بارشاده للمريد مرآة قلبه حتى تتجلى فيه أنوار ربه فيقول له شيخه عندئذ (ها أنت وربك) فيشهد ربه ويؤثره على هواه وعلى كل ما سواه ، ويصلح في هذه المرتبة لأن يجاهد نفسه بنفسه جهادا مثمرا ، وذلك أشبه بما يقع من كفالة والد الجسد لابنه حتى يبلغ رشده فيجاهد على رزقه بنفسه على أساس صالح من الكفالة الابوية السابقة ، ويرى المريد من ربه تعالى العون والالهام مصداقا لقوله سبحانه ، (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين) ، وليس معنى ذلك أن ينسى فضل شيخه فان من لم يشكر الناس لم يشكر الله ويقول العارفون : لا يطمع أحد في معرفة الله وهو لا يعرف الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا يطمع أحد في معرفة الرسول صلى الله عليه وسلم وهو لا يعرف شيخه .

ويبين لنا السادة الصوفية كذلك ، ان الحجاب الذى بين العباد وربهم ، وليس أمرا وجوديا بل هو حجاب توهمى ، واليك ما يدلك به سيدى ابن عطاء الله السكندرى . رضى الله عنه ، على صحة رأيهم اذ يقول في روعة ظاهرة :

((من شهد ظلية الآثار ، لم تعقه عن الله فان ظلال الأشجار في الأنهار ، لا تعوق السفن عن التسيار ، ومن هنا يتبين لك أن الحجاب ليس أمرا وجوديا بينك وبين الله ، ولو كان بينك وبينه حجاب وجودى للزم أن يكون أقرب اليك منه ، ولا شيء أقرب من الله فرجعت حقيقة الحجاب الى توهم الحجاب)) وهى نظرة فلسفية كما ترى ، وللتصوف فلسفته الصافية

الخالية من الريبة والشك أو الخيال والوهم ، وكل ما خطر ببالك فهو هالك والله بخلاف ذلك .

ويقول السادة الصوفية ان من ذاق شيئا من خالص محبة الله ، ألهاه ذلك عما سواه ، كما يقولون : ان وصول العبد الى ربه انما هو وصوله الى العلم به سبحانه ، وجل تبارك وتعالى أن يتصل به شىء أو يتصل هو بشىء ، وأين ذواتنا من ذاته العلية ، وأين الحادث من القديم ، والفانى من الباقى ، فهو جل وعلا ، يتقدس عن الحدود والأقطار والنهاية والمقدار ، ما اتصل به مخلوق ولا انفصل عنه حادث مسبوق به جلت الصمدية عن قبول الوصل والفصل .

وما رمى به السادة الصوفية من الحلول والاتحاد ، انما رموا به حسدا من عند اعدائهم ، أو جهلا بمراميهم فى أقوالهم ، وقد تعلو عن افهام القاصرين ولا يفهم كلامهم الا واحد منهم ، سلك مسلكهم ، وذاق مذاقهم ، خاصة وأنهم اعتمدوا فى كلامهم على الاشارات ، كلغة رمزية لأهل التصوف ، لا لعامة الناس ، والخواص يفهمون مالا يفهمه العوام وقد قبل فى حكم الأقدمين .

وكم من عائب قولا صحيحا

وآفته من الفهم السقيم

على أن بعض أئمتهم بينوا أنه حيث ورد الاتحاد فى كلامهم فانما قصدوا به اتحاد مرادهم مع ربهم كما قال سيدى على وفا رضى الله عنه .

وعلمك ان كل الأمر أمرى

هو المعنى المسمى باتحاد

ومن عجيب الأمر أن يرمى اعداء التصوف سيدى محيى الدين بن عربى رضى الله عنه بالحلول والاتحاد ، مع انه يقول فى صراحة تامة فى الفتوحات المكية (باب ٢٥٢) ومن أعظم دليل على نفى الحلول والاتحاد الذى يتوهمه بعضهم أن تعلم عقلا أن القمر ليس فيه من نور الشمس شىء

وان الشمس ما انتقلت اليه نواتها وانما كان القمر مجلاها كما جاء فى أشعاره قوله :

ودع مقاله قوم قال عالمهم
بأنه بالاله الواحد اتحدا

الاتحاد محال لا يقول به
الا جهولا به عن عقله شردا

وعن حقيقته وعن شريعته
فاعبد الهك لا تشرك به أحدا

وقد نبه سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه ، فى مقدمة كتابه القيم (اليواقيت والجواهر) الى أن حساد الصوفية دسوا على سيدى محيى الدين وغيره ، كما دسوا على سيدى الشعرانى فى حياته ، أقوالا تخالف ظاهر الشريعة وقد اطلع على النسخة الخطية الأصلية للفتوحات المكية ، ولم يجد فيها شيئا من تلك المدسوسات .

وقد وجب علينا اذن ، أن نحسن الظن باسلافنا الصالحين ، والا نسىء اليهم ، وهم أولئك الذين علمنا عنهم أنهم متمسكون بالكتاب الكريم والسنة الشريفة والجماعة الملزمة ، واذا عجزنا عن فهم عبارة من عباراتهم فلنرد علمها ومرادهم منها لله تعالى ، وقد رأيت للامام النبهانى رضى الله عنه عبارة فى هذا المعنى فكان اذا التبس عليه الفهم يقول : وللشيخ هنا كلام لا يجوز اعتقاده على ظاهره والله أعلم بمراد الشيخ منه ، فلا يجرح الشيخ ولا يسىء به ظنا .

والسادة الصوفية ، حسدهم على مر الأزمان ، والمسلمون وغير المسلمين لأن ذى نعمة محسود ولا نعمة فوق حسن الصلة بالله تعالى .

محسودون على ما كان من نعم
لا ينزع الله عنهم ماله حسدوا

والحسد ، ونعوذ بالله منه ، داء قديم ، سنة ابليس اللعين ، حين حسد سيدنا آدم عليه السلام على ما آتاه الله من فضله ، فأبى أن يسجد له ، ويقول سيدى الامام أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه ، فى وصاياه :

((لا تكترث بحسادك ، فقد قال تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام (قل أعوذ برب الفلق) حتى قال له (ومن شر حاسدا اذا حسد) فكأنه عز وجل يقول له : سلنى ان أكفيك شر حسادك ولا تسألنى أن أقطعهم عنك ، فان الحسد مع النعم ، ولا بد من نعمة عليك)) .

ويبين لنا سيدى الامام أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه ان الأولياء هم صفوة المؤمنين والله يجمعهم على محبته ، ويجمع بهم أهل مودته على طاعته وهم يتعاونون فى الدرجات ، فمنهم الأولياء ، ومنهم الصديقون ، وغايات الأولياء بداية الصديقين ، كما يبين لنا أنهم انما يبلغون الولاية والصديقية بحسن متابعتهم لحبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فهو يقول ، فيما أورده عنه الصديق العلامة التقى النقى ، الدكتور عبد الحليم محمود فى كتابه القيم أبو الحسن الشاذلى واصفا المخلصين من المؤمنين :

رجال جبلهم على حسن عبوديته وأخلصهم لاخلاص توحيد ربوبيته واتباع شريعته ، فيما متع اسرارهم بأنوار حضرته ، وأمد أرواحهم بمعانى المعارف ، وخصائص عنايته وأجال عقولهم فى عظمته ، وزكى نفوسهم فأحرزها وأخرجها من ظلمة الجهل ، وهداهم بنجوم العلم وشمس معرفته ، وأيد عقائدهم ببرهان كتابه وسنته ، ومحا عزائمهم بتحقيق غلبة مشيئته ، وطوى ارادتهم بتيقن وقفها على ارادته ، وزينهم بزينة الزهد ، وحلية التوكل ، وشرف الورع ، ونور العلم ، وضياء المعرفة ، وألهمهم لفضله وطوله ، وتولاهم فأغناهم به عن غيره .

((وجعل منهم مفاتيح قلوب الورى ، وينابيع الحكمة الكبرى يتلقونها شرعا ، ويلقونها أهلها سرا وجهرا ، ومنهم من سترته الأقدار ، وحجبته عن الأغيار ، لينفرد بالتمكن فى حقيقة الأسرار ، تعرف كلا بسيماهم باطنهم مع الحق ، وظاهرهم مع الخلق ، فهم هم فى الوجود ،

بوصـف الغنـاء ظـاهرين ، صـفوا وافترقـوا فـى سـيرهم سـننا ، ظـاهرهم الفقـر ، وبـاطنهم الغنـى ، يتخلقـون بـأخلاق نبـيهم صـلى الله عليـه وسـلم كمـا قـال العلـى الأعلى (ووجدك عائلا فاغنى) .

((أفتـراه أغنـاه بالمـال ؟ كـلا وقـد شـد الحجـر علـى بطنـه ، وأطعـم الجـيش مـن صـاع ، وخـرج مـن مكـة علـى قدميـة صـلى الله عليـه وسـلم ، وركـب فـوق البـراق ، وعـرج بـه الـى السـماء العلـى الـى سـدرة المنتهـى ، ورأى مـا رأى ، ما كذب الفؤاد ما رأى .

((فـانظر الـى حـال الغنـى فـى الوصـفين ، وأشـهد شـرف أوصـافه فـى الحـالين ، فـان قلـت بشـر ، قلـت نعـم لا كالبشـر ، كمـا تقـول فـى اليـاقوت حجر لا كالحجر .

وفـى العبـاد نبـى ورسـول يـدعو بـالحق الـى الحـق ، فـأعطى الأوليـاء منـه ميراثـا مـن النبيـين بـين الخلـق ، اذ هـم أخـذوا فـى التأسـى بجـد واتيـان ، واعتقـدوا قـول كـان الله ولا شـىء معـه ، وهـو الآن علـى مـا هـو عليـه كـائن وأقـاموا فـى مقـام التوحيـد ، علـى قـدم التجريـد مـن حظـوظ الـنفس ، وملاحظـة الحظوظ ، واقتداء بالسلف رضى الله عنهم .

هـذا قصـد القـوم ، وأصـل فـى الاخـلاص والتخصـيص ، فيمـا لـو نظـرت الـى حقيقـة ذلهـم وافتقـارهم الـذى هـو عـين العـز والغنـى بمـولاهم اشـتد تحقـق حـالهم الا علـى ولـى فـى نهايتـه ، أو صـديق ولـو فـى بدايتـه لأن غايـات الأوليـاء بداية الصديقين :

فخذ السر جهرا اليك

واحبس عليه بكلتا يديك

ويبـين لنـا كـذلك رضـى الله عنـه ان الطرسـيق الـى الله يسـلكها العبـد بأربعـة أشـياء ، ويقـول مـن حازهـا فهـو مـن الصـديقين المحققـين ، ومـن حـاز منهـا ثلاثـا فهـو مـن الأوليـاء المقـربين ، ومـن حـاز منهـا أثنـين فهـو مـن الشـهداء المـوقنين ومن حاز منها واحدة فهو من عباد الله الصالحين ، وبين هذه الأربعة فقال رضى الله عنه :

أولها ـ الذكر ، وبساطه العمل الصالح ، وثمرته النور .
وثانيها ـ التفكر ، وبساطة الصبر ، وثمرته العلم .
وثالثها ـ الفقر (أى مما سوى الله والغنى بالله) وبساطه الشكر وثمرته المزيد منه .
ورابعا ـ الحب ، وبساطه بغض الدنيا وأهلها (أى شهوات الدنيا وأهل الشهوات) وثمرته الوصل بالمحبوب .
ويقول أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل ، طيب الله ثراه ، فى وصف عباد الله هؤلاء ، فيما نقلنا عنه من الهامه الفورى :

هم الجواهر طبعا لا يغيرهم مر الزمان وهم من أهله الدرر
ان يشبعوا حمدوا أو أفقروا اصبروا أو يحزنوا كتموا أو يوهبوا شكروا
ملائك الله ترعاهم وتتبعهم والفضل يحضر فيهم أينما حضروا
من أمهم كان فضل الله غامره وحيث منزلهم يستنزل المطر
أزكى القلوب وأسماها وأشرفها من بالهداية والايمان يأتزر
والعاشقون لهم فى الحب آن صيروا روض من العز لم يذبل له ثمر
مياهه الذكر والتقوى منابعه والعلم والدين والآيات والعبر
خل المعارف للعشاق تقطعها ان كنت منهم فسر واسهر كما سهروا

ويقول رضى الله عنه فى كلام رائع طويل :

يا راضيا بالحب فى ربه لقيت كل الخير فى قربه
احفظ عليك الدين مهما تكن يحفظك من كل جهل ومن ريبه
هذا كتاب الله باب الهدى أنواره تهدى الى رحبه
من طهر النفس بآياته يكشف رب العرش من كربه
من يجعل الشرع له منهجا أخرج كل الشك من قلبه
دع ما يقول الناس من علمهم ما دمت تلقى العلم من سيبه

بحر التجلى كله حكمة　　　كم تسكر الأرواح من عذبه
علمنا المختار خير الورى　　　أن نقطع العمر على بابه

ومـــن فضـــل الله علـــى هـــذه الأمـــة المحمديـــة ، انهـــا تســـتجيب للآمـــرين بـــالمعروف والنـــاهين عـــن المنكـــر ، ولا عجـــب فهـــى خيـــر أمـــة أخرجـــت للنـــاس ، ولقـــد اتصـــل بـــى بطريـــق مجلـــة منبـــر الاســـلام الغـــراء ، قـــراء أفاضـــل ممـــن يتـــابعونى هـــذه السلســـة ، الصـــوفية فـــى الهـــامهم ، وتآخينـــا فـــى الله تعـــالى وتعاونـــا فـــى طاعتـــه ســـبحانه ، وهـــو مـــا شـــجعنى الاسترســـال فيهـــا ، مهمـــا كلفنـــى الجهد .

وانـــى ناقـــل للســـادة لقـــراء ، كتابـــا طريفـــا ، جـــاءنى مـــن الأخ المفضـــال الســـيد محمـــد محمـــد البلقينـــى . وقـــد طلـــب الـــى فيـــه ان أعاونـــه فـــى ســـلوك طريـــق التصـــوف وقـــد فعلـــت ، فســـعدت بصـــحبته فـــى طريـــق الله ، طريـــق الخيـــر والسعادة الحقة . قال فيه حفظه الله :

سيدى الأستاذ حسن كامل الملطاوى .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

منـــذ نحـــو عـــام قـــرأت لكـــم عـــن (الصـــوفية فـــى الهـــامهم) ومنـــذ ذلـــك اليـــوم وأنـــا أتـــابع هـــذه الحلقـــات النورانيـــة ، كمـــا أســـعدنى الحـــظ بقـــراءة كتـــاب منـــاهج الصـــوفية ، كنـــت لـــم أتمـــه بعـــد ، وكـــذلك كتـــابكم عـــن الامـــام الحســـين رضى الله عنه .

وفـــى كـــل مـــرة اقـــرأ لكـــم ، اشـــعر بهـــزة نفســـية ، ويقظـــة روحيـــة ، تصـــل الـــى حـــد الانفعـــال المتـــدفق ، لكـــن ســـرعان مـــا تنطفـــىء فـــى تيـــار الحيـــاة المتقلـــب بين مطالب العيش ووساوس النفس .

وكـــان لزامـــا أن أســـعى الـــى الطريـــق ، طريـــق النـــور والهـــدى والســـكينة ، والحـــق والحقيقـــة ، طريـــق الأمـــل الالهـــى ، الـــذى يحقـــق للانســـان انســـانيته وخلافته ، وتكررت المحاولات ، وأخيرا عزمت ان اكتب اليك .

وكنت قد ذكرتك يوما عند صديقى الاستاذ صالح أحمد صالح المحامى ، فأخبرنى ان سيادتكم تشغل منصب وكيل وزارة الخزانة (كان

ذلـــك قبـــل احـــالتى للمعـــاش) وان جلســـاتكم فـــى مصـــر الجديـــدة (انـــى أســـكن مدينـــة الاوقـــاف) حافلـــة بالمريـــدين طـــلاب العلـــم والحقيقـــة ، فخشـــيت أن تكـــون هـــذه الصـــوفية اســـتكمالا لزينـــة الـــنفس أو اســـتجماعا للثنـــاء (أعجبتنـــى هـــذه الصراحة ، كما أعجبنى التدقيق فى اختيار الرائد المتصوف) .

حتـــى طلـــع علينـــا مقـــالكم الاخيـــر فـــى عـــدد جمـــادى الأول ، فكـــان مكاشـــفة صـــريحه نابعـــه مـــن قلـــب كبيـــر متعلـــق بـــالاخره نـــاظر الـــى مـــولاه (بينـــت فـــى ذلـــك المقـــال ان درجـــات الـــدنيا وان علـــت لا تغنـــى عـــن درجـــات الاخـــره ، لان الـــدنيا فانيـــه والاخـــره باقيـــه) وكـــان هـــذا المقـــال ، ردا باليغـــا علـــى كـــل حـــديث خفـــى ، ودعوه خالصه للراغبين الى المسير .

ســـئمت التـــردد ادبـــارا واقبـــالا وتعبـــت مـــن تـــوالى الهبـــوط والصـــعود ، واخشـــى فـــوات الاوان ، اشـــاره مـــنكم قـــد تهـــدينى الـــى طريـــق الحريـــه والســـعاده والرضـــوان ، وقـــد تكـــون ايـــذانا للانطـــلاق فـــى اســـعد ميســـره الـــى أعظـــم هـــدف فمـــا اتعـــس القاعـــدين . ان مثلـــك لا يمكـــن ان يضـــن علـــى طالـــب أو يخيـــب رجـــاء .

والسلام عليكم ورحمه الله وبركاته .

اللهـــم اكتبنـــا فـــى أولـــى الالبـــاب ، الـــذين قلـــت فـــى وصـــفهم (الـــذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم) آمين يارب العالمين .

. ٣٤٠

((باسم ربى احييك بالسلام سلام الروح الخالية من الخيال ، ومن الحيلة والأحوال ، الا من الله الواحد ذى الجلال ، سلام من عبد السلام ، عبد يفخر ويزيد تيها وعلوا بانه عبد الله ، الواحد ، الأحد ، الفرد الصمد ، هنيئا له ، لأنه خلقه الله .

((أسألك يا رب حيث خلقتنى من عبيدك ، منتسبا اليك ، أن تجعلنى من فريق الجنة ، وما أطلبها الا لأنها مكان قربى منك ، ولا تجعلنى من فريق السعير ، لأنها تبعدنى عنك ، وان كان قدرك قد سبق ، ولكنى أسألك اللطف فيه ، انت المسيطر ولك حضرة الاطلاق تفعل ما تشاء ، سبحانك لا اله غيرك ، ولا معبود سواك ، يا حى ، يا قيوم)) .

هذه بداية رسالة بعث بها شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى ، كرمه الله الى تلميذه الصالح التقى النقى الصديق السيد سالم جمعة ، زاده الله فضلا ونعمة ، وهى كما يرى القارىء العزيز سطور من نور ، دلت على توحيد الصوفية الخالص من الأكدار والاغيار ، ومن دعوى الحلول والاتحاد الذى ينسب للصوفية حسدا أو سوء فهم من خصوم التصوف ، وحاشا ان يتلوث توحيد السادة الصوفية ، وقد اعتصموا بالكتاب والسنة والجماعة ، وهم الذين نأخذ عنهم فى هذه المقالات ، أما غيرهم من الضالين المضلين ، فلا شأن لنا بهم ، مهما ادعوا انهم صوفية ، وهل ذهب صرف يساويه بهرج ؟ .

واليكم تفسير ما يقول سيدى الشيخ ، لا من كلامى ، وانما من كلام أئمة التصوف ، الذين خلا توحيدهم من الشوائب والأوحال ، وصفا فلم يجعل المخلوف متصفا ذات الحق سبحانه وتعالى ، وأين العبد

مـن ربـه ، وأيـن المخلـوق مـن خالقـه ، وأيـن الحـادث مـن القـديم ، وأيـن الفـانى مـن البـاقى الـذى يبقـى بعـد فنـاء خلقـه ، فهـا هـو ذا سـيدى الامـام القشـيرى ـ رضـى الله عنـه . يعلمنـا كيـف يكـون توحيـد المـؤمن خالصـا فيقـول فـى مناسبة شرحه لمعنى اسمه سبحانه الباقى الوارث :

((ممـا يجـب أن تشـتد بـه العنايـة أن يتحقـق العبـد أن المخلـوق لا يجـوز أن يكـون نتصـفا بصـفات ذات الحـق سـبحانه ، فـلا يجـوز أن يكـون بعلـم الله عالمـا ، ولا يجـوز أن يكـون العبـد بقـدرة الله قـادرا ، وأن يكـون سـميعا وبصـيرا بسـمعه وبصـره تعـالى ، ولا أن يكـون حيـا بحياتـه ولا باقيـا ببقائـه تعالى ، لأن الصفة القديمة لا يجوز قيامها بالذات الحادثة .

((وحفـظ هـذا البـاب أصـل التوحيـد ، فـان كثيـرا ممـن لا تحصـيل لـه ولا تـيقن ، زعمـوا أن العبـد يصـير باقيـا ببقـاء الحـق ، وأن يكـون سـميعا بسـمعه ، بصـيرا ببصـره ، حيـا بحياتـه ، وهـذ خـروج عـن الـدين وانسـلاخ عن الاسلام بالكلية .

((وهـذه البدعـة تـوازى قـول الحلوليـة حيـث جـوزوا علـى ذات الحـق سـبحانه الحلـول فـى الأشـخاص المحدثـة ، كـذلك هـؤلاء جـوزوا قيـام الصـفة القديمـة بالـذات المحدثـة ، وربمـا تعلقـوا فـى نصـرة هـذه المقالـة الشـنيعة بمـا روى فـى الخيـر عـن الله تعـالى اذ قـال : ((فـاذا أحببتـه كنـت لـه سـمعا وبصـرا فبى يسمع وبى يبصر)) .

((ولا احتجـاج لهـم فـى ظـاهره ، لأنـه لـيس فيـه أنـه يسـمع بسـمعى ويبصـر ببصـرى ، بـل قـال بـى يسـمع وبـى يبصـر .

((فالاتفـاق ان ذاتـه لا يجـوز أن تكـون لأحـد سـمعا ولا بصـرا ، فـاذا تركوا الظاهر لم يبق الا التأويل .

((فالواجـب الاشـتغال بالتأويـل الصـحيح دون الباطـل ، وانمـا حملنـا علـى المبالغـة فـى شـرح هـذا الفصـل مـا رأينـا مـن الواجـب علينـا فـى نصـرة الـدين ونحن فى زمان يناظر فيه من ليس له تحقيق ولا تحصيل .

((قال النصر اباذى رحمه الله تعالى : الحق باق ببقائه والعبد باق بابقائه .

((وامـــا الـــوارث فهـــو البـــاقى بعـــد فنـــاء الخلـــق ، يفنـــى الأولـــين والآخـــرين مـــن الملائكـــة المقـــربين والأنبيـــاء والمرســـلين ثـــم يقـــول (لمـــن الملـــك اليـــوم) ويجيـــب نفسه بقوله (لله الواحد القهار) .

وفـــى مناســـبة شـــرح اســـمه تعـــالى : ذو الجـــلال والاكـــرام ، قـــال الامـــام القشيرى رضى الله عنه :

((قيـــل الاجـــلال أن تـــرى مـــا دونـــه بعـــين الاقـــلال ، وجلالـــه وكبريـــاؤه وعلوه وبهاؤه ، سبحانه ، كونه بالوصف الذى يحق له العز .

((وامـــا الاكـــرام فقريـــب مـــن معنـــى الانعـــام الا انـــه أخـــص ، لأنـــه يـــنعم علـــى من لا يقال أكرمه ، ولكن لا يكرم الا من يقال أنعم عليه .

((أمـــا تـــرى كيـــف اكـــرم موســـى عليـــه الســـلام ، حيـــث ســـلمته اليـــه أمـــه ، كيـــف ربـــاه فـــى حجـــر عـــدوه ، وكيـــف صـــرف عنـــه كيـــده ، أســـلمته الـــى البحـــر ، متوكلة على الله بالغداة ، فرده اليها قبل الظهر .

((واذا ســـلمت اليـــه ولـــدها فربـــاه فـــى حجـــر عـــدوه ، وصـــرف عنـــه كيـــده ، فمـــن سـلم اليـه قلبـه ، حفظـه ، كمـا فـى الخبـر : القلـب بـي أصـبعين مـن أصـابع الـرحمن ، أى بـين نعمتـين مـن نعمـه ، تـرى أنـه يضـيعه ولا يحفظـه حاشـا لله . أمـــا فـــى مناســـبة شـــرحه لاســـمه تعـــالى الســـلام فقـــد قـــال الامـــام القشـــيرى رضى الله عنه :

((الســـلام اســـم مـــن اســـمائه تعـــالى ورد بـــه نـــص القـــرآن ، واختلفـــوا فـــى معنـــاه فمـــنهم مـــن قـــال انـــه ذو الســـلام ، والســـلام ، بمعنـــى الســـلامة ، كالرضـــاع بمعنـــى الرضـــاعة ، ومعنـــاه يعـــود الـــى تنـــزه الـــرب ســـبحانه عـــن الآفـــات ، وتقدســـه عن سمات المحلوقات ، وهو بمعنى القدوس .

((وقيـــل معنـــاه ذو الســـلامة أى منـــه الســـلامه لعبـــاده ، ولهـــذا قيـــل ان معنى السلام اته سلم المؤمنين من عذابه .

((وقيل انه السلام أى ذو السلام على أوليائـه ، قال الله تعالى : (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى).

((وإذا قلنـــا انـــه ذو الســـلام أى الســـلامة مـــن الآفـــات كـــان مـــن صـــفات ذاته ، وإذا قلنا ان المؤمنين يسلمون من عذابه كان من صفات فعله .

((ومـــن آداب مـــن عـــرف انـــه الســـلام ، ان يســـلم منـــه المؤمنـــون ، كمـــا ورد فـــى الخبـــر عـــن ســـيد البشـــر صـــلوات الله عليـــه أن المســـلم مـــن ســـلم المســـلمون من لسانه ويده .

وحكـــى عـــن بعضـــهم أنـــه رأى انســـانا يغتـــاب رجـــلا فقـــال هـــل غـــزوات العـــام الـــروم ؟ فقـــال لا ، قـــال وكيـــف تســـلم منـــك الكفـــار ولا يســـلم منـــك أخـــوك المســـلم .

وفـــى مناســـبة قولـــه تعـــالى (لـــيس كمثلـــه شـــىء) قـــال الامـــام القشـــيرى رضى الله عنه :

((التشـــبيه يكـــون باحـــد شـــيئين ، أمـــا بالكـــاف ، وامـــا بالمثـــل ، فجمـــع بـــين حرفـــى التشـــبيه ، ونفـــى بهمـــا عـــن نفســـه التشـــبيه ، فكأنـــه قـــال لـــيس مثلـــه شـــىء ، وليس كهو شىء وهذا غاية التشبيه .

((ولمـــا كـــان المعبـــود ســـبحانه ، لا مثيـــل لـــه ، حـــق للعابـــدين الا يـــذروا مقـــدورا فيـــه الا بـــذلوه ، ولا يغـــادروا ميســـورا فـــى طلبـــه الا تحملـــوه ، فحـــق للـــدموع أن تتقطـــر علـــى فـــوات قربتـــه ، كمـــا حـــق للقلـــوب أن تتعطـــر بنســـيم محبته ، وكما حق للارواح أن تنفطر من خوف فرقته ، وانشدوا :

سهر العيون لغير وجهك باطل

وبكاؤهن لغير هجرك ضائع

وقال الامام كذلك فى وصف الانسان :

((قال تعالى : (أولا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا) وقال تعالى (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين) ذكره سبحانه وتعالى نفسه لئلا يعجب بحالته ، وجرده من كل فضيلة ، ولهذا قال المشايخ عرفهم مقدارهم لئلا يتعدوا أطوارهم .

وقـال الله تعـالى (والله أخـرجكم مـن بطـون امهـاتكم لا تعلمـون شـيئا) ثـم قـال تعـالى (الـرحمن . علـم القـرآن) ثـم قـال (ومـا بكـم مـن نعمـة فمن الله) .

جـردك أولا وعـراك ، ثـم أخبـرك بمـا عرفـك مـن العلـوم والفهـوم وأعطـاك ، ثم ذكرك عظيم ما أنعم عليك وأولاك .

وفـى مناسـبة شـرحه لاسـمه تعـالى الصـمد ، قـال الامـام رضـى الله عنـه :

((بمعنـى انـه لا يطعـم ، ومـن علـم ذلـك علـم انـه يطعـم ، قـال تعـالى (وهـو يطعـم ولا يطعـم) فتتوجـه رعايتـه عنـد مآربـه اليـه ويصـدق توكلـه فـى جميـع حالاته عليه .

وفـى مناسـبة شـرحه لاسـمه تعـالى الحـى القيـوم ، وقـال الامـام رضـى الله عنه :

((همـا اسـمان مـن اسـمائه تعـالى قـال الله سـبحانه (الله لا الـه الا هـو الحـى القيـوم) فأمـا الحـى فهـو الـذى لـه حيـاة ، وأمـا القيـوم فهـو المبالغـة مـن القـائم بـالأمور ، يقـال فـلان قـائم بهـذا الأمـر وقـيم وقيـام ، وقيـوم فـى وصـفه تعـالى ، قـرأ عمـر بـن البخطـاب رضـى الله عنـه الحـى القيـام ، ومعنـى القيـوم فـى وصـفه تعـالى انـه المـدبر والمتـولى لحميـع الأمـور التـى تجـرى فـى العـالم قـال الله تعالى (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) .

((واذا علـم العبـد انـه سـبحانه حـى ، وعلـم انـه تعـالى حـى لا يمـوت وقـديم لا يجـوز عليـه العـدم ، صـح توكلـه عليـه ، ولهـذا قـال تعـالى (وتوكـل على الحى الذى لا يموت) .

((فمـن علـم أنـه سـبحانه حـى أبـدا ، وعلـم أن نفسـه لابـد مـن فنائهـا وهلاكهـا وأن طالـت مـدة بقائهـا وملكهـا ، وقبـل المـوت جسـر يوصـل الحبيـب الـى الحبيب ، وانشدوا :

أنت تبقى والفناء لنا

فاذا أفتينا فسكن

((ومن عرف انه القيوم بالأمور عاش براحة التفويض فلم يجعل فى قلبه للدنيا كبير قيمة ، واستراح من كد التدبير .

وقال الامام فى مناسبة اسمه الواحد الأحد ، هما اسمان من أسمائه تعالى ، وقال سبحانه (والهكم اله واحد) وقال سبحانه (قل هو الله أحد) فأما الواحد فهو الذى لا قسم له ولا استثناء منه ، أما غيره فاذا وصف بانه واحد فعلى المجاز ، كما يقال دار واحدة ودرهم واحد ، وأما الفصل بين الواحد والأحد فمن الناس من لم يفرق بينهما ، ومنهم من فرق فقال الواحد أسم لمفتتح العدد ، لأنه يقال واحد واثنان ، واحد أسم ينفى ما يذكر معه من العدد .

وتقول قد جاءنى واحد ، ولا يقال قد جاءنى أحد ، ويقال لم يأت أحد بمعنى انه لم يأت واحد ولا اثنان ولا فوقه ، وقيل الأحد انما يذكر فى وصفه تعالى على جهة التخصيص ، يقال هو الله أحد ولا يقال رجل أحد ، ويقال فى وصف غيره وحيد وواحد ، ولا يقال ذلك فى وصفه تعالى لعدم التوقيت ، وقال الجنيد رضى الله عنه ، التوحيد افراد يقدم عن الحدث ، وقيل التوحيد أن تعلم ان كل ما يخطر ببالك مما ترتقى اليه كيفية ، أو تنتهى اليه كمية ، أو تنتمى اليه ماهية ، أو تليق بوصفه أينية فالله جل جلاله بخلافه .

ولا شك أن ما نقلته للقارىء الفاضل من تفسير الامام القشيرى رضى الله عنه للاسماء الحسنى التى وردت فى الفقرة الأولى من كلام سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه ، يزوده بمعلومات طريفة ، هى الدر بل أغلى والشهد بل أحلى ، لأنها صادرة عن قلوب تقية ، وسرائر نقية ، يعلمها الله ويلهمها ما شاء من كلماته التى لا تنفد ، ويشير اليها أستاذى العارف بالله الشيخ على عقل رضى الله عنه فى الهامه الذى نقلناه عنه :

كل شىء ينتهى فى موته ... غير سر الله عندى ما نفد
لى خليل كلما أملته ... جاءنى الفيض اذا سح المدد
كلما قد زاغ قلبى قال لى ... يا معنى قل هو الله أحد

وقال أيضا الهاما لوقته :

فؤادى قد أبعدت عن مشهد الورى فطهر فى نجواك من ظلمة الرجس
وقد شاهدت روحى جلالك وارتقت تجردت عن معناى فى عالم الحس
وأعدمنى فى الحب علمى بقدره فليس غرامى فيه يدرك عن قيس
تعشقت نور الله وهو بصيرتى وقد وضح البرهان من آية الكرسى
وتوجت بالقرآن نفسى عقيدة أصون به نفسى عن الزيغ والدس
وان شرب الناس الطلا وتصببوا فسنة خير الخلق فى شربها كأسى

أما الفقرة الثانية من كلام سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه فيشير فيها الى أنه انتسب بالعبودية لله تعالى ، ويسأله سؤال العبد لسيده ، والفقير للغنى عنه ، أن يجعله من فريق الجنة ، لانها مكان المقربين ، وليس قربهم قرب مكان ، بل قرب أنس ومحبة ، وصفوة ونشوة باصطفاء من الله ورحمة ، ورضوان من الله أكبر ، واستعاذ رضى الله عنه من النار ، لأنها مكان المبعدين المطرودين من رحمته ، المعذبين بغضبه ، المحجوبين بسخطه ، اعاذنا الله منها بمنه وكرمه .

واذا ذاق المؤمن العبودية لله ، قدس الربوبية ، واعطى لمولاه حقه من الهيبة والأجلال ، ودخلت روحه من الخيال والحيلة والأحوال ، أى كان خالص التوحيد ، منكسر القلب ، وكان الله عنده ، لأنه تعالى يقول فى الحديث القدسى : (انا عند المنكسرة قلوبهم من أجلى) ، ألست تراه تعالى يقول لأهل بدر (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة) تقربوا الى الله بالمسكنة ، ونظر الله تعالى الى قلوبهم المنكسرة ، فرضى عنهم ، وأيدهم بنصره ، فأنزل ملائكته قاتلت معهم ، حتى تمت لهم الغلبة على أعدائهم .

ويفسر العالم العارف الحجة سيدى الشيخ عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه ، الحديث القدسى المتقدم فيقول فى تفسير المنكسرة قلوبهم من أجلى أى الذين كسرت ارادتهم البشرية ، وأزيلت شهواتهم الطبيعية ، واستؤنفت لهم ارادات ربانية ، فهم دائما تحت قهر ارادتى ، طوعا منهم ، لا ينجبر لقلبهم كسر أبدا حتى يلقونى ، ويقول سيدى الامام عبد القادر

الجيلانى رضى الله عنه ، انكسرت قلوبهم أى على الكشف منهم والشهود والا فهو تعالى عند كل عبد انكسر قلبه أم لم ينكسر .

ويستطرد الامام الشعرانى رضى الله عنه فيقول : فعليك يا أخى بالقناعة والاشتغال بالله تعالى ، عن نعيم الدارين ، فانه هو النعيم المطلوب للأكابر الباقى ، كما قال تعالى (ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتهم فيه ورزق ربك خير وأبقى) .

ويحدثنا سيدى الامام الشعرانى رضى الله عنه ، عما وقع له فى صغره مع والده رضى الله عنه ، فقد قال له ، ما ثم شىء أبرزه الله تعالى الى هذا الوجود الا وفيه حكمة بالغة ، وامره يوما بالوقوف على حداد يقوم الرماح على النار ، قال فوقفت ، فقال لى ما رأيت ، فقلت ما رأيت شيئا ، فقال يا والدى أما تنظر انه لا يعرض على النار الا المعوج ، وأما المستقيم فلا يعرضه على النار ، قال فاخذت من ذلك العبرة .

ويعلمنا سيدى الامام الشعرانى رضى الله عنه ، العبادة الخالصة لوجهه تعالى فيقول انه سمع شيخه سيدى عليا الخواص يقول : من اقبح الذنوب عند الله تعالى القيام بين يديه فى الأسحار بالتملق والخداع على نية انه تعالى يعطية مقاما فوق ما هو فيه ، وقد قال تعالى (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا) فذكر تعالى شيئا ، فشمل كل شىء من جميع المخلوقات ، حتى الارادة والهوى والشهوة ، فانها من خلقه تعالى بيقين ، فلا يريد ولا يهوى شيئا دون الله تعالى فيكون شركا .

ويقول سيدى الامام الشعرانى كذلك : مما انعم الله به على ، عدم اشتغالى بالنعمة عن المنعم سبحانه وتعالى ، وذلك من أكبر نعم الله عز وجل ، فقل من لا تشغله النعمة عن المنعم ، والمعين لى على ذلك شهودى عدم ملكى لما خولنى الله تعالى فيه من الأطعمة والملابس ، انما أنا عبد آكل من مال سيدى ، واسكن فى داره .

ويقول أيضا ، رضى الله عنه : وفى كلام سيدى عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه ، احذر أن تشتغل بما أعطاك الله من المال عن طاعته ، فيحجبك بذلك عنه دنيا وأخرى ، وربما سلبك ذلك المال ، وافقرك وغيرك ، عقوبة

لـك ، واعلـم انـك ان اشـتغلت بطاعتـه تعـالى عـن ذلـك المـال فهـو موهبـة مـن الله تعـالى لـك ، ولـيس هـو مـن المـال المـذموم ، ونقـل سـيدى عبـد الوهـاب الشـعرانى رضـى الله عنـه ، عـن سـيدى أبـو الحسـن الشـاذلى ، رضـى الله عنـه ، أنـه قـال : كنـت فـى بـدايتى أعبـد الله تعـالى أنـا وصـاحب لـى ، وأقـول غـدا يفـتح علينـا ، بعـد غـد يفـتح علينـا ، فمكثنـا علـى ذلـك الحـال زمانـا ونحـن فـى تعب عظيم .

فـدخل علينـا رجـل مهيـب المنظـر ، فقلنـا مـن أنـت فقـال عبـد الملـك ، فعلمنـا انـه مـن أوليـاء الله تعـالى ، فقلنـا لـه مـا حاجتـك ، فقـال جئـت أنصـحكما لله تعـالى ، أن تعبـدوا الله تعـالى لله تعـالى ، ولا تقـولا غـدا يفـتح علينـا ، بعـد غد يفـتح علينـا . قـال فكشـف لنـا عـن أمـر كنـا عنـه غـافلين ، فعبـدنا الله لله ، ففـتح علينـا فى ثانى يوم .

قـال سـيدى الشـعرانى تعقيبـا علـى الكـلام المتقـدم ، فعلـم ان مـن اتخـذ عبادتـه وسـائل لتحصـيل غـرض مـن الأغـراض طالـت عليـه الطريـق ، وربمـا رجـع مـن أثنائهـا ، كمـا هـو حـال غالـب المريـدين فـى هـذا الزمـان . ويـذكرنى هـذا الكـلام المفيـد ، بمـا قالـه فـى الهامـه الفـورى أسـتاذى الشيخ على عقل طيب الله ثراه :

لا تذكر البارى لقصد ولاية
أو أن تكون على السما لا تنطفى
اذكر لوجه الله جل جلاله
من رام غير جنابه لم يشرف
ليس التصوف بالكلام وانما
صدق الفعال قرارة المتصوف

اللهـم اجعلنـا مـن عبـادك المخلصـين الـذين أغنيـتهم بـك عـن غيـرك وقلـت فـيهم (ان الـذين قـالوا ربنـا الله ثـم اسـتقاموا تتنـزل علـيهم الملائكـة الا تخـافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التى كنتم توعدون) آمين .

- ٣٥ -

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، بحر الوجود ، الذى شرب من شرعه قوم ، وقفوا على ساحل بحره الزاخر ، فلم يخوضوه خوف الغرق ، ولكنهم وقفوا للشرب منه عند الشرق ، فكل من عطش واشتد به العطش ، شرب من بحر الرسول فارتوى ، وكل من ارتوى أدرك بأثر الرى أنه ضعيف ذليل ، ولا يمكنه أن يشرب البحر – وهو الشرع – فيبوء بعجزه الى الله ، ويقف عند حده عاجزا أمام الله ، خاليا فى التوحيد من كل دليل عقلى أو نقلى ، متبرئا الى الله تعالى من نسبة العلم والدليل ٠

جاءت السطور المتقدمة فى رسالة بعث بها من القاهرة سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى – نور الله ضريحه – الى تلميذه الصالح المبارك ، الصديق السيد سالم جمعة – زاده الله فضلا وتوفيقا – ٠

وقد فسر الشيخ – رضى الله عنه – مقصوده من خوف الغرق فى آخر عبارته ، تفسيرا مجملا ، كما يرى القارئ العزيز ، وقد وجهنا فيه الى ما يجب علينا نحن المؤمنين ، من اجتناب البحث فى ذات الله العلية ، وأسراره القدسية ، التى لا تدركها العقول المحدودة ، لأنه تعالى فوق كل مقول ، والعجز عن الادراك ادراك – كما يقولون – ويبرر عجزنا عن ادراك كنهه – سبحانه – قوله الكريم ((ليس كمثله شئ)) ، وبهذا نقدر لله فضله فى ايماننا به – جل جلاله – وفى توحيده توحيدا خالصا من الشوائب ، عطاء منه – سبحانه – فى سوابق أزله ، وما أبدع ما يقوله سيدنا أبو بكر الصديق – رضى الله عنه – عرفت ربى بربى ، ولولا ربى ما عرفت ربى – وليس معنى ذلك انه ينفى أثر مولانا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بل انه يبرز فى معرض التوحيد ، انه عرف ربه بتقديره

سبحانه – فاستجاب للدعوة المحمدية ولولا ما قدره الله له من الاسلام ما تم له اسلام ولا عرفان .. ((انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء)) فمن شاء الله له الهدى ، استمع لدعوتك ، واهتدى بهديك ((وانك لتهدى الى صراط مستقيم)) .

وقد اعتمد الفلاسفة فى البحث عن الحقيقة الأزلية ، على العقل المجرد فلم يصلوا الى الحقيقة ، وضلوا السبيل ، وقد جاراهم أهل الكلام ، فلم يظفروا بطائل ، وعكروا بكلامهم ، صفاء التوحيد الفطرى ، الخالى من التعقيدات العقليى ، الذى التزمه أوائل المسلمين وأعلامهم ، ممن يقتدى بهم على مر الآجيال ، واليك ما ينصحنا به الامام الصوفى الكبير ، عمرو بن عثمان المكى ((المتوفى سنة ٢٩١هـ)) .

((اعلم ان كل ما توهمه قلبك أو سنح فى مجارى فكرك ، أو خطر لك فى معارضات قلبك ، من حسن أوبهاء ، أو أنس أو ضياء ، أو جمال او قبح ، أو نور ، أو شبح ، أو خيال ، فالله تعالى بعيد من ذلك كله ، بل هوأعظم وأجل وأكبر ، ألا تسمع الى قوله تعالى ((ليس كمثله شىء)) والى قوله ((لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد)) .

ويقول الامام سهل التسترى (المتوفى سنة ٢٨٣ هـ) :

((ما طلعت شمس ولا غربت على أحد على وجه الأرض ، الا وهم جهال بالله ، الا من يؤثر الله على نفسه وزوجه ودنياه وآخرته ، ويقول أيضا ((أدنى الأدب أن تقف عند الجهل وآخر الأدب أن تقف عند الشبهة)) .

وهو بهذا يوجهنا الى ترك الجدل الذى خاضه أهل الكلام فيما يصل بذات الله أو قضائه وقدره ، ولا طائل تحته ، والاقبال على العمل ارضاء لله تعالى ، وفق ما رسمه الله فى كتابه الكريم ، وما بينه فى سنته مولانا رسول الله . صلى الله عليه وسلم . ولذلك يقول الامام سهل . رضى الله عنه . :

أصولنا سبعة أشياء : التمسك بكتاب الله تعالى ، والاقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأكل الحلال ، وكف الأذى ، واجتناب الآثام والتوبة ، وأداء الحقوق .

ومـــا أروع مـــا ينصـــحنا بـــه رضـــى الله عنـــه فـــى قولـــه : أعمـــال البـــر يعملهـــا البـــار والفـــاجر ، ولا يجتنـــب المعاصـــى الا صـــديق . . وفـــى قولـــه ((شـــكر العلـــم العمل ، وشكر العمل زيادة العلم)) .

وقـــد نقـــل ســـيدى الشـــيخ عبـــد الوهـــاب الشـــعرانى . رضـــى الله عنـــه . كلامـــا نفيســـا عـــن شـــيخه ســـيدى علـــى الخـــواص ، ، جـــاء فيـــه : ((لـــولا اعـــلام الأنبيـــاء لنـــا مـــا غـــاب عنـــا مـــن أحـــوال البـــرزخ والآخـــرة ، مـــا علمنـــا ذلـــك ولا كانـــت عقولنـــا تســـتقل بدركـــه مـــن حيـــث نظرهـــا ، لأن أمـــور المـــوت ومـــا بعـــده مـــن وراء طـــور العقـــول ، وقـــد تتابعـــت الرســـل كلهـــم علـــى اخـــتلاف الأحـــوال والأزمـــان يصـــدق كـــل رســـول صـــاحبه ، ومـــا اختلفـــوا قـــط فى الأصول التى استندوا اليها .

((ولـــو أن العقـــول اســـتقلت بـــأمور ســـعادتها ، لكـــان وجـــود الرســـل عبئـــا ، فـــان كـــل انســـان يجهـــل بالضـــرورة مآلـــه وعاقبتـــه ، والـــى أيـــن ينتقـــل ، ويجهـــل ســـبب ســـعادته ان ســـعد ، أو شـــقى ، كـــل ذلـــك لجهلـــه بعلـــم الله فيـــه ، ومـــا يريـــده بـــه ، ولمـــاذا خلقـــه فهـــو مفتقـــر بالضـــرورة الـــى التعريـــف الالهـــى بذلك)) .

أقـــول واذا كانـــت العقـــول تجهـــل أمـــر كثيـــر مـــن المخلوقـــات المحدثـــة التـــى تعيـــب عـــن الأنظـــار . . فكيـــف بهـــا تطمـــع ، وهـــى محـــدودة الأفـــق ، أن تبحـــث فـــى أســـرار الله القـــديم الـــذى خلقهـــا وركبهـــا بقدرتـــه فـــى ذواتهـــا ، وأقـــرب المخلوقـــات التـــى تغيـــب عـــن نظـــر الانســـان الـــروح التـــى بـــين جنبيـــه ، وهـــى محدثـــة مخلوقـــة باجمـــاع أهـــل الســـنة . . وقـــد قطـــع الله أطمـــاع البـــاحثين فـــى ســـرها الخفـــى . . فقـــال تعـــالى : ((ويســـألونك عـــن الـــروح قـــل الـــروح مـــن أمـــر ربـــى ومـــا أوتيـــتم مـــن العلـــم الا قلـــيلا)) . . وهـــو مـــا يفيـــد أن الـــروح مـــن عـــالم الأمـــر لا مـــن عـــالم التوالـــد : ((انمـــا أمـــره اذا أراد شـــيئا أن يقـــول لـــه كـــن فيكـــون)) .

ويقـــول ســـيدى العـــالم العـــارف بـــالله الشـــيخ أحمـــد الحلـــوانى الخليجـــى (والد شيخى سيدى عبد السلام الحلوانى) رضى الله عنهما . فى كتابه ((وسائل الرحمات)) .

((ومـــن الاشـــارات اللطيفـــة قـــول أبـــى بكـــر الـــرازى : مـــن عـــرف نفســـه فقـــد عـــرف ربـــه ، فلـــيس بحـــديث كمـــا ذكـــره الحفـــاظ ، وقـــد غلـــط فيـــه كثيـــر من الأفاضل فاورده حديثا مرفوعا ولا أصل لذلك .

((وموضـــع الاشـــارة منـــه ، مـــا أشـــار اليـــه بعـــض الصـــوفية فيـــه ، واذ قـــال : معنـــاه مـــن عـــرف نفســـه بالحـــدوث عـــرف ربـــه بالقـــدم ، ومـــن عـــرف نفســـه بـــالفقر عرف ربه بالغنى ، ومن عرف نفسه بالذل عرف ربه بالعزة وهكذا .

وقـــال بعضـــهم : بـــل معنـــاه ان مـــن عـــرف انتســـاب نفســـه الـــى حضـــرة الربوبيـــة باشـــارة اتصـــالها بالعـــالم العلـــوى فقـــد عـــرف ربـــه ، ولأجـــل فخامـــة ذلـــك الانتســـاب نـــوه بـــه رب العـــزة اذ قـــال ((ثـــم ســـواه ونفـــخ فيـــه مـــن روحـــه)) فأضـــاف الـــروح اليـــه تشـــريفا واشـــعارا بأنـــه لـــه شـــأنا ونســـبه الـــى حضـــرته ، وقيـــل بـــأن معنـــاه مـــن تأمـــل حقيقتهـــا عـــرف أن لـــه ربـــا صـــانعا موجـــدا لـــه ، واليـــه الاشـــارة بقوله ((وفى أنفسكم أفلا تبصرون)) .

وقـــال ســـلطان العلمـــاء العـــز بـــن عبـــد الســـلام : قـــد ظهـــر لـــى مـــن ســـر هـــذا الكـــلام مـــا يجـــب كشـــفه ، ويستحســـن وصـــفه ، وهـــو أنـــه تعـــالى وضـــع هـــذه الـــروح الروحانيـــة فـــى هـــذه الجثـــة الجســـمانية ، لطيفـــة لاهواتيـــة ، فـــى كثيفـــة ناســـوتية ، دالـــة علـــى وحدانيتـــه وربانيتـــه ، ووجـــه الدلالـــة مـــن عشـــرة أوجـــه :

الأول : أن هـــذا الهيكـــل الانســـانى ، لمـــا كـــان مفتقـــرا الـــى مـــدير ومحـــرك ، وهـــذه الـــروح مـــدبرة ومحركـــة ، علمنـــا أن هـــذا العـــالم لا بـــد لـــه مـــن مـــدبر ومحرك .

الثـــانى : لمـــا كـــان مـــدبر الجســـد واحـــدا وهـــو الـــروح ، علمنـــا أن مـــدبر هـــذا العالم واحد لا شريك له فى تقديره وتدبيره .

الثالـــث : لمـــا كـــان هـــذا الجســـد لا يتحـــرك الا بـــارادة الـــروح وتحريكهـــا لـــه ، علمنـــا أن الله تعـــالى مـــدبر لمـــا هـــو كـــائن ، لا يتحـــرك متحـــرك بخيـــر أو شـــر الا بتقديره وارادته .

الرابـــع : لمـــا كـــان لا يتحـــرك فـــى الجســـد شـــىء الا بعلـــم الـــروح وشـــعورها بـــه ، فـــلا يخفـــى عليهـــا مـــن حركـــات البـــدن وســـكناته شـــىء ، علمنـــا أنـــه لا يعـــزب عن علمه تعالى شىء فى الأرض ولا فى السماء .

الخامس : لما كان هذا الجسد لم يكن منه شىء أقرب الى الروح من شىء ، بل هو قريب الى كل شىء فى الجسد ، علمنا أنه تعالى أقرب الى كل شىء ، وأن نسبه جميع العالم اليه فى القرب والبعد سواء ، أى وان كان الروح فى البدن والله تعالى ليس فى العالم .

السادس : لما كان الروح موجودا قبل وجود الجسم ، علمنا انه تعالى موجود قبل كل شىء . وكذا بعد فناء خلقه فان الروح لا تزول .

السابع : لما كان الروح فى الجسد لا تعلم له اينية ، علمنا انه تعالى منزه عن الأينية ، بل الروح موجودة فى كل الجسد لم يخل منها موضع منه ، فكذا الحق تعالى أى معكم أينما كنتم بلا اتصال ولا حلول تعالى الله عن ذلك .

الثامن : لما كان الروح فى الجسد لا يعلم له كيفية علمنا أنه تعالى مقدس عن الكيفية .

التاسع : لما كان الروح فى الجسد لا يدرك بالبصر ولا بشبه شيئا ولا يشبهه شىء ، علمنا أنه تعالى ليس كمثله شىء .

العاشر : لما كان الروح لا يحس ولا يمس ، علمنا أنه تعالى منزه عن الحس والمس .

ثم يقول سيدى الشيخ أحمد الحلوانى . رضى الله عنه . وهل النفس والروح شىء واحد ، قيل نعم ، وعليه جرى الأكثرون ، وصححه ابن القيم والسيوطى ، وصوبه ابن رشد من المالكية ، وبه جزم ابن السبكى وغيره ، وعليه فهما مترادفان على معنى اللطيفة الربانية التى بمفارقتها يموت الانسان ، لا يتغايران الا فى التذكير والتأنيث ، فالنفس مؤنثة وقد تذكر على ارادة الروح ، والروح مذكر وقد يؤنث على ارادة النفس ، ومن قول ذى الرمة ، وقد أمر أن يكتب على مقبره فكتبوه :

يارب قد أسرفت نفسى وقد علمت
علما يقينا لقد أحصيت آثارى
يا نازع الروح من جسمى اذا احتضرت
وفارج الكرب انقذنى من النار

ومـــا أبـــدع مـــا يقولـــه الامـــام القشـــيرى ـــرضى الله عنـــه . فـــى كتابـــه ((شـــرح أســـماء الله الحســـنى)) (مخطـــوط) وقـــد تفضـــل فاعارنيـــه أخـــى فـــى الله الأســـتاذ عبـــد المـــنعم الحلـــوانى . زاده الله فضـــلا . (وهـــو أكبـــر أبنـــاء ســـيدى الشيخ) اذ يقول :

قـــال تعـــالى ((أولا يـــذكر الانســـان أنـــا خلقنـــاه مـــن قبـــل ولـــم يـــك شـــيئا)) . ذكـــرم عظـــيم مـــا أنعـــم بـــه عليـــك واولاك ، فمـــن ايـــن لـــك العرفـــان والاســـلام ، والايمـــان ، والطاعـــة والاحســـان ، والاســـتدلال والبرهـــان ، لـــولا مـــا ألبســـك مـــن التوفيـــق ، وأخلـــص لـــك مـــن التحقيـــق ، وأهلـــك لـــه مـــن التصـــديق قال سبحانه : ((وألزمهم كلمة التقو وكانوا أحق بها وأهلها)) .

ومـــا أروع تعقيبـــه . رضـــى الله عنـــه . علـــى كلمـــة التقـــوى : لا الـــه الا الله ، فهو يقول :

((أعلـــم أن القـــول وان كـــان ابتـــداؤه النفـــى ، فـــالمراد بـــه غايـــة الاثبـــات ونهايـــة التحقيـــق ، فـــان قـــول القائـــل لا أخ لـــى ســـواك ، ولا معـــين لـــى غيـــرك ، آكد من قوله : أنت أخى ، وأنت معينى .

((وروى عنـــه . صـــلى الله عليـــه وســـلم . ((مـــن قـــال لا الـــه الا الله مخلصا من قلبه دخل الجنة ، وروى فى الخبر : مفتاح الجنة لا اله الا الله))

((وانمـــا يكـــون العبـــد قـــائلا فـــى الحقيقـــة لا الـــه الا الله ، اذا كـــان قـــائلا بقلبـــه ، لأن الكـــلام المخلـــوق محلـــه القلـــب ، وذلـــك معلـــوم مـــن مـــذهب أهـــل الحق ، وكذلك من طريقة أهل اللغة ، قال الأخطل الشاعر :

ان الكلام لفى الفؤاد وانما

جعل اللسان على الفؤاد دليلا

((وانمـــا يكـــون قـــائلا لا الـــه الا الله بقلبـــه ، اذا كـــان عارفـــا بربـــه ، وكـــل النـــاس يحملـــون قولـــه . صـــلى الله عليـــه وســـلم . مـــن قـــال لا الـــه الا الله مخلصـــا ، علـــى أنـــه مـــات علـــى الاخـــلاص ، وأهـــل الاشـــارة قـــالوا اذا كـــان مخلصـــا فـــى مقالتـــه ، كـــان داخـــلا فـــى الجنـــة فـــى حالتـــه ، قـــال تعـــالى : ((ولمـــن

خـــاف مقــام ربــه جنتتــان)) . . قيــل جنــة معجلــة وهـــى حــلاوة الطاعـــات ، ولـــذاذة المناجـــاة والاســـتئناس بفنـــون المكاشـــفات ، وجنـــة مؤجلـــة هـــى فنـــون المثوبـــات ، وعلـــو الـــدرجات ، ولقـــد أحســـن مـــن قـــال : لا وحشـــة مـــع الله ، ولا راحـــة مـــع غيـــر الله ، قـــال رســـول الله . صـــلى الله عليـــه وســـلم . : ((لا راحـــة للمـــؤمن دون لقاء الله)) .

ويقـــول ســـيدى الشـــيخ عبـــد الوهـــاب الشـــعرانى . رضـــى الله عنـــه . فـــى كتابـــه ((لطـــائف المـــنن)) مـــا خلاصـــته ان معرفـــة الله الثابتـــة هـــى التـــى لا تزلزلهـــا . . ويعبـــر عـــن ذلـــك بالوصـــول الـــى حضـــرة الله . عـــز وجـــل . ومعنـــى ذلـــك وصـــول العبـــد الـــى حضـــرة يشـــهد فيهـــا ألا فاعـــل الا الله عـــز وجـــل ، ولا رازق الا الله تبـــارك وتعـــالى ، ولا محيـــى ولا مميـــت الا الله جـــل وعـــلا . . وهكـــذا ، ويغنـــى عـــن شـــهود الخلـــق والهـــوى ولا يشـــهد فـــى الكـــون الا أفعالـــه وخلقـــه وحـــده لا مشـــارك لـــه فـــى ذلـــك ، فلـــيس الوصـــول الـــى الله جـل وعـــلا مثـــل الوصـــول الـــى خلقـــه ، كمـــا قـــد يتوهمـــه أصـــحاب العقـــول الضـــعيفة المحجوبـــة ((ليس كمثله شىء وهو السميع البصير)) .

ثـــم يقـــول . رضـــى الله عنـــه . : فعلـــم أن كـــل مـــن ادعـــى معرفـــة الله جـــل وعـــلا وزلزلتـــه الأدلـــة ، فهـــو لـــم يشـــم مـــن المعرفـــة رائحـــة ، لأن كـــل وقـــت يتـــرك اعتقـــادا ويعتقـــد آخـــر ، والفـــرق بـــين معرفـــة أهـــل الله ، ومعرفـــة غيـــرهم أن جميـــع تعرفـــات أهـــل الله تعـــالى يرضـــى بهـــا الله جـــل وعـــلا لأنهـــا بتعريفـــه ، بخـــلاف تعريفـــات الأفكار ، لأن الأفكار لا تقدر أن ترقى عن الكون أبدا . . فافهم)) .

أقـــول والـــذى أود أن أنبـــه اليـــه هـــو أن الســـادة الصـــوفية فـــى كلامهـــم المتقـــدم انمـــا أرادوا أن يعلمونـــا انـــه لـــولا فضـــل الله ، ومـــا بـــدأنا بـــه مـــن احســـانه مـــا عرفنـــاه ، فلـــه الحمـــد والمنـــة علـــى نعمـــة الايمـــان بوحدانيتـــه ، وكلامهـــم هـــذا انمـــا هـــو فـــى معـــرض التوحيـــد ، ولكـــنهم لا ينكـــرون الوســـائط والأســـباب ، وأخـــذ الخلـــف عـــن الســـلف ، فالســـادة الصـــحابة أخـــذوا الـــدين عـــن مولانـــا رســـول الله . صـــلى الله عليـــه وســـلم . وأخـــذ الأبنـــاء عـــن آبـــائهم وعلمـــائهم جـــيلا بعـــد جيـــل ، فمـــن أراد الله أن يهديـــه شـــرح صـــدره للاســـلام ، ونفـــع معـــه السبب ، ومن لم يرد الله له الاسلام ، لم ينفعه السبب ، وهذا يفسر لنا لماذا

آمـن الـبعض وكفـر الـبعض ، ولـيس لنـا أن نخـوض بجهـل فـى قضـاء الله وقـدره ، فـذلك مـن سـره واختصاصـة ، ونحـن عبيـد والله تعـالى يفعـل مـا يريـد . وذلـك الـذى تقـدم يجرنـا الـى أمـرين : أولهمـا ألا نمـن علـى الله بايماننـا أو طاعتنـا ، لأنـه لا ينفـع مـن ايماننـا ولا مـن طاعاتنـا بشـىء ((ولكـن الله حبب الـيكم الايمـان وزينـه فـى قلـوبكم وكـره الـيكم الكفـر والفسـوق والعصـيان أولئك هم الراشدون ، فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم)) .

الثـانى: أن نسـأل الله علـى الـدوام أن يحفـظ ايماننـا ولا يسـلبه منـا ، ولا يقـول قائـل ان الله كـريم اذا أعطـى لايسـلب ، فهـذا حـق اذا جزمنـا أن الايمـان عطيـة ، ولكـن قـد يكـون وديعـة وللمـودع أن يسـترد وديعتـه ، ويقـول السادة الصوفية وهذا هو وجه الخوف المذيب للأكباد .

لكنـى مـع ذلـك احـب أن يكـون المـؤمن حسـن الظـن بربـه ، فيرجـوه بقـدر خوفـه منـه ، فيكـون مـع ربـه بـين خـوف ورجـاء ، لأن الخـوف والرجـاء للمـؤمن كالجنـاحين للطـائر لا يسـتطيع أن يطيـر الا بهمـا معـا . ولـولا ذلـك الفقـه القلبـى ، مـا كـان للسـادة الصـحابة المبشـرين بالجنـة ان يخـافوا ، ولكننـا رأينـاهم أشـد الأمـة خوفـا ، وأعظمهـم رجـاء . . وانمـا جـاء هم الخـوف مـن نظـرهم الـى أن الله تعـالى لـه حضـرة الاطـلاق ((يمحـو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب)) .

وفـى هـذا بيـان لصـدر عبـارة سـيدى الشـيخ عبـد السـلام رضـى الله عنـه فـى القـوم الـذين وقفـوا علـى بحـر الرسـول الزاخـر . صـلى الله عليـه وسـلم . فلم يخوضوه خوف الغرق ، ولكنهم وقفوا للشرب منه عند الشرق .

ومعلـوم أن مولانـا رسـول الله . صـلى الله عليـه وسـلم ، بشـر وأنـذر ، فأخـذنا عنـه الرجـاء كمـا أخـذنا عنـه الخـوف ، وكـان . صـلى الله عليـه وسـلم . شـديد الرجـاء كمـا كـان شـديد الخـوف ، وأنـت تعجـب لخوفـه ، مـع أنـه كـان معصـوما بعصـمة الله لـه مـن الصـغائر والكبـائر ، كمـا أن ربـه بشـره بمغفـرة مـا تقـدم مـن ذنبـه ومـا تـأخر . أى ان وقـع منـه ذنـب فرضـا . لكـن خوفـه كان على قدر معرفته بربه ، وصلته به ، وهيبته له ، وتقديره لجلاله

سـبحانه وتعـالى – فكيـف بنـا ، مـع أحوالنـا المعروفـة ، كمـا أن رجـاء ه – صـلى الله عليـه وسـلم – كـان علـى قـدر معرفتـه بفضـل ربـه وواسـع رحمتـه ٠ ويجمـع شـيخى وسـيدى العـارف الشـيخ علـى عقـل – رضـى الله عنـه – بين الخوف والرجاء ، فى الهامه الفورى الذي نقلناه عنه فيقول :

يا رب انت علمتنى

لم تخف منى خافية

سقمى يزيد وانما

آيات عفوك شافية

ويقول كذلك رضى الله عنه :

رضاء الفتى بالله يشرح صدره فلن يتأذى بالحوادث والخطب

اذا رابنى ذنبى دعتنى محبتى اليه وما تثنى الذنوب عن الحب

فيارب ان زادت ذنوبى فاننى وثقت بأن الفضل أوسع من عيبى

فان كان ذنبى مبعدى عنك لحظة فانك غفار الذنوب بلا ريب

وان كان لى مما فعلت جريمة فحوضك لى طهرى وفضلك لى طبى

وما لذتى الا التجائى لوجهكم فوجهكمو دون العوالم لى قطبى

ويحـذرنا سـيدى الامـام أبـو الحسـن الشـاذلى – رضـى الله عنـه – مـن الخوف الموئس من رحمة الله فيقول :

قـرأت ليلـة مـن الليـالى قـل أعـوذ بـرب النـاس حتـى ختمتهـا فقيـل لـى : شـر الوسـواس وسـواس يـدخل بينـك وبـين حبيبـك ينسـيك أفعالـك الحسـنة ، ويـذكر أفعالـك السـيئة ، ويقلـل عنـدك ذات اليمـين ، ويكثـر عنـدك ذات الشـمال ليعـدل بـك عـن حسـن الظـن بـالله ورسـوله ، الـى سـوء الظـن بـالله ورسوله ، فاحذر هذا الباب ٠

وليتمتـع القـارئ الكـريم بعـد ذلـك بمـا يقولـه الامـام القشـيرى رضـى الله عنـه – فـى شـرحه لاسـمائه تعـالى : الأول والآخـر والظـاهر والبـاطن اذ يقول :

((الأول اخبار عن قدمه ، والآخر اخبار عن استحالة عدمه ، والظاهر اخبار عن قدرته ، والباطن اخبار عن علمه وحكمته ٠

((وهو الأول باحسانه ، ولآخر بغفرانه ، والظاهر بنعمته ، والباطن برحمته ، وقيل هو الأول بحسن تعريفه ، اذ لولاه ولولا فضله ، ولولا ما بدأك به من احسانه لما عرفته ٠

((وقيل الظاهر لقوم ، فلذلك وجدوه ، والباطن عن قوم ، فلذلك جحدوه ، وقيل الاول بوده لك بدئيا ، اذ لولا انه بدأك بسابق وده ، لما أخلصت له فى عقده وعهده ٠٠ فأين كنت حيث كان لك ، ومتى كانت رحمة أبيك وشفقة أمك وذويك ، وقد قسم لك الايمان ، ورضى لك الاسلام ، وسماك بالصلاح فقال عز من قائل ((ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون)) جاء فى التفسير انهم أمة سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم –٠

((آثرك فى سابق القدم وحكم لك بصدق القدم ، رباك بفنون النعم ، وعصمك عن سجود الصنم ، واختارك على جميع الأمم ورداك برداء الايمان ، وتلقاك بجميل الاحسان ، ورقاك الى درجة الرضوان ، وحرسك من الشرك والبدع ، وألقى حسن الرجاء والطمع ، وان لم يلبسك رداء الوفاء والورع فلم يوئسك من لطفه بنهاية الفزع .

((وان الذى هداك فى الابتداء لهو الذى يكفيك فى الانتهاء ، فهو الظاهر بنعمائه وآثار نعمه عليك متظاهرة ، والباطن بآلائه وزوائد كرمه لديك متواترة .

وأقول فى ختام المقال ((ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنو ، ربنا انك رءوف رحيم)) .

ـ ٣٦ ـ

((فـــاذا نـــوى الحـــج خلـــع كـــل نيـــة أخـــرى ، وفســـخ كـــل عقـــد عقـــده منـــذ خلـــق ، مـــا يكـــون غيـــر نيتـــه الحـــج الـــى الله ، والوقـــوف بـــين يديـــه خاليـــا مـــن الشوائب ،

فـــاذا نـــزع لباســـه ، تجـــرد مـــن كـــل شـــىء فـــاذا تطهـــر زالـــت عنـــه كـــل علـــة . . فـــاذا لبـــى ســـمع بقلبـــه جـــواب التلبيـــة ، فتلـــذذ بالنـــداداء ، فـــاذا دخـــل الحـــرم تـــرك كـــل محـــرم ، فـــاذ أشـــرف علـــى مكـــة أشـــرف عليـــه حـــال مـــن الحـــق ، وعلامتـــه البكـــاء ، لأن الملائكـــة تحفـــه ، فـــاذا دخـــل المســـجد فـــى قـــرب مـــن الله ســـبحانه وتعـــالى ، فخشـــع وطـــاف ورمـــا هاربـــا مـــن الـــدنيا ، ورجـــع وســـكر وركـــع بعـــد أن صـــافح الحـــق بمصـــافحة الحجـــر ، كمـــا ورد فـــى الأثـــر ، فظهـــر عليـــه الأثـــر ، ومـــن ظهـــر عليـــه الأثـــر نـــال الرضـــا . . واستشـــعر أنـــه تحـــت العجـــز عـــرف واغتـــرف ، وتـــرك أمـــره لله ، وصـــفا لـــه الحـــال ، وافتقـــر مـــن الـــدنيا مـــالا وعلمـــا وعمـــلا ، واغتنـــى بالمـــآل ، مـــآل الخـــادم عنـــد مـــولاه ، يصـــيره كيـــف يشـــاء ، ويضـــعه فـــى مكانـــه كمـــا شـــاء أن يجعلـــه مـــن خدامـــه ، والله رءوف رحـــيم فمـــن عـــرف القـــوم ، وســـار بســـيرهم نجـــا ، وكـــان مـــع شـــدة الخـــوف كثيـــر الرجـــا)) .

جـــاءت تلـــك الكلمـــات الطيبـــة فـــى رســـالة بعـــث بهـــا شـــيخى العـــارف بـــالله ســـيدى عبـــد الســـلام الحلـــوانى ـ طيـــب الله ثـــراه ـ لتلميـــذه الصـــالح الـــورع ، الصـــديق الـــوفى ، الســـيد ســـالم جمعـــة ، وهـــى تشـــع بأنوارهـــا المشـــرقة ، فـــى مجال الحج وبركاته وآثاره .

والحج خامس ركن من اركان الاسلام ، وقد أكمل الله به الدين للمسلمين ، ونزك فى حجة الوداع على حبيبنا المصطفى ـ صلى الله عليه

وسلم . يوم الجمعة وفى موقف عرفه ، قوله تعالى : ((اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا)) .

والحج فريضة على المستطيع وقد فسرت السنة النبوية المطهرة الاستطاعة بالزاد والراحلة فى قوله تعالى ((ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا)) .

وكان ابن عباس . رضى الله عنه . يقول : من مات ولم يزك ، ولم يحج ، سأل الرجعة الى الدنيا وكان يفسره فى هذه الآية . . ((قال رب ارجعون لعلى اعمل صالحا فيما تركت)) قال أحج ، ومثله ((فيقول رب لولا أخرتنى الى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين)) قال أزكى واحج . . وكان رضى الله عنه يقول : هذه الآية أشد شىء على أهل التوحيد .

وسيدى الشيخ عبد السلام الحلواتى ، رضى الله عنه ، يوجه تلميذه أول ما يوجهه الى تصحيح نية الحج ، من كل الشوائب ، ليخلص حجه لله ، كما أراد . سبحانه . فى قوله الكريم :

((وأتموا الحج والعمرة لله)) . . ولا شك أن تصحيح النية ، من اخلاص العبد لربه :

((ألا لله الدين الخالص)) ويقول ((وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين)) ولهذا أمرنا الله أن نترك كل شائبة تشوب اخلاص القلوب فى الحج فقال تعالى : ((الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج)) .

والرفث اسم جامع لكل لغو وفجور من الكلام .

والفسوق جمع فسق ، وهو اسم جامع لكل خروج من طاعة الله وتعدى حدوده تعالى .

والجدال . . وصف مبالغ للخصومة والأخذ والرد فيما يورث العداوة والبغضاء .

والحج فى اللغة معناه القصد الى المعظم ، وكانت العرب فى الجاهلية يقولون نحج الى النعمان أى نقصده تعظيما له وتعزيزا .

والحج أيضا معناه سلوك الطريق الواضح ، واشتقاقه من المحجة وهو اسم للطريق .

ويقول سيدى الامام أبو طالب المكى . رضى الله عنه . فى كتابه القيم قوت القلوب :

((وأول فضائل الحج ، حقيقة الاخلاص به لوجه الله تعالى وأن تكون النفقة حلالا ، واليد فارغة من تجارة تشغل القلب ، وتفرق الهم ويكون الهم مجردا والقلب ساكنا مطمئنا مملوءا بالذكر ، فارغا من الهوى ، ناظرا أمامه ، غير ملتفت الى ورائه ، وصحة القصد بحسن الصدق ، ثم طيب النفس بالبذل والانفاق ، والتوسع فى النفقة والزاد ، لأن النفقة فى الحج بمنزلة النفقة فى سبيل الله تعالى ، الدرهم بسبعمائة درهم ، والحج من سبيل الله ، روى ذلك عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

وكان ابن عمر . رضى الله عنهما . يقول ، أفضل الحجاج أخلصهم نية ، وأزكاهم نفقة ، وأحسنهم يقينا ، وقال مجاهد لابن عمر . رضى الله عنهم . وقد دخلت القوافل : ما أكثر الحجاج فقال : ما أقلهم ، ولكن قل ما أكثر الراكب .

وأنت ترى من ذلك أن ابن عمر . رضى الله عنه . وعن سائر الصحابة . كان يقيس الحجاج بورعهم ، ويرى أهل الورع قلة فى الركب ، فاذا كان ذلك كذلك فى السلف الصالح ، فماذا نقول نحن اليوم ، اللهم اغفر لأولنا وآخرنا ، وعاملنا بفضلك ، ولا تعاملنا بعد ذلك .

وفى الحديث الشريف : ((الحجاج والعمار وفد الله تعالى وزواره ، ان سألوه أعطاهم ، وان استغفروه غفر لهم ، وان دعوا استجيب لهم ، وان شفعوا شفعوا)) وهذا ما يفسر لنا قوله تعالى ((ليشهدوا منافع لهم)) . وحسن الظن بالله تعالى واجب على كل حاج مهما كانت ذنوبه قبل الحج ، لأن الحاج ضيف الله ، ولا أكرم من الله سبحانه وتعالى بضيفه ،

ومع أن الأرض كلها سبحانه ، فقد جعل البيت محلا لضيافته ، وحاشا أن يقول . سبحانه . ((ليشهدوا منافع لهم)) . ولا يشهدونها .

وقد كنت أقول لبعض من صحبنى فى الحج ، لا يجوز أن ننظر هنا الى سيئاتنا ، بل يجب أن ننظر الى احسان ربنا وفضله وفيضه ((وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم)) .

وقد لقى رجل سيدى عبد الله بن المبارك ، رضى الله عنه ، وقد أفاض من عرفة الى المزدلفة . . فقال : من أعظم الناس جرما يا أبا عبد الرحمن فى هذا الوقت فقال من قال ان الله عز وجل لم يغفر لهؤلاء .

وقد روى الامام أبو طالب المكى . رضى الله عنه . عن سيدى على بن الموفق ((يقال انه هو الذى يضاهى الخضر . عليه السلام . فى أمتنا ويجاريه فى العالم ، قال : حججت سنة فلما قضيت مناسكى تفكرت فيمن لا يتقبل حجة فقلت اللهم انى قد وهبت حجتى هذه وجعلت ثوابها لمن لا يتقبل حجه ، قال فرأيت هاتفا فى النوم قال لى : يا على تتسخى على الله ، وهو خلق السخاء ، وخلق الأسخياء ، وهو أجود الأجودين ، وأكرم الأكرمين ، وأحق بالجود والكرم من العالمين ، وقد وهبت كل من لم يقبل حجه لمن قبلته .

ويقول الامام أبو طالب المكى أيضا : وكان ابن الموفق هذا قد حج عن رسول الله . صلى الله عليه وسلم . حججا وقال : فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا أبن الموفق حججت عنى ، قلت نعم يا رسول الله ، قال ولبيت عنى ، قلت نعم ، قال فهذه يد لك عندى أكافئك بها يوم القيامة ، آخذ بيدك فى الموقف فأدخلك الجنة والخلائق فى كرب الحساب .

هذا والاعتبار من أسرار الحج ، فما أكثر العبر وأقل الاعتبار ، كما قال امامنا على بن أبى طالب . كرم الله وجهه . ولذلك يقول السادة الصوفية :

((وليعتبر الحاج فى طرقه وسيره بالآيات ، وما يرى من الحكمة والقدرة من تصريف الخلق ، فيكون له فى كل شىء عبرة ، ومن كل شىء موعظة فانه على مثال طريق الآخرة .

((وليمن له بكل شىء تذكرة ، وفى كل شىء فطنة وتبصره ، ترده الى الله تعالى ، وتدله عليه ، وتذكره به ، ويشهد منها فيتفكر فى أمره ، ويستدل على حكمته ، ويشهد منه قدرته .

وهذا مما يفسر لنا توجيه سيدى الشيخ عبد السلام لتلميذه ، فى عباراته التى صدرنا بها المقال ، فقد وجهه الى خلوص النية فى الحج ، والاستبصار بشعائره ومناسكه ، لأن الحج تقديس لله تعالى ، فى بيته الحرام ، دار ضيافته ، وساحة مغفرته ، يأتيه الناس شعثا غبرا من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ، ويقول سيدى محيى الدين بن عربى بحق :

((ان عبادة الحج ، شبيهة بالناس فى أحوالهم يوم القيامة شعثا غبرا ، متضرعين ، تاركين للزينة ، يرمون بالحجارة وكأنهم يرمون ذنوبهم عن كواهلهم ، أنهم فى عبادة لو علموا ما فيها من الخير لذهلت عقولهم ، وما ثم عبادة هى تعبد نحض فى أكثر أفعالها الا الحج)) .

ويقول أيضا رضى الله عنه :

((. . وكما تتفاضل المنازل الروحية ، كذلك تتفاضل المنازل الجسمانية ، وقد تجد قلبك فى مسجد أكثر مما تجده فى غيره من المساجد ، ثم يقول :

((والملائكة تعمر جميع الأرض وأعلاهم رتبة ، وأعظمهم علما ومعرفة ، عمرة المسجد الحرام ، وعلى قدر جلسائك يكون وجودك فان لهم الجلساء فى قلب الجليس تأثيرا ، وهمسهم على قدر مراتبهم ، وقد طاف بالبيت مائة الف نبى وأربعة وعشرون الفا ، سوى الأولياء ، وما من نبى ولا ولى الا وقد ترك همته المتعلقة به ، لأنه البيت الذى اصطفاه الله على سائر البيوت)) .

والبكـــاء الـــذى جعلـــه ســـيدى الشـــيخ علامـــة علـــى اشـــراف حـــال مـــن الحـــق ســـبحانه وقـــع لأميـــر المـــؤمنين عمـــر بـــن الخطـــاب ، فقـــد ورد عنـــه فـــى كتـــاب قـــوت القلـــوب أنـــه وقـــف عنـــد الحجـــر الأســـود ثـــم قـــال : انـــى أعلـــم أنـــك حجـــر لاتضـــر ولا تنفـــع ، ولـــولا انـــى رايـــت رســـول الله . صـــلى الله عليـــه وســـلم . يقبلـــك لمـــا قبلتـــك .. ثـــم بكـــى حتـــى عـــلا نشـــيجه ، فالتفـــت الـــى ورائـــه فـــاذا علـــى ـــ كـــرم الله وجهـــه . فقـــال يـــا ابـــا الحســـن ههنـــا تســـكب العبـــرات .. فقـــال علـــى يـــا اميـــر المـــؤمنين بـــل هـــو يضـــر وينفـــع ، قـــال وكيـــف .قـــال ان الله عـــز وجـــل لمـــا اخـــذ الميثـــاق علـــى الذريـــة كتـــب علـــيهم كتابـــا ثـــم القمـــه هـــذا الحجـــر ، فهـــو يشـــهد للمـــؤمن بالوفـــاء ... ويشـــهد علـــى الكفـــار بـــالجحود ، قيـــل فـــذلك معنـــى قـــول النـــاس عنـــد الاســـتلام ((اللهـــم ايمانـــا بـــك ، وتصـــديق بكتابـــك ، ووفـــاء بعهدك)) يعنون هذا الكتاب والعهد .

أمـــا مـــا يقـــول بـــه الشـــيخ مـــن الفتقـــار مـــن الـــدنيا مـــالا وعلمـــا وعمـــلا ، فلـــيس مقصـــوده ان يفتقـــر جيبـــه ، وان ينبـــذ علمـــه ، وان ينســـى عملـــه ، بـــل المقصـــود أن تكـــون الـــدنيا فـــى يـــده مـــالا وعلمـــا وعمـــلا ولا تشـــغله بكـــل ذلـــك عـــن ربـــه ٠ ألســـت تـــراه تعـــالى يقـــول فـــى وصـــف عبـــاده الصـــالحين :((رجـــال لا تلهـــيهم تجـــاره ولا بيـــع عـــن زكـــر الله)) ٠٠فهـــؤلاء كانـــت لهـــم تجـــارة ، وكـــان لهـــم بيـــع وشـــراء وأمـــوال ، لكـــن محبـــة الله مـــلأت علـــيهم قلـــوبهم ، والســـادة الصـــوفية يقولـــون ان الـــدنيا كالحيـــه ولـــيس الشـــأن ان تقتـــل الحيـــه ، انمـــا الشـــأن أن نمســـك بهـــا وهـــى حيـــه ، وعنـــدى أن الـــدنيا نـــار تنتفـــع بهـــا فـــى شـــؤونك العامـــه والخاصه وتحذر شررها حتى لا تحترق بحرها.

وأمـــا غنـــى المـــآل ، الـــذى نـــوه بـــه الشـــيخ . رضـــى الله عنـــه . فهـــو صـــدق العبوديـــه مـــع الله تعـــالى . صـــدق مـــذاق ، لا صـــدق عقيـــده فحســـب ، فـــاذا صـــدق المـــؤمن عقيـــدة ومـــذاقا فـــى عبوديتـــه ، فـــوض أمـــره الـــى الله وســـار الـــى الله وأعـــرض عمـــا ســـوى الله ، فكـــان ربانيـــا ، ممـــن ســـبقت لهـــم مـــن الله الحســـنى ، وألـــزمهم كلمه التقوى وشرفهم بالانتساب اليه حين عرفهم فقال :

((وعباد الرحمن .. الآيات التى ختم الله بها سوره الفرقان)) .

وقـــد ســـئل الامــــام الحســـن البصـــرى ، مــــا علامــــه الحــــج المبـــرور ؟ فقـــال أن يرجـــع العبـــد زاهـــدا فـــى الـــدنيا راغبـــا فـــى الآخـــره ، وقـــالو أيضـــا أن مـــن علامـــة قبـــول الحـــج تـــرك مـــا كـــان عليـــه العبـــد مـــن المعاصـــى ، والأســـتبدال بـــالأخوان البطـــالين اخـــوان صـــالحين .. وبمجـــالس اللهـــو والغفلـــه مجـــالس الـــذكر واليقظه .

وقـــالو فـــى فضـــل مكـــه ، ان أعمـــال البـــر تضـــاعف بهـــا ، والحســـنة فيهـــا بمائـــة الـــف حســـنه علـــى مثـــال الصـــلاه فـــى المســـجد الحـــرام .. روى معنـــى ذلـــك عـــن ابـــن عبـــاس وأنـــس رضى الله عنـــه : وقـــالوا أيضـــا ان العبـــد يؤاخـــذ بالهمـــة فـــى مكـــة ، فعـــن ابـــن مســـعود رضـــى الله عنـــه : مـــا مـــن بلـــد يؤاخـــذ العبـــد فيـــه بـــالاراده قبـــل العمـــل الا بمكـــه وقـــال ايضـــا : لـــو هـــم العبـــد أن يعمـــل ســـوء بمكـــة عاقبـــه الله تعـــالى ثـــم تـــلا ((ومـــن يـــرد فيـــه بالحـــاد بظلـــم نذقـــه مـــن عـــذاب الـــيم)) . يعنى انه علق على الاراده دون الفعل .

وكـــان أميـــر المـــؤنين عمـــر رضـــى الله عنـــه يقـــول : لأن أذنـــب ســـبعين ذنبـــا بركيـــة أحـــب الـــى مـــن أن أذنـــب ذنبـــا واحـــد بمكـــة ، وركيـــة منزلـــة بـــين مكـــة والطـــائف ، وقـــد أقـــام ابـــن عبـــاس . رضـــى الله عنهمـــا . بالطـــائف وجـــاور بهـــا خوفـــا مـــن حرمـــه مكـــه ، وقـــد تشـــرفت هـــذا العـــام بزيـــاره قبـــره هنالـــك ، جـــزاه الله عن الاسلام والمسلمين خيرا كثيرا بما ترك من علم زاخر .

وكـــان الورعـــون مـــن الســـلف ، ومـــنهم عبـــد الله بـــن عمـــر وعمـــر بـــن عبـــد العزيـــز ، يضـــرب أحـــدهم فســـطاطا مـــن الحـــرم وفســـطاطا مـــن الحـــل ،ـــ فـــاذا أراد أن يصـــلى أو يعمـــل شـــيئا مـــن الطاعـــات ، دخـــل فســـطاط الحـــرم ليـــدرك فضـــل المســـجد الحـــرام ، لأن المســـجد الحـــرام عنـــدهم فـــى جميـــع مـــا يـــذكر انمـــا هـــو الحـــرم كلـــه ، واذا أراد أن يأكـــل أو يكلـــم أهلـــه أو يتغـــوط خـــرج الـــى فسطاط الحل .

وممـــا مـــن الله بـــه علـــى هـــذا العـــام أنـــى كنـــت أذكـــر المـــؤمنين بحـــرم مكـــة وأنصـــحهم أن يتجنبـــوا فيهـــا الاســـاءة ، ويحرصـــوا كـــل الحـــرص علـــى الاحســـان والطاعة ، وكنت أجد منهم استجابة والحمد لله ، والذكرى تنفع المؤمنين .

ومـــن فضـــل الله علينـــا أن موقـــف عرفـــة هـــذا العـــام كـــان فـــى يـــوم الجمعـــة ، وعرفـــة ، هـــى أهـــم أركـــان الحـــج ، ففـــى الحـــديث الشـــريف ((الحـــج عـــرف)) . وقـــد قـــال بعـــض الســـلف : اذا وافـــق يـــوم عرفـــة يـــوم جمعـــة غفـــر لكـــل أهـــل الموقـــف ، وهـــو أفضـــل يـــوم فـــى الـــدنيا ، وفيـــه حـــج مولانـــا رســـول الله ـــ صـــلى الله عليـــه وســـلم . حجـــة الـــوداع ، ولـــم يحـــج بعـــد نـــزول فـــرض الحـــج غيرها .

ولقـــد تـــذكرت فـــى الحـــرم قـــول المغفـــور لـــه الشـــيخ عبـــد الله عفيفـــى وأســـمعته لبعض احبابى فأعجبوا به كل الاعجاب :

يا خليلى بالصفا والمصلى — ها هو الصبح فى البقاع تجلى
فانشد القلب فى الحمى أين حلا — ضل عنى وما غوى حين ضلا
ودنا من حماك وتدلى

شفه الحب والحبيب فثارا — وسرى الركب بالعشى قطارا
كان نورا وصار بالحب نارا — نعم دار الحبيب يا قيس دارا
وبقاع الحبيب روضا وظلا

زمزم ورده وفيها هواه — ومنى قصده وفيها مناه
وسنا البيت وحيه وهداه — هذه دورهم وفيها جناه
قدست أربعا وجلت محلا

با مراح البراق أنت راحى — يا صلاح العباد أنت صلاحى
يا صباح الحياة طاب صباحى — ومسائى على رباك الصباح
حين يجلى الكتاب فيك ويتلى

مهبط الوحى أنت مهبط قلبى — عن امام الأنام فرعا وأصلا
وحمى الله أنت موطن حبى — يا ديار الحبيب والدار تنبى
حدثينى عن النبى ونبى

وكذلك جئت الملتزم وتعلقت باستار الكعبة بعد الطواف لأدعوا الله

تعالى ، فتذكرت قول شيخى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل . رضى الله عنه . فى الهامه الفورى الذى نقلناه عنه :

انى على أعتابكم لم أرض غير الحب مشرب
حريتى رق لكم وهن المقام وذاك أقرب
وأدلتى أنى ضعيف والضعيف عليك يحسب
قالوا بأنك لم تكن فيما تقرره منسب
فأجبتهم أنا نسبتى عبد على الأبواب أحسب

وكم كان لشيخى . رحمه الله . من روائع حين كان يتعرض للحجاز وهو ينشد ، فكم شدنا اليه ، فيما كان يتغنى به الهاما لوقته من عطاء ربه لأوليائه المتقين . . فمن قوله طيب الله مثواه :

سهام الهوى لم تثننى عن رحابكم ولو أننى منها على مركب صعب
وكيف أهاب الصعب أو أرهب السرى ومن نام لا يرقى الى مشهد القرب
وغفلة قلب المرء بعد وحسرة فما نال عقبى ربه غافل القلب
ونحن أولو علم ولكن بوجدنا شربنا من الأنوار ماليس بالشرب
فكنا بفيض من الله خير أئمة لنا نوره يهدى من الزيغ والعجب
ولما تدانينا ولاحت دياره وقد جذبتنا نحوها أيما جذب
هتف بحبى دم لربك وحده وأخرج جميع الكائنات من القلب

وما أروع قول شيخى كذلك :

دع زمانا مضى وعد بى لأرض شغفتنى بنورها المتلألى
بين بيداء روعت ووهاد وذئاب تختال فى اقبال
ونجوم مثل الحباب على الكأس تسامت أو كالحلى واللالى
قيل ماذا تريد من هذه الأرض أتبغى البقاء فى جنمع مال
قلت والله غير احمد مالى بعد رب العباد من آمال

يا حبيبى رضاك دنيا ودين   فهما باتباعكم صحا لى
نفحتنى بنوركم نفحة الخير   وقد طاب منكمو آصالى
انما أنت مصدر النور من ربى   ومعنى الرضا وباب الوصال
كل جاه يزول فى روعة الموت   ولكن خالقى آبقى لى
واكتحال العيون أيسر شىء   واكتمال القلوب صعب المنال
هو ذكر ورغبة وشهود   ووفاء للخالق الفعال

وما من شك أن الهجرة الى الحجاز ، مقر البيت الحرام ، ومزار النبى عليه الصلاة والسلام هجرة من الدنيا الى الآخرة . . وسعى لرؤية صورة مصغرة للمحشر يوم القيامة ، فكم ترى فى تلك الرحلة المباركة وتسمع من أجناس مختلفة ، ولغات متنوعة ، ودعوات متوالية ، واستغاثات ضارعة ، وتوبات صاعدة ، وعيون باكية ، وقلوب خاشعة ، وأكف الى السماء مرفوعة ، وجباه الى الأرض موضوعة ، ووجوه ضاحكة مستبشرة ، والسنة بكتاب الله ناطقة ، وعيون الى الكعبة ناظرة ، وآلاف من الناس بها طائفة ، وأخرى راكعة ساجدة ، أما فى المسعى بين الصفا والمروة أو عند رمى الجمرات بمنى ، فقال ان الناس جراد منتشر ، وأما وقوفهم فى عرفات فكأنهم اجتمعوا ليوم الحساب ، ذلك يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود .

اللهم أحسن عاقبتنا فى الأمور كلها وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة ، وآمن روعتنا ، واستر عوراتنا ، يوم ينكشف المستور من أمرنا ، يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم .

اللهم انا نعوذ بك من الذنوب التى توجب النقم ، ونعوذ بك من الذنوب التى تغير النعم ، ونعوذ بك من الذنوب التى تهلك الحرم ((ربنا وتقبل دعاء ، ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب)) . آمين .

((مـــن تفكـــر فـــى دينـــه ســـلك ، ومـــن حـــافظ علـــى آداب الطريـــق فـــى ســـيره الى الله ملك ، وكان فى أفعاله كالملك .

ســـبحان مـــن أدب النفـــوس ، وأرســـل لهـــا العـــروس ، وأنـــزل الكتـــاب كـــالطروس ، فكـــان طبيـــب النفـــوس ، كتـــاب أحكمـــت آياتـــه ، وأنطقـــت بيناتـــه .

وكـــل انســـان بنياتـــه ، لـــه هبـــة موهوبـــة ، وأمـــور فـــى الـــدنيا مطلوبـــة ، فمـــن أسعده الله أعطاه ، ومن وفقه اليه أغناه .

اليـــك أرغـــب ، وأيـــاك أرهـــب ، اللهـــم ألهمنـــى الصـــواب ، وأجمـــع قلـــوب الأحباب على الباب)) .

ذلـــك مـــن بعـــض مـــا كتـــب شـــيخى العـــرف بـــالله ســـيدى الشـــيخ عبـــد الســـلام الحلـــوانى ، طيـــب الله مثـــواه ، لتلميـــذه الـــوفى الصـــديق الصـــالح الســـيد ســـالم جمعة ، مد الله فى عمره ، وبارك له فى عمله .

والعـــروس يســـتوى فيـــه الـــذكر والمؤنـــث وجمـــع الرجـــل عـــرس بضـــمتين مثـــل رســـول ورســـل ، ويقصـــد بـــه مولانـــا الله صـــلى الله عليـــه وســـلم ، والطـــروس جمـــع طـــرس أى الصـــحيفة ويعلمنـــا ســـيدى الشـــيخ فـــى هـــذه الكلمـــات الطيبـــة أمـــورا دينيـــة ودنيويـــة هامـــة وينقلنـــا فيهـــا مـــن درجـــة الـــى درجـــة ، أخـــذا بمبـــدأ التـــدرج ، الـــذى هـــو ســـنة مـــن ســـنن الكـــون والتكـــوين فـــى النـــواحى الحسية والمعنوية .

واذا نظـــر الانســـان الـــى تكوينـــه الجســـدى والعقلـــى والروحـــى ، كمثـــل حـــى قريـــب منـــه ، رأى أنـــه تـــدرج فـــى تكوينـــه الحســـى والمعنـــوى شـــيئا فشـــيئا ، وكان لكل طور من أطواره ما يناسبه من جهد وثمرة .

ولــو ســأل نفســه فــى ســن التفكــر والتميــز ، مــن خلقنــى ولمــاذا خلقــت ، ومــا مــآلى بعــد المــوت لاســتدل علــى أن لــه خالقــا ، قــادرا ذا حكمــة ، لــيس لــه شــريك فــى ملكــه ، والحكمــة تنفــى عنــه أن يخلــق عبثــا ، ولــو ان حيــاة الانســان انتهــت بحياتهــا فــى الــدنيا لكــان ذلــك عبثــا ، وهــو مــا يســتحل فــى حــق الخــالق ســبحانه ، ولابــد مــن رجعــة اليــه تعــالى ، امــا الــى ســعادة أبديــة ، أو شــقاة أبــدى فى حياة أخرى تكون بعد البعث من الموت ولا انتهاء لها أبدا .

ولـــو أن الخـــالق ســـبحانه ، تـــرك العبـــاد لأنفســـهم يتفكـــرون ، لشـــق الأمـــر علـــيهم ، لكنـــه أراد برحمتـــه أن يعـــاونهم ، وييســـر لهـــم الأهتـــداء اليـــه ســـبحانه ، فأرســـل لهـــم الرســـل مبشـــرين ومنـــذرين ، وأيـــدهم بـــالحجج البالغـــة ، والمعجـــزات البـــاهرة ، واقتضـــت حكتـــه العاليـــة ، أن يكـــون هـــؤلاء الرســـل مـــن صـــنف البشـــر ، لا مـــن صـــنف آخـــر ، ليحصـــل لهـــم الألفـــة بالتجـــانس ، ويقـــرب التصـــديق لمـــن كتبـــت لهـــم الســـعادة الأبديـــة ، والـــذى يخلـــق العبـــاد مـــن عـــدم ، لا يكـــون محتاجـــا الـــيهم ، ولا الـــى تصـــديقهم بربوبيتـــه ، ولا الـــى طـــاعتهم لأوامـــره ، كمـــا لا يضـــره تكـــذيبهم بربوبيتـــه ، أو عصـــيانهم لنواهيـــه ، وانمـــا العبـــاد هـــم المحتـــاجون ، الـــذين ينتفعـــون مـــن الطاعـــات ، ويضـــارون بالمعاصـــى ، أفـــراد وجماعـــات ، وحكامـــا ومحكـــومين ، فـــى الحيـــاة الـــدنيا وفـــى الآخـــرة . وقـــد مهـــدت الرســـالات الســـابقة لظهـــور أعظـــم الرســـالات شـــأنا فـــى النـــاس كافـــة ، وهـــى الرســـالة المحمديـــة التـــى كانـــت مســـك الختـــام فهـــدى الله بهـــا مـــن العمى ، وانقذ بها من الردى .

وكـــان كـــل رســـول مـــن الرســـل الأمنـــاء يرســـل الـــى قومـــه خاصـــة ، وأرســـل الله تعـــالى مولانـــا محمـــدا رســـول الله صـــلى الله عليـــه وســـلم الـــى الاقـــوام كافـــة ، فكانـــت أعـــم رســـالة عرفتهـــا البشـــرية ، كمـــا كانـــت أســـرعها ظهـــورا وأبقاهـــا وأنماهـــا ، علـــى مـــر الســـنين وتعاقبـــت الأجيـــال ، فكـــان عـــدد المســـلمين بعـــد انتقالـــه صـــلوات الله وســـلامه عليـــه وعلـــى آلـــه الـــى الرفيـــق الأعلـــى أضـــعاف أضـــعاف ، مـــن أســـلموا فـــى زمانـــه ، وبـــذلك صـــار صـــلى الله عليـــه وآلـــه وســـلم أكثـــر النبيـــين تبعا يوم القيامة .

وذلـــك لا يكـــون الا بســـر مـــن أســـرار الله العليـــا ، آتـــاه الله حبيبـــه الأصـــفى ومصـــطفاه الأســـمى ، ليـــتم لـــه شـــرف خطابـــه الأعلـــى (ومـــا أرســـلناك الا رحمـــة للعـــالمين) فكـــان صـــلى الله عليـــه وســـلم بـــذلك عـــروس المملكـــة ، التـــى خلقهـــا الله ، وشـــاء لهـــا أن تكـــون ، ولله ملـــك الســـموات والأرض فـــرحم الله بـــه كـــل العـــالمين ، والعـــالمون هـــم كـــل مـــا ســـوى الله عـــز وجـــل ، ودخـــل فـــى العـــالمين اذن الأنـــس والجـــن والملائكـــة والأنبيـــاء والمرســـلون ، ذلـــك فضـــل الله يؤتيـــه مـــن يشـــاء والله ذو الفضل العظيم (ان فضله كان عليك كبيرا) .

ويشـــير الـــى ذلـــك ســـيدى العـــارف بـــالله الشـــيخ أحمـــد الحلـــوانى الخليجـــى (والـــد ســـيدى الشـــيخ عبـــد الســـلام الحلـــوانى) رضـــى الله عنهمـــا فـــى قصـــيدته المسماة المستجير فيقول :

وعروس مملكة المهيمن أنت ياطه — وأنت بجمعها الفرد العلم
أو لست أنت الأصل فى فيضان ما — عم الأنام من المكارم والنعم
أو ليس من سطعات نورك أشرق — البدران والداران يانور الظلم
طب اذا الحسنات أعضل كسرها — صححتها للمذنبين فلا سقم
تهب الجزيل لمن أتى يبغى الندى — تحمى النزيل اذا بحضرتك اعتصم

وقـــد جـــاء حبيبنـــا المصـــطفى ، صـــلوات الله عليـــه وآلـــه ، بمعجـــزة القـــرآن الكـــريم ، الـــذى أحكمـــت آياتـــه ، ونطقـــت بيناتـــه ، كمـــا يقـــول ســـيدى الشـــيخ عبـــد الســـلام ، رضـــى الله عنـــه ، فكـــان فيـــه طـــب النفـــوس ، فعالجهـــا بـــه صـــلوات الله وســـلامه عليـــه ، مـــن أدوائهـــا ، حتـــى رشـــدت بعـــد غـــى ، وحيـــت بعـــد مـــوت ، فآمنت بعد كفر ، وشكرت بعد جحود .

وقـــد جـــاء القـــرآن المجيـــد مجمـــلا ، ففصـــل مولانـــا رســـول الله صـــلى الله عليـــه وســـلم بـــأمر ربـــه مـــا أجملـــه مـــن عظـــات وأحكـــام ، وكـــان أمـــين الله فـــى ابلاغـــه ، كمـــا كـــان أمينـــه فـــى تفصـــيله وبيانـــه ، ومـــن ثـــم ألـــزم الله تعـــالى المـــؤمنين باتبـــاع رســـوله الأمـــين صـــلى الله عليـــه وســـلم وجعـــل اتباعـــه ، دلـــيلا علـــى حبـــه ســـبحانه فـــى قولـــه الكـــريم (قـــل ان كنـــتم تحبـــون الله فـــاتبعونى يحببـــكم الله ويغفـــر لكـــم ذنـــوبكم والله غفـــور رحـــيم) وجعـــل طاعتـــه طاعـــة لله (مـــن يطـــع الرســـول فقـــد أطـــاع الله) وبيعته بيعة له (ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله) .

وكما كان اتباعه صلى الله عليه وسلم دليلا على محبة العبد لربه ، فانه كذلك مجلبة لاسمى غاية ، وأشهى نهاية ، وهى محبة الله لعبده ، وهى الأفق الأعلى ، الذى تتعطر عنده أرواح المؤمنين المخلصين بنسيم المحبة الالهيه ، وثمرتها مغرية للغاية ، فهى مفضية لا محالة بالمغفرة والرحمة والرضوان ، ومن أصدق من الله حديثا .

فالملائكة مخلوقات نورانية ، لا تعوقهم عن طاعة الله شهوات فانية ، ولذات زائلة ، يعمرون أوقاتهم بذكر الله تعالى (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) (يخافون ربهم من فوقهم ، ويفعلون ما يؤمرون) فهم على الدوام محفوفون بالتجليات ، مغمورون بالرحمات .

وقد بين القرآن الكريم ، سلوك الجيل الأول فى هذه الأمة ، وهى خير أمة أخرجت للناس ، فوصفهم فى دينهم ودنياهم أروع وصف ، وشهد لهم ربهم ، بنظافة ظواهرهم وبواطنهم ، بما لا مطمع لأحد فى المزيد عليه ، لا بل وفى بلوغ حده الا ما شاء الله .

فانظر ، رعاك الله ، فى قول الله تعالى مثلا فى وصف سادتنا الصحابة رضوان الله عليهم : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود) فكشف عن عبادتهم الظاهرة ، وعن نياتهم الخفية السامية (يبتغون فضلا من الله ورضوانا) والى قوله تعالى (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) فهى عبادة خلت من النفاق ، والغرض الدنيوى ، حلقوا فيها بأرواحهم الصافية الى الملأ الأعلا ، الذى هبطت فيه ، والذى اليه تعود ، عند انتهاء الأجل ، حين تسمع لذيذ خطابه الكريم (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى) .

ولا يظـن ظـان أن هنـاك مسـافة يطويهـا العبـد فـى سـلوكه الـى مرضـاة ربـه ، وانمـا المقصـود بالسـلوك ، مجاهـدة الـنفس التـى تحجبـه بشـهواتها عـن مـذاقات المعرفـة ، وبالمجاهـدة والمثـابرة ، والمصـابرة ، يـزول الحجـاب وينكشـف الغطـاء ، فيـرى العبـد بعـين بصـيرته ، أكثـر ممـا يـراه بعـين بصـره ، لأن عـين البصـر محـدودة ، لا تـرى الا المحسوسـات ، وعـين البصـيرة ، مطلقـة ، فيمـا شـاء لهـا أن تكشـفه ، مـن أمـور الملـك أو الملكـوت ، بقـدرة الحـى الـذى لا يمـوت والـذى قـال (وكـذلك نـرى ابـراهيم ملكـوت السـموات والأرض وليكـون مـن المـوقنين) كمـا قـال (سـبحانه الـذى أسـرى بعبـده لـيلا مـن المسجد الحـرام الـى المسـجد الأقصـى الـذى باركنـا حولـه لنريـه مـن آياتنـا انـه هـو السـميع البصـير) وقـد يقـول قائـل هـذه الآيـات فـى حـق الرسـل صـلوات الله علـيهم ، وليسـت للمـؤمنين فـأقول : ان الله يكـرم بالمرسـلين تـابعتهم بصـدق ، ويؤيـدهم بحـق ، لـيجعلهم منـارات لاجيـالهم يهتـدى بهـم مـن أراد أن يتخـذ الـى ربـه سـبيلا ، (قـل هـذه سـبيلي ادعـو الـى الله علـى بصـيرة أنـا ومـن اتبعنـى ، وسـبحان الله ومـا أنـا مـن المشـركين) فكمـا يكـون للرسـل علـيهم الصـلاة والسـلام معجـزات خارقـات ، يكـون لأوليـاء الله آيـات بينـات والله يؤيـد بنصـره مـن يشاء .

ومـن هنـا وجـب أن يسترشـد السـالك الـى الله بمرشـد مـن أهـل البصـيرة يكـون عـاملا بالكتـاب والسـنة ، وملازمـا للجماعـة ، ويعتبـره نائبـا عـن رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم ، يربـى السـالكين فـى جنـب الله ، حسـبة لوجـه الله ، وابتغـاء مرضـاة الله ، لايسـأل النـاس عـن هـدايتهم أجـرا ، وقـد أثبـت الله لعبـاده الـذين شـرفهم بالانتسـاب اليـه فـى قولـه الكـريم (وعبـاد الـرحمن الـذين يمشـون علـى الأرض هونـا .. ألـخ) دعـاءهم بـأن يهيـئهم ليكونـوا أئمـة لأهـل التقـوى فقـال تعـالى (والـذين يقولـون ربنـا هـب لنـا مـن أزواجنـا وذرياتنـا قـرة أعـين واجعلنـا للمتقـين امامـا) وانمـا سـألوه ذلـك ليكونـوا مـن خـدام دعـوة الحـق ، وهو شرف اعتز به الأنبياء والمرسلون صلوات الله وسلامه عليهم .

فكما أنه صلوات الله وسلامه عليه رسول رب العالمين ، فالأولياء نوابه وجنوده فى حياته الشريفة وبعد وفاته ، يعلمون المؤمنين أقواله

وأفعالـــه وأحوالـــه الشـــريفة وقـــد مـــن الله علـــى أمتـــه فـــى كـــل جيـــل مـــن أجيالهـــا ، حتـــى بقيـــت كلمـــة الله ثابتـــة فـــى الأرض ، وان تعـــرض النـــاس للفـــتن ، ورمـــتهم الأيـــام بـــالمحن (يثبـــت الله الـــذين آمنـــوا بـــالقول الثابـــت فـــى الحيـــاة الـــدنيا وفـــى الآخـــرة ويضـــل الله الظـــالمين ويفعـــل الله مـــا يشـــاء) وكـــل ذلـــك مـــن بركـــات رســـول الله صـــلى الله عليـــه وســـلم وقـــد ورد عنـــه صـــلى الله عليـــه وســـلم : ((أنـــا حظكـــم مـــن الأنبيـــاء وأنـــتم حظـــى مـــن الأمـــم)) فمـــا أعظـــم حـــظ الأمـــة المحمديـــة ((واعلمـــوا أن فـــيكم رســـول الله لـــو يطـــيعكم فـــى كثيـــر مـــن الأمـــر لعنـــتم ولكـــن الله حبـــب الـــيكم الايمـــان وزينـــه فـــى قلـــوبكم وكـــره الـــيكم الكفـــر والفســـوق والعصـــيان أولئـــك هـــم الراشدون فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم) ٠

ومـــن عجـــب أن يخـــاف بعـــض النـــاس مـــن تعظـــيم رســـول الله صـــلى الله عليـــه وســـلم ووصـــفه بمـــا حبـــاه الله تعـــالى بـــه ، ويظـــن أن ذلـــك يجـــر الـــى الشـــرك بـــالله ، ولســـت أدرى كيـــف يـــؤدى التعظـــيم للشـــرك ، ونحـــن نشـــهد بالألســـنة ونقـــر بـــالقلوب أنـــه عبـــد الله ورســـوله فـــى كـــل تشـــهد وفـــى كـــل أذان ، كمـــا أننـــا مؤمنـــون بـــالقرآن الكـــريم الـــذي يـــدعو الـــى التوحيـــد الخـــالص ويصـــف رســـول الله صـــلى الله عليه وسلم بأنه عبد من البشر يوحى اليه ٠

وانمـــا عظـــم مولانـــا رســـول الله صـــلى الله عليـــه وســـلم بعظـــم الله الـــذى أرســـله الينـــا والـــى النـــاس كافـــة ، وبعظـــم الأمانـــة التـــى عهـــد بهـــا اليـــه ، فأداهـــا أحســـن أداء وهـــى تقـــوم علـــى أســـاس أن لا الـــه الا الله وأن محمـــدا رســـول الله ، ولا وجـــه للخـــوف مـــن الشـــرك أو تخويـــف النـــاس منـــه ، فاننـــا نعظـــم بيـــت الله الحـــرام ولا نشـــركه بـــالله ، ونعظـــم آباءنـــا وأمهاتنـــا ومشـــايخنا ولا نشـــركهم بـــالله ، والشـــرك حـــده بعيـــد ، حمـــى الله منـــه المـــؤمنين بالكتـــاب والســـنة والجماعـــة والحمد لله على ذلك .

أمـــا ان كـــان الخـــوف والتخـــوف مـــن التوســـل بـــه صـــلى الله عليـــه وســـلم الـــى ربـــه ، فـــذلك التوســـل انمـــا هـــو أخـــذ بالأســـباب التـــى أقامهـــا المســـبب ســـبحانه ، فالرســـالة جاءتنـــا علـــى يـــده صـــلوات الله عليـــه ، وأهتـــدينا علـــى يديـــه ، فكـــان الرحمـــة المهـــداه لنـــا مـــن الـــرحمن الـــرحيم ، وهـــو بابنـــا الـــى الله تعـــالى ، وتجـــرى نعمة الله الظاهرة والباطنة على يديه ، وذلك تقدير العزيز العليم ، والمنعم

سبحانه هو الواحد الأحد ليس له شريك فى تقديره أو عطائه لأن معرض السبب غير معرض التوحيد (كما بينا ذلك فى مقاله سابقة) فحين قال تعالى فى معرض التوحيد (انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) قال فى معرض السبب (وانك لتهدى الى صراط مستقيم) وفى معرض الجمع بين السبب والمسبب قال تعالى (واذ تقول للذى انعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله) فاذا وضع المؤمن ذلك نصب عينيه أراح واستراح ، ، فالمنعم هو الله ، وجاءت نعمه لسيدى زيد على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم على يديه وأعتق على يديه وتزوج على يديه صلى الله عليه وآله .

والموت الذى كتبه الله على عباده انما هو نقله من هذه الحياة الدنيا الى حياة البرزخ القائم بين الدنيا والآخرة ، وقد صرح القرآن الكريم بحياة الشهداء فى البرزخ فى قوله الكريم (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم الا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل وان الله لا يضيع أجر المؤمنين) اذا كان ذلك كذلك فكيف بحياة سادتنا الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم وكيف بحياة سيدهم وأميرهم صلوات الله وسلامه عليه وآله ، وإذا كان أثره الشريف قد انقطع بموته فلماذا حرص أفقه الأمة ، وأعظمهم توحيدا ، على جواره فى قبره ، فكان أول من سعد بهذا الجوار ، الصديق الأكبر ، والعلم الأشهر ، مولانا أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، ثم لحق بهما الفاروق ، الذى فرق الله به الحق والباطل ، مولانا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقد آثرته سيدتنا أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها بالمكان الذى كانت تود أن تدفن فيه ، وكان مولانا السبط الحسن بن على كذلك يود لو سعد بدفنه الى جوار جده المصطفى صلى الله عليه وسلم لولا أن عارض فى دفنه الأمويين فدفن بالبقيع الى جوار والدته سيدتنا الزهراء رضى الله عنها

كما أنه حين جاء مولانا أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، بكل ما ملكت يداه من المال الى مولانا رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال له ما تركت لأهلك ، قال تركت لهم الله ورسوله ، وهو يعلم علم اليقين ان الله تعالى هو الرازق وحده ، ولكنه لم يشأ أن يحرم أهله من أن تصاحبهم بركات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى جعله الله رحمة للأولين والآخرين ، والفقير اذا وقف بباب الغنى ، فهو لا يعتقد فيه الألوهية ، وانما يتعرض لأن يرزقه الله على يدى ذلك الغنى الذى وسع الله عليه ، وأوصاه خيرا بالفقراء وجعله أداة من أدوات عطائه ، والسعيد من الأغنياء من أعطى ، والشقى من قال ، أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ، لأن الله تعالى انما يطعم الفقراء من يد الأغنياء ، وجعل ذلك بابا من أبواب الابتلاء .

ثم انه سبحانه أمرنا بالصلاة والتسليم عليه صلى الله عليه وسلم ، ولعجزنا عن الصلاة والتسليم عليه بأنفسنا ، سألنا الله تعالى أن يصلى عليه ويسلم كما يحب ويرضى ، فلماذا كلف الله المؤمنين بالصلاة عليه ما كان ذلك الا ليربط قلوبهم بقلبه الكبير فيستمدوا منه نورا تقوى به محبتهم له ، فيتخلقون بأخلاقه فيحبهم الله ويدخلهم فى رحمته ، ومعلوم أن المصلى عليه يقول اللهم صلى على سيدنا محمد، فهو ناطق بذكر الله فى قوله اللهم فصارت الصلاة عليه ، صلى الله عليه وسلم ، ذات طرفين ، يذكر فيها رب العالمين سبحانه ، ويذكر فيها رسوله الكريم ، الذى تفتح على يديه أبواب رحمة الله .

ويقول سيدى ابن عطاء الله السكندرى ، رضى الله عنه فى كتاب مفتاح الفلاح ، (ولعل سر مشروعية الصلاة على الأنبياء ، أن روح الانسان ضعيفة لا تستقر لقبول الأنوار الألهية ، فاذا استحكمت العلاقة بين روحه وروح الأنبياء بالصلاة فالأنوار الفائضة من عالم الغيب على أرواح الأنبياء تنعكس على أرواح المصلين عليهم .

ويقول الامام الغزالى رضى الله عنه فى كتاب الأحياء ، فى باب ما ينبغى أن يحضر فى القلب عند كل ركن من الصلاة ما نصه : وأحضر فى قلبك صلى الله عليه وسلم وشخصه الكريم وقل السلام عليك

أيهـــا النبـــى الـــخ . . ويقـــول العلامـــة الشـــهاب بـــن حجـــر المكـــى شـــيخ الشـــهاب الخفاجى فى شرح العباب فى بيان كلمات الشهداء ما نصه :

وخوطـــب صـــلى الله عليـــه وســـلم كأنـــه اشـــارة الـــى أنـــه تعـــالى يكشـــف لـــه عـــن المصـــلين فـــى أمتـــه حتـــى يكـــون كالحاضـــر معهـــم ، ليشـــهد لهـــم بأفضـــل أعمـــالهم ، وليكون تذكر حضوره سببا لمزيد الخشوع .

ولـــيس يغيـــب عـــن الســـادة القـــراء الأفاضـــل ، أن الله تعـــالى ، أدام حرمتـــه صـــلى الله عليـــه وســـلم ، بتحـــريم أزواجـــه علـــى المـــؤمنين مـــن بعـــده فحرمتـــه فينـــا قائمـــة علـــى الـــدوام ، وقـــد حـــرص الســـلف الصـــالح مـــن فقهـــاء الأمـــة علـــى رعايـــة هـــذه الحرمـــة ، فراعـــوا الآداب بجـــوار قبـــره الشـــريف ، مـــن خفـــض الصـــوت عنـــد الســـلام عليـــه ، وعنـــد المناقشـــة فـــى دروس العلـــم ، واســـتقبلوا وجهـــه الشـــريف عنـــد الـــدعاء ، وحـــرص الامـــام مالـــك ، ومنزلتـــه الفقيهـــة فـــى المســـلمين معروفـــة ، وهـــو مـــن تـــابعى التـــابعين ، علـــى ألا يطـــأ بنعلـــه أو دابتـــه أرض المدينـــة المنـــورة ، لأنهـــا تضـــم جـــدث النبـــى صـــلى الله عليـــه وســـلم ، وكـــان ابـــن عمـــر مـــن قبلـــه يتتبـــع مـــواطىء قدمـــه صـــلى الله عليـــه وســـلم حيـــث مشـــى ، تبركـــا بهـــا كمـــا كـــان رضـــى الله عنـــه . علـــى مـــا رواه الامـــام مالـــك بســـنده فـــى الموطـــأ ، اذا أراد ســـفرا أو قـــدم مـــن ســـفر جـــاء قبـــر النبـــى صـــلى الله عليـــه وســـلم ودعـــا ثـــم انصـــرف ، وكـــان الصـــحابة رضـــوان الله علـــيهم يقترعـــون علـــى الشـــعرة الواحـــدة مـــن شـــعراته صـــلى الله عليـــه وســـلم ويـــرى الواحـــد مـــنهم انـــه لـــو كانـــت عنـــده شـــعرة واحـــدة منـــه كانـــت خيـــرا مـــن الـــدنيا ومـــا فيهـــا ، وكفـــن رســـول الله صـــلى الله عليـــه وســـلم الســـيدة فاطمـــة بنـــت أســـد (أم الامـــام علـــى كـــرم الله وجهـــه) فـــى قميصـــه وقـــال انمـــا ألبســـتها قميصـــى لتكســـى مـــن حلـــل الجنـــة ، واضـــطجع معهـــا فـــى قبرهـــا وقـــال (انمـــا اضـــطجعت معهـــا ليهـــون عليهـــا) أى الحســـاب وقـــد دعـــا لهـــا فقـــال صـــلى الله عليـــه وســـلم فيمـــا رواه الطبرانـــى وغيـــره : ((اللهـــم ارحـــم أمـــى فاطمـــة بنـــت أســـد ووســـع مـــدخلها بحـــق نبيـــك والأنبيـــاء الـــذين مـــن قبلـــى)) وحياتـــه صـــلى الله عليـــه وســـلم خيـــر لنـــا ، ومماتـــه كـــذلك خيـــر لنـــا ، فخيـــره لا مقطـــوع ولا ممنوع بفضل الله عليه وعلينا (وللآخرة خير لك من الأولى) وله سبحانه الثناء الحسن الجميل .

والذائق لا يحتاج الى أدلة وبراهين ، فالعيان يغنى عن البرهان ، وما يعقل ذلك الا العالمون ، أماالمتعالمون ، فنسأل الله ان يهديهم الى سواء السبيل ، ولا يكفروا المتوسلين ، وفيهم أعلام الدين ، وأئمه المتقين ، وكيف لا تتوسل الى الله ، بمن جعل الله الشهادة برسالته ، ركنا من أركان التوحيد ، نعوذ بالله أن نكون ممن يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، فالشهادتان انما وصلتا ليكون المؤمن متصلا برسوله الكريم الذى هداه الى الله تعالى ، والأسباب قامت بأمر مسببها سبحانه ، فاذا قلنا ان الأرض أنبتت الزرع ، فانما نذكر سبب النبات ، ونشهد ربنا الذى أقامها تنبت ، وكذلك اذا قلنا احيا الماء الزرع قصدنا به أنه سبب الاحياء على سبيل المجاز وشهدنا أن الله تعالى هو المحيى فى الحقيقه ، وعقيده المؤمنين فى التوحيد راسخه بحمد الله ولا محل للتشكيك فيها .

واستمع بعد ذلك الى بعض الروائع التى جاد بها الهام سيدى العارف بالله الشيخ احمد ابو الوفا الشرقاوى (المتوفى ١٩٦١) طيب الله ثراه فى قصيدته المسماه ، لمع السرار فى مدح الحبيب المختار ، والتى تفضل فشرح معانيها مولانا المفتى الأكبر الاسبق الشيخ حسنين محمد مخلوف ، مد الله فى عمره وزاده فضلا وهى طويله جدا ، وتزداد حلاوة كلما تكررت تلاوتها ، وقد تخيرت منها قطرات عطره قال فيها رضى الله عنه :

ومذهبى انه يسمو ويعظم أن ... يبدى لسانى فى أوصافه قولا
وكيف يوصف والأكوان قاطبة ... فى ظل أعتابه تستمطر الفضلا
يحن قلبى الى مغناه حيث سنا ... خضرائه يشمل الأملاك والرسلا
تفديه نفسى من مغنى يتيه على ... العرش العظيم بمن فى حيه حلا
فانه مربع قد خص طيبه ... بنور جثمان من يعلو ولا يعلى
فيا فؤادى ذب شوقا اليه ويا ... انسان عينى تصبب فى الهوى سبيلا
هناك يا مقلتى حيث الحبيب غدت ... تسدى المواهب من ساحاته فضلا
حيث الملائك تستجدى لطائفه ... والانبياء ترجى سحبه هطلا
كم رفرفت فى سناء أنوار قبته ... أرواح أمته يبغونها طولا
تغدو خماصا فتمسى وهى رائحة ... منها باطانا بما تحبى العطا جزلا

فلا حجاب غدا من دون حضرته ولا يرى مبتغى أبوابه قفلا
لكن النفس من أهوائها حجاب تغشى القلوب فتغدو للحجاب كبلا
فاقطع علائقها وارحل بروحك عن آثار ظلمتها واحذر لها هولا
وخلها وتيمم بالفؤاد لمن كل الكمال له رب الورى أولى
هناك تظهر أنوار الحبيب ولم تطو المطايا له صخرا ولا رملا
له الجمال الذى لما سما قدما أحبه الله سبحانه الذى جلا
فانه قد سرى فى الليل من حرم وحضرة القرب قد صارت له حلا
لكى يفوق على كل السوى شرفا بالجسم والروح تخصيصا له قبلا
كأننى بجميع الكون اصبح فى لهف اذا الروح من احشائه سلا
لكن الطاف ربى للورى سبقت فرده كرما للكون اذ دلى
وكل أطواره تبدى لامته أنوار بارئها الاقوال والفعلا
فذاته حضره لله جامعة وما سوى روحه للمبتغى وسلا
انى بسطت يد الآمال مفتقرا فلا تجبنى يا رحب القرى أن لا
فاننى فى عهود الحب من قدم أبو الوفا أحمد الشرقاوى لا أسلى
لا علم يا سيدى أرجو ولا عملا سوى محبتكم أنعم بها شغلا
جعلتها نسبى فيكم أ روم به منك الدنو وان ادعى لكم شبلا

ويؤخذ من شرح فضيلة المفتى الأكبر الأسبق لبعض الأبيات المتقدمة ، أن العلماء أجمعوا على أن البقعة التى تضم الأعضاء الشريفة أفضل بقاع الأرض حتى موضع الكعبة المشرفة ، وقيل :

جزم الجميع بأن خير الأرض ما
قد حاط ذات المصطفى وحواها
ونعم لقد صدقوا بساكنها علت
كالنفس حين زكت زكى مأواها

بل هى ، كما ذكره السيد السمهودى نقلا عن التاج السبكى عن ابن عقيل الحنبلى ، أفضل من العرش ، لأحتوائها على جسد أشرف الخلق الذى تتنزل الرحمات والبركات غير المتناهية عليه صلى الله عليه وسلم فى قبره .

وكذلك قال فضيلة المفتى الأكبر ، وقد ثبت فى الصحيحين فى حديث الأسراء اجتماعه صلى الله عليه وسلم بأرواح الأنبياء وبالملائكة ، وأنه تعالى جمعهم تلك الليلة فى بيت المقدس تكريما لنبيه ، وأمرهم أن يؤمهم فى الصلاة ، اظهارا لتفضيله وامامته ، كما ثبت اجتماع بعضهم به فى عروجه فى تلك الليلة الى السماء واحتفاؤهم به ، وثنائهم عليه صلى الله عليه وسلم .

وثبت أيضا تفضيله عليهم ، بما رواه ابن جرير وابن كثير عن على كرم الله وجهه قال : لم يبعث الله نبيا من آدم فمن بعده الا أخذ عليه العهد فى محمد صلى الله عليه وسلم لئن بعث وهو حى ليؤمن به ، ولينصرنه . ويأخذ العهد بذلك على قومه ، وهو مروى أيضا عن ابن عباس موقوفا ولكن له حكم الرفع ، لأنه مما لا مجال للرأى فيه .

يقول المفتى الأكبر : فاعلم ذلك ولا تكن من الغافلين .

ويستطرد فضيلته قائلا : وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ان الله تعالى فضل محمدا صلى الله عليه وسلم على أهل السموات وعلى الأنبياء عليهم السلام ، قالوا فما فضله على أهل السماء ، قال ان الله تعالى قال لأهل السموات ((ومن يقل منهم انى اله من دونه فذلك نجزيه جهنم) وقال لمحمد (انا فتحنا لك فتحا مبينا) قالوا فما فضله على الأنبياء ، قال ان الله تعالى قال ، (وما أرسلناك من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم) وقال لمحمد (وما أرسلناك الا كافة للناس ونذيرا) .

هذا وان الله تعالى قد جعل المؤمنين وسيلة يرحم بعضهم ببعض فى صلاة الجنازة التى فرضها عليهم كفاية ان لم يؤدها البعض أثم الجميع ، مع انه غفور بذاته ورحيم بذاته ، لكنه أقامها أسبابا يتخذها المؤمن ، وهو يشهد ربه ، وجعل الأبناء وسيلة لرحمة آبائهم وأمهاتهم ، فأمرهم بالدعاء لهم (وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا) ونحن ندفع الجوع بالطعام والظمأ بالماء ، ونشهد ربنا الذى هو يطعمنا ويسقينا ، فكيف يحمل التوسل على الشرك بالله ، وهو من باب اتخاذ الأسباب ، وكيف يشبه المعترضون المتوسلين بعبده الأصنام ، والأصنام احجار لا تضر

ولا تنفــع ، وأيـــن عبـــادة الأصـــنام واتخاذهـــا آلهـــة مـــن حـــب مـــن أحـــبهم الله ، فهـــو حـــب فـــى الله ، وبـــالله ولـــم يـــرد أن الله أحـــب الأصـــنام حتـــى يكـــون لهـــم عـــذر فـــى حبهـــا ثـــم فـــى التبـــرك بهـــا ، فيـــا بعـــد مـــا بـــين القياســـين ، وقـــد أخبرنـــا ســـبحانه ان حملـــة العـــرش ومـــن حولـــه يســـبحون بحمـــد ربهـــم ويؤمنـــون بـــه ويســـتغفرون للـــذين آمنـــوا ، وأعلمنـــا مـــا كـــان غائبـــا عنـــا مـــن اســـتغفارهم وهـــو وســـيلة أرادهـــا الله (ربنـــا وســـعت كـــل شـــىء رحمـــة وعلمـــا فـــاغفر للـــذين تـــابوا واتبعـــوا ســـبيلك وقهـــم عـــذاب الجحـــيم ، ربنـــا وأدخلهـــم جنـــات عـــدن التـــى وعـــدتهم ومـــن صـــلح مـــن آبـــائهم وأزواجهـــم وذريـــاتهم انـــك أنـــت العزيـــز الحكـــيم وقهـــم الســـيئات ومـــن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم) .

لقـــد ذكـــر الله فـــى كتابـــه الكـــريم الأنبيـــاء والمرســـلين ، والأوليـــاء والصـــالحين ، وأثنـــى علـــيهم ، فخلـــدهم فـــى الخالـــدين مـــن عبـــاده وجعـــل أســـماءهم وأوصـــافهم تتلـــى فـــى المحاريـــب ، وجعـــل قصصـــهم عبـــرة لأولـــى الألبـــاب ، واوصـــافهم مـــثلا عليـــا يحتـــذيها أهـــل الرشـــاد والاســـعاد ، وللثقـــة فـــى محبـــة الله لهـــم ، ورضـــائه عـــنهم ، ســـأل الأنبيـــاء والمرســـلون ربهـــم أن يلحقهـــم بالصـــالحين ممـــن ســـبقوهم وهـــذه غبطـــة بمـــا نـــالوه مـــن فيضـــه واحســـانه فـــى جـــواره الكـــريم ، فهل كان فى سؤالهم هذا اشراك بالله ؟ حاشا وكلا .

ثـــم انـــه تعـــالى أمرنـــا نحـــن المـــؤمنين أن نكـــون مـــع الصـــادقين مـــن عبـــاده ، ولـــم يـــر فـــى ذلـــك عبـــاده أو شـــركا بـــل رآه ســـببا معينـــا لنـــا علـــى طاعتـــه ، فهـــم وســـيلتنا اليـــه فـــى الـــدنيا والآخـــرة ، وهـــم حجتنـــا فيمـــا بيننـــا وبينـــه ســـبحانه (يـــا أيهـــا الـــذين آمنـــو اتقـــوا الله وكونـــوا مـــع الصـــادقين) وقـــد قـــال العـــارفون أن الكينونـــة تكـــون ظـــاهرا بمجالســـتهم حتـــى تنطبـــع فـــى المـــؤمن صـــفاتهم ، وباطنـــا برابطـــه الـــروح ، حيـــث تســـقى الأرواح بعضـــها بعضـــا ، كمـــا يســـقى المـــاء المتـــدفق مـــن الأرض العاليـــة ، الـــزروع القائمـــة فـــى الأرض الواطئـــة ، ورزق الظـــاهر بحركات الأجسام ، ورزق الباطن بحركات القلوب .

والله مـــن قبـــل ذلـــك ومـــن بعـــد ذلـــك هـــو وحـــده المقـــدر ، ان شـــاء ســـاق الأسباب النافعة لعبده ، وان شاء حرمه منها ، كما يقول سيدى الشيخ

عبـد السـلام : وكـل انسـان بنياتـه ، لـه هبـة موهوبـة وأمـور فـى الـدنيا مطلوبـة ، فمن أسعده الله أعطاه ، ومن وفقه الله أغناه .

وما أحلى ما يقول الصوفى الكبير جلال الدين الرومى فيما ترجمه عنه صديقى العلامة الشيخ الصاوى شعلان :

ان الظواهر أضلت ابليس فلم ير من جوهر آدم الا الماء والطين ، وأضلت الظواهر أبا جهل حين نظر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم على انه محمد بن عبد الله القرشى ، فلم يره سيدنا محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

وما ذنب البستان اذا قصرت فى جنى ثماره ، وما ذنب النهار اذا أغمضت العين عن شهود أنواره .

وأقول بعد ذلك : اللهم انا نتوسل اليك بأحب أحبابك لديك ، وأعزهم عليك ، ومن شرفت أهل السماء والأرض بامامته ، وجعلته مفتاح رحمتك ، سيدنا ومولانا محمد ، صلوات الله وسلامه عليه وآله وصحبه ومن والاهم ، ونسألك بجاهه العظيم عندك ، أن تربط أرواحنا بروحه الشريفة ، حتى يأتيها رزقها رغدا من ساحة كرمك ، فأنت المعطى وهو القاسم ، وما أجود المعطى ، وما أعدل القاسم ، وما أرافه ، وما أرحمه ، وأنت يا الهنا الواصف له (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) .

((. . ولا يخفـاك ان عطـاء الله لا ينفـذ ككلماتـه التـى لا تنفـذ (قـل لـو كـان البحـر مـدادا لكلمـات ربـى لنفـذ البحـر قبـل أن تنفـذ كلمـات ربـى ولـو جئنا بمثله مددا)) .

((وأنـت شـاء الله ممـدود منـه ، باتباعـك شـرع المصـطفى صـلى الله عليـه وسـلم ، وسـيكون قربـك منـه قريبـا ان شـاء الله ، وتـراه وتتمتـع بـه وتمتـد منـه حتـى تمـد غيـرك ، فالمـدد مـن الله سـبحانه وممـن أمـدهم فيكـون لـك ومنك النور والسرور .

((ابعـد الله عنـا الشـرور ، وطهـر قلوبنـا مـن المـدة وهـى قـيح تورثـه الـذنوب ، ونجانـا مـن العطـب والكـروب وجعلـك دائمـا مطمـئن الـنفس تتبـع البـر كمـا قـال المصـطفى صـلى الله عليـه وسـلم ، والبـر مـا أطمأنـت اليـه الـنفس . . . وربمـا تمـر حـوادث بشـىء مـن الخـوف ، فعليـك بحسـن التوكـل واستشر قلبك بما يطمئن اليه)) .

جـاءت هـذه الارشـادات القيمـة فـى رسـالة بعـث بهـا أسـتاذى العـارف بـالله سـيدى الشـيخ عبـد السـلام الحلـوانى رضـى الله عنـه ، الـى تلميـذه الصـالح المبـارك الصـديق السـيد سـالم عمـر حمعـة زاده الله فضـلا وتوفيقـا وتـاريخ الرسـالة ٢٨ مـايو ١٩٤١ ، أى ابـان اشـتغال الحـرب العالميـة الثانيـة والتـى امتـدت الـى الصـحراء الغربيـة حتـى صـارت علـى مقربـة مـن الاسـكندرية التـى يسكنها ذلك التلميذ الصالح .

وكلمـات الشـيخ تبعـث الأمـل الفسـيح لتلميـذه فـى عطـاء الله الـذى لا يحـده حـد ، ولا يحصـره عـد ، فقـد أسـبغ سـبحانه علـى عبـاده نعمـه ظـاهرة وباطنة ، وبين لهم عجزهم عن عدها واحصائها فقال تعالى :

(الله الـــذى خلـــق الســـموات والأرض وأنـــزل مـــن الســـماء مـــاء فـــأخرج بـــه من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الانهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ما سألتموه وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفار) .

وكما أن عطاءه سبحانه لا يعد ولا يحد ، فكلماته كذلك لا تنفد ، وقد أخرجنا سبحانه من بطون امهاتنا لا نعلم شيئا ، فعلمنا مالم تكن نعلم ، وكل ما يفتح به علينا من فهم أو الهام أو استنباط ، أو اكتشاف ، أو اختراع انما هو من عطائه وكلماته ومن أوائل ما نزل من كتابه الكريم قوله تعالى (اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم) .

ويعلم سبحانه رسله وأنبياءه الكرام وحيا ، ويعلم الأولياء والصديقين الهاما ، وعلى قدر معرفة العبد بربه تكون صلته به ، فالرسل والأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه هم أعرف الناس بربهم ، وهم متفاوتون فى المعرفة كما شاء الله لهم ، ولذلك كانوا أعظم الناس محبة لله ، وأشدهم خشية منه سبحانه وتعالى ويليهم فى ذلك الصديقون ثم الأولياء ، والأمثل منهم فالأمثل .

والقرآن الكريم بين لنا من ذلك شيئا كثيرا وبين لنا أنه على كثرة ما علم الناس فى شئون دنياهم فان العلم الذى يربطهم بربهم ، هو العلم الذى يكشف عنهم غطاء الغفلة فيعرفون ربهم بفضله عليهم فيشكرون له نعمه كما يعرفونه بسلطانه فيخافونه من فوقهم ، ويفعلون ما يؤمرون ، وهذا ما وجهنا اليه قوله الكريم (انما يخشى الله من عباده العلماء) فمن لا يخشى الله ليس من العلماء عند الله وان كان عند نفسه وعند الناس من العلماء وقوله العظيم (وما بكم من نعمة فمن الله) فمن لم يدرك ذلك يكون جاحدا لنعمة الله .

ولقد اغتر قارون بجهله ، فظن انه اغتنى بعلمه فحكى الله تعالى ما كان من أمره (قال انما أوتيته على علم عندى أو يعلم أن الله قد أهلك من

قبلـــه مـــن القـــرون مـــن هوأشـــد منـــه قـــوة وأكثـــر جمعـــا ولا يســـأل عـــن ذنـــوبهم المجرمـــون) وقـــص علينـــا ســـبحانه ان قومـــه فتنـــوا بمالـــه وزينتـــه فـــى الحيـــاة الـــدنيا حتـــى قـــالوا : (ياليـــت لنـــا مثـــل مـــا أوتـــى قـــارون انـــه لـــذو حـــظ عظـــيم) فنصـــحهم العلمـــاء الراشـــدون وقـــالوا لهـــم مـــا حكـــاه تعـــالى (وقـــال الـــذين أوتـــوا العلـــم ويلكـــم ثـــواب الله خيـــر لمـــن آمـــن وعمـــل صـــالحا ولا يلقاهـــا الا الصـــابرون) ثم بين الله عاقبة جهل قارون الذى ظن فى نفسه أنه عالم فقال تعالى :

(فخســـفنا بـــه وبـــداره الأرض فمـــا كـــان لـــه مـــن فئـــة ينصـــرونه مـــن دون الله ومـــا كـــان مـــن المنتصـــرين) فتـــيقظ عندئـــذ أهـــل الغفلـــة وتبينـــوا الرشـــد مـــن الغـــى (وأصـــبح الـــذين تمنـــوا مكانـــه بـــالأمس يقولـــون ويكـــأن الله يبســـط الـــرزق لمـــن يشـــاء مـــن عبـــاده ويقـــدر لـــولا أن مـــن الله علينـــا لخســـف بنـــا ويكأنـــه لا يفلـــح الكافرون) .

ونأخـــذ مـــن قصـــة قـــارون هـــذه أن كـــل كـــافر بربـــه جاهـــل وان حمـــل مـــن الشـــهادات الجامعيـــة أعلاهـــا ، أو اختـــرع مـــن المخترعـــات أدقهـــا وأعقـــدها وهـــو ما يؤكده قوله تعالى :

(. . ولكـــن أكثـــر النـــاس لا يعلمـــون ، يعلمـــون ظـــاهرا مـــن الحيـــاة الـــدنيا وهـــم عـــن الآخـــرة هـــم غـــافلون . أو لـــم يتفكـــروا فـــى أنفســـهم مـــا خلـــق الله الســـموات والأرض ومـــا بينهمـــا الا بـــالحق وأجـــل مســـمى وان كثيـــرا مـــن النـــاس بلقـــاء ربهـــم لكـــافرون . أو لـــم يســـيروا فـــى الأرض فينظـــروا كيـــف كـــان عاقبـــة الـــذين مـــن قـــبلهم كـــانوا أشـــد قـــوة وأثـــاروا الأرض وعمروهـــا أكثـــر ممـــا عمروهـــا وجـــاءتهم رســـلهم بالبينـــات فمـــا كـــان الله لـــيظلمهم ولكـــن كـــانوا أنفســـهم يظلمـــون . ثـــم كـــان عاقبـــة الـــذن أســـاءوا الســـوأى ان كـــذبوا بآيـــات الله وكـــانوا بها يستهزئون) .

وإذا كانـــت قلـــوب الكـــافرين قـــد انطمســـت وطبـــع الله عليهـــا بكفـــرهم ، فـــلا عـــذر للمـــؤمنين فـــى غفلـــتهم عـــن الله تعـــالى وقـــد آمنـــوا ، ولا عـــذر لهـــم فـــى أن تشـــغلهم الـــدنيا عـــن الآخـــرة ، وقـــد آمنـــو بالبعـــث بعـــد المـــوت ، وآمنـــوا بالحســـاب والثـــواب والعقـــاب يـــوم يقـــوم النـــاس لـــرب العـــالمين ، يـــوم ينظـــر المـــرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا .

واذا رشد المؤمن ، وتيقظ بعد غفلة ، عمل لما بعد الموت ، وقد رسم الله له طريق العمل ، وجعله واضحا ميسرا لا مشقة فيه ولا حرج ، وانما هو جهاد لنفسه الأمارة بالسوء ، والتى تستجيب العاجل على الآجل ، وتجنح لشهوات الدنيا التى توبقها ، وتهرب من الطاعات التى تسعدها ، وفى راحتها هنا تعبها هنالك ، وفى تعبها هنا راحتها هنالك ، والعاقل لا يشترى موقوتا بغير موقوت ، ولا يشترى لذة فانية بسعادة أبدية ، والا كان من الذين استحبوا العمى على الهدى ، وليس ذلك من شأن المؤمنين .

وقد بلغ مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه ، وأدى رسالته أصدق أداء ، وفصل ما أجمله كتاب الله عز وجل ، امتثالا لأمر ربه ، وتركنا كما قال صلوات الله وسلامه عليه وآله على مثل البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها الا هالك فالطريق اذن واضح ، والحق لائح ، والداعى قد أسمع ، فما التخلف بعد ذلك الا من الغفلة عن الحق الذى تنطق به الآية الكريمة (قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فان تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وأن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول الا البلاغ المبين) .

وذلك ما يوضح لنا مقصود سيدى الشيخ فى قوله لتلميذه ، وأنت ان شاء الله ممدود منه (أى الله) باتباعك شرع المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فهو يوجهه الى التزام الاتباع ، وتجنب الابتداع ليسلك سبيل المؤمنين على نور من ربه ، فيحل حلال الله تعالى ويحرم حرامه ويحب بحبه ، ويبغض ببغضه ، فلا يستحسن ما ستقبح ، ولا يستقبح ما استحسن فانه لا يكمل ايمان المؤمن حتى يكون هواه تبعا لما جاء به رسوله الأمين صلى الله عليه وسلم وآله ، لأنه انما جاء بشرع الله ، ولا يصل أحد الى ربه الا بشرعه الذى يقتدى فيه ويتأسى بمولانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وصدق العارف البكرى رضى الله عنه اذ يقول :

وأنت باب الله أى أمرئ
أتاه من غيرك لا يدخل

أما ما يقوله سيدى الشيخ لتلميذه : وسيكون قربك منه قريبا وتراه وتتمتع به ، وتمتد منه حتى تمد غيرك ، فانه يبشره بزيارة روضته الشريفة

والتسليم عليه ، وهى سعادة روحية لا يدركها الا أهل التجربة من ذوى التبصرة ، وقد أسعدنى الله بصحبة السيد سالم جمعة فى زيارة الروضة الشريفة كثيرا والحمد لله حمدا لا نهاية له وقديما قالوا :

لا يدرك الشوق الا من يكابده
ولا الصبابة الا من يعنيها

وقالوا :

وأبرح ما يكون الشوق يوما
اذا دنت الخيام من الخيام

كما يحتمل أن تكون البشرى برؤيته مناما وهى أيضا تبعث السعادة والاشراق فى روح الرائى كما هو معروف ، وزيارته صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة قربة من أعظم القربات الى الله تعالى ، ففيها وفاء له صلوات الله عليه وآله ، وتصديق به ، واعتراف بفضله وشرعه ، وتجديد لبيعته بوحدانية الله تعالى ورسالة حبيبه الأصفى ومصطفاه الأسمى ، وفى الحديث القدسى (عبدى لم تشكرنى ما لم تشكر من اجريت النعمة لك على يديه) ولا نعمة أعظم من نعمة الايمان بالله ورسوله واذا كان جذع النخلة الذى يخطب اليه صلى الله عليه وسلم حن وأن وهو من خشب ، لفراقه صلى الله عليه وسلم حين نصبوا له المنبر ورقاه ليخطب عليه ، فكيف بذوى الوجدان والأرواح المؤمنة النيرة .

ورضى الله عن سيدى الشيخ احمد الحلوانى الخليجى ، (والد سيدى الشيخ عبد السلام ، رضى الله عنهما) اذ يقول فى قصيدته المستجيرة مشيرا الى معجزة حنين الجذع :

والجذع حن وخار اذا فارقته فجبرته وخواره عندى نعم
فالمرء ان لم تعره لك هزة كالجذع فهو مضلل اعمى اصم
أرواحنا حنانة وقلوبنا انانة لك والغرام بنا اضطرم
بالله صل حبل الرجاء تعطفا أنا ضيف جودك يا امام أولى الكرم

ومـــا أروع كـــلام الشـــيخ الكبيـــر طيـــب الله ثـــراه ، وكـــان قـــد رأى فـــى المنـــام مولانـــا رســـول الله صـــلى الله عليـــه وســـلم يبتســـم لـــه ، فأشـــار الـــى ذلـــك القصيدة ذاتها قائلا :

بشراى ان حلاك تبسم بالمنى ان الكريم اذا رأى الضيف ابتسم

وبوجهك الميمون يسعد من رأى أنواره ممن بملتك اعتصم

أرنيه فهو سعادتى ومجادتى أبدا ولو نوما وعنى لا تنم

يا رحمة الله الأمان فكن لنا سورا على الايمان يا أفق الهمم

ولفضـــيلة صـــديقى العـــالم المبـــارك المعاصـــر الاســـتاذ الشـــيخ أحمـــد محمـــد مرســـى ، مراقـــب دار الحـــديث النبـــوى بـــالمؤتمر الاســـلامى ســـابقا ، مـــد الله فـــى عمـــره تعليـــق علـــى رســـالة العلامـــة الحلبـــى صـــاحب الســـيرة الشـــهيرة المســـماة : تعريـــف أهـــل الاســـلام والايمـــان بـــأن النبـــى صـــلى الله عليـــه وســـلم لا يخلـــو منـــه مكـــان ولا زمـــان ، تضـــمن كثيـــرا مـــن الطرائـــف العلميـــة النقيـــة ومنهـــا قولـــه بـــارك الله فيـــه : وقـــد يظـــن بعـــض المعاصـــرين أن الكـــلام فـــى هـــذا الموضـــوع مـــن قبيـــل الغلـــو المنهـــى عنـــه ، وهـــو خطـــأ ممـــن ظنـــه ، لأن الغلـــو أن يعتقـــد فـــى الشـــخص مـــا يرفعـــه فـــوق منزلتـــه كمـــا اعتقـــدت النصـــارى فـــى عيســـى عليـــه الســـلام انـــه ابـــن الله أو ثالـــث ثلاثـــة ، أمـــا اعتقـــاد أمـــر دل عليـــه دليـــل فلـــيس مـــن الغلـــو فـــى شـــىء .

وقولـــه زاده الله علمـــا : ويمكننـــا أن نبحـــث وجـــود النبـــى صـــلى الله عليـــه وســـلم وآلـــه فـــى كـــل مكـــان وزمـــان علـــى أســـاس الوجـــودات الآربعـــة المقـــررة فـــى علم المنطق :

١ . الوجود الذهنى :

والنبـــى صـــلى الله عليـــه وآلـــه وســـلم موجـــود فـــى ذهـــن كـــل مســـلم وفى عقيدته .

٢. الوجود اللسانى :

وهـــو موجـــود علـــى لســـان كـــل مـــؤذن للصـــلوات الخمـــس وعلـــى لســـان كـــل مصلى يصلى عليه داخل الصلاة وخارجها .

٣ . الوجود الكتابى :

وهو كذلك موجود فى خطبة كل كتاب علمى منثور أو منظوم ، وكذلك كتب التفسير والحديث والسيرة والأدعية والصلوات وغيرها .

٤ . الوجود الجسمى :

وهو نوعان : (١) وجود الجسم الطبيعى وهو لا يتأتى الا فى مكان واحد ، ولا يجوز تعدده فى مكانين فى وقت واحد (ب) وجود الجسم المثالى : بمعنى أن الجسم الشريف فى مكانه من الروضة المطهرة ، وتوجد أجسام مثالية فى عدة مواضع من العالم يدبرها روحه العظيم على توالى الأزمنة ، ومن الدليل على وقوعه قول المصلين فى تشهدهم : السلام عليك أيها النبى ، وهذا خطاب للحاضر الموجود وان لم يروه كالحال فى الملائكة ، ولو كان غير حاضر عندهم يقينا لكان خطابهم له عبثا لا يليق أن يحصل فى الصلاة التى هى أفضل العبادات كيف والعبث منهى عنه فيها . وقوله تعالى (فان لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله) هذا انذار لكل مراب الى يوم القيامة بأن يحاربه الله ورسوله ، وحرب الله حقيقة مستمرة فمن رسوله كذلك ، لأنه معطوف على الله بالواو ، وهى تفيد الجمع والاشتراك ، فهو اذن موجود يحارب الرابين بلعنهم والدعاء عليهم وعالم المثال المدلول عليه بقوله سبحانه وتعالى (فتمثل لها بشرا سويا) .

ولقد قال الحافظ بن القيم : ان الروح القوية كروح أبى بكر الصديق ، رضى الله عنه ، تستطيع أن تهزم جيشا بأكمله ، فليس بكثير على روح نبينا صلى الله عليه وآله وسلم وهو أعظم روح خلقه الله تعالى ، ان يملأ العالم فى صور أجسام مثالية ، ولهذا رآه كثير من الأولياء فى أوقات مختلفة وأماكن متعددة وسألوه عن أشياء اشكلت عليهم فأجابهم بما أزال عنهم الاشكال (وكان الجلال السيوطى يسأل النبى صلى الله عليه وسلم عن أحاديث فيجيبه عنها) .

هذا ويقول العلامة الحلبى فى رسالته : والحجاب من قبلنا بموجب مساوينا ، لا من قبله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا تجد العبد متى

فــارق نفســه ولــو بــالنوم وأغمــض عينيــه اذا قســم الله لــه تعلــى ذلــك ، ومتــى قتلهــا بقمعهــا وأماتهــا بردعهــا لــم يبــق بينــه وبينــه حجــاب لا منامــا ولا يقظــة ، ولــذا كــان الســيد أبــو العبــاس المرســى يقــول لــو حجبــت عــن رؤيــة النبــى صــلى الله عليه وسلم طرفة عين ما عددت نفسى من المسلمين .

ويقــول العلامـــة الحلبـــى أيضـــا : وأمـــر البـــرزخ لا يقـــاس علـــى غيـــره وقـــد ســـئل عزرائيـــل : كيـــف تقـــبض روح رجلـــين حضـــر أجلهمـــا معـــا ، أحـــدهما فـــى افصـــى المشـــرق والآخـــر أقصـــى المغـــرب ، فقـــال ان الله تعـــالى قـــد زوى لـــى الـــدنيا بجميـــع أكوانهـــا فجعلهـــا بـــين يـــدى كالقصـــعة بـــين يـــدى الاكـــل أتنـــاول منهـــا مـــا شـــئت ، ثـــم ان ملكـــى الســـؤال مـــع تنـــاهى عظمهمـــا يأتيـــان أضـــيق اللحـــود ويســـألان ميتـــين أو أمواتـــا فـــى وقـــت واحـــد ، ومـــنهم مـــن هـــو فـــى أقصـــى المشـــرق ومـــنهم مـــن هـــو فـــى اقصـــى المغـــرب ، فـــالله قـــادر أن يعطـــى نبيـــه صـــلى الله عليـــه وســـلم الـــذى أعطـــاه لملكـــى الســـؤال وملـــك المـــوت وفـــوق ذلـــك لأنهمـــا دونـــه ولانهما يسألان الأموات عنه صلى الله عليه وسلم .

أقـــول ومـــا أبـــدع مـــا ينتهـــى اليـــه الامـــام البوصـــيرى فـــى بردتـــه المباركـــة :

دع ما ادعته النصارى فى نبيهم

واحكم بما شئت مدحا واحتكم

فان فضل رسول الله ليس له

حد فيعرب عنه ناطق بفم

هـــذا وثمـــة بشـــرى عظيمـــة لمـــن يـــراه صـــلى الله عليـــه وســـلم فـــى المنـــام ، فقـــد جـــاء فـــى الحـــديث الصـــحيح (مـــن رآنـــى فـــى المنـــام فســـيرانى فـــى اليقظـــة) فقـــد قـــالوا لابـــد مـــن تحقـــق الرؤيـــة يقظـــة ولـــو لحظـــة قبيـــل الوفـــاة ، وقـــد رآه كثيـــر مـــن العلمـــاء العـــاملين فـــى المنـــام ثـــم رأوه فـــى اليقظـــة فـــى أحـــوال مختلفـــة ، كمـــا قـــال الحـــافظ الســـيوطى وغيـــره ، وقـــد ورد أن الشـــيطان لا يســـتطيع أن يتمثـــل بـــه صلى الله عليه وسلم .

وبشرى أخرى لمن يصلى الله عليه وسلم ، وقد زفها الحديث الشريف الذى رواه البراز والطبرانى وأبو الشيخ وغيرهم عن عمار بن ياسر

رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال (ان الله تعالى ملكا أعطاه أسماء الخلائق فهو قائم على قبرى اذا مت فليس أحد يصلى على الا قال : يا محمد صلى عليك فلان بن فلان ، قال فيصلى الرب تبارك وتعالى على ذلك الرجل بكل واحدة عشرا) والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة ، ويقول العلامة الحلبى رحمه الله ان خدمة التبليغ التى يقوم بها الملك انما هى على سبيل الاحترام والتوفير .

وورد أنه صلى الله عليه وسلم يسمع بنفسه صلاة المصلى عليه ليلة الجمعة ويومها وقد روى الحاكم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم (ليهبطن ابن مريم حكما عادلا واماما مقسطا وليلكن فجا حاجا أو معتمرا وليأتين قبرى حتى يسلم على ولأردن عليه) ــ صححه الحاكم وسلمه الذهبى . ويعقب على ذلك المفضال الشيخ أحمد محمد مرسى فيقول فى ابداع لم يسبقه احد اليه فيما اعلم : وهذا الحديث يفيد سنية زيارة القبر الشريف لأن النبى صلى الله عليه وسلم أخبر بزيارة عيسى له فى قبره ، وأقره صلى الله عليه وسلم .

ومن روائع ما يقول العلامة الحلبى : ومن الأدلة العقلية والنقلية أيضا أن الله تبارك وتعالى نصبه شاهدا على أعمال العباد خيرها وشرها فقال تعالى (يا ايها النبى أنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا) والشاهد لابد أن يكون حاضرا للمشهود عليه وناظرا للمشهود اليه ، فعلم أنه ملأ كل عالم وحاضر فى كل مكان .

وللبهيقى وابن عساكر وغيرهما عن حاطب مرفوعا (من زارنى بعد موتى فكأنما زارنى فى حياتى) وتلك أيضا بشرى عظيمة للسادة الزائرين ، فانهم ان استغفروا الله بين يديه صلى الله عليه وسلم شفع لهم صلى الله عليه وسلم عند ربه ليغفر لهم ، تحية منه صلى الله عليه وسلم لضيفه ورأفة ورحمة بالوافدين عليه من المؤمنين المذنبين كيف لا والله تعالى يقول (ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما) كما يقول (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) .

ووالله لقــد لمســـنا بركـــة الزيـــارة فـــى كـــل مـــرة حتـــى كـــأن نفوســـنا الأمـــارة بـــدلت بـــأخرى كاملـــة ، فـــذقنا حـــلاوة الطاعـــة ، وتـــدبرنا كلمـــات الله كانمـــا تلقيناهـــا أول مـــرة ومـــلأ صـــدورنا أنـــس بـــالله ورســـوله فكأنهمـــا مـــن صـــدور أهـــل الجنـــة التـــى قـــال تعـــالى فيهـــا (ونزعنـــا مـــا فـــى صـــدورهم مـــن غـــل اخوانـــا علـــى ســـرر متقابلين) فياله من صفاء ، وياله من نور .

وانـــى لا أنـــس ان لســـانى قـــد عقـــد فـــى الزيـــارة الأولـــى ، ولكـــن صـــدرى هـــزه اللقـــاء وحركـــة الشـــوق حتـــى كـــاد القلـــب يخـــرج مـــن بـــين الضـــلوع ، فكـــان مـــن الصـــمت كـــلام ، ومـــن العـــى بيـــان وأى بيـــان ، واذكرنـــى ذلـــك الشـــعور المتدفق قول ابن العفيف رحمه الله :

يا من اعيذ جماله بجلاله حذرا عليه من العيون نصسبه

ان لم تكن عينى فاتك نورها أو لم تكن قلبى فانت حبيبه

ولا يظـــن القـــارىء العزيـــز ، أن هـــذا هـــو شـــعورى وحـــدى فانـــه يشـــاركنى فيـــه كثيـــر مـــن الـــزوار المبـــاركين ، ولقـــد لقينـــى مصـــادفة شـــاب مصـــرى لا أعرفـــه عنـــد أحـــد التجـــار بالمدينـــة المنـــورة ، ولكنـــه كـــان يـــذكرنى لأنـــه اســـتمع الـــى محاضـــرة كنـــت القيهـــا فـــى جمعيـــة الشـــبان المســـلمين بمغاغـــة فـــى ســـنة ١٩٤٨ ، وتجاذبنـــا أطـــراف الحـــديث وجرنـــا الكـــلام الـــى الزيـــارة وروعتهـــا وجمالهـــا فقلـــت لصـــاحبى : انـــى اؤكـــد لـــك أنـــه لـــولا جمـــال أخلاقـــه صـــلى الله عليـــه وســـلم ، لحـــبس جلالـــه الكبيـــر الألســـنة عـــن الكـــلام عنـــده لكـــن الجمـــال يخفـــف عـــن النفـــوس وقـــع الجـــلال فتتحـــرك الألســـنة عـــن الكـــلام ، فقـــال فـــى دهشـــة : كأنـــك تصـــف مـــا وقـــع لـــى أول مـــا وفـــدت عليـــه صـــلى الله عليـــه وســـلم ؟ فقلـــت لـــه : ومـــاذا وقـــع لـــك ؟ قـــال انحصـــر لســـانى عـــن الكـــلام فانصـــرفت فـــى اضـــطراب وقلـــت فـــى ذلـــك شعرا ، وروى لى شعره وأذكر منه قوله :

عجب لسان عند قبرك ينطق خرس الشفاة لديك هن الاصدق

غشى الجلال لديك كل مشاعرى فوقفت مضطربا وقلبى يخفق

اما ما يقوله سيدى الشيخ عبد السلام :

وتمتد منه حتى تمد غيرك ، فالمدد من الله وممن أمدهم ، فيكون لك ومنك النور والسرور ، فذلك ما تشهد به الأية الكريمة (لقد من الله على

المــؤمنين اذ بعــث فــيهم رســول مــن أنفســهم يتلــو علــيهم آياتــه ويــزكيهم ويعلمهــم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين) .

فالتزكيــة لا تكــون بـالتعليم وحــده بــل بالســر الروحــى المكنــون الــذى يؤتيــه الله مــن يشــاء مــن مــدد رسـوله صــلى الله عليــه وســلم ، الــذى جعلــه الله واسـطة العطـاء وسـبب الرحمــة ومشــرق النــور القلبــى الــذى يهتــدى بــه المؤمنــون الســالكون والعــاملون والراشــدون ، وصــدق صــلوات الله وســلامه عليــه اذ يقــول (انمــا أنــا رحمــة مهــداة) والا فكيــف يتصــور العقــل أن يتــرك مائــة ألــف أو يزيــدون مــن أصــحابه الأطهــار ، ودعوتــه الــى الله لــم تبلــغ ربــع قــرن مــن الزمــان ، أو كيــف يتصــور العقــل أن دعوتــه تــزداد انتشــارا بعــده حتــى يكــون لتابعيــه امبراطوريــة اســلامية غيــر مســبوقة بمثلهــا فــى طــول الــزمن وعرضــه فــى ســرعة قيامهــا وقوتهــا اللهــم الا أن يكــون ذلــك بســر خفــى يتعــدى طــور المحســوس الــى اللامحســوس ، ويبلــغ آفــاق الــروح ، والــروح مــن أمــر ربــى ، وضــحت آثارهــا وهــى خافيــة ، وظهــرت أنوارهــا للقلــوب فلــم تــدركها الأبصــار ، وانمــا أدركتها البصائر ، ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور .

وانــك لتعجــب أشــد العجــب مــن قــوم يقولــون ان زيــارة رســول الله صــلى الله عليــه وســلم لا تقصــد لــذاتها والا دخلــت فــى عمــوم النهــى عــن شــد الرحــال الــوارد فيــه قولــه صــلى الله عليــه وســلم (لا تشــد الرحــال الا الــى ثلاثــة مســاجد مســجدى هــذا والمســجد الحــرام والمســجد الأقصــى) وهــؤلاء متــأثرون بــرأى ابــن تيميــة ، ولــيس ابــن تيميــة مــع مكانتــه العلميــة بالعــالم الفــرد فــى هــذه الآمــة ، وهــو لــم ينــزل مــن الســماء ، وكــان الامــام مالــك رضــى الله عنــه يقــول : كــل أحــد يؤخــذ مــن قولــه أو يتــرك الا صــاحب هــذه الروضــة (يشــير الــى النبــى صــلى الله عليــه وســلم) وقــد نقــل أحمــد بــن القاســم عــن الامــام أحمــد بــن حنبــل أنــه ســئل عــن الرجــل يــأتى المشــاهد التــى بالمدينــة وغيرهــا فقــال أمــا عــن حــديث ابــن أم مكتــوم انــه ســأل النبــى صــلى الله عليــه وســلم أن يأتيــه فيصــلى فــى بيتــه حتــى يتخــذه مســجدا ، وعلــى مــا كــان يفعــل ابــن عمــر كــان يتبــع مواضع سير صلى الله عليه وسلم ، قال أما على هذا فلا بأس قال ورخص فيه .

وعند هؤلاء القوم أن ينوى قاصد المدينة الصلاة فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليت شعرى ألم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يذهب الى مسجد قباء ماشيا تارة وراكبا تارة أخرى ، كما أنه حض على زيارة مسجد قباء والصلاة فيه وقال انها توازى عمرة ثم ألم يكن يزور البقيع (مقبرة المدينة) ويدعو لأهله فكيف يحمل الحديث على النهى المطلق ، بينما مقصوده ، كما قرر أكابر العلماء ومنهم الامام النووى شارح صحيح مسلم ، أن يبين أفضلية المساجد الثلاثة ، أما غيرها من المساجد فمتماثلة .

أقول ثم ان ياء الاضافة فى قوله صلى الله عليه وسلم مسجدى لا تفيد الملكية ، فهى قطعا تفيد الظرفية ، لأن المساجد لا يملكها الا الله تعالى ، وقد زاد الله المساجد شرفا بسجود مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ، كما شرفه بأنه بناءه ، وشرف المدينة المنورة فكانت مهاجرة ومهبط وحية عليه ومثواه ، ثم أليست زيارته هجرة اليه صلى الله عليه وسلم يحبها الله ويثيب عليها تأسيسا على قوله صلى الله عليه وسلم (انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه وقد قال امامنا الشافعى رضى الله عنه ان هذا الحديث يدخل فى نصف العلم .

ويقول الامام الغزالى فى الاحياء ما ملخصه : والمساجد بعد المساجد الثلاثة متماثلة ولا بلد الا وفيه مسجد فلا معنى للرحلة الى مسجد آخر ، وأما المشاهد فلا تتساوى بل بركة زيارتها على قدر درجاتهم عند الله عز وجل ، ثم قال : ليت شعرى ، هل يمنع هذا القائل من شد الرحال الى قبور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، مثل قبر ابراهيم الخليل عليه السلام ، بل الزيارة مأمور بها قال صلى الله عليه وسلم (كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ولا تقولوا هجرا) وقد جاء فى الشفاء للقاضى عياض عن زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم : وزيارة قبره صلى الله عليه وسلم سنة من سنن المسلمين مجمع عليها وفضيلة مرغب فيها ، ثم روى بسنده

عـــن ابـــن عمـــر رضـــى الله عنهمـــا قـــال قـــال النبـــى صـــلى الله عليـــه وســـلم (مـــن زار قبرى وجبت له شفاعتى) .

وأقـــول يعـــد ذلـــك اللهـــم شـــفعه فينـــا بجاهـــه عنـــدك ولا تقطعنـــا عـــن رحابـــه مـــا أحييتنـــا يـــارب العـــالمين ، فلـــولاه صـــلى الله عليـــه عليـــه وســـلم مـــا كانـــت الصـــلاة ولا كـــان المســـجد ومـــاذا مـــن أن ينـــوى عـــدة نوايـــا فـــى زيـــارة للمدينـــة المنـــورة ، ويـــزور أصـــحابه الكـــرام علـــيهم الرضـــوان ويصـــلى فـــى مســـجد قبـــاء الـــخ . . وكـــل ذلـــك وغيـــره مـــن الطاعـــات والبـــر مـــن بركـــات رســـول الله صـــلى الله عليـــه وسلم وآله .

واذا اســـتمد المـــؤمن مـــن نـــور نبيـــه صـــلى الله عليـــه وســـلم تخلـــق بأخلاقـــه ، وتحلـــى بصـــفاته ، فكـــان قـــدوة طيبـــة لغيـــره وينتفـــع بصـــحبته مـــن يصـــاحبه ، وقـــد أرشـــدنا الله تعـــالى الـــى أن مـــن علامـــات التقـــوى صـــحبة الصـــادقين فقـــال ســـبحانه (يـــا أيهـــا الـــذين آمنـــوا اتقـــوا الله وكونـــوا مـــع الصـــادقين) ويقـــول الســـادة الصوفية :

والروح كالريح ان مرت على عطر

طابت وتخبث ان مرت على الجيف

وقـــد دعـــا ســـيدى الشـــيخ أن يبعـــد عنـــا الشـــرور ، وفســـرها بأنهـــا الـــران الـــذى تخلفـــه المعاصـــى فـــى القلـــوب ، فتورقهـــا الغفلـــة عـــن الله وفـــى ذلـــك العطـــب والكـــروب ، وعبـــر الشـــيخ عـــن الـــران بالمـــدة والقـــبح الـــذى تورثـــه الـــذنوب ويشـــير بـــذلك الـــى قولـــه تعـــالى (كـــلا بـــل ران علـــى قلـــوبهم مـــا كـــانوا يكســـبون) نجانـــا الله من المعاصى وأهلها ونفعنا بالتقوى وأهلها .

ثـــم ان ســـيدى الشـــيخ يتوقـــع ظروفـــا شـــديدة ، وينصـــح تلميـــذه بحســـن التوكـــل علـــى الله وكفـــى بـــالله وكـــيلا ، كمـــا ينصـــحه باســـتفتاء قلبـــه لأن البـــر مـــا يطمـــئن اليـــه قلـــب المـــؤمن المتوكـــل ، الـــذى خـــرج مـــن حولـــه وقوتـــه فاعتصـــم بالله وأيقن أنه مولاه ولا معين سواه ، نعم المولى ونعم النصير ، وفى قوله

تعـــالى (وتوكــل علـــى الحـــى الـــذى لا يمـــوت) لفتـــة بديعـــة الـــى أنـــه يجـــوز أن يتكـل المـؤمن علـى بشـر مثلـه ممـن يـدركهم المـوت أو علـى صـنعته أو علـى تجارتـه أو علــى أموالــة ، فأنهــا جميعــا عرضــة للفنــاء ، وانمــا يأخــذ المــؤمن بأســباب العــيش كمـــا أمـــر الله مـــع الركـــون قلبـــا وقالبـــا الـــى الله الـــذى كفـــل الأرزاق وضـــمنها لخلقـــه أجمعـــين مـــؤمنهم وكـــافرهم طـــائعهم وفاســـقهم ، لأنـــه لا خـــالق ســـواه ولا رازق معه سبحانه وتعالى .

وقـــد قـــال ســـيدنا داود لابنـــه ســـيدنا ســـليمان عليهمـــا الصـــلاة والســـلام ، يـــابنى انمـــا يســـتدل علـــى تقـــوى الرجـــل بـــثلاث : حســـن التوكـــل فيمـــا لـــم ينـــل وحســـن الرضـــا فيمـــا قـــد نـــال وحســـن الصـــبر فيمـــا فـــات ومـــا أجلهـــا مـــن نصـــيحة . ويقـــول الامـــام حـــاتم الأصـــم (المتـــوفى ٢٣٧ هــــ) : عجبـــت لمـــن يعمـــل بالطاعــات ويقــول انــى أعملهــا ابتغــاء مرضــاة الله ثــم تــراه ابــدا ســاخطا علــى الله رادا لحكمتـــه أتريـــد أن ترضـــيه ولســـت بـــراض عنـــه كيـــف يرضـــى عنـــك وأنـــت لـــم ترض عنه .

اللهم اجعلنا من عبادك المؤمنين الموقنين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه والذين قلت فيهم وقولك الحق (أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب) .

اعلم أن طريق شيخنا ، رضى الله عنه طريق الذكر فقط وليس غيره ، ففيه الفتح ، وفيه الطلب ، وفيه قضاء الحوائج ، وهو منه واليه ، وبه كل شيء ، فاذا أمرتك بشيء غيره فاضرب عنه صفحا ، واتبع الذكر ففى الأسماء العلو الى السماء ، قلبك مع ربك ، وربك معك ، فليس بعيدا عنك ، يقربك اليه ، ويعرفك به .

ومن عرف الله عرفه الحكمة ، ومن سلك سبيلا غيره ، وكان يجهل بحره ، جره هذا السلوك الى الشكوك ، نجانا الله منها ، وهو تعالى يقول : ((انا لا نضيع أجر من أحسن عملا)) .

ورد ذلك الارشاد النافع فى رسالة كريمة أرسلها شيخى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه ، الى تلميذه الصالح المبارك الصديق السيد سالم جمعة ويدله فيه على أن شيخنا الأكبر قطب زمانه ، ومجدد قرنه ، العارف بالله سيدى الحاج محمد أبو خليل رضى الله عنه ((انتقل الى رضوان الله فى يونية ١٩٢٠ وضريحه الأنوار بالزقازيق وله هنالك مشهد ومسجد كبير معروف)) ، كان يقتصر فى تربية أتباعه على ذكر الله تعالى بأسمائه الحسنى ، فلم يكن لهم أوراد ولا أحزاب أخرى ، لأن الشيخ الأكبر كان يرى أن الأوراد والاحزاب انما فتح بها على أصحابها من أثر ذكرهم لله تعلى ، فالأولى بالمريدين أن يسلكوا الى الله تعالى من باب ذكره سبحانه ، لأنه أصل ثابت وفرعه فى السماء ، على أنى أود أن أنبه الى أن الطرق الأخرى التى لها أوراد لا تكتفى فى التربية بالأوراد بل توجه أيضا الى الذكر بالأسماء الحسنى .

والى جانب الذكر الفردى بالكيفية والعدد المرسومين فى طريق سيدى الشيخ الأكبر هناك ذكر الجماعة بعض الوقت ، وهو أقوى تاثيرا وأقوى أثرا فى رفع الحجب عن القلب من ذكر الواحد وحده ، وفى ذكر الجماعة يحصل لكل ذاكر ثواب ذكره بنفسه وثواب سماع الذكر من غيره ، وقد أمر سبحانه وتعالى بالتعاون على البر والتقوى ، وذكر الجماعة من هذا الباب .

وقد جعل السادة الصوفية الذكر أساسا لتربية السالكين ، واتفقت على ذلك كلمتهم فى المشارق والمغارب ، وقد اشتبه على الناس هذا الأمر ، بما فيهم بعض العلماء ، بل ربما كان هؤلاء العلماء أكثر الناس التباسا ، ولهذا وجب علينا أن نبين فى شىء من الشرح موضوع الذكر وأثره فى تربية الأرواح فى جنب الله فنقول وبالله التوفيق :

المقصود من ذكر الله تعالى أن يجتنب المؤمن الغفلة عنه سبحانه ، لأن الغفلة تجرئه على المعصية ، والذكر يعاونه تركها ، ويقول السادة الصوفية أن أعمال البر ويعملها البار والفاجر ولكن لا يجتنب المعاصى الا صديق ، والتصوف يدعو الى تخلية القلب من الرذائل وتحليته بالفضائل ، وعندئذ تستولى عليه الأنوار القدسية فيتعلق بالله ، ويؤثره سبحانه على هواه ، وعلى كل ما سواه ، لأنه جل جلاله وعز شأنه هو المطلوب والمرغوب والمحبوب ، منه ابتداؤنا ، واليه انتهاؤنا ، وقد جعل سبحانه الدنيا دار تكليفه ، وجعل الآخرة دار تشريفه ، ولم يكلفنا فى الدنيا محالا ، وانما كلفنا ممكنا يحتاج للمجاهدة الظاهرة والباطنة ، ليتميز بالمجاهدة الخبيث من الطيب ، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ، أما هو سبحانه فانه غنى بنفسه من غيره ، لا نفع له من طاعة ، ولا ضرر عليه من معصية ، والنفع والضرر للعباد أو عليهم .

ووجه ابتلاء المؤمن ، أن له نفسا أمارة بالسوء ، تتحرك للشهوات بطبعها وجبلتها ، والله تعالى أمره بالكف عنها ، والحذر منها ، فصار فى مسلك وعر ، ان أرضى نفسه فى شهواتها فقد أغضب ربه ، وأن أرضى ربه فقد أغضب نفسه ، ولا ثالث لهذين الأمرين ، فليختر لنفسه ما يحلو .

أمـــا ان كـــان قصـــير الادراك العاجـــل علـــى الأجـــل ، فانـــه يـــركن الـــى الشـــهوات ليرضـــى نفســـه فيهـــا ، وهـــو رضـــاء ظـــاهر نهايتـــه اغضـــابها يـــوم يكشـــف عنـــه غطـــاء الغفلـــة وتتحســـر نفســـه فتقـــول ((يـــا حســـرتا علـــى مـــا فرطـــت فـــى جنـــب الله)) وأمـــا ان كـــان واســـع الأفـــق ، بصـــيرا بالعواقـــب ، فانـــه يرضـــى ربـــه ويغضـــب نفســـه ، وهـــو غضـــب وقتـــى ، نهايتـــه ارضـــاؤها ، حـــين يقـــول لهـــا مولاهـــا ((يـــا ايتهـــا الـــنفس المطمئنـــة ارجعـــى الـــى ربـــك راضـــية مرضـــية فـــادخلى فـــى عبـــادى وادخلى جنتى)) .

وبـــين الطـــرفين بـــون شاســـع ، وبـــين النتيجتـــين فـــرق واســـع ، ولا بـــد اذن مـــن طبيـــب حـــاذق فـــى عـــلاج أمـــراض النفـــوس ليعاونهـــا فـــى مقاومـــة العلـــة المهلكـــة . التـــى تحركهـــا الـــى الشـــهوات فـــى خفـــاء لا تـــراه العيـــون ، كمـــا تدركـــه البصـــائر النافـــذة بقـــدرة الله الـــى بعـــض الغيـــوب ، ومـــن هنـــا قامـــت الحاجـــة الـــى الشـــيخ المربـــى الـــذى يتـــدرج بالمريـــد صـــعدا فـــى جهـــاد الـــنفس حتـــى تتخطـــى المســـلك الـــوعر فتتـــذوق حـــلاوة الطاعـــة ، وتقبـــل عليهـــا ، وتتجنـــب المعصـــية وتنفـــر منهـــا . ومـــا دامـــت العلـــة خافيـــة عـــن العيـــون ، ومدركـــة بالبصـــائر ، فـــلا بـــد مـــن نـــور خفـــى عـــن العيـــون ، ومـــدرك بالبصـــائر ، ليقـــاوم العلـــة ، فيخـــرج صـــاحب الشـــهوات مـــن الظلمـــات الـــى النـــور بـــاذن ربـــه ، وقـــد دلـــت التجـــارب العمليـــة للشـــيوخ العـــارفين بـــالله ، أن أســـماء الله الحســـنى لهـــا مـــن الانـــوار والخصـــائص والأســـرار مـــا يشـــفى صـــدور قـــوم مـــؤمنين ، تأسيســـا علـــى قولـــه تعـــالى ((فـــاذكرونى أذكـــركم)) وقولـــه تعـــالى ((ولله الأســـماء الحســـنى فـــادعوه بهـــا)) فـــاذا ذكـــرت ربـــك كشـــف عنـــك غطـــاء الغفلـــة فكنـــت ذاكـــرا مـــذكورا شـــاكرا مشـــكورا ((واشـــكروا لـــى ولا تكفـــرون)) وتوالـــت عليـــك النفحـــات وغمرتـــك البركـــات ، ومحيـــت عنـــك الســـيئات ، وعظـــم لـــك الأجـــر ((. . والـــذاكرين الله كثيـــرا والـــذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما)) .

ولا تـــنس أن الله تعـــالى عـــرف أولـــى الألبـــاب بـــأنهم ((الـــذين يـــذكرون الله قيامـــا وقعـــودا وعلـــى جنـــوبهم ويتفكـــرون فـــى خلـــق الســـموات والأرض ربنـــا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار)) .

وقـــد قـــال العــــارفون ان رزق الظـــاهر بحركـــات الأجســـام ، ورزق البـــاطن بحركـــات القلـــوب وقـــد بـــين القـــرآن الكـــريم ان الـــذكر عـــلاج لاضـــطراب القلـــوب ، وســـبيل لاطمئنانهـــا ، فقـــال تعـــالى ((الـــذين آمنـــوا وتطمـــئن قلـــوبهم بـــذكر الله الابـــذكرالله تطمـــئن القلـــوب)) وكـــل مـــا يـــذكرك بربـــك يـــدخل فـــى نطـــاق الـــذكر ، ويخرجـــك مـــن دائـــرة الغفلـــة ، لأن المقصـــود مـــن الـــذكر دوام حضـــور القلـــب مـــع الله تعـــالى ، فتأديـــة الصـــلوات ذكـــر ، والزكـــاة ذكـــر ، والصـــيام ذكـــر ، والحـــج ذكـــر ، والتفقـــه فـــى الـــدين بالقـــدر الضـــرورى أو أكثـــر ذكـــر ، والافتـــاء فـــى أحكـــام الله ذكـــر ، وقـــراءة القـــرآن الكـــريم ذكـــر ، والصـــلاة علـــى النبـــى صـــلى الله عليـــه وســـلم ذكـــر ، والأمـــر بـــالمعروف والنهـــى عـــن المنكـــر ذكـــر . . الخ . . الخ .

فالعبـــادات تتنـــوع والمـــذكور فيهـــا واحـــد ســـبحانه ، ومـــا شـــرع الله العبـــادات والطاعـــات الا لـــذكره ، واننـــا ان قلنـــا أن الشـــيوخ العـــارفين بـــالله يربـــون المريـــدين بطريـــق الـــذكر ، فـــلا نقصـــد انهـــم ينهـــون عـــن غيـــره مـــن الطاعـــات ، انمـــا نقصـــد أنهـــم يزكـــون الأرواح فـــى جنـــب الله تعـــالى مـــن طريـــق الاكثـــار مـــن ذكـــر الله تعـــالى جماعـــات وفـــرادى بأســـمائه الحســـنى ، وذلـــك الـــى جانـــب العبـــادات الشـــرعية ، المفروضـــة منهـــا والمســـنونة والمندوبـــه ، لأنهـــا الأســـاس المتـــين الـــذى تبنـــى عليـــه الكمالات التربوية الروحية .

ولا شـــك أن ذاكـــر الله علـــى الـــنهج الصـــوفى . كمـــا دلـــت التجـــارب العمليـــة الصـــحيحة . يـــذوق مـــن حـــلاوة العبـــادات والطاعـــات مـــالا يذوقـــه المـــؤمن العـــادى الـــذى يغفـــل عـــن الله فـــى أغلـــب أوقاتـــه ، كمـــا أن الـــذاكر يتـــدبر مـــن معـــانى القـــرآن الكـــريم والســـنة الشـــريفة مـــالا يتـــدبره غيـــره ، والســـادة الصـــوفية يعـــودون المريـــدين أولا علـــى ذكـــر اللســـان ، اى يـــرقيهم مـــع المـــوالاة مـــن ذكـــر القلـــب تكلفـــا الـــى الـــذكر طبعـــا ، ثـــم الـــى ذكـــر الســـر ، وعلامـــة هـــذا الأخيـــر أنـــك اذا تركـــت الـــذكر فانـــه لا يتركـــك بـــل يـــردك مـــن الغيبـــة الـــى الحضـــور ويقـــول ســـيدى ابـــن عطـــاء الله الســـكندرى رضـــى الله عنـــه : (مـــن علاماتـــه انـــه لاتخمـــد نيرانـــه ، ولا تـــذهب أنـــواره) ، وأذكـــر فـــى ذلـــك قـــول أســـتاذى العـــارف بالله سيدى الشيخ على عقل فى الهامه الفورى الذى نقلناه عنه :

اذا قيل لى اطلب قلت ربى مطلبى وان قيل لى اشرب قلت نواره كأسى
سلونى عن العشاق قد ذقت حبهم وانى لهم رأس اذا كان من رأس
حسبت الهوى سهلا فخضت عبابه فطورا به أطفو وطورا به غطسى
الى أن أنتنى من لدنه عناية وصلت بها بر السلامة والانس

وانما نجح السادة الصوفية فى تربية مريدية ، لأنهم برعوا فى علم النفس ، فوصفوا العلاج عن خبرة تربوية لا يدانيهم فيها أحد حتى المتخصصون فى علم النفس ، لأنهم علموا وعملوا ، وطبقوا علمهم أول ما طبقوه على أنفسهم ، ومن عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ، أما غيرهم فعلموا ولم يعملوا ، وشتان بين من ذاق ومن لم يذق : ويقول الامام الغزالى رضى الله عنه : فرق بين أن يعلم الانسان حد الصحة والشبع وبين أن يكون صحيحا وشبعانا .

والشيخ العارف يعاون المريد السالك على مقاومة هواه ، ومغالبة نفسه ، لأن النفس فى أول مراتبها تكون أمارة بالسوء أى كثيرة الأوامر التى ترضى طبيعتها البدنية ، وشهواتها الحسية ، فينير لها الذكر سبيل التبصرة كما ينير السراج غرفة مظلمة ، فترقى من الأمارة الى اللوامة . فتندم عند وقوع الذنب ، وتود اصلاح حالها مع ربها ، ولا ترضى أن تكون فى غفلة عنه ، ولا عاصية له ، فتتوب وتثوب الى رشدها ، فاذا جد صاحبها فى سلوكه ، وتابع ارشاد شيخه ، وهم فى دكر ربه ، أمحت من قلبه الذكر ظلمات الغفلة والمعاصى شيئا فشيئا ، وتخلت نفسه عن الرزائل وتحلت بالفضائل ، فتلقت أنوار الحق ، فأطمأنت الى ربها ، وسكنت اليه فرضى عنها وأرضاها .

وقد خلد الله الصحابة الكرام ، رضوان الله عليهم ، فى القرآن الكريم لتعلق قلوبهم بالله تعالى ، حبا فيه ، وايثارا له سبحانه فى مثل قوله تعالى ((واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه)) وقوله تعالى ((فى بيوت اذن الله ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والأصال رجال لا تليهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة

وايتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب)) .

وقد جاء فى مناقب سيدى أبى فروة الصحابى ، رضى الله عنه ، أنه سار ميلا لم يذكر الله تعالى فيه ، فرجع حتى سار فيه ذاكرا لله تعالى ، فلما بلغ منتهاه قال : اللهم لا تنس أبا فروة ، فان أبا فروة ليس ينساك .

ومن حكم السادة الصوفية قولهم : خلق الله القلوب مساكن للذكر ، فصارت مساكن شهوات ، ولا يمحو الشهوات من القلوب الا خوف مزعج ، أو شوق مقلق ، وقولهم : وحشة العباد عن الحق أوحشت منهم القلوب ، ولو أنسوا بربهم ولزموا الحق ، لاستأنس بهم كل أحد ، وقولهم : هى أربع لا غير ، عينك ولسانك وقلبك وهواك ، فانظر عينك ، لا تنظر بها الى مالا يحل لك ، وانظر لسانك ، لاتقل به شيئا ، يعلم الله خلافه من قلبك ، وانظر قلبك ، لا يكن فيه غل ولا حقد لأحد من المسلمين ، وانظر هواك ، فقاومه رضاه لربك ، فاذا لم تكن فيك هذه الأربع الخصال فقد شقيت .

وبان لنا مما تقدم أن ذكر الله تعالى يرفع العبد المؤمن من أرض الشهوات الى سماء المعرفة ، وهذا ما أشار اليه سيدى الشيخ لتلميذه فى قوله : ففى الأسماء العلو الى السماء ، أما قوله ، رضى الله عنه ، بعد ذلك : قلبك مع ربك ، وربك معك ، فليس بعيدا عنك ، يقربك اليه ويعرفك به ، فانما يذكره بمعنى ما جاء فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى يسنده عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : قال الله تعالى : أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه اذا ذكرنى ، فان ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وان ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه .

وبعد العبد من ربه ، وقربه منه ، ليس بعد مسافة ، أو أقربها ، وانما يكون البعد بغفلة القلب عن الله ، والقرب بحضور القلب مع الله ، فالبعد هو الحجاب : والقرب هو كشف الحجاب ، والحجاب ظلمة ، والكشف نور ، والظلمة جهل ، والنور معرفة ، وعلى قدر معرفة المؤمن بربه يكون اتصاله به ، وليس ذلك الاتصال ذات فى ذات ، تعالى الله عن ذلك علوا

كبيرا ، وانما اتصال ايمان به سبحانه ، ويقين فيه ، ومحبة له ، واعتماد عليه ، وركون اليه ، وحضور معه ، وطلب لرضاه ، وايثاره على ما سواه ، سبحانه لا اله الا هو الحى القيوم))

ويقول السادة الصوفية : علامات الوصول الى الله ثلاث : الفهم عن الله تعالى ، والاستماع من الله ، والأخذ عن الله ، وعلامات صحة محبة العبد ربه ثلاث : عدم الاختيار ، واستحلاء كل واقع من الأقدار ، ورؤية كمال المحبوب فى كل شىء ، فيرضى عنه بكل شىء ، ويسلم له فى كل شىء ، ويشترط السادة الصوفية أن يحفظ العبد آداب الشريعة ، دقيقها وجليلها ، اذا علمها ، ويسأل عن كل حالة لا يعلمها ، والا كان خائنا فى شرع الله ، ومن كان خائنا فى الآداب الشرعيى ، أحرى أن يخون فى الأسرار الالهية ، والله تعالى لا يهب أسراره الا للامناء .

وقد جرت العادة عند السادة الصوفية ، على اختلاف طرقهم ، أن تبدأ تربية المريد فيلقن لا اله الا الله ثلاث مرات ثم يشهد فى الثالثة أن سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما جرت العادة أن يبدأ المريد فى ذكر الأسماء الحسنى بلا اله الا الله لما عنه من الخصائص والأسرار

ويقول سيدى ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه فى شأن تلك الكلمة العظيمة ، التى سماها الله كلمة التقوى ما خلاصته :

((هذه الكلمة لما كانت أفضل الذكر فزعه الولى والعدو عند المحنة ، ففرعون لما قرب من الغرق قال آمنت انه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل ، أى لا اله يقدر على أن يجعل النار راحة كما فى حق الخليل ، والماء عذبا كما فى حقه ، الا الذى آمنت به بنو اسرائيل ، ويونس عليه السلام قال تعالى فى شأنه ((فنادى فى الظلمات أن لا اله الا أنت)) أى فانك أنت الذى تقدر على حفظ الانسان حيا فى بطن الحوت ولا قدرة لغيرك على ذلك ، فقبل الله نداء يونس ، ولم يقبل نداء فرعون ، لأن يونس عليه السلام سبقت له المعرفة وقال تعالى ((فلولا انه كان من المسبحين للبث فى بطنه الى يوم يبعثون)) وفى هذا تنبيه على أن من حفظ الله فى الخلوات ، حفظه فى الفلوات ، ويونس عليه السلام قال هذه الكلمة مع

الحضور والشهود والانكسار ، فقال لا اله الا أنت وفرعون قالها فى الغيبة فقال لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل ، وفرعون سبق له الكفر ، وما ذكرها عبودية ، بل لطلب الخلاص من الغرق لقوله تعالى ((حتى اذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل)) وهو كلام نفيس فليتدبره المريدون السالكون فى شتى الطرق الصوفية .

ويقول سيدى أبو سعيد الخراز ، رضى الله عنه ، اذا أراد الله أن يوالى عبدا من عبيده فتح عليه باب ذكره ، فاذا استلذ الذكر فتح عليه باب القرب ، ثم رفعه الى مجالس الأنس ، ثم جعله على كرسى التوحيد ، ثم رفع عنه الحجاب وأدخله دار الفردانية ، وكشف له حجاب الجلال والعظمة ، واذا وقع بصره على الجلال والعظمة بقى بلا هو ، فحينئذ يصبر العبد زمنا فانيا ، فوقع فى حفظه ، وبرىء من دعاوى نفسه .

أقول والناظر فى الكتاب والسنة يرى انهما حضا على الذكر ، بل والذكر الكثير باللسان وبالقلب ، وذكر اللسان موصل حتما الى ذكر القلب ، والمعول على ذكر القلب ، ويقول سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه ، الذرة من أعمال القلوب ، تعدل أمثال الجبال من أعمال الجوارح وليحذر المريدون من دسائس الشيطان فقد يصده عن ذكر الله ، بوسوسة خبيثة فيلقى فى صدره ، انك تذكر بلسانك وليس فى قلبك حضور ، فما فائدة هذا الذكر ، ان هذا الذكر وجوده كعدمه ، لا فائدة منه ، ولا ثمرة له ، فأرح نفسك منه ، وليعلم المريدون أن الغفلة عن الذكر ، شر من الغفلة فيه ، واذا أراد المريد أن يكسب الحضور ، فليجالس شيخه أو اخوانه المجدين ، الذين يؤنس بهم فى طريق الله ، فان الأرواح يسقى بعضها بعضا ، كما سمعت ذلك من سيدى الشيخ ، ووجدت صحته بالتجربة العملية التى دلتنى على أن الغفلة تكون مع أهل الغفلة ، والحضور يكون مع أهل الحضور .

وللذكر عند السادة الصوفية آداب كثيرة من أهمها أن يكون الذاكر متوضئا ومستقبلا القبلة وملاحظا أن الله تعالى يراه ، فيستحضر عظمته

وجلاله سبحانه ، ، ويستغفره ويتوب اليه من عصيانه والتقصير فى طاعته ، ويستحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويستحضر شيخه المربى له ، لأن شيخه بابه الى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بابه الى الله وقد قال تعالى ((يا أيها الذين أمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين)) وقدجعل الله لكل شىء سببا ، وذلك الاستحضار مما يعين المريد على ترك الشواغل الدنيوية وقت الذكر ، ويتكلف ذلك بالمجاهدات ، ثم يصير التفرغ للذكر البحث عادة يسعده الله بها من عونه وعطائه ((والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين)) وأكل الحلال ورد المظالم لأهلها والكف عن الغيبة ، واجتناب الحسد ، والفقه الضرورى لتصحيح العبادات والمعاملات من الأسس المؤكدة فى صلاح السلوك عند السادة الصوفية .

ويقول السادة الصوفية ان الشيخ الداعى الى الله ، أو المرشد النائب عنه يجب أن يتوافر له ذوق صريح ، وعلم صحيح ، وهمة عالية ، وبصيرة نافذة ، كما يتوافر له التواضع ، وحسن الخلق ، والشفقة على خلق الله ، والانكسار مع الله ، ومجانبة الدعوى ، وعدم المبالاة باقبال الناس ، أو ادبارهم عنه ، وتحمل الأذى فى سبيل الله ، وعدم الشكوى من ضيق العيش ، أو وقوع البلاء ، وقالوا انه ليس من لوازمه الكرامات ولا الاخبار بالغيب ، كما قالوا انه ليس من لوازمه أن يكون معصوما من الذنوب ، لأن العصمة واجبة فى حق الأنبياء والمرسلين ، وليست واجبة فى حق الأولياء ، لأن الأولياء يحفظون من الوقوع فى الذنوب بحفظ الله الذى يرعاهم ويتولاهم ، فان وقعوا فى الذنب . أسرعوا بالاستغفار والتوبة ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون .

والداعى الى الله ميسرا لما خلقه من ارشاد تابعيه فى السلوك ، لذلك نهش القلوب لكلامه ، وتنفذ نصائحه فيها ، نفاذ الضوء فى الغرفة المظلمة ويكون التوفيق حليفه فيما يوجه اليه ويشير به ، وكان امامنا مالك بن أنس رضى الله عنه يقول : ليس العلم بكثرة الرواية وانما هو نور يقذفه الله فى القلوب ، كما كان يقول الادب أدب الله ، هذه ابنتى وهذا

ابنـــى ، لأن ابنتـــه المباركـــة فاطمـــة ((وكـــان يقـــال لهـــا أم البنـــين)) كانـــت تســـتمع مـــن وراء البـــاب لـــرواة الحـــديث مـــن تلاميـــذ أبيهـــا فـــاذا ســـمعت خطـــأ طرقـــت البـــاب تنبيهـــا علـــى الخطـــأ ، فكـــان الامـــام يطلـــب الـــى الـــراوى التصـــحيح ويقـــول لـــه : ان فاطمـــة تـــدق البـــاب ، وكانـــت رضـــى الله عنهـــا تحفـــظ الموطـــأ وترويـــه روايـــة صـــحيحة وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

والـــداعى الـــى الله لـــه قـــدم صـــدق عنـــد الله ، لآنـــه تعـــالى هـــو الـــذى اختـــاره وجعلـــه امامـــا للمتقـــين ((ومـــن أحســـن قـــولا ممـــن دعـــا الـــى الله وعمـــل صـــالحا وقـــال اننـــى مـــن المســـلمين)) وبســـر لـــه ســـبيل الـــدعوة الـــى الله بالحكمـــة والموعظـــة الحســـنة وآتـــاه شـــرف النيابـــة عـــن مولانـــا رســـول الله صـــلى الله عليـــه وســـلم ، فوجبـــت طاعتـــه علـــى تابعيـــه ، لأنـــه انمـــا يـــدعوهم الـــى الله باذنـــه ((وجعلنـــا مـــنهم أئمـــة يهـــدون بأمرنـــا لمـــا صـــبروا وكـــانوا بآياتنـــا يوقنـــون)) وقـــد ضـــرب لنـــا ســـيدنا موســـى عليـــه الســـلام أروع مثـــل فـــى هـــذا الســـبيل ، فمـــع أنـــه مـــن المرســـلين أولـــى العـــزم ، وصـــاحب التـــوراة ، التـــى جمـــع الله لـــه فيهـــا موعظـــة وتفصـــيلا لكـــل شـــىء ، فقـــد ســـعى ســـعيا حثيثـــا للالتقـــاء بالخضـــر عليـــه الســـلام حـــين أعلمـــه الله انـــه أوتـــى رحمـــة وعلمـــا مـــن عنـــد الله ، وقـــال لـــه فـــى تواضـــع جميـــل ((هـــل أتبعـــك علـــى أن تعلمـــن ممـــا علمـــت رشـــدا)) فكـــان الجـــواب ((انـــك لـــن تســـتطيع معـــى صـــبرا)) مـــع بيـــان عـــذره فـــى عـــدم الصـــبر ((فكيـــف تصـــبر علـــى مـــا لـــم تحـــط بـــه خبـــرا)) فقـــال ســـيدنا موســـى عليـــه الســـلام ((ســـتجدنى ان شـــاء الله صـــابرا ولا أعصـــى لـــك أمـــرا)) فشـــارطه ســـيدنا الخضـــر عليـــه الســـلام قـــائلا ((فـــان اتبعتنـــى فـــلا تســـألنى عـــن شـــىء حتـــى أحـــدث لـــك منـــه ذكـــرا)) وبقيـــة القصـــة معروفـــة كمـــا وردت فى سورة الكهف .

وقـــد علمنـــا ســـيدنا موســـى عليـــه الســـلام آدابـــا عاليـــة فـــى قصـــته هـــذه ، أولهـــا أن الالتقـــاء بالصـــالحين مـــن عبـــاد الله غنيمـــة ، لا يجـــوز أن يزهـــد فيهـــا مـــؤمن يحـــذر الآخـــرة ويرجـــوا رحمـــة ربـــه ، وأن الاسترشـــاد بهـــم واجـــب ، وأن طـــاعتهم واجبـــة كـــذلك ، وأنـــه يجـــب تـــرك جـــدالهم فيمـــا علـــم لنـــا بأســـراره ، وكشـــف القصـــة فـــوق ذلـــك كلـــه الـــى وجـــوب الصـــبر علـــى صـــحبتهم الـــى نهايـــة الشـــوط ، تحصـــيلا لمـــا عنـــدهم مـــن الـــدقائق ، والرقـــائق والحقـــائق ، كمـــا لا يجـــوز

أن يتـــدلل تلميـــذ بعلمـــه علـــى شـــيخه أو أســـتاذه ، فللأبـــرار أســـرار لا يعلمهـــا الا الله تعـــالى ، والمفـــروض أن يحســـن المريـــد اختيـــار شـــيخه ، والمفـــروض الا يـــأمره الشيخ بمعصية الله اذ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

ولهـــذا يجـــب علـــى المريـــد أن يـــدقق فـــى اختيـــار شـــيخه أو مرشـــده ، ويقيســـه بمقيـــاس الشـــرع الشـــريف ، ويســـأل الله فـــى ســـره وجهـــره أن يوفقـــه فـــى حســـن اختيـــاره ، لأنـــه ســـيتلقى عنـــه أعـــز مـــا يتلقـــاه تلميـــذ عـــن أســـتاذه ، ولا أعـــز مـــن معرفـــة الله جـــل وعـــلا ، ولا يصـــل العبـــد الـــى معرفـــة ربـــه الا بعـــد تطهيـــر قلبـــه مـــن أمراضـــه الخفيـــة،وعلاجما يخفـــى أشـــق وأصـــعب مـــن عـــلاج مـــا يظهـــر، ويقـــول شـــيخى العـــارف بـــالله ســـيدى الشـــيخ علـــى عقـــل رضـــى الله عنـــه ، فـــى ضرورة اتخاذ الشيخ المرشد فى الهامه الفورى الذى نلقناه عنه :

وعندى أن الامر ليس كما ترى
فلا بد من سوق القلوب لمن يدرى
اذا لك يكن للنفس شيخ له هدى
يؤديها بالروح زاغت عن السير
ولا يعبر البحر الخضم ونوأه
سوى ماهر يدرى الملاحة فى البحر
ولولا اتصال الكهرباء بأصلها
على موجة التيار ما نورها يسرى

ويقـــول ســـيدى الشـــيخ عبـــد الســـلام فـــى ختـــام عبارتـــه ، ومـــن عـــرف الله عـــرف الحكمـــة ، والحكمـــة هـــى العلـــم النـــافع ، والعلـــم النـــافع نـــور يقذفـــه الله فـــى القلـــوب ، فـــلا بـــد مـــن اعـــداد القلـــوب وتطهيرهـــا بالطاعـــات حتـــى تصـــير أهـــلا لتلقـــى الـــواردات ((يـــؤتى الحكمـــة مـــن يشـــاء ومـــن يـــؤت الحكمـــة فقـــد أوتـــى خيـــرا كثيـــرا ومـــا يـــذكر الا أولـــو الألبـــاب)) ثـــم يحـــذرنا ســـيدى الشـــيخ مـــن ســـلوك طريـــق غيـــر طريـــق الله ، لأن ذلـــك يجـــر الـــى الشـــكوك والعيـــاذ بـــالله ، ولـــيس وراء الشـــكوك الا الحـــلال عـــرا الايمـــان ، نجانـــا الله مـــن ذلـــك ، وأماتنـــا علـــى مـــا يحـــب ويرضى لنا من الاعتقاد واليقين .

ويسترعى سيدى الشيخ انتباهنا الى قوله تعالى ((انا لا نضيع أجر من أحسن عملا)) ويقول السادة الصوفية ناصحين لنا : من أراد التواضع فليوجه نفسه ال عظمة الله ، فانها تذوب وتصفو ، ومن نظر الى سلطان الله ذهب سلطان نفسه ، لأن النفوس كلها فقيرة عند هيبته .

وأخيرا يقول سيدى ذو النون المصرى ((المتوفى ٢٤٥هـ)) ((من علامات المحب لله متابعة حبيب الله فى أخلاقه وأفعاله وأمره وسننه)) جعلنا الله ممن يقتدرون به صلوات الله وسلامه عليه وآله فى كل ذلك فقد قال تعالى ((لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا)) كما قال تعالى ((وان تطيعوه تهتدوا)) .

فهرس الكتاب

مقدمة ١

تفويض الأمور لله تعالى والرضا بقضائه ٣

تربية النفس فى جنب الله ٧

الذكر – الشكر – الرضا – العلم بالله ١٤

الصوفي جسمه بين الخلق يسعى وقلبه فى الملكوت يرعى . . . ٢٢

القرب من الله قرب مكانة لأقرب مكان – الصوفية ينفون الحلول والاتحاد . ٢٩

الصلة الروحية بين التلميذ وشيخه عند الصوفية ٣٥

الخوف والرجاء عند الصوفية ٤١

فضل مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومدده ٤٧

فضل السادة آل البيت الكرام والتبرك بهم ٥٦

اتخاذ الأسباب لا ينافى التفويض لله تعالى ٦١

الحج والزيارة ٧٠

هوى النفس وضرره ٧٧

الروح فى اتصالها بالله تعالى ٨٣

مكارم الأخلاق عند الصوفية ٩١

الامتثال لأمر الله تعالى والاستسلام لقهره ١٠١

التواضع لله تعالى ١٠٨

أثر اتصال المريد بشيخه ١٠٩

حب الله تعالى وحمده ١٢٧

اجتماع المريد بشيخه وأثره فى التربية الروحية ١٣٨

صفات الشيوخ المربيين ١٤٩

الصوفية فى مواقف النصيحة للأمراء ١٦٠

التوكل عند الصوفية ١٧٠

سماحة الخلق والتماس العذر عند الصوفية ١٨٣

لا سلبية فى التصوف ١٩٥

الدين الحى هو ما صبته الصوفية حارا فى النفس الانسانية . . . ٢٠٧

الاستعانة بأهل اليقين عند الصوفية ٢١٥

أثر اجتماع الأشباح فى الأرواح ٢٢٦
الحج ٢٣١
تحية الروح ٢٣٩
التوكل على الله ٢٤٨
أثر الشيخ فى التربية ٢٥٦
الصبر فى طب الله ٢٦٥
صحبة الشيخ المربى ٢٧٧
رقائق الصوفية فى التوحيد ٢٨٧
التوحيد الخالص ٣٩٦
حج الصادقين ٣٠٦
تعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم ٣١٦
زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم ٣٣٠
ذكر الله وآثره فى التربية الروحية ٣٤٤